طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها

خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)

عبد القادر العافية
أستاذ بكلية الشريعة بفاس

1402 هـ
1982 م

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها

خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)

عبد القادر العافية
أستاذ بكلية الشريعة بفاس

1402 هـ
1982 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا
محمد خاتم الأنبياء والمرسلين
وعلى آله وصحابته أجمعين

تـــصـــديـــر

وبعد فإن كتاب (الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها. خلال القرن العاشرالهجري - السادس عشر الميلادي -) الذي أعده لنيل دبلوم الدراسات العربية الإسلامية العليا من دار الحديث الحسنية بالرباط. الأستاذ عبد القادر العافية ليعد بحق من خيرة البحوث والدراسات القيمة النادرة التي اهتمت اهتماما بالغا بموضوع الحياة الفكريةفيفترة من تاريخ أمتنا العربية الإسلامية بالمغرب، وفي ناحية مهمة من هذا المغرب بالشمال على الخصوص، هي : إقليم شفشاون العزيز الذي تناوله الأستاذ الباحث العافيةبالدرس والتحقيق متحدثا عن حضارة جبال غمارة وما فيها من آثار عمرانية وتاريخية وجغرافية إلى جانب حديثه عن الأوضاع السياسية التي عاشتها مدينة شفشاون منذ نشأتها على عهد بني راشد الذين كانوا يحكمون المنطقة بكاملها، وبالاخص في الحقبة التي تولى فيها الحكم الأمير المحنك الشجاع علي بن راشد مؤسس ثغر شفشاون ومدنيتها التي يشهد بها القريب والبعيد والقاصي والداني على السواء هذه المدنية التي سيشهد القارىء الكريم في هذه الدراسة المتمكنة صورا واضحة المعالم عنها وعن وصفها ويلمس من خلالها آثار تلك الحضارة التي مرت بها عبر القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي - بما يقرأه عنها وهو يجول خلال سطور البحث من مواضيع قلما يجدها مكتملة أو متكاملة في غير هذا الكتاب الذي ربط

في إيجاز واختصار هذه الفترة من الماضي البعيد بالحاضر القريب ومزج بين الحاضر والماضي عبر مسار تاريخي قوي متماسك البناء لحقبة كانت من أحلك وأصعب الحقب التاريخية للمنطقة التي ضاعت جل حلقات رسوم تماسكها فعز وجودها بين الدارسين كما عزت مصادرها وتبددت في زحمة الهجمات الصليبية المتكررة على العالم الإسلامي قاطبة ومن ضمنه المغرب وبذلك تظهر أهمية العمل في هذا الكتاب الذي قسمه مؤلفه إلى ثلاث أقسام رئيسية.

قسم عن شفشاون وأحوازها. وآخر عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية فيها. وثالث عن الأعلام والشخصيات البارزة المنتمية إليها.

وحسبي في هذه العجالة أن أكون قد قدمت باسم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية وفي إطار ما تخرجه من كتب إحياء التراث الإسلامي بهذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي هذا العمل كهدية متواضعة أزفها إلىالباحثين والقراء الكرام على السواء بمناسبة الطلعة الغراء للقرن الخامس عشر الهجري على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام، راجيا من العلي القدير أن ينير السبيل بهذا العمل لكل راغب وطالب المزيد من التعرف على جهات من جهات وطنه العربي الإسلامي الكبير هنا وهناك.

وأن يديم النصر والتأييد لحامي التراث والدين أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني وأن يحفظه في ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد الأمير مولاى رشيد وباقي أفراد أسرته الكريمة إنه سميع مجيب آمين والحمد لله رب العالمين.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الهاشمي الفيلالي أمين

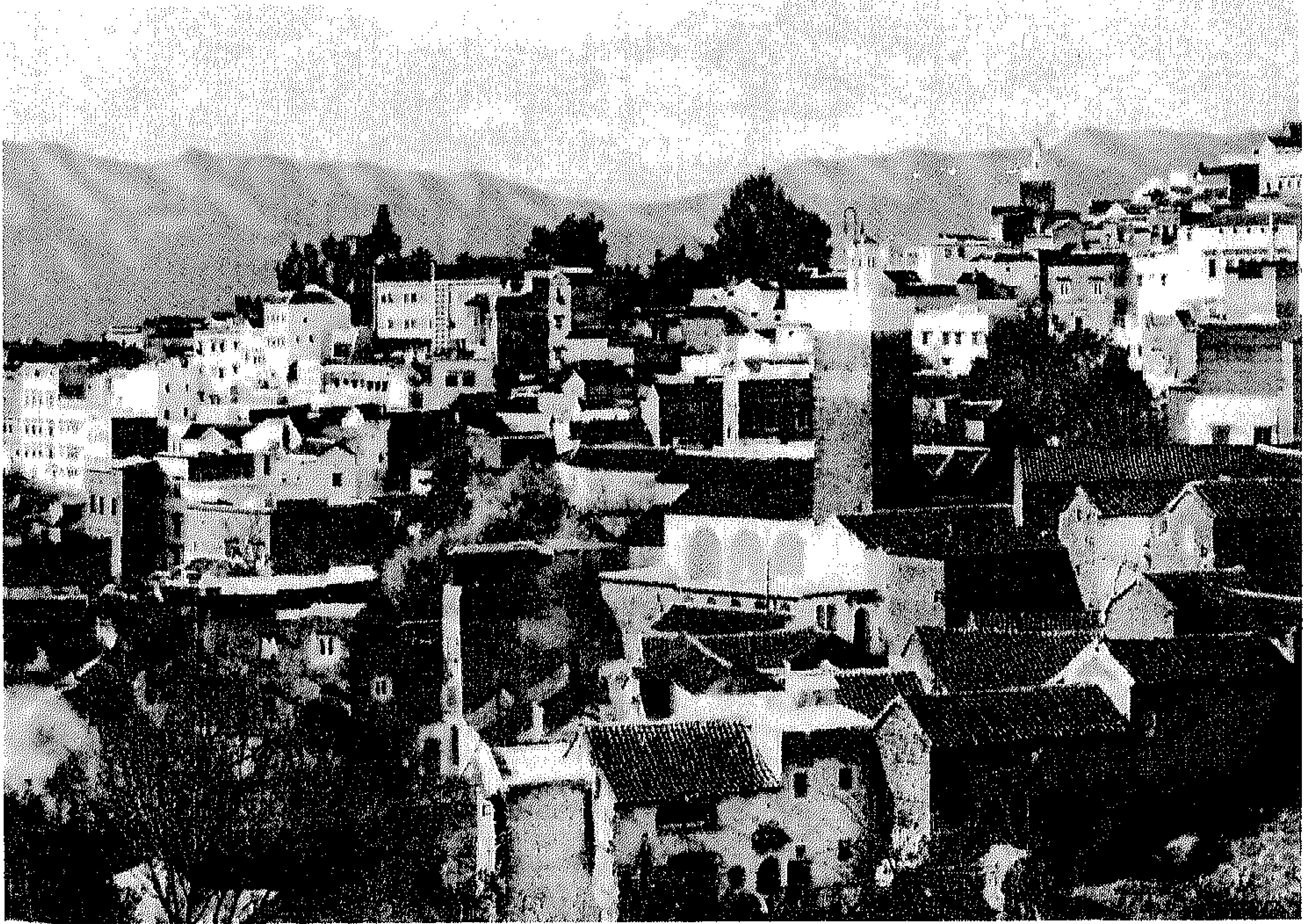
الإهْــداء

إلى ملهمتي و باعثة حب المعرفة في نفسي والدتي الحنون التي سهرت من أجل إسعادي، وإلى والدي الذي غذاني بأفكاره، وعلمني من تجار به.

إليهما أقدم هذا الجهد المتواضع

«وقل رب ارحمهما كما ر بياني صغيرا»

عبدالقادر العافية



تبدو في الصورة صومعة جامع حي الصبانين وبعض بلاطات الجامع، وجزء من الحي وتبدو من بعيد صومعة جامع الأندلس

منظر شفشاون من الجو سنة 1926



كتب تحت هذه الصورة بالإسبانية ما يلي :
«الشاون المدينة القديسة التي اتخذت كحصن لأهم الثوار المتطلعين بعد احتلال قواتنا لها» .
أي القوات الإسبانية سنة 1926م .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين

مقدمة

راودتني فكرة البحث في هذا الموضوع لاعتقادي أن تاريخنا الثقافي لا تكمل حلقاته إلا بأبحاث ودراسات جهوية تعمل على إبراز المظاهر الثقافية التي عرفتها كثير من أقاليمنا المغربية عبر تاريخنا الاسلامي الطويل.

وبما أن جبال المغرب عرفت حركات فكرية في مختلف العصور، وازدهر فيها النشاط الثقافي في فترات معينة، فمن الواجب العناية بتسجيل تلك المظاهر الثقافية لنصل الحاضر بالماضي، وبخاصة أن إهمال البحث عنها يعرضها للضياع الذي ينتج عنه جهل بمجهودات أبائنا وأسلافنا في الميدان الفكري.

ويعز على المثقف الباحث أن تضيع حلقات من تاريخنا الثقافي، ولذا فتتبع الحركات الفكرية في كل جهة من جهات بلادنا سيجعلنا نحصل على رصيد ثقافي هام، هو في الحقيقة والواقع تأكيد لعرى الروابط التي تربطنا بإخواننا في العروبة والإسلام.

هذا مع العلم أن الحوافز التي دفعت أسلافنا للعمل في الميدان الفكري، كانت حوافز منبعثة من صميم إيمانهم بالله، وبمبادىء دينهم

الحنيف، وبسبب ذلك تنافسوا في معرفة أسرار لغة القرآن الكريم، ولغة السنة النبوية الشريفة، ومعرفة الأحكام الشرعية، وما يساعد على ذلك من مختلف فروع العلم والمعرفة، وكانوا يرون أن كل ذلك يربطهم بإخوانهم في الدين، ويمتن صلتهم بدينهم الإسلامي الحنيف الذي هو أقدس شيء عندهم في الوجود.

حمل أسلافنا في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، الرسالة الفكرية بتفان وإخلاص، وعملوا على النهوض بها، والتبشير بمبادئها، وأعطوا من وقتهم وجهدهم واهتمامهم ما جعلهم يسجلون في الميدان الفكري آثارا تشهد لهم بقيمة الجهد المبذول.

عملوا على ذلك سواء كانوا في المدينة أو الجبل أو السهل أو الصحراء.

وإذا كانت عوامل الفتن والحروب والعمل في ميدان الجهاد لتحرير ما احتل من أجزاء البلاد، قد قلص من نشاط أجدادنا في بعض الفترات، فإنهم بالرغم من ذلك لم ينقطعوا عن العطاء الفكري، والبث الحضاري... لم ينقطعوا عن ذلك حتى في أحلك الظروف وأشد الأزمات... وليس هناك فترة من الفترات لم يسجل فيها أجدادنا حضورهم في ساحة الفكر والمعرفة.

فالحافز على هذا البحث في هذا الموضوع الصعب، هو إيماني بعراقة وأصالة ثقافتنا العربية الإسلامية، وإيماني بتغلغل حب الثقافة في أعماق هذا الشعب المسلم، سواء سكن الحواضر الآهلة بالسكان وبمظاهر الرقي والتحضر، أو سكن الجبال المرتفعة والأماكن النائية، إيماني بذلك جعلني أتحمل صعوبة هذا البحث ومشاقه... تلك الصعوبات التي تجلت في ندرة المصادر والوثائق، وفي صعوبة قراءة القليل الموجود منها من مخطوطات وتقاييد وكنانيش... عبث الزمن بها وبكثير من صفحاتها وحروفها.

وبالإضافة الى ندرة المصادر وصعوبة تناول الموجود منها، هناك صعوبة ثالثة تتمثل في أن المادة المكونة لهذا البحث تلتقط من

مصادر ومظان لا تمت الى الموضوع بصلة، ككتب النوازل، والفتاوى الفقهية، وكاستطرادات كتب الفقه، والمعلقين والمحشين عليها، وكتب التراجم، وسير الصالحين، وفهارس الشيوخ، والتقاييد الشخصية للأفراد والأسر.

ولولا أصراري على المضي في هذا العمل ليئست من الخوض فيه، خاصة وأن بعض الباحثين ممن تقدمني مثل الأستاذ داود مؤرخ تطوان ـ حفظه الله ـ الذي عانى من البحث في تاريخه لتطوان القريبة من شفشاون يقول عن هذه الفترة ـ أي فترة القرن العاشر الهجري ـ يقول بالحرف الواحد :

«هذا فصل لا نستطيع أن نكتب فيه سوى كلمة مختصرة فقط، لأننا لم نجد من المستندات والمعلومات ما يسمح لنا بالإفاضة في القول» (1) ويقول بعد ذلك «هذه المدينة ـ أي تطوان ـ لم تكن في القرن العاشر وما بعده دار علم وأدب» (2).

كادت مثل هذه العوائق أن تحول بيني وبين المضي في هذا البحث، وجعلتني أتردد كثيرا في الاستمرار فيه، إلا أنني عندما عرضت مشروع هذا البحث على بعض أساتذتي شجعني على المضي فيه، وألح علي بضرورة إنجازه، وله الفضل والشكر.

ومع ذلك أشعر أني تناولت أصعب الفترات، لأن فترة القرن العاشر (هـ) بشفشاون وأحوازها ضاعت جل مصادرها، في حين أنني لو تناولت مثلا القرن الحادي عشر، وبالأحرى الثاني عشر، لوجدت المادة غزيرة والمصادر متوفرة... لكنني آثرت البداية بهذه الفترة، لأنها تصادف وجود امارة بني راشد بشفشاون، أي تصادف بداية شهرة هذه المدينة، وبتناولي هذه الفترة أكون قد حاولت قدر المستطاع التمهيد لمن يريد البحث عن الفترات التالية.

---

1) القسم الأول من المجلد الأول ص 165.

2) القسم الأول من المجلد الأول ص 167.

منطقة شفشاون

الوصف الطبيعي

مدخل تاريخي عن منطقة شفشاون

منطقة شفشاون هي اقليم من أقاليم الشمال الغربي لجبال الريف بالمغرب الأقصى، وهذا الإقليم يتسم بالسمات الجبلية ذات التضاريس الوعرة، والانحدارات المفاجئة والأودية المنخفضة، والانكسارات الحادة...

تغطي الغابة والأحراش والنباتات الطبيعية معظم أجزاء هذا الإقليم وتتسم هذه المنطقة بصفة عامة بكثرة الصخور وبالمظهر الغبوي الجميل والجبلي الصعب.

صخورها من النوع الجيري مع فقر في التربة، إلا أن المنطقة تتعرض لأمطار غزيرة، ولذلك توجد بها أشجار عالية، وبخاصة في المرتفعات والقمم. والمعدل العام للأمطار بهذه الجهات لا يقل عن 700 ملم في السنة ويتجاوز 800 ملم في كثير من السنين.

وتغطي الثلوج في فصل الشتاء القمم والمرتفعات والسفوح العالية. وتغطي في بعض السنين سقوف منازل مدينة شفشاون.. والقرى المجاورة لها. تتأخر أحيانا الثلوج في بعض القمم والمرتفعات الى أواخر فصل الربيع.

وبفضل تهاطل الأمطار الغزيرة واحتفاظ القمم بالثلوج، وجدت بالمنطقة عدة أنهار، ومسيلات، وخنادق. إلا أن معظم أنهار هذه المنطقة موسمي، وهي أنهار قصيرة شديدة الانحدار، ومنها ما هو دائم الجريان. واتجاه الأنهار بصفة عامة هو نحو البحر المتوسط في حين يتجه بعضها جنوبا ليغذي نهر ورغة أهم رافد لنهر سبو الذي يصب في المحيط عند المهدية. وتتجمع بعض المسيلات الجنوبية بهذه المنطقة لتكون نهرين : أحدهما يسمى (وادي لو) ويصب في المتوسط على نحو 30 كلم شرق نهر مرتيل، ويصب النهر الثاني في المحيط قرب العرائش، ويسمى بنهر (لكوس)، وعلى نهر (وادي لو) السالف الذكر، يقوم المولد الكهربائي المعروف (بسد تلمبوط) الذي يمد المنطقة الشمالية بالتيار الكهربائي (3).

تتأثر هذه المنطقة بالرياح التي تهب عليها من المحيط الأطلسي والتي تكون في فصل الشتاء محملة بالأمطار، وتهب عليها أحيانا رياح الشرقي التي تكون قاسية ومدمرة.

---

3) منذ بداية الحماية وهذا السد يمد المنطقة الشمالية بالتيار الكهربائي بما في ذلك مدينة سبتة المحتلة، ومنطقة طنجة التي كانت لها وضعية خاصة أي (الحماية الدولية) ابان الحماية الأجنبية على المغرب من سنة (1912 ـ 1956).

والمنطقة خاضعة لمناخ البحر المتوسط، وهي في مجموعها قريبة منه، ومدينة شفشاون الجبلية قلب هذه المنطقة، لا تبتعد عن المتوسط (جنوبا) إلا بنحو 35 كلم، ومع ذلك فإن الجبال المرتفعة تفصلها عن مؤثرات البحر، الشيء الذي يجعل شفشاون وضواحيها تتسم بمميزات المناخ القارى البعيد عن رطوبة البحار، وترتفع قمم الجبال المحيطة بشفشاون ما بين ألف وألفي متر عن سطح البحر، ويبلغ ارتفاع قمة جبل (تيسوكا) المشرف على المدينة من الناحية الشرقية بـ 2.122 م عن سطح البحر، ويبلغ أعلى ارتفاع جبل القلعة المطل على المدينة من جهة الشمال (1616 م).

أما المرتفعات الجنوبية الغربية التي تبدو من شفشاون فهي جبال (بني جبارة) (4) التي ترتفع بعض قممها أكثر من 1500 م عن سطح البحر : كجبل المنصورة البالغ علوه 1523 م وجبل السكان البالغ ارتفاعه 1603 م.

وهذا الوضع جعل الأجزاء المرتفعة من هذه المنطقة تخضع لأحوال المناخ الجبلي البارد شتاء، والمعتدل صيفا، في حين أن الأجزاء المنخفضة أو المتوسطة الارتفاع تخضع للمناخ القاري.

فبالنسبة لمدينة شفشاون مثلا الواقعة على سفح جبل تيسملال والتي ترتفع عن سطح البحر بأكثر من 600م، فالقارية بها واضحة جدا حيث ترتفع الحرارة في فصل الصيف بأكثر من

---

4) بني جبارة فرقة من الأخماس السفلى (وإليها تنتسب أسرة الجباريين) العمرانيين الموجودين حاليا بالقصر الكبير، والعرائش.

اربعين درجة مئوية في بعض الاحيان، وتنزل الى ما دون الصفر أحيانا أخرى في فصل الشتاء. هذه الفوارق الشاسعة نتيجة للقارية التي تتسم بها المناطق المنخفضة من هذا الإقليم. وجبال هذه المنطقة تحتفظ بنسبة هامة من المياه الغزيرة، والشديدة البرودة. ويتمثل ذلك في الينابيع المتدفقة بكل من «الشرفات».. (5) وشفشاون، ووسلاف ببني زجل (6) وغيرها من أماكن هذه المنطقة...

أما النباتات الطبيعية لهذا الإقليم. فتتمثل في أشجار الشوح والصنوبر. والأرز التي تنبت بالمرتفعات العالية. بينما تنتشر أشجار الفلين والبلوط والعرعار في السفوح والأودية.

وهذه النباتات الطبيعية لها أهميتها من الناحية الاقتصادية فبفضل غابات هذه المنطقة قامت الصناعات الخشبية التقليدية المحلية. كما قامت عليها الصناعات الخشبية العصرية.

أما المزروعات فتتمثل في الذرة والقمح والشعير والفول... وتكثر في جهات من هذا الإقليم أشجار التين والزيتون والعنب وبخاصة في المناطق البعيدة نسبيا عن البحر كقبائل الأخماس. واغصاوة. وبني أحمد وارهونة. وناحية وزان. فكل هذه المناطق مشهورة بالتين والزيتون والعنب.

---

5) الشرفات قرية من فرقة بين فلواط من قبيلة الأخماس العليا تبعد عن شفشاون بنحو أربعين كيلومترا.

6) وسلاف مدشر ببني زجل، وبني زجل هي إحدى قبائل غمارة المتاخمة لشفشاون.

وكانت جهات من هذه المنطقة موطنا لكثير من الحيوانات المتوحشة كالقردة والذئاب والخنازير...

ونجد كتاب القرن العاشر الهجري يتحدثون عن الأسد بهذه المنطقة (7).

وإبان الحماية الإسبانية تعرضت هذه الحيوانات للمطاردة والقنص والإبادة. وبخاصة القردة والخنازير من طرف هواة الصيد الإسبانيين.

أما الحيوانات الأليفة فتتمثل في الماعز بالدرجة الأولى لوجود الغابات الواسعة المنتشرة بالمنطقة (8) وبعد الماعز تأتي الأبقار والأغنام، والبغال والحمير... ويعتمد الجبليون في نقل المحصولات الزراعية ودرسها على البغال بصفة خاصة.

تقع المنطقة المتحدث عنها في صميم جبال غمارة. ومن المعلوم أن إقليم غمارة كان يشغل الجناح الغربي من سلسلة جبال الريف؛ حيث كان يمتد ما بين باديس شرقا، وطنجة غربا، أي ما بين نهر النكور من الناحية الشرقية. وبلاد الهبط من الناحية الغربية (9) ويمتد إقليم غمارة من الشمال الى الجنوب من

7) في ترجمة عائشة الإدريسية ص 19 ط فاس، وفي ترجمة علي بن عثمان الشاوي ص 28 نفس الطبعة. من دوحة الناشر لابن عسكر.

8) من الظواهر العادية والمتعارفة منذ القديم أن سكان هذه المنطقة يستعملون في اضاحيهم ذكور الماعز المخصية والسمنة ولا يبغون بها بديلا. وأشار إلى ذلك الحسن بن محمد الوزان الترجمة العربية ص 334 في كتابه (وصف افريقيا).

9) يلاحظ أن بعض الباحثين يخلطون بين الهبط وغمارة ويظنونهما شيئا واحدا أو متداخلين لكن الواقع أن بلاد الهبط تميزت منذ عدة قرون بهذا الاسم وهي تشمل إقليم طنجة وأصيلا والعرائش والقصر الكبير. وتشمل مثلا : الفحص، والغربية، السواحل، واهل سريف، وبني زكار، والخلط وبني يسف، وبني عروس، وعاصمة بلاد الهبط هي مدينة : (القصر الكبير).

سواحل البحر المتوسط إلى ما بعد قبائل بني زروال، وبني ورياكل (10) قرب فاس، والى ما بعد مصمودة (11) وبني مسارة بناحية وزان.

فإقليم غمارة قديما كان يشمل القبائل التي تقع غرب بادس، وقبائل الأخماس، واغصاوة، وبني أحمد، وبني زروال وبني حسان، وبني حزمر، وتطوان والحوز، وأنجرة، وبني يدر، ووادي رأس، وبني مصور، وجبل حبيب، حسبما يستفاد من الذين كتبوا عن هذه المنطقة : مثل البكري، وابن خلدون، وصاحب كتاب الاستبصار (12) أما غمارة في المصطلح الحالي فتقتصر على القبائل الآتية :

بني زجل، بني زيات، بني بوزرة، بني منصور، بني رزين، بني خالد، بني سميح، بني جرير، في حين أن القبائل المذكورة سالفا لم يعد يشملها لفظ غمارة الحالي وأصبحت تتميز بأسماء خاصة بها.

---

10) بني ورياكل تنطلق بالكاف المعقودة وهي شمال فاس وهذه غير بني ورياغل بالغين قبيلة بالريف قرب الحسيمة.

11) قبيلة مصمودة تقع جوار مدينة وزان وإليها ينتسب عدد من العلماء الكبار كالصرصري أبي الحسن، وعدد من العلماء المصموديين (انظر الدرة والجذوة).

12) البكري (ت 578 هـ) تحدث عن غمارة في الجزء المطبوع من كتابه (المسالك والممالك) ص 99 وما بعدها ـ ط باريز 1911 م وتاريخ ابن خلدون (العبر ج ـ 6 ـ : ص 200. وصاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ـ ص ـ 190 وما بعدها ـ ط الاسكندرية سنة 1958.

ولعلنا بهذه النبذة الجغرافية عن هذه المنطقة التي نحن بصدد التعرف على بعض معالمها السياسية والاجتماعية والثقافية خلال القرن العاشر الهجري نستطيع أن نرسم في أذهاننا إطارا واضحا لهذه الدراسة من شأنه أن يعيننا على فهم الأحداث وربط بعضها ببعض.

مدخـــل تاريخـــي
عن منطقة شفشاون

تقع هذه المنطقة قريبة من ساحل البحر المتوسط ومن ساحل المحيط الأطلسي، وهي في نفس الوقت قريبة من أوربا ومن بوغاز جبل طارق، وقد عرفها الإنسان منذ القديم، وتلقت هجرات بشرية من مختلف الأجناس كالفينيقيين، والرومان، والوندال وغيرهم...

هذا بالإضافة الى السكان الأصليين الذين هم من ضمن المجموعة القوقزية من شعوب البحر المتوسط (13).

والمنطقة ما تزال تحتفظ ببعض الآثار القديمة التي ترجع الى ما قبل التاريخ الإسلامي مثل القنطرة الرومانية (بتلمبوط) (14) قرب شفشاون، وقنطرة مدشر ماكو شرق هذه المدينة،

---

13) (قبائل المغرب) لعبد الوهاب بن منصور : ج : 1 : 256، المطبعة الملكية بالرباط والأستاذ التقي العلوي بمجلة البحث العلمي العدد : 20 ـ 21 السنة 1968 ص : 83.

14) تلمبوط : قرية هي مركز قيادة قبيلة بني زجل الغمارية تبعد عن شفشاون بنحو 25 كيلومترا ويربطها طريق ثانوي معبد ابتداء من (دار أقوبع) على عشر كيلومتر من شفشاون.

والقنطرتان تشبهان الى حد كبير القنطرة التاريخية بحي الصبانين بمدينة شفشاون (15).

وهناك آثار مدينة (تاموداة) (16) التي بناها الرومان على الضفة اليمنى لنهر مارتيل قرب تطوان، وآثار رومانية أخرى قرب مدينة (تيكساس) (17) و(ترغة) (18) على ساحل المتوسط بقبيلة بني زيات من غمارة.

ومنطقة شفشاون التي تقع في صميم بلاد غمارة عرفت تقلبات سياسية مختلفة قبل الفتح الإسلامي وبعده.

---

15) تشير بعض المصادر إلى أن مدينة شفشاون الحالية كانت مدينة رومانية قديمة تسمى : Appinumm وكانت ضمن المدن التي أسسها الرومان.

16) عن تمودة التاريخية انظر كتابات الأستاذ (طراديل) Tarradel منشورات مصلحة الآثار بمكتبة متحف تطوان الاثري لسنة 1949 ـ 1955، وأحمد المكناسي في خريطة المغرب الاركيولوجية ص : 12 ط : تطوان 1961 ويقال لها تمودة وتماده : tamuda وهي من تأسيس المغاربة القدامى الموريطانيين احتلها الرومان وحولوها إلى معسكر، ثم خربت وأهملت في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.

17) تيجساس وتسمى أيضا (أسطيحة) مدينة قديمة مرت عليها أطوار عديدة وفي شأنها يقول أحمد المكناسي (ت 1966) : «يستخلص من بعض المصادر ومن نتائج حفرياتنا ان هذه المدينة كانت من تأسيس المغاربة قبل مجيء الرمان واستعمارهم لشمال المغرب، ومرت عليها أطوار عديدة حتى نزل بها القوط وبعد الفتح الإسلامي أصبحت مدينة إسلامية معروفة متصلة تمام الاتصال بمملكة الأمويين بالأندلس، خربت حوالي نهاية القرن التاسع الهجري (خريطة المغرب الاركيولوجية ص : 13). وتكلم عنها محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن ص : 167 في ترجمة الحسن بن يوسف الزياتي وتكلم عنها أبو القاسم الزياني في الترجمانة الكبرى ص 77 ط : الرباط سنة 1967 وفي أيام الأدارسة كانت في سهم عمر ابن ادريس وكانت مقر امارته...

18) ترغة : كانت مركزا رومانيا صغيرا ثم سكنه القوط ويطلق اسم ترغة اليوم على إحدى فرق بني زيات وتضم هذه الفرقة (ترغة) وزاوية ترغة وهي على ساحل البحر المتوسط شمال تيجساس، ووهم صاحب معلمة المدن، إذ جعلها (قبيلة قريبة من بني سلمان).

وعندما وصل الفاتحون العرب إلى هذه المنطقـة وجـدوا يليان الغماري (19) حاكما على مدينة سبتة (20) وطنجة (21) من قبل القوط باسبانيا. وبعد الفتح الإسلامي اتخذ بعض القواد من هذه الجهات مقرا لتجييش الجيوش الإسلامية وخاصة منهم موسى ابن نصير (22) (ت 98 هـ/717م) وقائده طارق بن زياد (89 ـ 97 هـ) (23).

ومما تجدر الإشارة اليه : أن بعض القواد الفاتحين العرب تركوا آثارا لهم بهذه المنطقة. فهناك مثلا مسجد موسى ابن نصير وسط قبيلة بني حسان شمال غربي شفشاون وهو يقع في منتصف الطريق بين هذه المدينة ومدينة تطوان.

19) (يليان) نسبه ابن خلدون إلى غمارة ويصفه بأنه : «ملك غمارة وصاحب طنجة» تاريخ ابن خلدون ج : 4، 158 واختلف المؤرخون في شأن يوليان اختلافا كبيرا، وقد لخص ذلك الدكتور حسين مؤنس في كتابه (فتح العرب للمغرب) ص : 191.

20) سبتة مدينة عريقة في القدم من تأسيس الفينيقيين استعمرها الرومان والقوط قرونا طويلة واستولى عليها العرب سنة 708 م واحتلها البرتغاليون سنة 1415 وعندما استولت اسبانيا على المملكة البرتغالية بعد معركة وادي المخازن دخلت سبتة في حكم الاسبان 1580 وما زالت في قبضتهم إلى اليوم.

21) طنجة مدينة قديمة أسسها الفنيقيون واتخذ منها الرومان عاصمة إدارية لموريطانيا التنجستانية، دخلها العرب الفاتحون وطردوا منها القوط واستولى عليها البرتغاليون سنة 1471م ومنحوها للانجليز سنة 1661م. مقابل مهر الأميرة كاترين Catherine حين تزوجت بالملك Charles d'Angleterre حررها مولاي اسماعيل العلوي سنة 1096 هـ / 1684.

22) موسى ابن نصير : صار أميرا على البلاد المغرب سنة 79 هـ وتولى أمر طنجة والمغرب والأقصى سنة 85 هـ وأهم فترة له بالمغرب ما بين سنة 88 ـ 97 هـ.

23) طارق بن زياد الليثي فاتح الأندلس عبر بالجيش المغربي من سبتة إلى جبل طارق أي الجبل الذي يسمى باسمه وذلك سنة 92 هـ / 711م وهو قائد من قواد موسى بن نصير على عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96 هـ) وعن طارق بن زياد انظر البيان المغرب لابن عزاري ج : 1، 43 نشر كولان ط دار الثقافة، وانظر نفح الطيب لأبي العباس أحمد المقري، ج : 1، 159 ـ 161... ط : دار صادر بيروت : 1968م.

ومسجد طارق ابن زياد الذي يحمـــل اليــوم اســـم مسجد الشرافات.

وعرفت هذه المنطقة كثيرا من القواد والفاتحين العرب مثل القائد يلصو العثماني القرشي (24) الذي تنسب اليه الأسرة اليلصوتية بشمال المغرب، وقبر القائد يلصو معروف قرب شفشاون الى يومنا هذا. والقائد حبيب بن يوسف الفهري (25) المدفون على قنة جبل حبيب، وما زال هذا الجبل يحمل اسمه الى يومنا هذا، وبه تسمى قبيلة (جبل حبيب) غربي تطوان، وعلى نحو أربعين كيلومترا منها.

والقائد محمد زجل القرشي، (26) الذي تنسب إليه قبيلة بني زجل الغمارية بضواحي شفشاون (27).

ومن المعلوم أنه في شرق غمارة، وعلى مقربة من (باديس) (28) أسس القائد العربي سعيد بن صالح الحميري إمارة بني

24) انظر بحثنا عن (الأسرة اليلصونية بشمال المغرب) مجلة دعوة الحق ع : 10، السنة : 19 ص 41.

25) أبو عبيد البكري : (المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب) وهو قسم من المسالك والممالك ص : 107 مصور بدار المثنى ببغداد عن طبعة باريز 1911.

26) القائد زجل القرشي تحدث عنه محمد بن عبد الله الهبطي في فوائده وسليمان الحوات في : (ثمرة أنسي في التعريف بنفسي) مخ. خ. ع. ر. رقم : 1264 ك. وأحمد بن محمد بن عرضون في شرحه على التحفة المسمى بناصر الحكام في آخر الشرح. (مخطوط خاص) بالحسيمة.

27) (قبيلة بني زجل) إحدى القبائل الغربية من غمارة تقع في مكان جبلي شمال مدينة شفشاون وتنسب إلى القائد زجل السالف الذكر ومن أشهر فرق بني زجل : (بني شداد) و (القلعة) و (بني أشكورا).

28) (باديس) مدينة أثرية علىساحل المتوسط من تأسيس المغاربة القدامى أطلق عليها الإسبان Velez de la Gomera (باديس غمارة) (أحمد المكناسي خريطة المغرب الاركيولوجية، حرف (ب) ويقول صاحب الترجمانة الكبرى - أبو القاسم الزياني : «أسسها

صالح بالنكور (29) تلك الإمارة التي أسهب في الحديث عنها أبو عبيد البكري (تـ 487 هـ).

وحملت بعض الجهات من هذه المنطقة أسماء لقواد عرب مثل: (بني حسان) (30) و(بني زجل) وكلاهما بضواحي شفشاون، وجبل موسى بن نصير قرب سبتة، يطل على قرية (بليونش((31) ويقابل جبل طارق بالعدوة الأخرى، ومثل مدشر (سيدي يلصو) بل هذا - أحيانا - تنسب إليه (قبيلة الأخماس) برمتها فيقال لها القبيلة اليلصوتية (32)

وهكذا نلاحظ أنه منذ الفتح الإسلامي للمغرب أصبحت هذه المنطقة معروفة عند العرب الفاتحين، حيث أصبحت مركزا لتجمع

أمير لواتة الذي كان مع ادريس بن صالح الحميري عام: 90 هـ». وتقابلها (باديس الجزيرة) المحتلة من الاسبان سنة 1566م وتحدث عنهما معا الأستاذ أحمد البوعياشي في كتابه (حرب الريف التحريرية ومراحل النضال) ص: 136 وما بعدها ط طنجة 1974 والأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في (معلمة المدن والقبائل) ط فضالة 1977. ومحمد داود في تاريخ تطوان 2: 31 وكل من باديس المدينة وبادس الجزيرة مرت عليهما أطوار تثير الانتباه.

29) أبو عبيد البكري: (المغرب في ذكر افريقيا والمغرب) ص 91 وما بعدها، وابن خلدون ج: 6: 212.

30) (بني حسان) قبيلة تقع بين شفشاون وتطوان وتمتد بينهما لمسافة 30 كيلومتر مابين دار أقويع واعنيصر الجوع وهما مكانان الأول يبعد عن شفشاون بـ 10 كيلومتر والثاني يبعد بـ 20 كيلومترا عن تطوان.

31) (بيلونش) قرية قرب سبتة كثيرة العيون والمياه، كانت بها حدائق غناء وبساتين مخضرة يانعة، وكثيرا ما تغنى بها الشعراء والأدباء، إلا أنها أصيبت بكارثة الاستحواذ على مائها من طرف الاسبان، الذين جعلوه في أنابيب محكمة وزودوا به مدينة سبتة المحتلة التي كانت تفتقر إلى الماء العذب، وقضية ماء بيلونش كانت قد شغلت الرأي العام المغربي في فترة من الزمن، وكتب عنها الكثير، ولها ملف يحتوي على وثائق عديدة، ومعاهدات وبيانات...

32) الروضة المقصودة للحوات، ورقة: 153 (مصورة بالمكتبة الملكية رقم: 10923 ج 1).

جيوشهم ومقرا لاسرهم... ومن ا بنائها اختار طارق بن زياد ا بطاله الأشاوس الذ ين عبر بهم الزقاق الى القارة المجاورة ففتح بهم شبه جز يرة إيبريا سنة 92 هـ/711 م ذلك الفتح العظيم الذي خلف حضارة وأمجادا...

ومنذ عبور الجيش المغربي إلى الأندلس أصبحت المنطقة محطة عبور وملتقى للأفواج الذاهبة والآ بية من الأندلس وإليها...

ولا شك أن هذا الدور الذي قامت به هذه المنطقة في ربط الصلات بين المغرب والعدوة الأخرى لعدة قرون كانت له عدة نتائج وآثار. وكان من أ برز تلك النتائج أن تعربت هذه المنطقة الجبلية في وقت مبكر جدا يرجعه بعضهم الى زمن الفتح نفسه والى عهد طارق بن زياد بالذات (33). ومن تلك النتائج كذلك الإزدهار الفكري الذي عرفته مدينة سبتة وضواحيها خلال قرون عديدة ذلك الازدهار الذي كان يشع على المنطقة بكاملها (34).

وفي عهد الأدارسة نجد هذه المنطقة قد قسمت بين القاسم وعمر ا بني ادريس الأصغر، حيث أقام عمر بن ادريس حاكما

---

33) من المعلوم أن هناك خلافا حول خطبة طارق بن زياد هل هي منحولة أو غير منحولة حيث ترى طائفة من البحاثين أن الخطبة لطارق نفسه، وأن الجنود المغاربة فهموا الخطبة وتذوقوها، وأثرت في نفوسهم، في حين يستبعد البعض الآخر ذلك، نظرا لقرب عهد اختلاط السكان الأصليين بالفاتحين وكانت قد أثيرت هذه القضية في كتب تاريخ الأدب المغربي، وفي المجلات والصحف، بل حتى على شاشة التلفزيون. انظر النبوغ المغربي للأستاذ كنون : 1 : 42 الطبعة الثانية. بيروت. (والادب المغربي) لابن تاويت وعفيفي، ص 101 ط بيروت 1960.

34) مما لاشك فيه أن مدينة سبتة أصبحت دار علم وثقافة ونبغ فيها عدد من الأفراد والأسر، كالقاضي عياض، والإدريسي، والعزفيين، وغيرهم...

بمدينة تيجساس (35) وأقام أخوه القاسم بن ادريس حاكما بمدينة طنجة. حسبما يذكره : ابن خلدون وصاحب الاستقصا وغيرهما (36) وشهدت هذه المنطقة المعارك التي كانت قائمة بين أموى الأندلس والأدارسة بالمغرب، أو بين الأمويين والإمارات الأمازيغية (37) الشيء الذي جعل الناصر الأموي (38) يستولي على سبتة وطنجة وأحوازهما.

وفي عهد المرابطين عانى يوسف ابن تاشفين الأمرين في إخضاع هذه المنطقة. كما عانى من أجل الاستيلاء على مدينة سبتة بالخصوص، وبعد جهد جهيد استطاع المرابطون بسط نفوذهم على المنطقة كما استطاعوا في نهاية المطاف القضاء نهائيا على إمارة بني صالح بالنكور (39) شرق باديس.

وفي عهد الموحدين بالرغم مما يذكر بعض المؤرخين من تعاطف سكان جبال غمارة معهم. نظرا للأصل المصمودي الذي

---

35) سبق الكلام عنها بالتعليق رقم : 17، وانظر بالإضافة إلى ماسبق معلمة المدن والقبائل للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله، ص 156.

36) ابن خلدون ج : 6، 215 والاستقصا ج 2 : 172.

37) الإمارات الأمازيغية أو البربرية تطلق في تاريخ المغرب على : امارة بني مدرار، ومغراوة وبني العافية وبني يفرن وبرغواطة واستمر وجود بعض هذه الإمارات إلى أن قضت عليها الدولة المرابطية.

38) الناصر الأموي أو عبد الرحمن الثالث (309 ـ 350 هـ) / 921 ـ 961) ثامن أمراء بني أمية بالأندلس وهو أول من ادعى الخلافة في الجناح الغربي من العالم الإسلامي،بسط نفوذه على أجزاء من شمال إفريقيا وتسلط بأسطوله على غربي البحر المتوسط وفي أيامه ازدهرت العلوم والفنون والتجارة والصناعة وعرفت الأندلس في عهده عصرها الذهبي.

39) إمارة النكور انظر : البكري ص 92 وابن خلدون : 6 : 212 والترجمانة الكبرى للزياني ص : 79 ط : فضالة 1967.

يجمع بين مصامدة الأطلس الكبير ومصامدة جبال الريـــــف فبالرغم من ذلك فإن المنطقة عرفت معارك ضارية وبخاصة (معركة تطوان) بقيادة القائدين محمد بن سليمان الغماري. ويحيى بن توكرورين الذين قتلا في تطوان ثمانمائة نسمة (40).

ثم كان امتناع سبتة على الموحدين بزعامة القاضي عياض (ت 476 هـ 544 م) (41) ذلك الامتناع الذي أتعب الموحدين والذي من أجله نفي القاضي عياض وغرب حيث خرج منها وهو يبكي من شدة التحسر على فراقها (42).

وفي عهد بني مرين عرفت هذه المنطقة أحداثا جساما منها : هجوم المسيحيين على العرائش سنة 668 هـ/1269 م) حيث قتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا الأموال وكان ذلك في أول عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني (668 ـ 686 هـ) الذي لم يستطع أخذ الثأر هذه المرة. لأنه كان مشغولا بفتح مراكش.

وفي هذا الوقت كان بنو العزفي (43) يستبدون بسبتة ويبسطون نفوذهم على أجزاء من بلاد غمارة وبلاد الهبط.

وفي سنة (672 هـ) عزم يعقوب المريني على ضم شمال المغرب لجنوبه. فحاصر طنجة محاصرة عنيفة ثم فتحها بعد

---

40) البيذق ص : 68 ط الرباط ومحمد داود تاريخ تطوان : 1 : 71.

41) البيذق نفس المصدر ونفس الصفحة.

42) الاستقصا : ج : 3 : 31.

43) العزفيون هم من أهم بيوتات سبتة وهم أهل رياسة وعلم ودين، بدأ أمرهم عند ضعف الموحدين، حيث استقل الفقيه أبو القاسم ابن أبي العزفي برياسة سبتة فضبطها وانتظم في طاعته سائر أعمالها، وامتد نفوذ العزفيين إلى طنجة وأصيلا وذلك في حدود سنة 663 هـ الاستقصا ج 3 : 34.

حروب دامية بقيادة ولده الأمير يوسف بن يعقوب الذي توجه بعد ذلك لحصار سبتة فحاصرها حصارا شديدا فاضطر العزفيون الى المفاوضة والى الدخول في طاعة بني مرين وأداء الخراج.

وفي عهد السلطان يوسف بن عبد الحق بنيت (قصبة تطوان) وفي هذه الفترة نفسها عرفت هذه البلاد ثورة عارمة أهلكت الحرث والنسل وهي ثورة عثمان بن أبي العلاء (44) ادريس بن عبد الحق المريني الذي ثار ببلاد غمارة، ودعا لنفسه وتغلب على تيجساس، وأصيلا والعرائش وانتهى الى قصر كتامة (القصر الكبير).

وفي عهد السلطان أبي ثابت المريني بن يوسف اهتم المرينيون بقضايا شمال المغرب وعمل أبو ثابت للقضاء على ثورة عثمان بن أبي العلاء، وعقد لابن عمه عبد الحق بن عثمان على جيش جرار زحف به نحو الشمال في منتصف ذي الحجة سنة 707 / 1307 هـ إلا أن عثمان بن أبي العلاء استطاع أن يهزم هذا الجيش، ودخل (قصر كتامة) واستولى عليه وعلى أحوازه. وبعد رجوع السلطان أبي ثابت من معاركه بمراكش، عزم على القضاء على ثورة عثمان بن أبي العلاء فخرج أبو ثابت من فاس في أوائل ذي الحجة سنة 707 هـ متوجها نحو (القصر الكبير) وهنا

44) ثورة عثمان بن أبي العلاء ادريس بن عبد الحق المريني، وكان لعبد الحق تسعة اولاد أكبرهم ادريس الذي قتل معه في معركة (رياح) وكان لادريس هذا عدة اولاد بقوا في كفالة أعمامهم، ولما اشتد عودهم نفسوا الملك على عمهم يعقوب والتجأوا إلى جبال غمارة واستبد عثمان ابن أبي العلاء بإقليم الشمال وبقي الأمر كذلك إلى أن تلطف السلطان في استنزالهم وعقد لعامر بن ادريس على ثلاثة آلاف فارس وبعثهم للغزو بالأندلس فكان لهم في الجهاد والمرابطة مواقف جليلة.. الاستقصا : 2 : 83.

خاض مع ابن أبي العلاء معارك حاسمة تأثر لها الجزء الغربي من شمال المغرب بصفة خاصة (45).

وفي سنة 728 هـ/1327م تحرك السلطان أبو سعيد المريني (46) (710 ـ 731 هـ) بنفسه قاصدا شمال المغرب، وحط قرب سبتة التي كانت قد انتقضت على محمد بن أبي زكرياء العزفي ودخل السلطان أبو سعيد سبتة وركز بها نفوذه.

ومن الملاحظ أن الدولة المرينية ارتبطت بالأندلس على عهد ملوك بني الأحمر ارتباطا قويا وغريبا.

فملوك بني مرين كان يهمهم أمر الإسلام والمسلمين بالأندلس، وذلك منذ بداية ملكهم وعملوا بإخلاص على النصرة والنجدة كلما دعت الضرورة الى ذلك، بل كثير منهم غزا بنفسه، وأبلى البلاء الحسن، مثل : يعقوب بن عبد الحق، وأبي الحسن (731 ـ 752 هـ) وغيرهما، ولظروف مختلفة استوطنت جالية هامة من بني مرين بالأندلس كان فيها الغزاة المجاهدون، وفيها الفارون المتربصون، والمنفيون، والمسجونون، وفيها الوجهاء، وأصحاب الرأي، والأدباء والشعراء...

---

(45) كان مسرح هذه المعارك الحاسمة : حصن علو ذان،والدمنة وهما (مكانان على ساحل البحر بين (القصر الكبير وأصيلا) الاستقصا 3 : 96.

(46) يعد السلطان أبو سعيد هذا من أهم ملوك بني مرين وفي عهده عرف المغرب ازدهارا ثقافيا هاما، وبنيت في عهده كثير من المدارس العلمية ودام عهده 21 سنة وهو أبو سعيد عثمان بن عبد الحق ؛ وهو غير أبي سعيد بن أحمد المتوفي سنة 823 هـ / 1420م

وبالرغم من كل هذا فإن بني الأحمر كانوا يعملــون على استغلال بني مرين وعلى التدخل في شؤونهم الى درجة أصبح لهم اليد الطولى في تنصيب ملوكهم وعزلهم..

وكثيرا ما كان بنو الأحمر يسيطرون على سبتة ويحتلونها مغتنمين اختلال الأوضاع أو قيام أمير على آخر.

وعاصر بنو الأحمر العهد المريني من بدايته الى نهايته وأصبحت تربطهم بالمرينيين علاقات متعددة ومتشعبة، وبخاصة في الميدان السياسي والثقافي الى درجة أصبح معها كل من البلاطين المغربي والغرناطي لا يستغني أحدهما عن الآخــــر، وبذلك أضحى الكتاب والشعراء والوزراء والقضاة والسفراء يتنقلون بين فاس وغرناطة (47).

وهذا الارتباط بين المغرب والأندلس كان عن طريق شمال المغرب وبواسطة ثغوره وموانئه...

وكانت الجبال الغمارية ـ التي هي موضوع حديثنا ـ مسرحا لعدة ثورات قام بها أدعياء الملك من بني مرين بتحريض من بني الأحمر أو غيرهم... كثورة عثمان بن أبي العلاء المشار إليها سابقا سنة 707 هـ/1307م وثورة الحسن بن الناصر ابن أبي علي ابن أبي سعيد المريني سنة 787 هـ/1385م على عهد السلطان أبي فارس موسى (48) وغيرهما.

---

47) مثل : أبي الحسن الصغير الزرويلي علي بن عبد الحق تـ : 719 هـ الذي ذهب في سفارة إلى بني الأحمر بغرناطة، وهو من بني زرويل قرب شفشاون، ومثل : لسان الدين ابن الخطيب (تـ 776 هـ / 1374 م) وغيرهما.

48) هو أبو فارس موسى ابن أبي عنان ـ 786 ـ 788 ـ الاستقصا : 4 : 71.

وتمثلت أهمية هذه المنطقة في انفتاحها على أوربا وعلى العالم الخارجي ابتداء من عهد الفتح الإسلامي للأندلس، بل قبل ذلك بقرون، واستمر هذا الانفتاح الى الفترة الأخيرة من عهد بني مرين.

وبعد احتلال مدينة سبتة (1415/818) في نهاية العهد المريني أخذت أبواب الاتصال بين المغرب والأندلس توصد الواحد منها تلو الآخر.

وفي عهد الوطاسيين كان المغرب قد خرج عن صفته كامبراطورية متسعة الجوانب ليتوقع كسلطنة ضعيفة في الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

وفي هذا العهد بالذات نجد أن المعركة بين المسلمين والمسيحيين قد انتقلت من شبه جزيرة إيبيريا الى سواحل المغرب العربي، وذلك ابتداء من مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ـ التاسع الهجري ـ وبذلك أصبحت هذه المنطقة التي نتحدث عنها تمثل الدرع الواقي لداخل المغرب، بل أصبحت بمثابة السور الخارجي الذي يحمي الطرق التجارية عبر فاس وسجلماسة فبلاد السودان الغربي (49) ويحمي في نفس الوقت

---

49) يلاحظ انه من هذه المنطقة مباشرة كانت تنفتح الطريق نحو فاس العاصمة ومنها نحو منابع الذهب عبر سجلماسة والصحراء الكبرى فإلى ممالك السودان الغربي التي كان بريق ذهبها يخلب عقول الاروبيين. ومثل بشرها الاسود، اربح تجارة عرفها القرن السادس عشر الميلادي انظر : (تاريخ كشف افريقيا واستعمارها) للدكتور شوقي عطا الله الجمل ص : 128 وما بعدها.

فاس العاصمة الاقتصادية والثقافية للمغرب التي كانت من أهم الأهداف التي يرمي البرتغاليون الوصول إليها.

ولا شك أن هذا الوضع الذي أصبحت عليه المنطقة خلال القرن التاسع الهجري ثم العاشر جعلها خلال هذه الفترة عرضة للهجمات الصليبية إلبرتغالية والإسبانية.

وتذكر المصادر التاريخية أنه في سنة 1406/803) بعث الملك هنري الثالث ملك قشتالة (1390 ـ 1406 م) أسطولا للانتقام من مجاهدى البحر قرب تطوان ووصل جنود الأسطول الإسباني الى تطوان وخربوها (50).

وبعد هذه المحاولة الإسبانية جاء الهجوم البرتغالي على سبتة سنة 1415/818 م) بقيادة الملك البرتغالي جان الأول : Jean I (1385، 1433 وانتهى هذا الهجوم باحتلال المدينة ألآمنة سبتة. بعد مقاومة يائسة من طرف سكانها الذين فوجئوا بالهجوم.

وعاد الملك البرتغالي المنتصر الى لشبونة بعد ما ترك ولده الأمير (دون بيدرو) (Don Pedro) واليا عليها. ومن ذلك التاريخ الى اليوم لم تعد سبتة الى حظيرة الوطن.

---

50) انظر : الاستقصا : 4 ، 89 يقول الناصري : «بقيت خربة تسعين سنة، أي إلى أن جدد بناءها الأندلسيون المهاجرون بقيادة أبي الحسن علي المنظري سنة 889 هـ».

وكان احتلال سبتة ضربة قاسية للمسلمين بالمغرب والأندلس (51) لأن مدينة سبتة كانت تمثل أهم صلة وصل بين العدوتين.

وأحاط البرتغاليون حملتهم على سبتة بسرية تامة - حتى لا تنافسهم اسبانيا. وكان سقوط سبتة كارثة على مملكة غرناطة؛ لأنه قوى موقف الاسبانيين، وعرقل تدفق الامدادات المغربية التي كان من شأنها أن تحدث بعض التوازن بين القوتين المتحاربتين داخل شبه الجزيرة الإيبرية.

وبعد احتلال مدينة سبتة من طرف البرتغاليين تحمس الأمير (Henry) هنرى الملاح ابن الملك يوحنا الأول (52) للغزو ضد المسلمين.

وفي هذه الفترة فكر البرتغاليون في الاتصال بملك الحبشة المسيحي من أجل تطويق الدول الإسلامية، والقضاء على قوتها التجارية والوقوف دون سيطرتها على طرق الملاحة المؤدية الى مصادر تجارة الشرق. (53) ومن أجل تحقيق هذه الغاية عمل

---

51) احتلال سبتة تحدث عنه صاحب نشر المثاني ج : 1 وفي وفيات : 1001 هـ وصاحب الاستقصا : 4 : 92 ومجلة البحث العلمي العدد التاسع سنة الثانية ص 217 بحث الأستاذ محمد الفاسي. وانظر بحثا للدكتور عبد الهادي التازي : مجلة البحث العلمي العدد 24 ص 11 بعنوان الثغور المغربية المحتلة بين المواجهة الملحة والتدخل الدبلوماسي.

52) هنري الملاح هو : ابن الملك يوحنا الأول، كان شديد الحماس لغزو المسلمين منحه أبوه دوقية مكافأة له على شجعاته في احتلال سبتة، وهو قد شارك برا في محاولة احتلال طنجة 1437 م.

53) تاريخ كشف افريقيا واستعمارها للدكتور شوقي الجمل : ص 121 و 155 .

البرتغاليون على احتلال اهم الموانيء على السواحل الغربية للقارة الإفريقية، ونجحوا في تنفيذ هذه الخطة الى أبعد الحدود (54).

وكان من أهدافهم الأساسية التمركز بسواحل المغرب، ثم التسرب منها الى الداخل، ولتحقيق هذه الغاية حاربوا المغاربة أكثر من قرن ونصف من الزمن (1415 ـ 1578). فهم بعد احتلالهم لمدينة سبتة 1415 م أرادوا احتلال مدينة طنجة فأغاروا عليها عدة مرات وبخاصة سنة 1437م / 841هـ على عهد الملك البرتغالي (دون دوارت Don Duarte (1433 ـ 1438) الذي أسند مهمة احتلالها لأخويه : هنري الملاح (Henry) (1394 ـ 1460 ودون بيدرو (Don Pedro) ونزلت الحملة البرتغالية بسبتة المحتلة لتكون قريبة من طنجة وانقسمت هذه الحملة الى قسمين قسم اتجه عن طريق البر بقيادة الأمير هنرى، وقسم عن طريق البحر بقيادة (دون بيدرو) إلا أن الوزير أبا زكرياء الوطاسي (55) وزير الملك الطفل عبد الحق المريني ـ استطاع أن يجمع حوله عددا من المتطوعين بالإضافة إلى الجيش النظامي ليصد هذه الحملة وبذلك انهزم البرتغاليون وتركوا ـ في الميدان عددا من القتلى والأسرى، وحاول الوزير الوطاسي أن يجعل تحرير مدينة سبتة شرطا في مفاوضات الصلح إلا أن البرتغاليين فضلوا بقاء الأمير فرناندوا أسيرا لدى المغاربة على الإنحساب من مدينة سبتة.

54) نفس المرجع : 155 وما بعدها.

55) أبو زكرياء الوطاسي هو يحيى بن زيان بن عمرو كان والده زيان قد انحاز لعبد الرحمن ابن أبي يفلوسن فحظي بالوجاهة والمنزلة الرفيعة عنده ولما صار الأمر للسلطان عبد

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الانهزام لم يكن رادعا للبرتغاليين عن التفكير في محاولة جديدة لاحتلال طنجة. وظلوا يرقبون الفرص. وفي سنة 1453 سقطت القسطنطينية في يد المسلمين بقيادة محمد الفاتح العثماني (1451 ـ 1481) وكان لهذا السقوط أثر سيء على المسيحيين في العالم (56) حيث دقت الكنائس دقات جنائزية وأشهرت معالم الحداد. ودعا البابا الى حرب صليبية ضد الإسلام الذي أصبح في نظره يهدد العالم المسيحي. واتجهت أنظار المسيحيين في هذه الآونة الى الملك البرتغالي الفنصو الخامس (1438 ـ 1481 م) ليأخذ الثأر للمسيحيين من المسلمين في الغرب الإسلامي.

وكان مسلمو الأندلس في هذا الوقت يخوضون معارك مريرة مع مملكتي قشتالة وأركون. وبمناسبة سقوط القسطنطينية بيد المسلمين تكالب عليهم المسيحيون بشبه الجزيرة (57).

وفي شهر أكتوبر من سنة 1458 م تحركت الحملة البرتغالية بقيادة الملك البرتغالي نفسه نحو الساحل المغربي صوب القصر الصغير. وبعد معركة قصيرة. استولى البرتغاليون على الميناء وبذلك اعتبر الملك البرتغالي (الفونصو الخامس) ملبيا لنداء البابا. ولقب (بالأفريقي).

الحق المريني ـ آخر ملوك بني مرين ـ استوزر ولده أبا زكرياء واستمر وزيرا إلى أن قتله عرب انكاد سنة 852 هـ.

56) أحمد توفيق المدني حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ص 61 ط : الجزائر (دون تاريخ).

57) نهاية الأندلس للأستاذ عبد الله عنان : 154.

والحقيقة ان سقوط هذا الميناء كان ضربة قاسية أصابت كلًا من المغرب والأندلس؛ لأنه بسقوط ميناء القصر الصغير في يد البرتغاليين تحطم آخر جسر كان يربط بين غرناطة والمغرب.

وكان الهدف من احتلال هذا الميناء، هو القرب من طنجة ليسهل الانقضاض عليها، وفعلا قام البرتغاليون بعدة محاولات لاحتلال طنجة وبخاصة خلال سنتي (1463 و 1464) وخسر البرتغاليون في هذه المحاولات عددا من القتلى والأسرى، ومع ذلك ظلوا مصرين على تحقيق هدفهم في احتلال طنجة.

وكعادتهم في اغتنام الفرص، وتتبع أخبار المغرب الداخلية ـ التي كانوا يعرفون عنها الشيء الكثير ـ فإنهم قد اغتنموا فرصة الاضطرابات السياسية في السنوات الأخيرة من حكم السلطان عبد الحق المريني (823 ـ 869) / 1464 ـ 1420 م) الذي كان قد استوزر يهوديين مستهترين أثارا شعور الناس، واستفزازهم بظلمهما وطغيانهما، (58) فثار الناس على السلطان، وبايعوا الشريف

58) لما أوقع عبد الحق المريني ببني وطاس أصبح يتوجس شرا ممن بقي منهم وبخاصة من محمد بن أبي زكريا الذي نجا من القتل، وتشفيا في الوطاسيين والعاطفين عليهم استوزر اليهوديين : هارون وشاويل اللذين أخذا أهل فاس بالقسوة والظلم ومصادرة الأموال، وأصبح تصرفهما مضرب الأمثال في الغطرسة والجبروت وإهانة المسلمين، وكان من شأن ذلك أن اجتمع الناس على خطيب القرويين، وشكوه الظلم والإهانة اللاحقين بهم فأشار عليهم الخطيب الذي هو عبد العزيز الورياغلي (تـ 880 هـ) بخلع السلطان ومبايعة الشريف أبي عبد الله الحفيد الجوطي وتحركت الجموع وراء الخطيب قاصدة فاس الجديد، واوقعت باليهود وفر السلطان إلى بلاد الهبط، ولما حاول الرجوع إلى فاس أشار عليه وزيره اليهودي هارون بالتوجه نحو مكناس فما كان من أحد رجال بني مرين إلا أن طعنه برمحه طعنة قاتلة ثم اكره الجند السلطان على التوجه. نحو فاس فخرج إليه الحفيد في جموعه فانهزم السلطان وعند ذلك جرد من إمارات الملك وضربت عنقه يوم 27 رمضان 869 هـ / 1464م وكان آخر ملوك بني مرين وأطولهم مدة.

العمراني ابا عبد الله محمد الجوطي، وقتلوا الوزير ثم بعد ذلك خلع السلطان وقتل، وتزعم هذه الأحداث، خطيب القرويين بفاس، الفقيه أبو فارس عبد العزيز الورياغلي (59).

وفي هذه الأثناء تحرك محمد الشيخ بن الوزير أبي زكرياء الوطاسي الذي كان قد نجا من مذبحة الوطاسيين (60)، فاستبد بأصيلا، وأسرع إلى فاس مطالبا بالملك، وحاصر السلطان الجديد محمد الحفيد العمراني الجوطي، واستمر الحصار نحو سبع سنين، وخلال هذه الفتن احتل البرتغاليون (انفا) بكامل السهولة، سنة 1469، وكان ذلك مما شجعهم على احتلال أصيلا (61) سنة 876/1471هـ وأثناء عمليات الاحتلال كان محمد الشيخ حاكم أصيلا متغيبا عنها في حصار فاس.

---

59) أبو فارس عبد العزيز الورياغلي (تـ 880 هـ / 1474م) انظر في ترجمته جذوة الاقتباس ص 452. ط. دار المنصور الرباط ودرة الحجال : 2. 376 ط الرباط و (جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي ج : 2. 504.

60) سبق أن ذكرنا في التعليق : (55)، أن أبا زكريا الوطاسي كان وزيرا لعبد الحق المريني إلى أن قتله عرب انكاد سنة 852 هـ وبعده تولى الوزارة ابن أخيه علي بن يوسف الذي قام بالوزارة خير قيام، لديانته واستقامته إلى أن توفي الوزير علي بتامسنا سنة 863 هـ فتولى الوزارة لعبد الحق المريني بن أبي زكريا السالف الذكرإلا أن ولايته كانت مبدأ شر واضطراب.. ولما رأى السلطان عبد الحق استبداد هذا الوزير، وطموح قومه إلى الملك بطش به وبهم جميعا سنة 863 هـ وممن نجا من هذه المذبحة محمد (تـ 910 هـ) الشيخ الوطاسي أخ الوزير يحيى القتيل وهو الذي سيصبح أول ملك وطاسي فيما بعد على إثر انتهاء ملك بني مرين (869 هـ).

61) أصيلا : مدينة قديمة من تأسيس الرومان فتحها العرب سنة 94 هـ / 713م وأخرجوا منها القوط احتلها البرتغاليون من 1471 إلى 957 هـ / 1550م ثم احتلوها سنة 1578م ثم أخذها الاسبان وجلوا عنها بعد مفاوضات بين السلطان أحمد المنصور وفيلب الثاني سنة 1589م.

وكان احتلال البرتغاليين لأصيلا احتلالا فظيعا حيث أسروا عدة آلاف من سكان المدينة كان من بينهم زوجتا محمد الشيخ وأولاده... بالإضافة إلى عدد كبير من القتلى.

وأثار احتلال أصيلا حزنا عميقا في نفوس المغاربة وأسف الناس لهذا الاحتلال غاية الأسف... وتظهر لوعة هذا الأسى والألم في التائية العصماء التي جاشت بها قريحة الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازى (ت 920هـ/1514م) في رثاء (أصيلا) الشهيدة، وفي وصف أحوالها، وأحوال أهلها أثناء الاحتلال، وفي الحث على الجهاد والنداء بكل حرارة وإخلاص إلى تحرير المدينة... ومنها قوله :

«أبى القلب سلوانا ومن لى بسلوة ونومي جفا من أجل ما بي مقلتي
وصرت حليف الحزن مما كتمته وبين ضلوعي مثل كي بمجمرة
وللقلب ما بين الجوانح زفرة ودمعي على الخدين يحكي لمزنة
ولم أستطع صبرا وكيف يصح لي وقد هتكت من ديننا كل حرمة؟
وشاركنا الأعداء في قطر غربنا وقد أخذوا جل البلاد البهية
وقد أرعبت تلك السواحل منهم وصاروا يؤدون الخراج كجزية
وأنتم شغلتم بالتعلل والمنى تبعتم مراد النفس في كل لذة
وأسعفتم الشيطان فيما أراده وملتم إلى نهج الطباع الخسيسة
فهذا هوان واحتقار وذلة وعار شنيع، ثم قلة حيلة
فصرت إذا أدعوا وأرغب راجيا ولي في الذي أرجوه أصدق لهجة
وأندب أهل الجد والعزم قائلا عليكم بنصر الدين يا خير أمة
وقوموا بجد للعدا فلقد طغوا عليهم من القهار أعظم لعنة
وقد جمعوا ما لا يقدر وصفه وراموا لكم اخفاء كل خديعة

فكيف يكون الأمر من حال مكرهم ... وقد طمعوا فيكم بإدراك فرصـــة
ولم يقنعوا مما سبوا من بلادكـــم ... وإخوانكم في حين تلك القضيـة
فقصة آصيلا عرفتم جميعهــــا ... وما فعل الأعداء من شـــر غـدرة
وأضحت على الإسلام تبكي رسومها ... كذي سكن قد صار في أرض غربة
مساجدها تبكي على فقد أهلهـا ... كأن لم يكن فيها مردد ســورة
صوامعها قد عطلت عن أذانهـا ... كأن لم يكن فيهـا أذان مصـوت
مجالس أهل العلم يا صاح بدلت ... بتلبيس رهبان ورجـس الاقسـة
وأسواقها بعد العمارة قد خلـت ... كأن لم يكن فيها تبايع سلعـة
فلو أبصرت عيناك حال خروجهم ... بكيت الدما من بعد إنفاذ عبرة
تفرقت الولدان عـن أمهاتهــا ... كذا كل زوج حيز عن كل زوجة
وأدمعهم تجري على وجناتهـم ... لما نالهم من فقدهم للأحبـة
وأبرزت العذراء بعـد احتجابهـا ... وأظهر منها كل حسن وبهجـة
وصار العدا يستمتعون بحسنهـا ... وأدمعها تهمي بأعظم زفـرة
ولم تستطع منهم فرارا بنفسهـا ... فاعظم بها من حرقة مستكنسـة
تكاد قلوب الخلق عند استماعها ... تفطر مما نالهم من مصيبـة
فكيف يطيب العيش بعد لعاقـل ... وكيف تلذ النفس بعد بشهوة ؟
فما العيش بعد الذل إلا سفاهـة ... وضعف يقين عند أهل البصيرة؟»(62)

... وهي ملحمة طويلة في أكثر من خمسين ومائة بيت.

---

62) هذه الأبيات من قصيدة طويلة للشيخ محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي انظر ترجمته في الدوحة ص 51 ؛ ط ؛ ح. فاسية ، وفي كتاب (أضواء على ابن يجبش التازي) للأستاذ أبي بكر البوخصيبي ص : 145

وكثيرا ما كانت مثل هذه الكوارث والفواجع تلهب مشاعر علمائنا، ومشايخنا، فتنطلق ألسنتهم بالشعر والنثر... معبرين عن الألم الذى تحسه الأمة باسرها، ومنادين بالالتحام والاتحاد، وخوض معركة النصر إلى النهاية، بل كان كثير منهم يجند نفسه لقيادة المجاهدين، ولخوض ميادين المعارك ضد الأجنبي المحتل (63).

ولا شك أن أحداث سنة 876هـ/1471م كان لها وقع اليم على المغاربة بصفة عامة وعلى سكان الأقاليم المجاورة بصفة خاصة، وأبانت هذه الأحداث بكل وضوح أن الحكم المركزى بالبلاد عاجز عن مواجهة الخطر الصليبي الذي يهدد البلاد، واتضح هذا العجز بوجه خاص عندما وقع محمد الشيخ الوطاسي اتفاقية الهدنة (64) مع البرتغاليين لمدة عشرين سنة مقابل الإفراج عن زوجتيه، وأفراد من أسرته، مع إبقاء ولده محمد رهينة عند البرتغاليين... وإزاء هذا الموقف من طرف ممثل الحكم الشرعي في البلاد، كان من الضرورى أن تفكر المقاومة الشعبية

---

63) جهاد العلماء ومواقفهم من أجل تحرير البلاد، هذا موضوع قائم بذاته، إذ نجد شخصيات لامعة في ميدان العلم والمعرفة كان لها مواقف جليلة في ميدان المعارك المسلحة، ومن هؤلاء مثلا علي بن ميمون الذي كان يرأس رباط المجاهدين بأحد ثغور غمارة، وعبد الله الورياجلي العالم الذي قسم حياته بين التدريس والافتاء والجهاد، والشيخ محمد بن غازي، والشيخ محمد البهلولي وعلي بن عثمان الشاوي... وغيرهم...

64) هذه الاتفاقية كانت لمدة عشرين سنة ثم جددت فيما بعد، ويشير الناصري في الاستقصا إلى عقد هدنة ج : 4، 120، وانظر عروسة المسائل للقاضي محمد الكراسي ط : الرباط بتحقيق الأستاذ ع، الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية سنة 1963.

في تنظيم نفسها تنظيما جديا من اجل إيقاف الزحف الصليبي الذي يهدد البلاد والعباد...

وفكر المجاهدون في اتخاذ موقع حصين ليصبح مركز تخطيط للعمليات الحربية، والمكان الذى وقع عليه الاختيار هو موقع مدينة شفشاون، وهذا يفسر لنا ربط تاريخ تأسيس مدينة شفشاون بتاريخ احتلال مدينة أصيلا سنة : 876هـ/1471م وبعد تأسيس مدينة شفشاون أصبحت دار إمارة، ومركز تخطيط للدفاع والهجوم، ومأوى لأسر المجاهدين. واختير موقعها ليكون في مأمن من متناول الغارات البرتغالية وبذلك أصبحت شفشاون مركز قيادة، ودار إمارة، ومكان تجمع للمجاهدين ومقر سكن لهم.

إلا أن استقرار هذه المدينة كان لا يتم إلا بتحصين الثغور الموالية للعدو، وبالسهر على تفقد أحوالها، وتزويدها بما تحتاج إليه من عدة ورجال.. أي استقرارها لا يتم إلا بتنفيذ المخطط الذى أسست المدينة من أجله، وكانت المراكز الموالية للعدو في أمس الحاجة إلى هذا المركز الخلفي ليسند ظهرها، ويعمل على دعمها ماديا وبشريا...

وأشهر المراكز التي كانت في خط المواجهة في هذه الناحية هي :

1 ـ مركز «الخروب» (65) (بحبل حبيب) (66) وكان هذا المركز يشرف على التحركات البرتغالية بمنطقة طنجة وأصيلا ولأهمية هذا المركز كان تحت الاشراف المباشر لأمراء بني راشد بشفشاون، وجاءت أهمية هذا الموقع، لحصانته من جهة، ولاشرافه على السهول الخصبة بضواحي طنجة وأصيلا من جهة ثانية.

وكان البرتغاليون يسيطرون على أجزاء كثيرة من تلك السهول، وكان القصد من التمركز بمركز (الخروب) هو : إجلاء البرتغاليين عما احتلوه من السهول الخصبة، وحصارهم والتضيق عليهم إلى أن يتم اجلاؤهم بالمرة.

2 ـ ترغة وكان رباطا للمجاهدين المتطوعين.

3 ـ تطوان وضواحيها، كان الأندلسيون الذين جددوا بناء مدينة تطوان سنة 888هـ يعملون في تناسق تام مع إمارة بني راشد بشفشاون، وكان هؤلاء يقدمون لهم العون والمساعدة، وكثيرا

---

65) مدشر الخروب : بقبيلة (جبل حبيب) التي تقع على بعد أربعين كيلومترا من تطوان في طريق العرائش، وهذا المدشر ما زال يحمل نفس الاسم إلى يومنا هذا، ومعسكر الخروب كان المعسكر الرئيسي في مواجهة العدو ولذلك اتخذ منه أمراء بني راشد منطلق عملياتهم الحربية في اتجاه طنجة وأصيلا المحتلتين وموقع الخروب هو موقع استراتيجي هام يتميز بحصانته واشرافه على الجهات الغربية الموالية لمناطق الاحتلال ولذلك كان أمراء بني راشد لايسندون قيادته إلا للقواد المشهورين بكفاءتهم، وهو يبعد عن شفشاون بأكثر من 100 كلم.

66) (جبل حبيب) قبيلة من إقليم تطوان تنسب إلى حبيب بن يوسف الفهري وهو من أسرة الفاتح عقبة ابن نافع الفهري ومن القواد الذي باشروا مهام القيادة زمن الفتح الإسلامي للمغرب. (البكري : 107).

ما كان القائد محمد المنظري الحفيد يشارك الأمير إبراهيم بن علي ابن راشد في العمليات الحربية.

4 - مرسى (وادئ لو) وكانت ميناء ورباطا بحريا تحت الإمارة الفعلية لبني راشد، هذه هي أشهر المراكز التي تساندها إمارة شفشاون وتعمل على تدعيمها وتعمل مع المجاهدين بها على تخطيط العمليات الحربية في الهجوم والدفاع. ضد الاحتلال الأجنبي للبلاد.

لمحة عن الوضع السياسي لإقليم شفشاون في القرن العاشر الهجري

من الصعب جدا أن يتناول الباحث الحديث بدقة عن الوضع السياسي في هذا الإقليم الجبلي الوعر، وبخاصة في هذه الفترة التي تجمع بين العهدين الوطاسي والسعدي.

وأبرز مظاهر هذه الصعوبة تتجلى فيما يلي :

أ - عدم الاهتمام بتدوين أحداث هذه الفترة بصفة عامة، أي على صعيد المغرب كله، وبالأحرى على مستوى هذا الإقليم، وهذا ما يشكو منه الباحثون والمؤرخون لهذه الفترة (67).

---

67) ندد ليفي بروفنصال في كتابه (مؤرخو الشرفاء) بعدم عناية المغاربة بتدوين التاريخ وأتى هناك بعدة نصوص تدعم كلامه، إلا أن كلامه هذا يحتاج إلى مناقشة، خاصة وانه يحمل في ثناياه لذعات مقصودة واستدلالات مهزوزة. انظر : الفصل الأول من الكتاب : (المغاربة والتاريخ) ابتداء من ص : 37 تعريب الأستاذ عبد القادر الخلادي ط : الرباط 1397 / 1977 من مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.
وظاهرة التشكي من عدم تدوين التاريخ المغربي اشتكى منها المغاربة أنفسهم انظر مثلا تصدير الأستاذ عبد الوهاب بن منصور لكتاب (روضة الآس العاطرة الأنفاس - لأحمد المقري التلمساني : المطبعة الملكية : 1383 / 1964. بالرباط.

2 ـ تشعب أحداث هذه الفترة تشعبا كبيرا وعلى الخصوص في هذه المنطقة التي تأرجحت بين الاستقلال والتبعية، والتي كانت لها وضعيتها الخاصة بها، تلك الوضعية التي فرضت عليها أن تكون من أهم الجبهات في مقاومة الاحتلال الأجنبي للبلاد.

3 ـ ضياع كثير من الوثائق الهامة التي كان في الإمكان لو وجدت أن تعطينا معلومات تلقي أضواء على هذه الفترة وبخاصة الوثائق الرسمية التي كتبت فعلا كظهائر تولية القضاة والقواد والعمال... والتقارير الإدارية والمراسلات الحكومية وما إلى ذلك، فوجود مثل هذه الوثائق يساهم في مساعدة الباحث على تفهم الأوضاع التي يريد البحث عنها.

وإذا كان من شأن هذه الصعوبات أن تحول دون الوصول إلى معرفة الواقع كما هو، فإن الباحث من خلال النصوص القليلة والمبعثرة يستطيع أن يصل إلى أهم المميزات التي تميز هذه الحقبة من الناحية السياسية والتي تتجلى فيما يلي :

أ ـ ضعف الحكم المركزي بالبلاد وذلك منذ أواخر العهد المريني وطوال العهد الوطاسي وكان من نتائج هذا الضعف أن عرفت البلاد موجة من الإضطرابات والفوضى.

ب ـ كان لسقوط الحصون والمدن الأندلسية في يد الإسبان والبرتغال أثر سيء في نفوس أفراد الشعب المغربي الذى كانت جماهيره تتطلع إلى الأخذ بالثأر، وتود ان لو كانت في البلاد سلطة مركزية في مستوى الأحداث.

ج ـ عرفت البلاد في هذه الفترة تدفق أفواج من المهاجرين الأندلسيين بالإضافة إلى مهاجري الثغور المغربية المحتلة كسبتة وطنجة وأصيلا. والقصر الصغير... وكان من شأن هذه الأحداث الأليمة ان تبعث على الياس من الحكم المركزي ذلك الحكم الذي انكشف ضعفه وعجزه غير ما مرة وهذا مما جعل بعض العلماء والزعماء ينادون بوجوب الجهاد والتطوع له ويرفعون عقيرتهم بذلك. كما لا حظنا ذلك عند ا بن يجبش التازي مثلا.

د ـ أصرار البرتغاليين والإسبانيين على توسيع مناطق احتلالهم بالمغرب إلى أقصى حد ممكن. والعمل على بسط نفوذهم على جميع أجزائه.

هـ ظهور بعض الزعامات المحلية متمثلة في جنوح بعض الإمارات إلى الاستقلال. وفي استبداد بعض شيوخ القبائل. وذلك نظرا لحالة التفكك والاضطراب وضعف الحكم المركزي ـ بالبلاد ومن بين هذه الزعامات إمارة بني راشد بشفشاون.

و ـ ظهرت في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي أطماع جديدة في احتلال المغرب من طرف الامبراطورية العثمانية قصد ضمه إلى مناطق نفوذها بشمال إفريقيا (68).

---

68) يؤكد د. عبد الهادي التازي في كتابه ـ جامع القرويين ـ : (ان المغرب احتفظ بكيانه فلم يستسلم أمام الغزو الصليبي الأوربي، ونجا من الغزو المغولي والمد العثماني وبذلك احتفظ بتراثه وأصالته العربية)... ج 2، 370.

وكان من شان هذه الاوضاع ان عرفت البلاد فترة قلق واضراب وبخاصة في الجزء الأخير من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر. ونظرا لذلك. نستطيع أن نقول : إن القرن العاشر الهجري بالمغرب ينقسم من الناحية السياسية إلى قسمين متمايزين : فنصفه الأول يتميز بالصراع العنيف الطويل بين الوطاسيين والسعديين. وذلك ابتداء من سنة : 915 / 1509م إلى سنة 961 / 1555.

أما نصفه الثاني فيتميز بتمركز النفوذ السعدي وشموله لمختلف مناطق البلاد بالرغم مما كان يلاقيه هذا النفوذ من أطماع البرتغاليين والعثمانيين الذين سيطروا على جميع البلاد العربية باستثناء المغرب.

والحقيقة أن ظهور القوة السعدية بالجنوب كقوة فتية تواقة إلى تحرير البلاد من الاحتلال الأجنبي. كان له أحسن الأثر في نفوس المغاربة. ويسجل التاريخ أنه مع ظهور القوة السعدية الجديدة بدأت مرحلة تارجع الاحتلال البرتغالي عن السواحل المغربية. وذلك نتيجة للضربات التي وجهها السعديون لمراكز الاحتلال البرتغالي وتجلى هذا التراجع في انسحاب البرتغاليين عن معظم الثغور التي كانوا يحتلونها (69).

---

69) تخلى البرتغاليون نهائيا عن (سانت كروث) ـ أكادير ـ سنة 1541 / 948 وانسحبوا تحت ضغط السعديين من ازمور وآسفي سنة 1545 / 952. وانسحبوا من القصر الصغير سنة 1549 / 957.

إلى أن تم القضاء على الأطماع البرتغالية نهائيا في معركة وادى المخازن الشهيرة سنة 1578/986 بقيادة السعديين.

وفي النصف الأول من هذا القرن كانت الإمارة الراشدية بشفشاون تتأرجح بين الاستقلال والتبعية للحكم الوطاسي، وثبت تاريخيا أن هذه الإمارة تمردت على الوطاسيين في بعض الأوقات وتشير الوثائق إلى تمردين اثنين أحدهما في سنة 901 / 1495 وكان على يد مؤسس الإمارة الراشدية بشفشاون على ابن راشد (ت 917 / 1511) والثاني كان سنة 948 / 1541 على يد محمد بن راشد (947 / 969هـ -) (70). وكانت الإمارة الراشدية تشمل مناطق من جبال غمارة، وبعض بلاد الهبط. فعلى نحو 100 كلم من شفشاون غربا، كان يوجد معسكر (الخروب) بقبيلة (جبل حبيب)، وهذا المعسكر يشرف مباشرة على السهول المتصلة بأصيلا وطنجة وهذه الناحية الغربية من الامارة الراشدية كانت تشمل قبائل بني حسان، وبني ليث، وبني يدر، وبني مصور، وبني عروس وجبل حبيب، وبني زكار.

اما من ناحية الشمال فكانت تشمل القبائل الغمارية الواقعة شمال شفشاون مثل بني زجل وبني زيات وبني سعيد وكانت مرسى وادي لو ببني سعيد تابعة لبني راشد بشفشاون، بينما كانت مرسى مرتيل تابعة لقيادة آل المنظري بتطوان (71)

(70) انظر المبحث المتعلق بأسرة بني راشد ص : 41.
(71) تاريخ تطوان م : 1 : ج : ص : 166.

ويستفاد من بعض المصادر أن نفوذ بني راشد كان يشمل مرسى مرتيل أيضا (72).

أما من الناحية الشرقية فكان نفوذ بني راشد يمتد إلى حدود منطقة اقطاع أبي حسون بباديس (73).

أما جنوبا فلم أعثر على ما يحدد ذلك، وإن كان الغالب على الظن أن حدودها أحيانا كانت تجاوز منطقة وزان بالجنوب الغربي، وقبائل بني زروال بالجنوب الشرقي.

وليس هناك ما يفيد أن هذه الحدود ظلت ثابتة إلى نهاية عهد بني راشد.

وكان بنو راشد داخل منطقة نفوذهم يتمتعون بنوع من الامتياز وهم في نفس الوقت كانوا يدينون بالولاء للوطاسيين ثم للسعديين من بعدهم.

ويلاحظ في هذا المجال، أن الوطاسيين الذين ألقوا الحبل على الغارب بالنسبة للأقاليم الجنوبية، أو اضطروا إلى ذلك، فإنهم كانوا على العكس من هذا، بالنسبة للمناطق الشمالية، فهذه كانوا يريدونها أن تبقى تحت نفوذهم، وذلك احتفاظا بهذا الجزء من البلاد، خاصة وأن هذه الجهات تعد بابا من أبواب فاس التي هي عاصمتهم، وهي في نفس الوقت تجاور أهم مراكز الاحتلال البرتغالي : سبتة، وطنجة، أصيلا، والقصر الصغير، وكانت

72) أسرة بني راشد بشمال المغرب لعبد الرحيم جبور ص : 27.

73) دائرة المعارف الإسلامية ج : 13. حرف الشين مادة شفشاون.

للوطاسيين مع الحكام البرتغاليين في هذه المراكز معاهدات والتزامات... فلم يكن من السهل عليهم أن يحال بينهم وبين هذا الاقليم.

وعمل الوطاسيون على كبح نزعة الاستقلال عند بني راشد (74) ـ كما سيأتي ـ وتحسنت العلاقة بين الإمارة الراشدية والوطاسيين وبخاصة في عهد الأمير ابراهيم بن علي بن راشد (917 ـ 947) الذي كان أكثر مرونة من والده وأخيه محمد، وكان يعرف كيف يوفق بين رغبة الجماهير الشعبية في الجهاد، وبين حرص الوطاسيين على الهدنة مع البرتغاليين.

ونظرا لهذه المرونة توطدت العلاقة بين الأمير ابراهيم وبين الوطاسيين ـ حسبما يأتي في ترجمته بحول الله ـ

ومن خلال المصادر التي رجعنا إليها يتضح : أن أمراء هذه الأسرة أحاطوا نفوسهم بمظاهر الإمارة، فعلي المؤسس، بنى القصبة ودار الحكم، والسجون للمعتقلين والمجرمين... واتخذ علما خاصا بإمارته ـ وهو العلم الأحمر ذو الشهرة الكبيرة ـ والذي كان يحمل أثناء الحروب والمعارك مع البرتغاليين.

وأحاط نفسه بمجموعة من المستشارين، والفقهاء، والطلبة، ورؤساء القبائل (75) وكان موظفوه يقبلون يده إجلالا وإكبارا له

(74) عبد الرحيم جبور (أسرة بني راشد...) ص : 31.

(75) الوثيقة العرضونية السطر : 27.

بما فيهم القاضي الذي كان من الشخصيات البارزة في إمارته (76) واتخذ بعض مظاهر الأبهة حيث كان - مثلا - جيش المجاهدين يودع ويستقبل في حفل بهيج، يحضره الناس من داخل المدينة وخارجها وتصدح الموسيقى التي كانت تستعمل آلات الطرب المختلفة : كالأبواق الضخمة والطبول الكبيرة والمزامير الجبلية ذات الأنغام السجية، ومما جاء في وصف أحد الاحتفالات بمناسبة دخول الغنائم إلى شفشاون قول الكاتب : «إن الغنائم كانت تدخل شفشاون على يد ولاتها الاشراف بني راشد وكان لهم اعتناء بذلك جدا، ويدخلونها في أبهة عظيمة، وزي عظيم ومعها آلات عظام من آلات الطرب، كالطبل، والنرجل - كذا - (77) والغيطة والأبواق ويمر ذلك، ويخرج أهل البلد رجالا ونساء وصبيانا بحيث لا يبقى في الدار إلا مريض أو صاحب عذر، اعتناء بذلك وإظهارا لمزية الإسلام على الكفر» (78).

هذا النص يصور لنا الاحتفال الذي كان يقيمه الرواشد بشفشاون عند رجوع الجيش المجاهد وهو محمل بالغنائم، فكانوا ينظمون استعراضا لهذه الغنائم وهذا الاستعراض يحضره أهل البلد جميعا برجالهم، ونسائهم، وأطفالهم، وكانت تصدح الأنغام

---

76) الدوحة ترجمة علي بن ميمون.

77) بحثت عن النرجل (هكذا) فوجدت نارجيلة : الجوز الهندي - فارسية - والنارجيلة : آلة يدخن بها التباك، والعامة تقول (الركيلة) انظر القاموس باب اللام فصل النون. ويحتمل أن تكون الكلمة تحريفا لكلمة (الأرغن).

78) (مناقب الأخوين) للشيخ الحسن بن محمد بن ريسون (ت : 1055) مخ. خ. ع. ر ورقة : 5 رقم : 2286 ك.

الموسيقية والناس في فرح وسرور، لأنهم، استطاعوا أن يثأروا من عدوهم وأن ينالوا منه، وأن يأسروا الأسرى، ويغنموا الغنائم... ومثل هذا الاستعراض يذكرنا بالحروب التي دارت رحاها بين المسلمين ونصارى الأندلس، حيث كانت الغنائم تدخل البلد المنتصر في جو من الفرح والتشفي من الأعداء...

وهذا المظهر مما قلد فيه بنو راشد المظاهر التي عرفتها المدن الأندلسية.

وإلى جانب هذا كانت الإمارة الراشدية بشفشاون تحاول أن تضفي على نفسها صفة الإمارة الشبيهة بالمستقلة، ويستفاد من المصادر : أن بني راشد كان لهم داخل منطقة نفوذهم حق تولية الموظفين وعزلهم، وهذا الامتياز بقي لهم حتى في العصر السعدي والدليل على ذلك، هو ان ابن عسكر الذي منعوه من تولية أية وظيفة داخل منطقة نفوذهم، لم يسعه إلا الالتحاق بالقصر الكبير، ومن هناك عمل على الإتصال بالسلطان عبد الله الغالب الذى أسند له القضاء والافتاء في قصر كتامة، لا بشفشاون، ولم تتحقق رغبة ابن عسكر في تولي منصب القضاء والافتاء بشفشاون إلا بعد نهاية بني راشد (79).

وهذا يؤكد ما قلناه من أن الرواشد وإن كانوا يدينون بالولاء للوطاسيين أولا، وللسعديين ثانيا، فإنهم كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي ـ لسنا ندرى حدوده بالضبط، ولكنه

---

79) عن هذا الموضوع انظر ترجمة ابن عسكر بقسم التراجم.

نوع من الاستقلال على أى حال ـ ويبدو أن وضعهم هذا كان من الحوافز التي دعت السلطان عبد الله الغالب السعدي أن يقضي على إمارتهم تماما وأن يوجه لهم جيشا قويا بقيادة الأمير محمد بن عبد القادر في شهر صفر سنة 1561/969 وقضت هذه (الحركة) على الرواشد بشفشاون ولم تبق على أحد منهم بها (80) بعدما مكثوا في الحكم نحو قرن من الزمن. وبعد الرواشد تولى الحكم بشفشاون القائد عبد الكريم العلج، ثم بنوه من بعده.

وأولاد العلج كانوا من رجال الدولة السعدية، ومن الخدام الأوفياء للبيت السعدي (81) ولسنا ندرى بالضبط المدة التي قضوها حكاما على شفشاون وإقليمها والغالب على الظن أنهم استمروا إلى نهاية القرن العاشر الهجري، وإلى أوائل الحادي عشر.

---

80) هرب الأمير محمد بأسرته إلى المشرق ونفي السعديون الباقين منهم إلى مراكش.

81) جاء في دائرة المعارف الإسلامية ط : العربية ج : 13 حرف «ش ص» : 331. ما يلي : (ثم خلع ـ أي عبد الله الغالب ـ اقطاع شفشاون على حفيد مومن العلج وكان جد مومن يحيى (أو محمد) العلج تاجرا من أهل جنوة تزوج الابنة الجميلة لزعيم ناحية تيجوت المستقلة، وكان هذا الزعيم مستقلا بها أو يكاد فلما مات حموه انتخب أهل الناحية هذا التاجر الجنوى زعيما لهم واكتسب رضا الشرفاء السعديين بالسماح لهم باجتياز أرض حاحا، وكان ابنه الأكبر مومن قد التحق بخدمة السعديين كما كان من أشد أنصارهم ولاء لهم). وجاء ذكر أفراد من اولاد العلج هؤلاء في روضة الآس لمحمد المقري.

حيث عرف بعبد الرحمن بن عبد الكريم بن مومن العلج ص : 110. المطبعة الملكية بالرباط : 1383 / 1964.

وفي نزهة الحادي للافراني ص : 217. الطبعة الثانية بالرباط سنة 1977 ذكر منهم القائد عبد الكريم.

وفي تاريخ تطوان لمحمد داود : 1 : 129 / (وكان عبد الرحمن العلج قائدا بتطوان) نقلا عن المؤرخين : السكيرج والرهوني.

والمعلومات التي عثرنا عليها عن هذه الأسرة قليلة ولا تلقي عليها أضواء كاشفة وخاصة فيما يتعلق بوجود أفراد منها بشفشاون.

لان الشيخ أحمد المقرى (ت : 1041) الذي لقي عبد الرحمن العلج حوالي سنة (1010)هـ بفاس، يذكر أن له أخا هو قائد ثغر تطوان لهذا العهد (82).

ومهما يكن من أمر فإن شفشاون من الناحية السياسية دخلت تحت النفوذ السعدى بصفة نهائية بعد القضاء على إمارة بني راشد بشفشاون.

82) روضة الآس : ص : 110 وهذا القائد الذي ذكره المقري في روضة الآس لم يذكره الأستاذ داود من بين قواد تطوان في هذه الفترة.

القسم الأول

شفشاون وأحوازها

المبحث الأول :

مدينة شفشاون

يشتمل هذا المبحث على النقاط الآتية :

أ ـ موقع المدينة.

ب ـ اسم شفشاون.

ج ـ أسباب تأسيسها.

د ـ أحوازهـا.

أ ـ موقع المدينة وموضعها :

تقع مدينة شفشاون في أقصى الشمال الغربي للملكة المغربية وهي بالقسم الغربي من سلسلة جبال الريف، تفصلها عن البحر المتوسط جبال شاهقة وأودية متحجرة وتبعد عن الساحل بنحو أربعين كيلو مترا.

والمدينة تقع تحت خط عرض : 10 و35 من خطوط العرض الشمالية وتحت خط طول : 17، 5 غرب كرينيش.

اما موضع المدينة فهو على الضفة اليمنى لنهر شفشاون النابع من جبل تسملال المطل على المدينة نفسها، فموضع المدينة إذا على سفح جبل تسملال الذي هو عبارة عن كتل من الحجر الجيري الصلب.

وتحيط بهذا الموضع جبال عالية من ناحية الشرق والشمال (جبل ماكو) (جبل تيسملال) (جبل بوحاجة) (83).

وينفتح موضع المدينة من الجهتين الغربية والجنوبية على منحدر ينتهي عند مجرى (وادي لو) الذي يرفده وادي شفشاون ويلتقي معه على بعد نحو أربعة كيلومترات.

وعلى (وادي لو) هذا يقع (سد تلمبوط) (84).

والمدينة في موضعها الجبلي يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر حوالي (600م) - وهذا معدل عام بالنسبة لجميع أجزاء المدينة.

وترتفع بعض قمم الجبال المحيطة بها الى : 2.122م عن سطح البحر (85) كما هو الحال بالنسبة لقمة جبل (تيسوكا) (86).

---

83) هذه أسامي محلية - وجبل (ماكو) شرق شفشاون اشتهر منذ القرن العاشر الهجري لوجود زاوية الشيخ عبد الله الهبطي به، وتسملال جبل شاهق يشرف على شفشاون تكثر به الأشجار العالية من صنوبر وارز وعرعر... وتكثر به منابع المياه الباردة وتكسوه الثلوج معظم فصل الشتاء والصعود إلى أعلاه يحتاج إلى جهد ومعاناة، بوحاجة جبل صغير اجرد تقريبا يشرف على المدينة من الجهة الشمالية.

84) هذا السد كانت تعتمد عليه منطقة الحماية الاسبانية سابقا في مدها بالتيار الكهربائي.

85) انظر الخريطة الطبيعية رقم : 493 من إنتاج مديرية المحافظة العقارية والأشغال الهندسية، وهي خريطة تعطي معلومات عن تضاريس الإقليم.

86) (تيسوكا) حاليا مدشر من مداشر الأخماس العليا على نحو سبع كيلومترات شرق مدينة شفشاون، ويشتهر هذا المكان بينابيع مائه البارد وبكثرة الأخشاب من الصنوبر

ب ـ : اسم شفشاون

كلمة شفشاون هي من اللهجة الأمازيغية ومعناها : قرن أو قرون (87) وقيل معناها مكان يجتمع فيه الناس بعضهم ببعض (88).

وقبل تأسيس مدينة شفشاون كانت الكلمة مستعملة وكانت كلمة شفشاون اسما يطلق على قرية وعلى واد بإقليم حاحة بالجنوب الغربي لمراكش، أورد ذلك كل من أبي عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك ـ قسم افريقيا والمغرب ـ حيث قال أن (شفشاون) تبعد بثلاثين ميلا عن نفيس (89) وابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي (ت 627) في كتابه : (التشوف الى رجال التصوف، وصاحب (مستفاد الرحلة والاغتراب) للقاسم بن يوسف التجيبي السبتي.

وهذه الكتب كلها تحدثت عن شفشاون حاحة (90).

والعرعار، وبجودة عنبه وتينه الأسود الذي ينضج في أواخر فصل الخريف وهو تين جيد للغاية.

87) الأستاذ شفيق مجلة البحث العلمي العدد : 25 السنة 13 عام : 1976.

88) تقييد عن شفشاون لمحمد الصادق بن ريسون مخ. خاص ص : 3.

89) ذكر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في معلمة المدن والقبائل أن البكري أطلق اسم شفشاون على شيشاوة (فليتأمل) : لأن ذلك لايستفاد من المراجع الآتية.

90) المسالك والممالك لأبي عبيد البكري (تـ 578 هـ) ص 154 ط الجزائر.
التشوف إلى رجال التصوف لأبي يعقوب التادلي
مستفاد الرحلة والاغتراب للقاسم التجيبي السبتي ص : 321.
وجاء في دائرة المعارف الإسلامية (حرف الشين مادة شفشاون) ان اسم شفشاون ينطق أحيانا : (شاون) و (تشاون) واكشاون إلا أن الاستعمالات المتداولة هي : شاون وشفشاون

أما شفشاون التي هي مدينة بشمال المغرب، فالاسم كان يطلق على موضعها قبل بنائها. وعلى الجبل الموجودة به أيضا. وعن جبل شفشاون يقول الحسن بن محمد الوزان : «هذا الجبل أكثر جبال إفريقيا بهجة». إلا أن الاسم لم يشتهر إلا بعد تأسيس المدينة في أواخر القرن التاسع الهجري، ويلاحظ أن المؤرخين لأحداث هذه الناحية لم يذكروا اسم شفشاون وذلك مثل البكرى، والبيذق، وا بن خلدون...

هذا مع العلم أن هناك من يقول : أن مدينة شفشاون الحالية هي تجديد لمدينة رومانية كانت تدعى Appinumm أبينوم (91) أو تجديد لمدينة أخرى كانت توجد بجوارها، وقريبة من موضعها الحالي، كانت تسمى (البليدة)، وما زالت بعض أسوار البليدة قائمة الى يومنا هذا، والمكان يسمى حاليا (بقاع الدشر) (92) ويقال كذلك : إن شفشاون كانت تسمى (مدينة الثعبان) لأن قوما من العمالقة سكنوها، وبنوا على الثعبان فسميت بذلك، ثم ارتحلوا عنها وبقيت خالية الى أن سكنها الشريف ا بن راشد (93).

ونجد ليون الإفريقي في النصف الأول من القرن العاشر (هـ) يسمي الجبل الذي توجد به المدينة : (جبل شفشاون) ويظهر من كلامه، أن الاسم كان شائعا. (وصف إفريقيا) : ص، 335 : ط الرياض.

91) المعجم التاريخي للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله ص 63 ومعلمة المدن والقبائل : حرف الشين مع الالف، والشين مع الفاء ص 284 و ص 288.

92) حاج وحاجة لعبد السلام بن يحيى مقدمة الكتاب ص : 10.

93) (الوثيقة العرضونية).

ج : أسباب تأسيس مدينة شفشاون

جاء في نشر المثاني : (اختط شرفاء العلم مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة، إذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على تلك المداشر..) (94).

يذكر هذا النص هنا صراحة : أن المدينة أسست لتحصين المسلمين من نصارى سبتة، ومما لاشك فيه أن البرتغاليين الذين احتلوا سبتة (818 هـ/1415م) أصبحوا بعد مدة من هذا الاحتلال يهددون المناطق المجاورة لهم، وحاولوا أن يبسطوا نفوذهم على مناطق شاسعة من شمال البلاد.

ومن أجل هذه الغاية أصبحوا يهاجمون المداشر والقرى...

وأمام هذه الهجومات البرتغالية الشرسة كان لابد من التفكير في اتخاذ مكان حصين للاستقرار به في مأمن من غارات العدو... وللعمل في نفس الوقت على صد هجوماته وغاراته.

ومن أجل ذلك روعي في تأسيس مدينة شفشاون أمران هامان :

1 - البعد عن المناطق المهددة بأخطار الهجومات المتوالية من طرف البرتغاليين.

2 - الحصانة والمنعة الطبيعية، حتى لا تباغت المدينة بسهولة. والجدير بالملاحظة : أن شفشاون بموقعها في سفح جبال شاهقة، وببعدها عن سبتة بحوالي مائة كيلومتر، كانت

---

94) محمد بن الطيب القادري (تـ 1187 هـ - 1773م) بنشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، جزآن. ط : حجرية بفاس. (1310 هـ / 1892م) ج 1، ص : 61.

تتوفر على الشروط المطلوبة لتجعل منها مكان استقرار، ومكان تجمع لتنظيم عمليات المقاومة.

وعلى هذا فالمدينة لم تؤسس كرباط قريب من مناطق الاحتلال بل أسست في موقع استراتيجي يمكن الاستقرار فيه، والاطمئنان إليه (95) هذا ومن المعلوم أن الظروف التي أسست فيها مدينة شفشاون كانت من أخطر الظروف التي عرفتها السواحل الشمالية للبلاد، بل كانت هذه الظروف من أخطر ما عرفته البلاد المغربية بصفة عامة، لأن البرتغاليين بعد احتلالهم لمدينة سبتة أصبحوا يصرون تمام الاصرار على احتلال أهم ثغور شمال المغرب كطنجة، والقصر الصغير، وأصيلا... (96).

وكانت تدفعهم الى ذلك حوافز وبواعث متعددة فهم كانوا قد تحرروا قبل اسبانيا من النفوذ العربي في شبه جزيرة إيبيريا، وهم في نفس الوقت، كانوا قد عقدوا معاهدة صلح مع قشتالة (97) وبذلك فهم كانوا يريدون أن يصرفوا نشاطهم وحيويتهم في

---

95) ومما يجرى على السنة الناس بشفشاون أن البرتغاليين هاجموا مدينتهم وكان الفصل صيفا : ونادى الناس بعضهم على بعض فأسرعوا ملبين وهم يحملون أسلحتهم ومناجلهم وحملوا عليهم حملة صادقة فردوهم منهزمين.
والطريق من سبتة إلى شفشاون لها مسلكان كلاهما يمر بشعاب الجبال والأودية الصعبة الاجتياز.

96) المسلك الأول : من مرسى وادى لو) عبر قبيلة بني سعيد فقبيلة بني زجل فشفشاون وهو مسلك وعر إلا أن مسافة هذا الطريق هي أقصر مسافة بين البحر وشفشاون.
أما الطريق الثانية : من مرسى وادي مرتيل عبر قبيلة بني حزمر فقبيلة بني حسان فشفشاون ويبدو أن الطريق الذي كان يستعمل لمثل هذه الغارات اليائسة كان هو الطريق الأول لقصر مسافته.

97) عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص 77 وما بعدها ط 2. 1958م.

الحرب ضد المسلمين وكانوا يرون أن الحرب في هذا الميدان هي حرب بطولة ونبل، خاصة وأن عدوهم التقليدي المخالف لهم في الدين لا تفصلهم عنه إلا مسافة قصيرة عبر ممر بحري، ولذلك كانوا يرون أن من واجبهم أن يخوضوا حربا ضروسا ضد هذا العدو الذي هو قاب قوسين أو أدنى منهم... ولقد عبر عن هذا الواقع الكاتب البرتغالي (فاسكودي كاربلو) قائلا :

((كان شباب البرتغال يتحرقون شوقا الى القتال لكن ضد من ؟ أين يجدون العدو ؟ إذ أننا من جهة عقدنا الصلح مع قشتالة، ومن جهة أخرى يواجهنا البحر، ولكن بمقتضى تقاليدنا ومصلحتنا فإن العدو ما يزال هو المسلم فإن كان قد التجأ الى ما وراء البحر، فيجب أن نذهب للبحث عنه هناك، يجب أن نطارد الوحش في مكمنه...)) ويزيد قائلا : ((في الوقت الذي ضعفت فيه الروح الصليبية في كل أوربا فإنها أخذت تنتعش في البرتغال...)) (98).

وهذه الروح الصليبية الحاقدة المتأججة كان من ورائها البلاط الملكي في لشبونة، وعلى رأسه الملك والأسرة المالكة، وكان رجال الكنيسة من قساوسة ورهبان يمجدون التضحية من أجل الانتصار على الإسلام الذي هو العدو الحقيقي عندهم.

ومن أجل تعميق الحقد الصليبي ضد المسلمين كان البيت الملكي في لشبونة يمنح أوسمة الفخار والنبل لمن يحقق انتصارا

98) مجلة البحث العلمي العدد : 9 دجنبر سنة 1966م . ضمن بحث كتبه الأستاذ محمد الفاسي عن معركة وادي المخازن ص : 217.

على المسلمين في اي جهة من جهات العالم الإسلامي، وخصص لذلك أكبر وسام في الدولة.

وهو وسام السيد : الأعظم... وأمام ذلك الحماس وتلك التشجيعات كانت الثغور المغربية هي الأهداف الأولى للغزو البرتغالي.

ومما يؤسف له أن الأطماع البرتغالية وجدت جوا ملائما ومساعدا لتحقيق البعض منها، وتمثل هذا الجو الملائم في ضعف جهاز الحكم بالمغرب، لأن الفترة الأخيرة من العهد المريني عرفت تحكم الحجاب والوزراء وتنافسهم على الاستبداد بالنفوذ لإرضاء مصالحهم الخاصة ومن أجل ذلك ساد بينهم جو من الدسائس والمكائد والوشا يات ونصب الأفخاخ لبعضهم البعض...

واستقطب الخوض في هذه الدسائس والمكائد مجهود وتفكير جهاز الحكم بكيفية لم يعرف لها مثيل (99).

وكانت هذه الأوضاع المزرية التي يعيشها المغرب في هذه الفترة فرصة مواتية جدا لأطماع البرتغاليين، ومعنى هذا، أن الفتوة والحماس اللذين عرفتهما البرتغال في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، كان يقابلهما في المغرب هرم وتفكك وحروب داخلية (100).

---

99) نفاضة الجراب (لابن الخطيب) فبعض صفحاتها تصور لنا الحالة التي تردت فيها البلاد بعد موت السلطان أبي عنان، وخاصة ص 303 ـ 309 ط : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة (ثراتنا) بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي.

100) انظر تفاصيل هذه الأحداث بالجزء الرابع من كتاب الاستقصا لأحمد بن خالد الناصري ج 4، من ص : 3 إلى 101.

وأمام هذه الأوضاع التي كان يتخبط فيها الحكم المركزي بالبلاد فكر أفراد من الشعب المغربي المسلم في الاعتماد على أنفسهم وإعلان الجهاد، ورأوا أن الواجب يفرض على الأحرار أن يتصدوا للغزو البرتغالي : من أجل إيقاف الزحف الصليبي الذي يهدد الوطن والمواطنين.

وتبلورت هذه الأفكار في حماس شعبي يهدف الى تحرير ثغور البلاد وتطهيرها من الاحتلال الأجنبي، ومن أجل ذلك نظمت حركة جهادية قام العلماء والفقهاء فيها بدور الزعامة، حيث دعوا الناس للتطوع في الجهاد، ودعوهم الى البذل والتضحية والفداء، مبينين لهم أن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة للمحافظة على العقيدة الإسلامية وعلى كرامة الوطن...

وكان التفكير في أمر الجهاد والاستعداد له من أبرز الأسباب لإنشاء مدينة بجبل شفشاون (101)، لأن المجاهدين في هذه النواحي كانوا في أمس الحاجة الى مكان حصين تقيم فيه أسرهم، وتقوم فيه أنشطة الحياة العادية، ويقيهم في نفس الوقت مفاجآت العدو ومباغتاته...

وعن تأسيس مدينة شفشاون جاء في مرآة المحاسن ما يلي :

101) عن جبل شفشاون يقول الحسن الوزان : هذا الجبل أكثر جبال افريقيا بهجة، به مدينة صغيرة مليئة بالصناع والتجار. «وصف افريقيا الترجمة العربية ص : 335»

((كان ابتداء تخطيطها في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة وهي عدوة وادي شفشاون (102) في حدود سنة 876 هـ/1471م على يد الشريف الفقيه الناصح المجاهد أبي محمد الحسن المعروف بابن جمعة وهو الحسن بن محمد بن عثمان بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال ابن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش، ومات شهيدا قبل اتمام ما شرع فيه - بتدبير من النصارى - دمرهم الله - مع أهل النفاق إذ ذاك من أهل الخروب (103) وقام مقامه فيما كان بسبيله من الجهاد والاستنفار له، وتجييش الجيوش ابن عمه الأمير الجليل الفاضل الأصيل أبو الحسن علي ابن موسى بن راشد الى آخر النسب المتقدم فشرع في اختطاط مدينة شفشاون في العدوة الأخرى فبنى قصبتها وشيدها وأوطنها بأهله وعشيرته، ونزل الناس بها وبنوا، وصارت في اعداد المدائن...)) (104).

يستفاد من هذا النص، أن الشرفاء العلميين الذين كانوا يقطنون بقرب موضع شفشاون الحالي هم الذين عملوا على انشاء

---

102) (العدوة) هذا الاسم يطلق على هذه الجهة إلى يومنا هذا.

103) انظر : تعليق رقم : 65.

104) مرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي ص 168 ط. ح. ف. وجاء في الوثيقة العرضونية ان شفشاون كانت قائمة الذات قبل دخول ابن راشد إليها فهي تقول «ولما عزم على الدخول إلى المدينة - أي ابن راشد - سأل عنها فوجد فيها رجلا عابدا فسأل عن اسمه فقال له أهل البلد : هذا هو الولي الصالح (سيدي أبي خنشة) ثم شاوره في الدخول إلى المدينة ليسكنها فسمح له بالدخول فدخل وسكن، هو ومن كان معه من العساكر وأهل مشورته واجتمعت عليه القبائل... ومعنى هذا أن المكان كان مسكونا قبل إنشاء علي ابن راشد لابنيته بالمدينة كالقصبة ودار الامارة والأبراج والأسوار...

هذه المدينة. ونرى المؤلف هنا يصل بنسب أبي محمد الحسن ابن جمعة ونسب ابن عمه علي بن موسى بن راشد الى جدهما الأعلى الشيخ عبد السلام ابن مشيش.

ويذكر صاحب النص، أن المدينة بنيت قصبتها أولا، ثم شيدت ابنيتها الأخرى، ونزلها الناس فبنوا، وبذلك صارت في عداد المدائن.

ويذكر كذلك أن شفشاون خططت في أول الأمر على الضفة اليسرى لنهر شفشاون ثم بعد موت الحسن ابن جمعة العلمي نقل ابن عمه على بن راشد البناء الى الضفة اليمنى للنهر إلا أنه لا يذكر سببا لذلك.

ونجد ذكر سبب نقل مشروع بناء المدينة من الضفة اليسرى الى الضفة اليمنى عند السيد محمد الصادق بن ريسون (ت 1375 هـ) في تقييده عن تاريخ شفشاون وفي ذلك يقول :

((... وبايعته القبائل، وشرع في اتمام ما ترك ابن عمه من البناء، وأشار عليه الناس بأن هذا الموضع يهدمه السيل دائما وأبدا فترك ذلك الموضع وانتقل الى الموضع الذي هو مركز شفشاون الآن في سفح الجبال، لوجود نهر من الماء أعلاه...)) (105).

ومعنى هذا أن الموضع الأول كان السيل يجرف تربته، وكانت تربته معرضة للإنهيار، وهذه ظاهرة ما تزال تلاحظ في هذا المكان الى يومنا هذا، ولذلك فتلك الملاحظة كانت وجيهة للغاية.

105) محمد الصادق بن ريسون في تقييده عن تاريخ شفشاون.

ويبدو ان اختيار الموضع الأول كان الملاحظ فيه هو قربه من مدشر (غاروزيم) الذي هو مقر الشرفاء العلميين مؤسسي المدينة كما لوحظ فيه أيضا كونه شرق نهر شفشاون، الشيء الذي لا يحتاج معه الى قطع النهر للوصول الى المدينة، أما الموضع الثاني فهو يقع غرب نهر شفشاون ولا بد من اجتياز النهر للوصول اليه، بالنسبة لمن يأتيها من مدشر (غاروزيم) قرية الشرفاء.

ومهما يكن من أمر فإن علي بن راشد نقل مشروع بناء المدينة من شرق نهر شفشاون الى غربه ـ أي الى المكان الذي هو أكثر حصانة وقاعدته أكثر صلابة ومياهه متوفرة بغزارة : فبنى القصبة والأبراج ودار الإمارة، وبعض الدور لموظفيه.

ويقال إن الأمير علي ابن راشد اشترى مكان القصبة والجامع الكبير من أناس من مدشر بني جبارة، حيث كان هذا المكان انادر لهم (106)، ويذكر صاحب المرآة في النص السالف أن الناس نزلوا وبنوا بعد ما شيد الأمير ابنيته الخاصة به، وأوطن المدينة بأهله وعشيرته.

ولا شك أن هذه الحركة جعلت المدينة تنمو بسرعة وتصير في جملة المدن في ظرف قصير جدا.

ومعنى ذلك أن الناس شعروا بالأمن والطمأنينة وأقبلوا على الحياة العادية، وهذا ما يشير اليه الحسن بن محمد الوزان، الذي

---

106) مجلة دعوة الحق العدد الأول السنة السادسة ص 28 سنة 1962م موضوع عن مسجد الشاون الأستاذ سعيد أعراب، ونقل عنه صاحب كتاب (حاج وحاجة) في المقدمة عبد السلام المكي بن يحيى.

ودائرة المعارف الإسلامية ج : 13 الترجمة العربية حرف الشين مادة شفشاون.

مر بالمدينة في مطلع القرن العاشر الهجري والذي يصفها بأنها : مدينة صغيرة حافلة بالصناع والتجار)) (107).

وبالرغم من الظروف التي أحاطت بتأسيس مدينة شفشاون، فإنها عرفت نشاطا تجاريا وصناعيا منذ الفترة الأولى من حياتها، وعرفت بالإضافة الى ذلك ازدهارا عمرانيا، حيث أصبحت المدينة في أقل من نصف قرن تضم ستة أحياء سكنية وهي :

1 - حومة السويقة.

2 - الخرازين.

3 - ريف الأندلس

4 - ريف الصبانين (108)

5 - حومة العنصر (109)

6 - حومة السوق.

ويلاحظ أن أسماء هذه الأحياء تدل على المرافق التي أصبحت تعرفها المدينة، كالسوق، والسويقة، والخرازين، والصبانين...

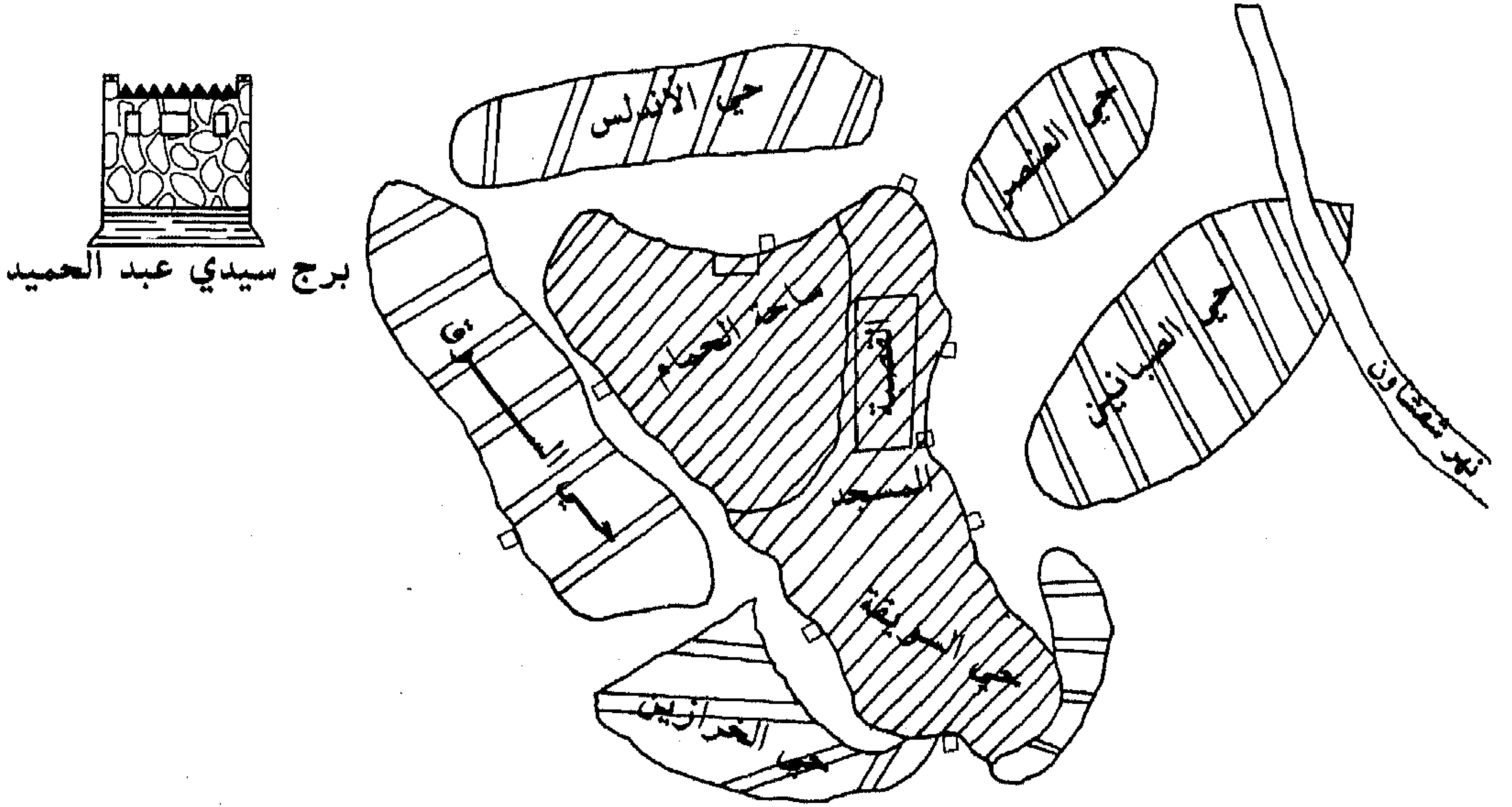
---

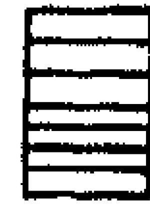
107) الحسن بن محمد الوزان (وصف افريقيا) ص : 335 القسم الثالث (منطقة الريف) الترجمة العربية سنة 1399 هـ ودائرة المعارف الإسلامية ج 13 الترجمة العربية حرف الشين (مادة شفشاون).

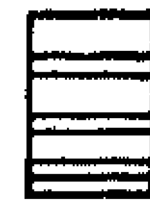
108) ريف الأندلس وريف الصبانين : أي الحومتان القريبتان من الماء، وكانت الحومتان في القرن العاشر وما قبله مكسوتان بالأشجار المخضرة، وفي نفس الوقت قريبتان من نبع الماء، حيث تمر بالأولى ساقية كبيرة تتفرع عنها شبكة المياه، ويمر بالحومة الثانية نهر شفشاون. (وهذا معنى ريف في العربية).

109) سميت هذه (الحومة) بذلك لأنها الحومة التي يقع بها العنصر الرئيسي للمياه التي تغذي المدينة وما حولها.

تصميم بياني للتطور العمراني
بمدينة شفشاون في القرن العاشر الهجري



 أصل المدينة في الربع الأخير من القرن التاسع

 الأحياء الجديدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري

عدد السكان 10.000 نسمة

عناصر السكان :
- مغاربة : 6.000
- أندلسيون : 3.000
- يهود : 1.000

ومن هنا لا نستغرب قيام حركة ثقافية تواكب النشاط التجاري والصناعي بالمدينة.

د . أحواز شفشاون

أقصد بالأحواز في هذا البحث الأماكن القريبة من مدينة شفشاون والتي لا تبعد عنها كثيرا، والتي هي ذات صلة مستمرة بالمدينة سياسيا، واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا...

ومن أشهر هذه الأحواز :

قرية (غروزيم) ـ التي هي جزء من الأخماس العليا ـ

وهي قرية كبيرة تنقسم عرفا الى قسمين (غروزيم) العليا و(غروزيم) السفلى.

وهذه القرية تقع جنوب مدينة شفشاون وتكثر بها العيون والمياه والحدائق والبساتين ذات الفواكه المختلفة وبخاصة أشجار التوت، والتين، والبرقوق، وأشجار الزيتون، وحب الملوك، والرمان... ومختلف الخضر، وهي تتمتع بالمنظر الأخضر الجميل طول السنة.

وقرية غروزيم تتوفر على عدة مساجد من أشهرها مسجدان جامعان : أحدهما (بغروزيم) العليا، والآخر بغروزيم السفلى، يسمى الأول بمسجد (سيدي السبع) والثاني بمسجد (سيدي الدويب) وكلا الاسمين كان لقبا لعلمين من أعلام القرية فسيدي السبع يطلق على الولي الصالح سيدي علي بن الفقيه سيدي عيسى بن علي العلمي وهو أحد أحفاد الشيخ الأكبر عبد السلام

بن مشيش. وسيدي السبع هذا هو جد القاضي أحمد العلمي (ت : 1027 هـ) (110).

أما سيدي الدويب فاسم لشخص عرف بالصلاح (111).

واشتهرت مساجد (غروزيم) بطلبتها وفقهائها. وفي النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، برز من بين فقهاء (غروزيم) الفقيه المجاهد السيد الحسن بن محمد العلمي الشهير (با بن جمعة) (ت : 876هـ) وترأس هذا الفقيه الحملات الجهادية ضد الاحتلال البرتغالي لثغور المغرب الشمالية وبخاصة بعد سقوط طنجة وأصيلا (112).

وإلى هذا الفقيه ابن جمعة يرجع الفضل في التفكير بإنشاء مدينة حصينة لإيواء أسر المجاهدين وسكناهم، ولتكون في نفس الوقت منطلقا للعمليات الجهادية.

والفقيه (ابن جمعة) بدأ بتنفيذ مشروعه على الضفة الشرقية لنهر شفشاون إلا أنه بعد اغتياله من طرف البرتغاليين نقل ابن عمه علي بن موسى بن راشد المشروع الى الضفة الغربية حيث توجد شفشاون الحالية.

+ غروزيم : معناها بالبربرية هضبة الأسد أو اجمته وكانت غروزيم تسمى أيضا (بربوة الشرفاء).

110) انظر ترجمة أحمد بن علي العلمي في مرآة المحاسن ط. ح. ف. ص 167 انظر ترجمته بقسم التراجم، ص : 446.

111) لم أعثر على ترجمته.

112) الحسن بن محمد (ابن جمعة) عرف به صاحب مرآة المحاسن : 162. وصاحب نشر المثاني ج 1. ص : 220 ط : الرباط.

وكانت قرية غروزيم تتوفر على عدة فقهاء : كأبي محمد الحسن بن جمعة السالف الذكر، وابن عمه علي بن راشد، وعلي الشريف العلمي، (113) وغيرهم. ومما يتواتر عند أهل شفشاون : أن فقهاء غروزيم كانوا يصعدون من قريتهم لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأعظم بشفشاون في أربعين (سريجة) - أي أربعين بغلا مسرجا - ومهما يكن من أمر العدد فإن هذا التواتر يدل على وفرة الفقهاء الذين كانوا يقطنون بهذه القرية.

وسكان قرية غروزيم يوجد من بينهم عدد كبير من الشرفاء (العلميين) بالإضافة الى عناصر أخرى من السكان الأندلسيين الذين سكنوا هذه القرية في فترات مختلفة ومن الأسر الأندلسية بغروزيم (أولاد برهون) (وأولاد الكوطيط) (114) وغيرهم.

وأهل عروزيم معظمهم يشتغل بالزراعة وبخاصة زراعة الفواكه والخضر وذلك نظرا لوفرة المياه الموجودة بالقرية وبخاصة مياه نهر شفشاون الذي يمر بجوارها والذي تتفرع منه بعض الفروع لتسقي بساتين قرية (غروزيم).

وبالإضافة الى الزراعة وتربية الماشية، يشتغل بعض السكان بالحياكة، وهم ماهرون فيها، ومن المعلوم أن الحياكة هي الصناعة الرئيسية بمدينة شفشاون المجاورة لهم.

---

113) جاء وصفه في تقييد عن أنساب شرفاء القوس بشفشاون بالفقيه العلامة المفتي (تقييد خاص بشفشاون).

114) الكوطيط لعل أصلها : Caudillo وهو الزعيم في اللغة القشتالية.

ومن أحواز شفشاون كذلك قبيلة بني زجل الغمارية والى هذه القبيلة تنسب مدينة شفشاون فيقال (شفشاون غمارية زجلية).

وقبيلة بني زجل تضم الفرق الآتية :

1 ـ بني شداد

2 ـ القلعة

3 ـ بني منصور

4 ـ اشكورا

وكل فرقة من هذه الفرق تتوفر على مسجد جامع، وعرفت بعض مساجد هذه القبيلة، نشاطا فكريا خلال القرن العاشر الهجري. كما سنلاحظ ذلك فيما بعد.

ومن فرق بني زجل الموالية لشفشاون فرقة (القلعة) وتقع شمال شفشاون وكانت هذه الفرقة في القرن العاشر تتوفر على أسر تنتمي للثقافة والعلم، وكان يوجد من بين هذه الأسر الفقهاء والعلماء والقضاة والمثقفون... مثل أسرة آجليان، ومن أفرادها عبد الله آجليان صاحب النزاع المشهور مع أبي سالم ا براهيم الكلالي (ت : 1047 هـ) في (قضية الهاربة) (115) ذلك النزاع الذي كان من نتائجه تأليف كتاب (تنبيه الصغير من الولدان...) (116).

---

115) هذه القضية شغلت الفقهاء فترة من الزمن وثار الجدال حولها في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري (انظر : الجواهر المختارة..) نوازل عبد العزيز الزياتي الغماري (تـ 1055 هـ) في باب النكاح مخطوط : م. ع. ت : رقم 178 ونوازل العلمي في باب النكاح كذلك ج : 1 ص : 45 وما بعدها.

116) اسمه الكامل : «تنبيه الصغير من الولدان في ما وقع في مسألة الهارب مع الهاربة من الهذيان لمدعي استحقاق الفتوى آجليان» وهو كتاب مهم جدا لأن صاحبه اضطر في رده على اجليان أن يعرف بنفسه كطالب علم درس على الشيوخ الكبار فوصفهم ووصف

وأسرة آجليان ذكرها محمد الصغير الهبطي في فوائده ونسبها الى (الشرف) هي، ومجموعة من الأسر الزجلية (117).

وممن تحدث عن هذه الأسرة أبو الربيع سليمان الحوات في كتابه (ثمرة أنسي في التعريف بنفسي) ذاكرا أنها احدى (118) الأسر القرشية التي سكنت المنطقة منذ زمن الفتح الإسلامي.

ومن أسر فرقة (القلعة) بضواحي شفشاون أسرة أولاد مخشان، ومنها العلامة القاضي محمد مخشان الذي شغل منصب القضاء في كل من شفشاون، وتطوان، وكان يدرس بهما معا، واشتهر بدروسه في التفسير... (ت 1042 هـ) (119) وأولاد أشغاف الذين ظهر من بينهم بعض الفقهاء (120).

مجالسهم العلمية والمواد التي كانوا يدرسونها فجاءت مقدمة الكتاب وصفا حيا للحياة الثقافية بالقرويين في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري وبعد ذلك تطرق الكتاب لمعالجة موضوع الخلاف...

117) (فوائد) محمد الصغير بن عبد الله الهبطي ـ مخطوط خاص ـ بتطوان، ويرد فيه على أحمد ابن عرضون الذي لم يعترف بالنسب الشريف لهذه الأسرة.

118) (ثمرة انسي في التعريف عن نفسي) الورقات الأولى من المخطوط أثناء الكلام عن زوجات والده وان احدى زوجاته كانت من اولاد آجليان من بني زجل، وعرف ببعض الأسر الزجلية، نقلا عن القاضي أحمد بن الحسن بن عرضون مخ. خ. ع. ر : 1264 ك : ضمن مجموع.

119) قال عنه الافراني في الصفوة : الفقيه الصوفي أبو عبد الله محمد بن محمد مخشان كان خيرا دينا له معرفة بالنحو والبيان والمنطق أصله من شفشاون ثم استوطن تطوان ودرس بها وكان يدرس التفسير فأدركته المنية في قوله تعالى : «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا» وتوفي رحمه الله فجأة وهو ساجد في صلاة الفجر عام 1042 هـ الصفوة : 152. وذكره ابراهيم الكلالي في (التنبيه) في المقدمة انظر الفصلة التي نقلها الأستاذ محمد المنوني بمجلة البحث العلمي ص : 253 العدد السابع السنة الثانية 1966.

120) فوائد محمد الهبطي.

ومن أحواز شفشاون كذلك : جبل (ماكو) بالكاف المعقودة، وفي أحد فروع هذا الجبل المسمى بالجبل الأشهب أسس الشيخ عبد الله الهبطي زاويته التي سنتحدث عن معهدها فيما بعد.

ومن أحواز شفشاون : قبيلة الأخماس السفلى واشتهرت هذه القبيلة منذ وقت غير قصير، بكثرة علمائها، وفقهائها، كما اشتهرت بوفرة حفاظ القرآن الكريم، ومن أشهر أسرها : أولاد مصباح، وأولاد بن علوش، وأولاد بن حيون وغيرهم.. وهذه الأسر المذكورة تتفرع عن الأسرة الأم التي هي الأسرة اليلصوتية التي سنفردها ببحث خاص في هذه الدراسة.

ومن أحواز شفشاون : (مدشر الخزانة) وهو من الأخماس العليا - قيادة باب تازة - عرف هذا المدشر بكثرة فقهائه وبوفرة حفاظ القرآن الكريم به، وسنتعرف عليه أثناء حديثنا عن الأسرة اليلصوتية. وممن درس بهذا المدشر أبو الحسن علي بن راشد مؤسس مدينة شفشاون (121).

ومن أحواز شفشاون كذلك (مدشر سعادة) ويسمى حاليا (إيخوجا) وهو على الحدود الشرقية لقبيلة (بني حسان)، وكان هذا المدشر في القرن العاشر الهجري مقرا لأسرة (بن خجو) التي ظهر فيها عدد من الفقهاء والعلماء... مثل : أبي القاسم بن خجو (ت

---

121) ورد هذا في (الوثيقة العرضونية) المنقولة عن كتاب : (مناقب موسى ابن نصير وسكان الشاون) لأحمد بن الحسن بن عرضون.

956 هـ) ووالده علي بن خجو، وأخوه الحسن بن خجو، وأخته آمنة بن خجو، وولده علي بن خجو (122)...

ويلاحظ الدارس لهذه الفترة أن أحواز شفشاون كانت توجد بها حياة ثقافية متوارثة، وكانت هذه الأحواز تتوفر على مراكز ثقافية، وعلى معاهد لتعليم العلم ونشره، وكان من نتيجة ذلك، أن برزت شخصيات في الميدان الثقافي وفي ميدان الدعوة الإصلاحية، وسنتعرف على مجموعة من هؤلاء أثناء بحثنا هذا بحول الله.

---

122) إلى عهد قريب كان بهذه الأسرة مجموعة من القراء والفقهاء، مثل العلامة السيد محمد ـ فتحا ـ بن خجو (تـ 1956م) الذي درس أفواجا من الطلبة بجامع (القب) ببني دركول بالأخماس العليا، ومثل العلامة المفتي المقرىء الشيخ أحمد بن خجو الشهير (ببولد زياته) (تـ 1958م) وهذا الفقيه هو شيخي الذي درست عليه القرآن الكريم، ومبادىء النحو بمقدمة ابن آجروم. وانتقل أفراد من هذه الأسرة من بني حسان إلى الأخماس السفلى وخاصة لمدشر (الحراقات).

المبحث الثاني :

بنو راشد مؤسسو شفشاون

يتضمن هذا المبحث النقاط الآتية :

أ ـ أسرة بني راشد ووجودها بالمنطقة

ب ـ الأمير علي بن راشد مؤسس المدينة

ج ـ ثورة الأمير علي ابن راشد على السلطان محمد الشيخ الوطاسي

د ـ الأمير ابراهيم بن علي بن راشد

هـ ـ القائد محمد بن علي ابن راشد

و ـ الست الحرة بنت علي ابن راشد

ز ـ ادريس بن علي بن ابراهيم بن راشد

ح ـ انقراض أسرة بني راشد أمراء شفشاون

يجمل بنا ونحن نتحدث عن شفشاون وأحوازها أن نتناول الكلام عن أسرة بني راشد والتعريف بها، وبعدد من المرموقين من أفرادها، لأن هذه الأسرة كانت بيدها مقاليد الأمور بهذه المنطقة لنحو قرن من الزمن (من 876 ـ 969 هـ/1471 م ـ 1564 م) أي لمدة ثلاث وتسعين سنة، والأسرة الراشدية هي مؤسسة مدينة شفشاون كما عرفنا ذلك من قبل.

أ ـ أسرة بني راشد ووجودها بالمنطقة

هذه الأسرة من الشرفاء العلميين من ذرية الشيخ الأكبر عبد السلام ابن مشيش، الذي هو من ذرية المولى إدريس الأصغر ابن المولى إدريس الأكبر بن عبد الله، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب، بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن المعلوم أن كثيرا من الأسر الإدريسية قد استقرت بشمال المغرب منذ وقت مبكر وذلك ابتداء من إشارة السيدة كنزة زوج إدريس الأكبر على حفيدها محمد بتقسيم مناطق النفوذ الإدريسي على إخوته أبناء ادريس الأصغر، وكان ذلك في أوائل القرن الثالث الهجري (123).

ومنذ هذا العهد استقر القاسم بن ادريس، بطنجة وأخوه عمر بن ادريس بغمارة.

---

123) الاستقصا : ج : 1. 170. ط : دار الكتاب 1954.

ثم بعد ذلك توالت هجرة الأسر الإدريسية نحو الشمال وبخاصة بعد انهزامهم أمام موسى ابن أبي العافية (124) في مطلع القرن الرابع الهجري، وبذلك أصبح شمال المغرب مستقرا لعدد وافر من الأسر الإدريسية، ونبغ من هذه الأسر أفراد عديدون سواء في ميدان الفكر أو ميدان السياسة...

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري ظهرت شخصية الشيخ عبد السلام بن مشيش العلمي، ظهر الشيخ كمجاهد، وعالم، ومرب كبير... ظهرت فيه هذه الأوصاف بالإضافة الى نسبه الشريف، ومحتده الأصيل.

واشتهر الشيخ عبد السلام بن مشيش وتناقل الناس أخباره.

ومع توالي الأيام أصبح هذا السيد مثلا للتصوف والزهد والعبادة...

وأضحى مقره بجبل العلم من قبيلة بني عروس مقصد عشاق المعرفة وطلاب التربية الروحية السليمة... وبذلك أصبح محط تقدير واجلال واكبار من لدن الجميع... وأصبح من أعمدة الشرف في جبل العلم وإليه ينتسب معظم العلميين، وممن ينتسب اليه بواسطة ولده سيدي (علال) أمراء بني راشد بشفشاون.

فعلي ابن راشد مؤسس مدينة شفشاون هو :

---

124) عن موسى ابن أبي العافية انظر جذوة الاقتباس لابن القاضي ج : 1. ص 340 ؛ دار المنصور الرباط سنة 1973 والاستقصا الناصري ج : 1. ص 182 وما بعدها.

علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن الشيخ الأكبر عبد السلام بن مشيش. (125).

وتذكر بعض الوثائق أن أفرادا من ذرية سيدي علال استقروا بضواحي شفشاون بقرية (غاروزيم) بعد أن انتقلوا إليها من جبل العلم. ويتحدث السيد محمد بن الصادق بن ريسون (ت : 1376) عن هذا الانتقال فيقول :

«ولما افترق الإمام الشاذلي (ت : 656 هـ) عن شيخه عبد السلام بن مشيش طلب منه سكنى بعض ذريته بقبيلته فانتقل من بني عروس شخصان : أحدهما من ذرية سيدي محمد، والآخر من ذرية سيدي علال ونزلا بمدشر (غاروزيم) لخصب تربتـــه. وغزارة مائه، واتساعه، وتناسلا هنالك ولا زال نسلهما الى الآن. وكان ذلك في أوائل القرن السابع أو أواخر السادس. واتخذ هؤلاء الأشراف من مدشر (غاروزيم) مقرا لهم. فتناسلوا وتكاثروا فأصبحوا موجودين بكثرة في هذه الناحية... (126)».

وأكد نسبة بني راشد الى الشيخ عبد السلام بن مشيش من ولده علال. كل من التهامي بن رحمون (127) وأحمد بن علي

---

125) هذا النسب ذكره محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن نقلا عن الجدول الذي وضعه أحمد بن علي العلمي. المرآة : 168 و 181.

126) تقييد عن تاريخ شفشاون للسيد الصادق بن ريسون وهو غير محمد الصادق الآتي ذكره.

127) التهامي بن رحمون كان حيا في سنة : 1143 هـ وهو صاحب (شذور الذهب في خير نسب) وصاحب (الانجم الزاهرة في الذرية الطاهرة) في النسب العلمي، وفي الاخير ذكر نسب الرواشد والكتابان مخطوطان يوجدان عند أحد الأصدقاء بتطوان.





صومعة الجامع الكبير وابراج القصبة وجزء من ساحة الحمام
بمدينـــــة شفشـــــاون

العلمي، (128) ومحمد بن الصادق بن ريسون، وغيرهم من النسابين.

ب ـ الأمير علي ابن راشد مؤسس المدينة (877 هـ ـ 917 هـ)

استمر علي ابن راشد أميرا على شفشاون وإقليمها مدة طويلة تقدر بنحو أربعين سنة، إلا أنه بالرغم من طول هذه المدة، فإن المصادر لاتحدثنا عنه إلا باختصار كبير، وأهم ما تذكره عنه :

1 ـ انه كان أميرا على شفشاون، وعلى منطقة واسعة من شمال المغرب، وذلك ابتداء من سنة 876 هـ ـ 1471م. ويذكر (الوزان) أنه شن على البرتغاليين حربا لاهوادة فيها.

2 ـ انه كان يقوم بتنظيم العمليات الجهادية ضد البرتغاليين المحتلين لثغور شمال البلاد.

3 ـ أنه اتخذ من مدشر الخروب، (بجبل حبيب) معسكرا هاما لانطلاق العمليات الجهادية، وهذا المكان هو الذي استشهد فيه ابن عمه الحسن ابن جمعة العلمي.

4 ـ انه حاول الاستقلال عن نفوذ الوطاسيين، وأن محمد الشيخ الوطاسي هاجمه ثم عفا عنه.

---

128) ترجم له صاحب مرآة المحاسن ترجمة موسعة لأنه كان زوج أخته انظر المرآة ص : 167. وكان قاضيا ومدرسا بشفشاون وخطيب المسجد الأعظم بها، توفي سنة 1027 هـ أما محمد بن الصادق بن ريسون فترجم له العباس المراكشي في الاعلام : 6 : 190، ط : الرباط..

5 ـ انه وظف أيام حكمه عددا من الشخصيات في وظائف مختلفة كالقضاء والكتابة والاستشارة والقيادة...

6 ـ انه رحب بالجالية الأندلسية سواء التي نزلت معه بشفشاون، أو التي نزحت من غرناطة إلى تطوان سنة 888 هـ.

7 ـ إنه أضفى على إمارته مظاهر الاستقلال وأعطى لنفسه حرمة الأمراء المستقلين، وألزم المحيطين به باتباع تقاليد معينة والتأدب معه بآداب معلومة... فحتى القاضي وهو أبرز شخصية في الإمارة ـ كان ملزما بتقبيل يد الأمير إذا دخل عليه، كما نقل ذلك ابن عسكر في الدوحة عن علي ابن ميمون قاضي شفشاون.

إلا أنه بالرغم من العثور على هذه المعلومات هنا وهناك فإن المصادر لا تحدثنا فيما أعلم ـ عن نشأته الأولى، وعن مراحل دراسته، ولا عن مستواه الثقافي، ولا عن حياته الخاصة... وتكتفي بالإشارة الى أنه كان يرافق ابن عمه ((الحسن ابن جمعة)) وأنه تولى إمارة المجاهدين من بعده.

ونجد أن بعض المصادر المكتوبة بغير العربية تلقى شيئا من الضوء على حياته قبل توليه الإمارة ومن ذلك ما جاء في كتاب (وصف افريقيا) للحسن بن محمد الزياتي (129) الذي يذكران : (علي بن راشد كان في بداية أمره شابا مغامرا في جبال بني حسان، وكان طموحا يبحث عن الزعامة، وهو ينحدر

129) الحسن بن محمد الوزان الزياتي الغرناطي أصلا، الفاسي منشأ ودارا عمل في البلاط الوطاسي وقام بعدة رحلات إلى أن اختطفه القراصنة الإيطاليون وأهدوه للبابا ليون العاشر بروما، ويسمى عند الأوربيين بليون الافريقي، وعندما كان أسيرا بروما ألف كتابه (وصف إفريقيا) باللغة اللاتينية سنة : 932 هـ / 1526م.

من أسرة الشرفاء من ذرية الولي الصاح عبد السلام ا بن مشيش، وأنه تمرس على القتال في الأندلس، في الحروب التي كانت قائمة بين المسلمين والنصارى بضواحي غرناطة...) (130).

وهكذا يعطينا الحسن بن محمد الوزان، نظرة مقتضبة عن حياته المبكرة.

ونلاحظ أن المصادر تصف ا بن عمه (بن جمعة) بالفقيه، بينما تعطيه هو لقب الأمير، إلا أننا ندرك من خلال المكانة التي يعطيها له المتحدثون عنه، أنه كان على جانب من الثقافة والمعرفة ـ وهذا غير مستغرب ـ وبخاصة وهو ينتمي إلى أسرة كان من بين أفرادها عدد من الفقهاء وعلماء الدين، وهو بدون شك، كان يتمتع بذكاء حاد، وعلى جانب كبير من الطموح...

وتذكر المصادر أنه عندما أصبح أميرا أحاط نفسه بمجموعة من الفقهاء، وعلماء الدين، أمثال : الشيخ علي الشريف العلمي، والد قاضي شفشاون أحمد العلمي، والشيخ أبي الحسن علي بن ميمون، والشيخ أبي الحسن علي بن بن مصباح ا بن عسكر والد صاحب الدوحة، وغيرهم...

وبهذا نلاحظ أن الجو الذي كان يحيط بالأمير علي ا بن راشد سواء قبل موت ا بن عمه الحسن، أو بعده، كان جوا يساعده على تنمية ثقافته ومداركه. وتصفه بعض الوثائق، بأنه : «كان

---

130) وصف افريقيا للحسن بن محمد الوزان : الترجمة العربية لكلية العلوم الاجتماعية بالرياض، سنة 1399 هـ ص : 323 ـ 324، وانظر : ص : 325.

فقيها خيرا. انتقل من قرية الخزانة إلى غروزيم. ومعه الطلبة الذين كانوا يقرأون عليه (●).

وإلى جانب هذا كان قد تدرب على فنون الحرب والقتال واكتسب خبرة عملية. وتجربة في ميداني الحرب. والسياسة.

وعلى الجملة فذكاؤه الفطري. وطموحه. وتجاربه الشخصية. ومشاركته في الحروب... كل ذلك أهله ليصبح شخصية مرموقة. تحملت أعباء الإمارة في ظروف صعبة. ولفترة طويلة من الزمن.

وخلال مدة إمارته أظهر كثيرا من الحزم. وساس منطقة حكمه سياسة جعلت المتحدثين عنه فيما بعد يتحدثون عنه بكثير من الاحترام والتقدير... ومن هؤلاء مثلا : محمد العربي الفاسي في مرآة المجاسن (131) ومحمد الطيب القادري في نشر المثاني (132) وعبد الرحيم جبور في كتابه (أسرة بني راشد بشمال المغرب) وغيرهم... (●).

أما معاصره أبو عبد الله محمد القاضي الكراسي (ت : 964 هـ) فهو بالرغم من كونه عاب عليه الخروج على السلطان محمد الشيخ. فهو مع ذلك يذكره باحترام ويضفي عليه نعوتا تليق بكبار الشخصيات مثل قوله :

(●) (الوثيقة العرضونية).

(●) يذكر الحسن بن محمد الوزان : أن علي ابن راشد، شن على البرتغاليين حربا لاهوادة فيها ـ الترجمة العربية : 335 ـ.

131) المرآة ص : 168.

132) نشر المثاني : ج : 1 : 61.

((مع الشريف الأسعد الجلي (●) علي ابن راشد السني)) (133) ومثل قوله : «وثار في شفشاون وصالا (●) ذاك الشريف العادم المثالا...)) (134).

أما عن حياته الشخصية فتذكر المصادر الأجنبية أن علي ابن راشد تزوج من اسبانية أسلمت عنده، وسميت (بللا الزهراء) وهي من مدينة verger de la Frontera (فخردي لافرونترا) من عمالة قادس وهي تنتسب الى احدى أسر المسيحيين الجدد (المدجنين) و(للا الزهراء) هذه هي أم ولديه : ابراهيم والحرة. وكان لها أخ اسمه : Martin Fernandez (مارتن فيرناندز) اعتنق الإسلام وسمي (بعلي فرناندو) (135).

ج ـ ثورة الأمير علي بن راشد على السلطان محمد الشيخ الوطاسي.

تذكر المصادر سواء منها العربية أو الأجنبية أن الأمير علي ابن راشد ثار على السلطان محمد الشيخ الوطاسي، وأن السلطان تغلب عليه بواسطة حملة عنيفة خربت مدينة شفشاون، وهدمت المنازل والديار، وانهزم الأمير علي ابن راشد وغلب على أمره. إلا أن السلطان عفا عنه بعد ذلك، لتدخل العلماء والوجهاء في الصلح

133) عروسة المسائل فيما لبني وطاس من المسائل) ط : الرباط 1963 ص : 17.

134) نفس المصدر ونفس الصفحة.

135) (أسرة بني راشد ومدلولها التاريخي بشمال المغرب) لعبد الرحيم جبور ص : 13.

بينهما، ولنسبه الشريف المتصل بالشيخ عبد السلام ابن مشيش، وبالمولى ادريس.

وفي هذا الصدد يقول الحسن بن محمد الوزان الزياتي :

إن السلطان محمد الشيخ الوطاسي ولى علي ابن راشد على مناطق جبال غمارة، إلا أنه بعد مدة من ولايته امتنع عن دفع الضرائب للسلطان فما كان من السلطان إلا أن حاربه وهزمه ثم عفا عنه نظرا لنسبه الشريف المتصل بالشيخ عبد السلام ابن مشيش... (136).

وفي الموضوع نفسه يقول أبو عبد الله محمد الكراسي : (ت : 964 هـ).

وثار في شفشاون وصالا	ذاك الشريف العادم المثالا
دعا لنفسه وجاء الطمع	أن يدخل الحضرة أو يطلع
على بلاد مغربنا سلطانا	خاف وخاب رأيه ما كانا
تحركت لداره الجنود	فاس ومكناس لهم بنود (137)

ويبدو من خلال كلام محمد الكراسي عن ثورة علي ابن راشد أن السلطان بعدما جهز الحملة لإخضاعه لم يستطع، وكان عليه ليخضعه أن يطلب نجدة الجيش البرتغالي في سبتة، ومن أجل ذلك، كان على السلطان أن يقدم ولده رهينة للبرتغاليين، وفعلا قدم ولده يحيى، رهينة لهم، وبهذا أصبح علي ابن راشد امام قوتين كبيرتين : البرتغالية من جهة، والسلطانية من جهة

136) وصف افريقيا للحسن بن محمد الوزان ص : الوزان ص 324، المرجع السالف.

137) عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل ص : 17 و 18 المطبعة الملكية بالرباط.

أخرى، فلم يبق أمام علي ا بن راشد إلا أن يعتصم بالجبل حيث دخلت الجيوش السلطانية مدينة شفشاون وخربتها، وفي هذه الأثناء ذهب إليه وفد من الأعيان والوجهاء من أجل إنهاء هذه الحرب التي أهلكت الأنفس وخربت الديار، وعمل هذا الوفد على الوساطة في الصلح بينه وبين السلطان وفعلا تم العفو عن ا بن راشد، وبأمر السلطان انتقل مع أسرته الى فاس، ليقيم الإقامة الإجبارية، إلا أن هذه الحالة لم تطل.

عاد ا بن راشد الى ولايته على إقليم شفشاون وهو يدين بالطاعة للوطاسيين، ويختم الكراسي الكلام عن هذه الثورة بقوله :

وكان ذا في أوائل المحرم، من بعد تسعمائة (138) وجاء في لقط الفرائد لا بن القاضي : «في سنة واحد وتسعمائة حرك السلطان الوطاسي على شفشاون على أبي الحسن علي ا بن راشد ليدخل في طاعته، وأقره في مكانه» (●).

وهكذا ثار الأمير علي بن راشد بشفشاون على السلطان محمد الشيخ الوطاسي، والذي صرح به الكراسي هو أن ا بن راشد لم يثر من أجل أن يستقل بمنطقة نفوذه فقط بل كانت ثورته طموحا للوصول الى الملك، والى السيطرة على فاس التي هي عاصمة البلاد.

---

138) عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل ص : 17 المطبعة الملكية بالرباط.

●) لقط الفرائد أحداث سنة : 901 هـ.

أما الحسن بن محمد الوزان فيرى أن هذه الثورة كانت من أجل الاستبداد بمداخيل المنطقة، والاحتفاظ لنفسه بالضرائب والجبايات... (139).

بينما يسجل ابن القاضي الحدث فقط ولا يعلل ذلك.

ومهما يكن من أمر فإن علي ابن راشد ثار فعلا، وهزم فعلا. ولسنا ندري كم هي المدة التي قضاها تحت الإقامة الإجبارية بفاس، إلا أن الذي يستفاد من ابن القاضي أن هذه المدة لم تكن طويلة، وأن ابن راشد سرعان ما عاد الى إمارته بشفشاون...

ولعلنا نتساءل الآن ما هي دواعي هذه الثورة ؟ وما هي أسبابها ؟..

ويبدو أن أسبابها ترجع الى ما يلي :

1 - إن الوضع السياسي للوطاسيين كان وضعا مهلهلا الشيء الذي نتج عنه قيام عدة ثورات هنا وهناك.

2 - إن الجهاد الذي من أجله قامت الإمارة الراشدية كان لا يتحقق في ظل معاهدات الهدنة التي كان يمضيها محمد الشيخ مع البرتغاليين.

3 - إن الأمير علي ابن راشد كان على جانب كبير من الطموح وكان يشعر بنخوة الإمارة مع الاعتزاز بانتسابه الى السلالة النبوية الشريفة.

---

139) وصف إفريقيا : 324، وتقول عنه في مكان آخر : «وبدأ ازدهار هذه البلاد في عهده، وقد تمرد على ملك فاس، وسكان مدينة شفشاون وجبلها، لايدفعون أية ضريبة للأمير، لأن معظمهم من الجنود» - المجاهدين ص 335.

4 ـ اعتماده على نفسه في خوض عدة معارك مع البرتغاليين في الوقت الذي كان يوجد فيه الحكم المركزي منشغلا بمشاكله العديدة. يبدو أن مثل هذه الظروف ساعدته على التفكير في الاستقلال، ومحاولة الاستحواذ على فاس، والتربع على عرش المغرب، حسبما يعلل به الكراسي قمع ثورة علي ابن راشد.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح لأنها كانت مجرد انتفاضة حاكم اقليم، ولم تكن ثورة معززة بالاجماع الشعبي، ولا بالعصبية. اللازمة لمثل هذه الحال ـ حسب تعبير ابن خلدون ـ ولذلك انتهت ثورته بالفشل ورأينا أنه سرعان ما عاد الى الطاعة خاصة وأن البلاد كانت في أمس الحاجة الى الوحدة واجتماع الكلمة...

وظل علي ابن راشد في الحكم بعد هذه الثورة حوالي ست عشرة سنة الى أن وافاه أجله سنة (917 هـ/1511م) (140).

د ـ الأمير ابراهيم بن علي بن راشد

يعد الأمير أبو سالم ابراهيم بن علي بن راشد من ألمع شخصيات الأسرة الراشدية بشفشاون خلال القرن العاشر الهجري، وذلك لقدرته على تحمل اعباء عسكرية وسياسية بحكمة ومهارة.

140) هذا حسب معظم الروايات اما ابن القاضي في لفظ الفرائد فذكر موته في احداث 919 هـ.

وكان ذلك مما لفت إليه انظار المؤرخين والكتاب وبخاصة الأجانب منهم (141).

نشأته وحياته :

نشأ ابراهيم بن علي ابن راشد في حضن والديه بمدينة شفشاون، وهو من زوجة الأمير علي بن راشد (للا زهراء) الإسبانية المسلمة.

اهتم أبوه بتربيته وتعليمه، تلقى ثقافته بمدينة شفشاون، ويذكر المؤرخون أن الأمير ابراهيم كان شابا طموحا ذكيا وفارسا محاربا يجيد الفروسية.

وبدأت شخصية الأمير ابراهيم في الظهور منذ توليه قيادة الحملات الحربية في حياة والده الذي أصبح يعتمد عليه في كثير من المهام المتعلقة بتسيير شؤون الامارة.

وبدأ ظهور الأمير ابراهيم على المسرح السياسي وهو ما يزال في ريعان الشباب وربما دون العشرين من عمره.

وتصف المصادر الأجنبية الأمير ابراهيم بن راشد بأنه كان شابا يتمتع بكثير من الصفات المؤهلة للقيادة : كالذكاء والجرأة، والوفاء بالعهد، والقدرة على اغتنام الفرص..

---

141) مثل الأستاذ روبير ريكار R. Ricgard الذي له بحث هام عن الأمير إبراهيم بن راشد تحت عنوان : Moulay Ibrahim de Chichaouen بمجلة الأندلس الصادرة بمدريد سنة 1941م، المجلد : 6 : ص : 299 . ومثل الأستاذ عبد الرحيم جبور في بحثه باللغة الاسبانية تحت عنوان : أسرة بني راشد ومدلولها التاريخي بشمال المغرب : ط : تطوان 1953، الذي نقل عن المؤرخين الأجانب.

وتصفه كذلك بأنه كان ذا هندام جميل يعتني باختيار لباسه، وانتقاء جياده... وبأنه كان يتمتع بجاذبية خاصة... وإن كل ذلك جعله محبوبا عند الناس.

ونفس هذه المصادر تذكر أن الامير ابراهيم بن راشد كان يقود العمليات الحربية ضد البرتغاليين بأصيلا، وطنجة، وسبتة... وبأنه كان يقوم بمفاوضات من حين لآخر مع الحكام البرتغاليين الذين كانوا في هذه الفترة يسيطرون على الثغور السالفة الذكر وعلى أراضي مجاورة لها.

وكان استيلاء البرتغاليين على أقاليم مكتظة بالسكان يثير مشاكل عديدة إذ كان بعض الفارين من هذه المناطق يلجـأ الى الإمارة الراشدية، وأحيانا يكون هذا الالتجاء من بعض الجنود البرتغاليين أنفسهم وبخاصة منهم الذين تحدث لهم مشاكل مع ضباطهم، ومن أسباب المشاكل أيضا أن سكان المناطق الخاضعة للنفوذ البرتغالي كانوا يمتنعون في بعض الأحيان من دفع الضرائب المفروضة عليهم... فيلتجئون، ويفرون...

لقد كانت مثل هذه الأوضاع تخلق مشاكل يومية وبعضها كان يستدعي حلولا عاجلة من طرف الحكام المحليين لأن السلطان سواء في لشبونة، أو في فاس، لم تكن ترفع إليه الا المشاكل الكبيرة والعويصة...

ولقد باشر الأمير ابراهيم حل هذه المشاكل عن طريق مفاوضات مباشرة مع حكام المناطق المحتلة.

Los Ber-Rached de Chefchaouen y su sinificación en la historia de Marruecos septentrional.

ويستفاد من النصوص في هذا الموضوع أن مولاي ابراهيم كان مفاوضا ممتازا وقائدا موهوبا. ولقد تحدثت عنه المصادر البرتغالية حديثا مطولا (142) لاحتكاكه بالحكام البرتغاليين في كل من طنجة، وأصيلا، وسبتة، والقصر الصغير. ونظرا لأهمية ما قاله الأجانب عن مولاي ابراهيم فإننا نورد من ذلك ما لخصه صاحب كتاب : «أسرة بني راشد بشفشاون ومدلولها التاريخي بشمال المغرب (143) أثناء حديثه عن الأمير ابراهيم. بدأ حديثه عنه هكذا : (يقول لنا المؤرخ البرتغالي (برناردو رودريكس) Bernardo Rodrigues في (حولياته) : ظهر مولاي ابراهيم كشاب في حوالي العشرين من عمره وكشخصية بارزة في ناحية جباله تتمتع بمواهب وجاذبية. لقد كان مولاي ابراهيم رئيسا في ناحية تطوان، وترغة، والشاون. لكن القدر ساقه الى حياة سياسية لامعة. والى حياة مليئة بالمغامرات كتلك المغامرات التي نقرؤها عن النبلاء والفرسان. لأنه كان ذا مواهب وجاذبية سواء من الناحية العسكرية في شمال المغرب. أو من الناحية السياسية عموما. وذلك في وسط بحر من الدسائس التي كان وطنه مسرحا لها.

وبعدما قدم المؤرخ البرتغالي بهذه المقدمة عن حياة الأمير ابراهيم ابن راشد تطرق لذكر جزئيات عن حياته وبخاصة منها

Redrigues Bernardo Anais de Arzila crónica inédita dó século XVI publicado sob a direccaode David Lópes coimbra 1915-1919.

---

143) «أسرة بني راشد بشفشاون ومدلولها التاريخي في شمال المغرب» ص : 14 وما بعدها لعبد الرحيم جبور (تـ : 1965م).

التي تتصل بعلاقته مع النصارى في شبه جزيرة إيبيريا أو مع حكامهم بالثغور المحتلة بشمال المغرب فيقول: أن الأميرا براهيم ا بن راشد اكرم وفادة خاله. (مارتن فرناند يز Martin Fernandez) الذي جاء إلى المغرب منجذ با بتسامح وكرم ا بن أخته. وكذلك فعل بأقار به الآخرين الموجود ين في إسبانيا حين وفدوا عليـــه وأكرم وفادتهم. وأحسن إليهم. وفي هذه الفترة بالذات اعتنق خال مولاى ا براهيم الإسلام. وحمل اسم (علي فرناند يز) وعينه الأمير ابراهيم قائدا على (معسكر الخروب) بقبيلة (جبل حبيب) وكان تعيينه يشمل (بني عروس). وكان تحت امرته خمسون فارسا غير ان (مرتين فرناند يز) لم تكن تروقه الحروب الشرسة التي كان يقوم بها البرتغاليون ضد المغاربة في هذه الناحية. وهذا ما جعله يغادر قيادته ويستقر بشفشاون قريبا من ابن أخته مولاى ابراهيم. إلا أن تخليه عن منصبه كان سببا في تردى الأوضاع في ساحة المسلمين. الشيء الذي حمل مولاى ا براهيم على القيام بنفسه بحملة ضد أصيلا الحملة التي الحقت أضرارا شد يدة بصفوف البرتغاليين.

ويزيد المؤرخ البرتغالي قائلا : (ان مولاى ا براهيم لم يتنكر أبدا لأصله الإسباني بالرغم من أنه كان يقوم بحروب اتسمت بطابع العنف والشراسة. فعلاقته مع المسيحيين كانت تتسم بالمجاملة والسخاء. وكثيرا ما كان يعفو عن البرتغاليين المقاتلين. كما كان لرجاله شعار وهو : احترام الأسرى الذين يسقطون في أيديهم وهذا السلوك لم يكن يحافظ عليه رؤساء

آخرون إلى درجة أن مولاي ا براهيم كان يحول بين أسراه و بين غضب سلطان فاس عليهم، وكان أحيانا يحرر أسرى مسيحيين بدون مقا بل.

لكنه بالرغم من هذا، فإن عطفه على محار بي الخروب - أي المجاهدين - كان شديدا. فعندما يسقط أحد منهم في يد أعدائه غالبا ما كان يستبدله بمسيحي، ولو كان هذا نبيلا، والمغربي فقيرا معدما) (144) ويستمر الكاتب في الحديث عن الأمير ابراهيم ا بن راشد واصفا أسلوب معاملته مع أعدائه البرتغاليين. ناقلا عن المؤرخ البرتغالي السالف الذكر فيقول :

((لقد كان لمولاى ا براهيم سلوك متبع، فعندما كانت تحل بالبرتغاليين محنة أو خسارة كان يبعث بتعازيه إلى حاكم أصيلا وبمواساته... وفي نفس الوقت كان يطلعه على حالة الأسرى البرتغاليين، والحكام البرتغاليون كانوا يبادلونه نفس الشعور، ويظهرون له نفس المجاملة وكان تبادل المواساة بينهما وسيلة ليعرف كل واحد من الجانبين وضعية وقوة خصمه)). ثم يقول الكاتب : (وسلوك مولاى ا براهيم فيما كان يبديه من مجاملة لم يكن مكيدة أو خديعة، كما يتضح ذلك في مناسبتين في سنة 1523م وسنة 1528. فهو قبل أن يهاجم أصيلا ونواحيها، بعث بتحياته إلى قائدها، وأشعره بقرب وصوله... ومنحه فرسا وهدية، ولا نظن إلا أن الحكام البرتغاليين كانوا كذلك يقدمون له أحسن الهدا يا وأجملها)).

144) المرجع السالف ص : 15.

ثم بعد هذه المعلومات التي يعطيها المؤرخ البرتغالي عن السياسة العسكرية لا براهيم بن علي بن راشد يقول :

((في سنة 1520 كان مولاى ابراهيم طريح الفراش بشفشاون، ولم يطمئن إلى معارف الأطباء الذين يوجدون حوله من مواطنيه فطلب من (الدوق ريدوندو) (Conde de Redondo) حاكم أصيلا أن يرسل له الجراح البرتغالي Duarte Rodrigues شقيق المؤرخ (برناردو رودريكس) السالف الذكر.

وفي سنة 1532 طلب إسعاف الطبيب المذكور ليعالج - في فاس - زوجته (للاعائشة أخت السلطان مولاى أحمد الوطاسي)).

ثم يقول : ((وعلى الرغم مما كان يتمتع به مولاى ابراهيم من نبل ومروءة فقد اظهر في بعض الأحيان روحا انتقامية وقساوة شديدة..)).

((وفي هذا المجال ينقل القصة التالية : في سنة : 1537م/944هـ فر شاب برتغالي من طنجة بسبب خلاف مع زوجته، والتجأ إلى المغاربة الموجودين بضواحي طنجة، ورجاهم أن يقودوه إلى مولاى ابراهيم، لكنهم اقتادوه إلى القائد (محفوظ). وكان من خطأ هذا الشاب أنه صرح بأنه يريد أن يسلم نفسه لمولاى ابراهيم، ولم يكن يعرف أن القائد محفوظ يكن عداوة لمولاى ابراهيم.. ولذلك عامله القائد محفوظ بالغلظة والقسوة، وأمره بالتخلي عن دينه المسيحي، لكن البرتغالي امتنع.

وقد اثار إباؤه هذا في نفس القائد (محفوظ) ضغينة وحقدا. وأمر بقتل البرتغالي. وهذا التصرف لم يرق مولاى ا براهيم وأسر ذلك في نفسه ولم يبد انفعالا أو تأثرا. ورجع إلى شفشاون دون أن يقول شيئا. وبعد بضعة شهور طلب سلطان فاس مولاى أحمد الوطاسي مولاى ا براهيم للمثول بين يديه بحضرة فاس. وهنا وجد الفرصة سانحة ليبين للسلطان شكوكه في سلوك (محفوظ). فاعطاه السلطان الإذن بالتصرف. وهنا لم يتوان مولاى ا براهيم عن قتل محفوظ بيده. بعدما أشبعه ضربا)). يقول (هذا ما يرويه المؤرخ البرتغالي (برناردو رودريكس) Bernardo Rodrigues

أما عن حياة مولاى ا براهيم الخاصة فيقول المؤرخ البرتغالي : ((كان مولاى ا براهيم سيدا عظيما. يحب النساء. وشغوفا بالكماليات. ويجمع الذخائر والتحف. وكان يعجبه أن يكون محاطا بجوارى شابات حسان. ولم يكن يتوانى في الحصول عليهن ولو كان وزنهن ذهبا. لولعه الشديد بالجنس اللطيف.

كان مولاى ا براهيم أنيقا في ملبسه. يحب التنعم بالحياة. ويلبس أفخر الألبسة. وأكثرها جمالا وأناقة. وفي كل المناسبات كان يرافقه علم شفشاون الأحمر ـ ذلكم العلم الذى كانت له شهرة عظيمة. وعلما تطوان. وترغة)).

وبعد هذه الأوصاف يتحدث الكاتب عن الحياة العسكرية لمولاي إبراهيم :

((إن مستهل عام 1511م كان أول بداية لظهور مولاى ابراهيم، وسبب ذلك أن والده علي بن راشد أسند إليه قيادة حملة على أصيلا، وبعثه هو وصهره المنظرى قائد تطوان، وكانت هذه أول مرة يأخذ فيها مولاى ابراهيم السلطة بيده.

وفي سنة : 1518م/924هـ وبسبب تخلي خاله (مرتينو اليش) (Martino Elche) (145) كان له فيما بين الشاون وتطوان وترغة سبعمائة أو ثمانمائة فارس، في هذه السنة وضع كمينا في شمال أصيلا، واستطاع أن يأسر عددا من البرتغاليين، كان من بينهم صهر حاكم أصيلا (ضون انطونيو ماسكاريناس) (Don Antonio Mascarinas) مع أربعة من رفاقه، وبعد انتصاره في هذه الحملة، رجع على صهوة جواده إلى الخروب (146).

وفي السنة التالية : 1519م شارك أيضا في حملة نظمها ملك فاس محمد البرتغالي ضد أصيلا.

وفي السنوات : 1520 و1523 هاجم من جديد بخمسمائة من رجالات شفشاون وتطوان، وترغة. (●)، وفي سنة : 1524م شارك أيضا في ثلاث حملات، بمعية السلطان لكنه في الحملة الأخيرة أوشك أن يقع أسيرا في يد البرتغاليين.

---

145) سبق أن ذكر أن خال مولاي ابراهيم (مرتينو فرنانديز) تخلى عن قيادة مركز الخروب، ومرتين فرناندزيز) هو نفسه مرتينو اليش (واليش) معناه العلج وهذا اللقب كثيرا ما كان يطلق على النصارى الذين اسلموا.

146) أسرة بني راشد بشمال المغرب ص : 18.

●) ترغة : انظر تعليق رقم : (18).

ويقول الكاتب : «أن الحملة الثانية من الحملات الثلاث تميزت بطابع مأسوى، وذلك أن المغاربة اسروا مدجنا يسمى (جوبـــاز)، Jouavez كــــان فـــي خدمـــة البرتغاليـــين الحاكمين لأصيلا. وعلماء الدين افتوا ملك فاس بقتل هذا المرتد عن الديانة الإسلامية، وحاول مولاى ابراهيم أن يلتمس لهذا المرتد العفو عند السلطان لكن محاولته باءت بالفشل فاحرق (جوباز) Jouavez حيا، وتأثر مولاى ابراهيم بهذا الحدث» ـ حسب زعم المؤرخ البرتغالي.

ثم يقول : «وبعد هذه الحادثة، توجه مولاى ابراهيم نحو اصيلا على رأس ألف فارس، في هيأة ثلاث كتائب بغية لقاء مسالم مع الكونت (دى بوربا) (Conde de borba) اما لتقديم الاعتذار له، واما للتعرف عليه شخصيا، وعندما وصل لأصيلا انفرد عن الكتائب الثلاثة وصحب معه ستة من رفاقه وطلب مقابلة الدوق، وفي هذه المقابلة كان مولاى ابراهيم يلبس جبة من (الموبر) (Tercio Pelo) لونها أصفر، وعلى رأسه قلنسوة قرمزية اللون، وممنطقا بحزام واسع، من صنع مغربي، ويحمل خنجرا في غمده، موشى بالفضة، ويحمل سيفا تتدلى منه شرابه من حرير أخضر، يميل إلى السواد، ويقال أن الفرسان، الستة الذين كانوا يؤلفون حاشية مولاى ابراهيم، هم : ابن السلطان وقد كان متنكرا، وأخ لمولاى ابراهيم، وابن عمه، وآخرون من الأعيان.

(إن الدوق دى بوربا) وصل بدون تأخير إلى مكان اللقاء الذى كان بساحة المدينة. وكان يلبس درعا كاملا باستثناء رأسه الذي كان مغطى بقبعة مزينة بريشة. وبعد أن تخلص كل منهما من حاشيته تجولا معا فترة طويلة من الزمن. ولوحظ أن المحادثات التي كانت تدور بينهما كانت تتسم باللباقة والصداقة. وفي هذه الأثناء. بعثت لهما (الدوقة دى بوربا) - أى زوجة الدوق - مع جماعة من الغلمان حلواء وماء باردا،ومنادل. وهذه الالتفاتة حملت مولاى ا براهيم على شكر مخاطبه ثم أعطى مولاى ا براهيم مكافأة قدرها (خمسة كروش) لكل واحد من الغلمان. ثم استأذن القائد البرتغالي في الانصراف مبديا استعداده للتفاهم والتفاوض» (147).

ثم يقول المؤلف :

(إلا أنه بالرغم من هذه المجاملات التي كانت بين القائدين نرى أن مولاى ا براهيم هاجم مرة أخرى على أصيلا سنة 1526 وثلاث مرات بعد ذلك في السنوات 1527 - و1528 وفي ابريل 1529 وفي هذه المرة كان يرافقه في حصار طنجة وأصيلا صديقه مولاى أحمد الوطاسي. ثم يقول : وخلال هذا الهجوم على طنجة وأصيلا. قضى المغاربة أربعة أيام تفرغوا خلالها لتدمير وتخريب مزروعات ضواحي أصيلا. وهذا مما جعل الحاكم البرتغالي ينتقم انتقاما شديدا. فأمر بإفساد وتخريب حقول

147) نفس المصدر ص : 20.

المغاربة. وكان من نتائج ذلك أن ابرم مولاى ابراهيم معاهدة مع الحاكم البرتغالي في السنة التالية. نصت على أن يلتزم الطرفان باحترام المغروسات. وهذه المعاهدة ظلت نافذة المفعول عندما استولى الشريف محمد الشيخ على فاس سنة (1549م/956هـ).

وفي السنتين 1530م/1531م ظهر مولاى ابراهيم أمام ساحة طنجة. وفي نهاية السنة الأخيرة توجه مرة أخرى ضد أصيلا. وكانت هجوماته ضد طنجة. وأصيلا. في السنتين : 1932 و1533م/939هـ).

يقول المؤلف : (وبهذه الكيفية أمكننا أن نلخص النشاط العسكرى لمولاى ابراهيم ضد البرتغاليين.

هذا مع أن دوره في الأحداث السياسية الداخلية بالمغرب لم يكن أقل شأنا من نشاطه في الميدان العسكرى).

وبعد هذا يتطرق الكاتب لذكر بعض الأحداث السياسية التي شارك فيها مولاى ابراهيم. ويحدثنا في البداية عن الأدوار والمساعي التي قام بها الأمير ابراهيم بن راشد من أجل نقل السلطنة من أبي حسون الوطاسي أخ السلطان المتوفى - إلى ولده أحمد. فابراهيم ابن راشد امتنع منذ البداية من الذهاب إلى فاس لتقديم البيعة لأبي حسون. متعللا بالأوضاع الحرجة بمناطق الثغور المحتلة. وفي هذا المضمار عقد اتفاقا مع صهره قائد القصر

الكبير (●) من أجل تحويل السلطنة إلى أحمد الوطاسي ويذكر أنهما كانا يجتمعان من أجل تحقيق هذا الغرض مظهرين أنهما يهيآن للهجوم على طنجة وأصيلا. وفعلا قاما بهذا الهجوم، وحصلا بسببه على غنائم كثيرة ولم يعطيا منها للسلطان أبي حسون بل اعطيا منها للأمير أحمد الوطاسي ابن السلطان محمد البرتغالي ثم يقول :

(وفي هذه الأثناء اغتنم ابراهيم ابن راشد غياب أبي حسون عن فاس ودخلها على رأس الفين من الفرسان معلنا بيعة أحمد الوطاسي.

وهكذا تمت بيعة السلطان أحمد الوطاسي، واضطر عمه أبو حسون للتنازل له عن العرش (148).

ومن المعلوم أن قضية تنازل أبي حسون لولد أخيه أحمد عن العرش، غير واضحة في المصادر العربية، ويكتنفها غموض كبير. ومما تذكره المصادر العربية في هذا الصدد أن العلامة أبا محمد عبد الواحد الونشريسي (ت : 955هـ) أقدم على كتابة تنازل أبي حسون، وعلى كتابة بيعة ابن أخيه أحمد، مع أنه لم يكن هناك موجب لتنازل أبي حسون؟.

●) عبد الواحد بن طلحة العروسي، الدوحة : 28 ترجمة علي بن عثمان الشاوي.

148) أسرة بني راشد بشمال المغرب : ص : 21 و 22.

ذكر ذلك الافراني في (نزهة الحادى) نقلا عن ابن القاضي، ونقله عنه الناصرى في الإستقصاء، وغيره... (149).

والذي تصرح به المصادر العربية في هذا الموضوع : أن السلطان أحمد الوطاسي قبض على عمه أبي حسون، وخلعه وأشهد عليه بالخلع، وذلك آخر ذي الحجة من سنة 932هـ/1525م (150).

لكننا لا نعرف أسباب ذلك، ولا كيف وقع، وإنما هناك تنازل، وبيعة جديدة، بينما تذكر الرواية الأجنبية السالفة الذكر أسباب الحادث وتعلله بميل أكبر قواد الشمال إلى السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي : صديقه الحميم الأمير ابراهيم بن علي بن راشد، وبذلك نرى أن هذه الرواية تلقي أضواء جديدة على هذا الموضوع.

ويذكر المؤلف كذلك... أن الأمير مولاى ابراهيم تدخل لصالح السلطان أحمد الوطاسي مع ابن عمه مسعود الذى تمرد وأعلن العصيان واستبد بمكناس، ففي هذا الظرف الحرج استطاع مولاى ابراهيم أن يقنع الأمير مسعود ابن عم السلطان، فتخلى عن العصيان، بل استطاع أن يصحبه معه إلى السلطان بفاس

---

149) النزهة للافراني ص : 31 ط : انجي 1888م.

150) الاستقصا للناصري : 4 : 149 ط : دار الكتاب 1955.

حيث جمع بينهما وتمت المصالحة، وعفا السلطان عن ا بن عمه مسعود. (151)

ويذكر المؤرخ البرتغالي : أنه بعد هذه التسوية والمصالحة مباشرة تزوج مولاى ا براهيم شقيقة السلطان (للا عائشة).

ثم يقول : (عاش مولاى ا براهيم يحكم المملكة كأمير عظيم وقائد منوه به من الجميع : مسلمين ومسيحيين ويهود، على السواء).

ثم بعد روا ية هذه الأحداث يقول المؤلف :

(هناك حدث آخر مهم لا نستطيع أن نتركه يمر دون أن نشير إليه وهو حدث شديد الارتباط بمولاى ا براهيم ويتمثل في

---

151) أسرة بني راشد بشمال المغرب : ص : 23، لكن الذي ذكره أبو عبد الله محمد الكراسي في (عروسة المسائل) - ص 30 - عن ثورة الأمير مسعود هذا وعن دور الوزير ابن راشد فيها يخالف ما جاء هنا بعض الشيء، لأن الكراسي يعطينا معلومات زائدة وهامة، وهي معلومات تتسم بالصدق والصراحة... وفي ذلك يقول :

لما دعا لنفسه مسعود — وثار في مكناس والجنود
أتاه حاركا بكل الناس — حتى البرابر وأهل فاس
صالحه على يد الوزير — مع المواثيق من الأمير
فعندما دخل فاس معه — سجنه وبعد ذلك صرعه
بالشرع كان وبغير ميل — أمر مدبر له بليل
وعادة الملوك فيمن ادعى — لنفسه لاتغتفر ما صنعا

وضمير الفاعل في أتاه وصالحه يعود على السلطان أحمد الوطاسي، أما ضمير المفعول فيهما فيعود على الأمير مسعود، والوزير هنا ليس هو مسعودا الناصر كما فهم محقق العروسة، بل هو إبراهيم بن راشد، لأن مسعودا هو الثائر نفسه والضمير في معه يعود على الوزير ابن راشد كذلك... وفي سجنه يعود على مسعود وكذا في صرعه.

قصة (بورتوند) (Pertuando) لقد حـدث فـي سنـة 1527 م أن هذا الأخير بصفته قائد أسطول يتألف من ثمانمائة سفينة كانـت ترسو في خليج قادس، تمرد عليه بحارته واسروه وانطلقوا في البحر وتبعتهم باقي السفن وشاء القدر أن ترتطم هذه السفن جميعا بساحل مرتيل، وعلم مولاى ابراهيم بذلك، وكان موجودا بشفشاون، فأسرع إلى عين المكان، واستولى على الغنيمة، ومن بينها كان : (برتوندو (Pertuando) بالذات الذي افتدي بواسطة تاجر من جنوة تسمية النصوص الإسبانية (البرتغالية) (لويس دى برسيندا) (Luis de Presenda).

غير أن هذا الضامن الذى عهد إليه بتسديد قيمة الفدية لم يوف بالتزامه، فاختلس (16.000) (كروش) وهو القدر المتفق عليه كفدية، ولم يرق مولاى ابراهيم هذا الاختلاس فبعث بسفارة إلى (دون خوان الثاني) (Don Juan II) (152) ملك البرتغال وكذلك إلى (كارلوس الخامس)،. إمبراطور إسبانيا.

لكنه لم يحصل على نتيجة مرضية لأن (برتوندو) توفي في هذه الفترة، وابنه كان مأسورا عند الأتراك، (وبريسيندا) (Presenda) عاد إلى إيطاليا ويذكر المؤلف : أن الأمير ابراهيم كان في حاجة إلى المال لأنه كان سخيا وكريما».

---

152) وقوع هذه الأحداث لا يصادف زمن دون خوان الثاني (1481 ـ 1491) بل دون خوان الثالث حسب التاريخ المذكور (1521 ـ 1657) ولعله سبق قلم أو خطأ مطبعي.

وبعد هذا يقول المؤلف :

(أن مولاى ابراهيم - حسب رأى الأستاذ ريكارد (R. Ricardo) - ربما توفي في نهاية سنة (1539م - 947هـ) في فاس بسبب مرض الزحار Dessenteria الذي أوهن جسمه ولم يكن له إلا خمسون عاما).

ويختم مؤلف هذا الكتاب الحديث عن مولاى ابراهيم بالجمل الآتية : عاش حياة مضطربة، وخاض حروبا بصفة مستمرة ومتوالية، وكل ذلك ساعد على إنهاك صحته، فلم يستطع جسمه أن يتحمل المرض الذى ألم به. (153).

هذه المعلومات عن الأمير ابراهيم بن علي ابن راشد، نقلناها عن مؤلف كتاب (أسرة بني راشد ومدلولها التاريخي بشمال المغرب) وهي كما يلاحظ معلومات هامة ومع ذلك فهي ليست كل ما قيل عن الأمير الراشدى، بل هناك معلومات أخرى (154).

فابن عسكر مثلا في الدوحة تحدث عن الأمير ابراهيم ابن راشد مرتين، ولقبه بالوزير في كل منهما : ذكره في ترجمة

---

153) هذه المعلومات عن مولاي إبراهيم أوردها المؤلف الأستاذ عبد الرحيم جبور ابتداء من : ص : 14 - إلى 24 في مؤلفه السالف الذكر وهو باللغة الاسبانية ترجمته بالتعاون مع الأخ الصديق الأستاذ عبد القادر مقلاش بتطوان.

154) للمؤرخ الفرنسي (روبير ريكارد) ترجمة خاصة لمولاي إبراهيم اعتمد فيها على نفس المؤرخ البرتغالي السالف الذكر Bernardo Rodrigues

انظر مجلة الأندلس الصادرة بمدريد : (1941 - م : 1 ج : 2 : 299. R. Ricardo

والدته أم أحمد بمناسبة الحديث عن زوجته يطو بنت محمد العروسي، وذكره مرة ثانية في ترجمة الشيخ أبي الحجاج يوسف التليدى بمناسبة زيارة هذا الأخير إلى شفشاون.

وتحدث عنه القاضي أبو عبد الله محمد الكراسي في منظومته : (عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل) (155) أثناء حديثه عن السلطان أحمد الوطاسي (932 - 936) فقال :

واستوزر الراشدي إبراهيما ... ابن علي صهره قديما

ذاك الشريف واصل الجاه العلي ... مولاي إبراهيم ذاك ابن علي

أحبه الناس على محبته ... وكلهم لم ينثن عن خدمته

وبسط الكفين بالنوال ... ولم يقصر في ابتغاء الآمال

وحيثما أقبل ولى راشدا ... لسعده بسعده قد أيدا

وما تولى فعله أتمه ... وما أهم المسلمين أهمه

وبعد أن وجهه لتادلا ... لاقى بها حمدا على مافعلا (156)

إلى أن يقول :

وكان من فعل الوزير الأعظم ... العفو عمن جاءه منهزم (كذا)

أقام في درن ثلاثا أشهرا (كذا) ... نعم الوزير نعم من قد ذكرا(157)

---

155) عروسة المسائل .... منظومة في تاريخ الوطاسيين، نظمها القاضي محمد الكراسي وهي تتضمن معلومات هامة عن الوطاسيين، قام بتحقيقها ونشرها الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور وطبعت بالمطبعة الملكية بالرباط سنة 1383 / 1963م.

156) (معركة تادلة) هي إحدى المعارك التي دارت بين الوطاسيين والسعديين ومن هذه المعارك معركة انماي، ومعركة وادي العبيد ومعركة تادلة.... انظر : الاستقصا ج 4 : 100 وما بعدها إلى ص 106 وانظر كذلك : منظومة الكراسي السالفة الذكر وخاصة التعليق رقم : 27.

وكان من فعل الوزير الأعظم العفو عمن جاءه منهزم (كذا)
أقام في درن أشهرا (كـذا) نعم الوزير نعم من قد ذكرا(157)

فأبو عبد الله محمد الكراسي يؤكد هنا أن السلطان أحمد الوطاسي أسند منصب الوزارة للأمير ابراهيم ابن راشد، ويؤكد كذلك أنه كان صهرا للسلطان وبأنه كان محبوبا عند الناس، وبأنه كان جوادا سخيا، ويعترف بأنه كان موفقا في وزارته، وبأنه كان يهتم بأمر المسلمين، ومن صفاته أنه ينجز أعماله إلى نهايتها...

هذه الأوصاف رأيناها في النصوص السالفة الذكر، المنقولة عن المؤرخ البرتغالي ثم بعد ذلك يذكر الكراسي : أن السلطان وجه الأمير إبراهيم ابن راشد على رأس الجيش الذي خاض معركة تادلة، وأنه في هذه المعركة لقي حمدا وثناء على أعماله التي قام بها.

ويبدو أن الأمير ابراهيم بن علي ابن راشد تألق نجمه بعد توليه الوزارة، حيث أصبح يباشر مهام كبرى في الدولة، وأصبح أثيرا عند الملك لا يكاد يقطع أمرا بدونه، وبذلك أصبح يقضي معظم أوقاته بفاس إلى جانب السلطان.

---

157) عروسة المسائل ، ص : 30 و 31، ذكر الدكتور عبد الهادي التازي، في كتابه : (جامع القرويين) قصة مناظرة طريفة، جرت بمحضر السلطان أحمد الوطاسي، ووزيره إبراهيم ابن راشد، كان بطلها الأسقف أندري، ج : 2 : ص : 417 ـ 418.

وليس غرضنا في هذا التعريف بالأمير الراشدى الإحاطة بجميع جوانب شخصيته؛ لأن ذلك يحتاج إلى دراسة موسعة ومستقلة. وقد أطلنا الحديث عنه قليلا؛ لأنه لم يكتب عنه في العربية لحد الآن.

هـ.القائد محمد بن على ابن راشد

بعد أن تعرفنا على الأمير علي بن راشد مؤسس مدينة شفشاون، وعلى ولده الأمير ابراهيم الوزير أبي سالم، سنتعرف فيما يأتي على :

القائد محمد بن علي بن راشد.

ظهر الأمير محمد بن على مسرح الأحداث السياسية بعد موت أخيه الوزير ابراهيم سنة : 947هـ/1540م) وفي هذه الأثناء كانت الإمارة السعدية بالجنوب قد توطدت لها الأمور، حيث اقتسمت المغرب مع السلطان أحمد الوطاسي.

وفي هذه الفترة من تاريخ المغرب كان الناس فئتين : فئة هواها سعدي، تنظر إلى الإمارة السعدية بتفاؤل كبير، مؤملة على يدها انقاذ المغرب من الأوضاع المزرية التي كان يتردى فيها، خاصة وأن السعديين كانوا قد استطاعوا تحرير مجموعة من الثغور الجنوبية من السيطرة البرتغالية والاحتلال الصليبي.. بينما كانت هناك فئة أخرى ترى أن الوطاسيين هم الملوك الشرعيون، وأنهم يمثلون الدولة الأصيلة، ويمثلون استمرار الدولة المرينية ذات

المواقف الشهيرة في، الميدان الثقافي وميدان تركيز المذهب المالكي السني بالبلاد، وفي ميدان الجهاد بالأندلس...

ويبدو من خلال الأحداث : أن محمد بن علي بن راشد لم يكن على مذهب سياسة أخيه الأمير ابراهيم الذي أخلص للوطاسيين إلى آخر لحظة من حياته.

ويبدو كذلك أن الأمير محمد، أدرك أن ميزان الأحداث يميل لصالح السعديين، ولذلك تذكر النصوص التاريخية : أنه عمل على الاتصال بالسلطان محمد الشيخ السعدي.

وتذكر كذلك أنه في سنة 948هـ/1541) ـ أى بعد سنة من موت الأمير إبراهيم ـ هاجم السلطان أحمد الوطاسي الأمير محمد بن علي بن راشد بشفشاون، وحاصره بها، إلى أن هزمه، إلا أن العلماء والوجهاء والشرفاء تدخلوا في الصلح بين السلطان الوطاسي، والقائد الراشدى، وكانت نتيجة هذا التدخل، هي العفو عن قائد شفشاون وا بقاؤه في منصبه (158).

وبعدما أنهى السلطان مشكل محمد بن راشد توجه إلى تطوان، حيث تزوج بالست الحرة حاكمة تطوان، وأخت القائد

158) عن القائد محمد هذا جاء في كتاب «أسرة بني راشد بشمال المغرب» هو الابن الثاني لعلي ابن راشد، وهو الذي خلف شقيقه مولاي ابراهيم على قيادة شفشاون، وفي أول أمره أظهر عداء صريحا للسلطان أحمد الوطاسي، الذي حاربه سنة 1541م وارتبط بعلاقات مع الشريف مولاي محمد الشيخ ـ أي المهدي السعدي ـ ص : 27 و 28.

محمد بن راشد قائد شفشاون، وتولى قائدنا هذا ولاية النكاح على أخته الست الحرة (159).

وبهذه المناسبة، وجد كاتب عقد الزواج فرصة ليضفي على القائد محمد بن راشد من الألقاب والنعوت ما يعد غاية في التعظيم والتبجيل... ومن خلال الوثيقة المشار إليها، (160) ندرك أنه كان مع السلطان أحمد الوطاسي في تطوان، حيث جاء لحضور مراسيم الزواج وحفلاته.

ومن خلال هذه الأحداث نرى أن السلطان أحمد الوطاسي، عاد إلى فاس، من مناطق أقصى الشمال، وقد عقد صلحا مع القائد محمد بن راشد قائد شفشاون، وعقد زواجا مع الست الحرة حاكمة تطوان، ومعنى ذلك أنه عاد إلى قاعدة ملكه، وهو مطمئن على هذه النواحي من مملكته.

وإذا كانت هذه الأحداث تتعلق بالفترة الأولى من ولاية القائد محمد بعد موت أخيه الأمير إبراهيم فإن بعض الوثائق تذكر أنه في أيام محمد هذا نزلت بشفشاون جالية أندلسية كبيرة، وتذكر كذلك أن المدينة عرفت توسعا في أحيائها ومرافقها نتيجة لهذه الهجرة الأندلسية الجديدة. (161) وقد سبقت الإشارة إلى أن جالية أندلسية أخرى، كانت قد نزلت بالمدينة في

---

159) الوثائق الملكية ج : 1 : الوثيقة : 115، ص : 347.

160) نفس الوثيقة السالفة الذكر : ص : 352.

161) تقييد عن تاريخ شفشاون لمحمد الصادق بن ريسون.

المرحلة الأولى من تأسيسها على عهد علي بن راشد والد محمد هذا، في الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى ـ وذلك قبل سقوط غرناطة، أي حوالي سنة 876هـ/1471م (162).

وينسب بناء المسجد الأعظم بشفشاون إلى محمد هذا، (163) ولا شك أن القائد الراشدي عاش في فترة مضطربة من تاريخ المغرب، فترة عرفت البلاد خلالها صراعا بين الوطاسيين والسعديين، وكان القائد محمد يوجد في منطقة حساسة جدا، لأنها منطقة موالية للثغور المحتلة مباشرة، ولا شك أن هدف السعديين القائمين بالجهاد، كان يهدف إلى تحرير ثغور البلاد من السيطرة الأجنبية ، وكانوا يرون أن قضية التحرير ينبغي أن تسير وفق مخطط واحد، شمالا وجنوبا.

وفي هذا الصدد تذكر بعض المصادر أنه كانت هناك مراسلات بين القائد محمد بن راشد، وبين القوة السعدية الجديدة (164).

وبهذا يبدو أن الصلح الذى كان قد تم بين القائد محمد بن راشد، وبين السلطان أحمد الوطاسي، لم يكن صلحا حقيقيا؛ لأن القائد الراشدي كان يدرك أن السعديين جادون في عملهم، وأنهم لا بد وأن يسيطروا على جميع أجزاء البلاد.

---

162) عمدة الراوين في أخبار تطاوين للشيخ أحمد الرهوني ج: 1. م المكتبة العامة بتطوان.

163) (المسجد الأعظم بشفشاون) للأستاذ سعيد اعراب (دعوة الحق) ع. 1 س 6 : 28.

164) سبقت الإشارة إلى ذلك في التعليق رقم : 158.

وبعد سنة : 956هـ التي هي السنة التي فتحت فيها فاس من طرف محمد الشيخ السعدى بعد هذا الفتح نجد أن محمد بن علي ابن راشد قد أصبح من بين الشخصيات المرموقة في البلاط السعدي بفاس، ويبدو ذلك واضحا من خلال حديث ابن عسكر عن مناظرة الشيخين : عبد الله الهبطي، ومحمد اليستني.

فابن عسكر من خلال حديثه عن هذه المناظرة يصور لنا القائد محمد بن راشد نشيطا خفيف الحركة ملاحظا، ومتدخلا، ومتنقلا بين السلطان محمد الشيخ، والشيخ عبد الله الهبطي (165).

ويستفاد من كلام ابن عسكر أن محمد بن راشد، أصبح من المقربين لمحمد الشيخ السعدي... وأن الكاتب محمد بن عيسى التملي، وهو من أهم شخصيات البلاط في ذلك الوقت، كان صديقا حميما للأمير الراشدي، قائد شفشاون. ومعنى هذا أن القائد محمد بن راشد، انسجم مع البلاط السعدي، ورجاله انسجاما كليا... ولم يعكر صفو هذا الإنسجام، إلا زحف أبي حسون الوطاسي على فاس، سنة 961هـ/1553م حيث تغلب على محمد الشيخ وألجأه إلى الفرار عن فاس.

وهنا تذكر الوثائق أن أبا حسون الوطاسي أسرع بإلقاء القبض على القائد محمد بن راشد، وزج به في غياهب السجن. (166) وتذكر كذلك أن محمدا هذا، كان على خلاف مع أبي

165) الدوحة ترجمة الشيخ عبد الله الهبطي.

166) مخطوط المكتبة العامة بتطوان رقم : 656 ص : 42 والدوحة ص : 16.

حسون الوطاسي، الذى كانت منطقة نفوذه ببادس ذات حدود مع الإمارة الراشدية. (167) وبالإضافة إلى خلافات الحدود فقد كان أبو حسون يحقد تمام الحقد على الرواشد بشفشاون؛ لأنه كان موتورا من جانبهم، بسبب الدور الذي قام به إبراهيم بن راشد في نقل السلطنة من أبي حسون، إلى ابن أخيه أحمد، ولا شك ان ذلك ترك في نفسه جرحا عميقا لا ينساه أبدا - وقد سبقت الإشارة إلى ذلك - في (ترجمة إبراهيم)، ومن هنا لا يستغرب إلقاء القبض على محمد بن راشد والانتقام منه.

وعلى إثر القبض على محمد، جاء إلى فاس، وفد من أعيان الشمال، يضم مجموعة من وجهاء الشرفاء العلميين، وكان على رأس هذا الوفد : الشيخ أبو الحسن علي بن عيسى بن ريسون، (ت : 963هـ).

توجه هذا الوفد إلى فاس، للاستشفاع عند أبي حسون الوطاسي في محمد بن علي بن راشد، بغية إطلاق سراحه، إلا أن أبا حسون لم يقبل هذه الشفاعة، وبذلك عاد الوفد أدراجه غاضبا متوعدا... (168).

وبعد وقت غير قصير من هذا الإستشفاع، زحف السلطان محمد الشيخ السعدي على فاس، وتغلب على منافسه أبي حسون،

---

167) دائرة المعارف الإسلامية حرف الشين مادة شفشاون.

165) انظر الدوحة في ترجمة الأخوين عبد الرحمن وعلي ابني ريسون فقد ذكر ابن عسكر أن أبا حسون الوطاسي سجن محمد بن راشد وأن علي ابن ريسون ذهب للشفاعة فيه بفاس فلم يقبل أبو حسون شفاعته فدعا عليه الشريف علي، فقتل بعد شهر وأطلق سراح محمد ابن راشد، وجاء الكلام عن هذا الحادث بمخطوط المكتبة العامة بتطوان رقم : 656.

وبذلك أطلق سراح الأمير الراشدي، الذي كان رهن الاعتقال عند أبي حسون. ومن خلال هذه الأحداث، يبدو أن محمد ابن راشد كانت علاقته ودية للغاية، مع السلطان محمد الشيخ السعـــدي واستمرت هذه العلاقة على هذا الحال، إلى أن اغتيل محمل الشيخ على يد أتراك الجزائر، سنة : 964هـ/1556م فخلفه ولده أبو محمد (عبد الله الغالب بالله).

وبعد اغتيال محمد الشيخ السعدي، تكهربت العلاقات المغربية الجزائرية، وأصبحت أكثر توترا من ذي قبل، وتوجهت أطماع أتراك الجزائر - بقوة - نحو امتلاك المغرب، وهنا لم يجد عبد الله الغالب، بدا من محالفة الإسبان، واقتضت سياسة هذا التحالف ضد الأتراك، القضاء على المراكز الجهادية بشمال المغرب، والتنازل عن حجرة بادس، (169) ومن المعلوم أن تلك المراكز كانت غصة في حلق النصارى : لأنها كانت تحاول الحد من نشاطهم الاقتصادي، ومن توسعهم الإمبريالي. ولا ننسى في هذا الصدد أن الأتراك أنفسهم، كانوا يحالفون فرانسوا الأول، ملك فرنسا ضد بعض الدول الإسلامية.

ونتيجة للتحالف السعدي الإسباني جاء التفكير في القضاء على إمارة بني راشد بشفشاون، تلك الإمارة التي قامت على الجهاد، ومن أجل مواجهة خطر الغزو الصليبي الذي كان يهدد

---

169) انظر المعجم التاريخي للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله حرف الباء ومعلمة المدن والقبائل ص : 81 لنفس المؤلف. - في الكلام عن بادس -

البلاد، وجاء التفكير كذلك في القضاء على مجاهدي مرتيل، وسواحل غمارة (170).

وفي شهر صفر من سنة 969هـ/1560م بعث السلطان عبد الله الغالب، جيشا للقضاء على إمارة شفشاون تحت قيادة الأمير محمد بن عبد القادر السعدي (171).

وتحت وطأة هذا الجيش، لم يجد محمد بن علي ا بن راشد بدا من مغادرة مقر أ بيه وأسرته، وتوجه بأهله ليلا إلى ثغر ترغة، ومن هذا الثغر، (172) أ بحر نحو الشرق؛ حيث استقر بأهله وببعض أفراد أسرته بالمدينة المنورة، وبذلك انتهت الإمارة الراشدية بشفشاون التي ظلت قائمة من سنة : 876هـ إلى سنة : 969هـ أى قرابة قرن من الزمن.

وبابحار محمد بن راشد نحو المشرق اسدل الستار نهائيا على الإمارة الراشدية بشفشاون.

هذه نبذة موجزة عن الحياة السياسية للأمير محمد بن علي بن راشد جمعتها من مختلف المصادر والمراجع.. وهي بالرغم من قصرها، تظهر لنا : أن الأمير محمد بن علي بن راشد، كان على جانب كبير من الذكاء والحنكة السياسية... وأنه عاصر آخر ملوك

170) عبد العزيز بن عبد الله (تاريخ المغرب القديم والوسيط) ج: 1 : 169، مطبعة الجامعة العربية الدار البيضاء بدون تاريخ، ويؤكد ذلك مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية.

171) انظر الدوحة في ترجمة والدة المؤلف، والمرآة : ص 162 والاستقصا ج 5 ص 41.

172) يذكر صاحب المرآة ان خروج الأمير محمد من شفشاون بأهله، كان في اليوم الثاني من شهر صفر سنة 969 هـ وان مغادرة ترغة كان في اليوم التاسع من صفر 969 هـ.

الوطاسيين، واحتك بهم، وتعامل معهم، وعاصر في نفس الوقت أوائل ملوك السعديين، واحتك بهم كذلك، وتعامل معهم، وأنه استطاع في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ المغرب أن يحافظ على مركز إمارة بني راشد، وأن يجنب هذه الإمارة غضب السعديين،، وأن يحفظها من كيد الوطاسيين، وهو كما رأينا استطاع أن يحتل مكانة مرموقة من قلب السلطان محمد الشيخ السعدي، وأن يصبح أحد رجال دولته المقربين.

وإذا كان حظ الأمير محمد، قد عثر به أخيراً، فإن الظروف التي كان يجتازها المغرب في هذه الفترة - وهو محاط بالأعداء من كل مكان - كانت تجعله في وضع حرج جدا، ونتيجة لذلك كانت الزوابع السياسية، تعصف من حين لآخر ببعض المرموقين والمقربين...

وبعد نهاية الأمير محمد بن راشد، عرفت شفشاون وإقليمها حكما شبه عسكري على يد قواد من أسرة أولاد العلج، وهي أسرة كانت ترتبط بكثير من وشائج الصداقة، والمحبة مع الأسرة السعدية الحاكمة.

«الست الحرة بنت علي ابن راشد»

هذه شخصية من الشخصيات البارزة من أسرة بني راشد بشمال المغرب في القرن السادس عشر الميلادي.

والست الحرة سيدة حظيت بشهرة واسعة النطاق في الشمال الغربي من افريقيا الشمالية. وهي ممن اعتنى المؤرخون الأجانب بالحديث عنها والتعرض بالذكر لايام حكمها بتطوان.

ولعل شهرة هذه السيدة قامت على عدة اعتبارات : فهي ابنة أمير شفشاون علي ابن راشد، . وهي في نفس الوقت الأخت الشقيقة للوزير أبي سالم الأمير ابراهيم بن راشد، أمهـا : (لالا الزهراء) ذات الأصل الإسباني الأندلسي. وهي كذلك زوجة قائد تطوان محمد المنظرى..

وهي حاكمة تطوان في فترة معروفة من تاريخ المغرب (173).

وهي بعد كل هذا، وذاك، زوجة السلطان أحمد الوطاسي، (932 ـ 956) ابن السلطان محمد الشيخ (البرتغالي)، (919 ـ 932) الذى اعتبر زواجه منها في ذلك الوقت شبيها بزواج الملكين الكاثوليكيين فرديناند (1452 ـ 1516) وايسابيلا (1451 ـ 1504) ملكي إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وأوائل السادس عشر.

وهكذا اشتهرت هذه السيدة وتحدث عنها المؤرخون من مغاربة وأجانب (174).

---

173) انظر تاريخ تطوان للأستاذ محمد داود ج : 1 : 117.

174) ذكرها صاحب الدوحة محمد بن عسكر ص : 34 ط : ح. ف، وابن القاضي في لقط الفرائد مخ. خ. ع. الرباط 270 ك وصاحب مرآة المحاسن محمد العربي الفاسي 216 ط ح. ف

نسبها واسمها :

أما نسبها فهي : بنت الأمير المجاهد علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن عبد السلام بن مشيش «العلمي».

فهي إذن شريفة النسب «علمية» «ادريسية» «حسنية» أما اسمها : فقد اختلف فيه المؤرخون بالرغم من شهرتها (بالست الحرة).

لقد ادعى بعض المؤرخين الأجانب أن اسمها هو عائشة (175) ولذلك فهم يجعلون لفظ (الحرة) لقبا كان يطلق عليها تشبيها لها بأنثى الطائر الحر، الذي هو الباز، نظرا لما يتمتع به هذا الطائر من مزايا عديدة، يتميز بها عن سائر الطيور، فهي قد شبهت به في نظر هؤلاء نظرا لما كانت تتمتع به من ذكاء وشجاعة ونخوة وخبرة سياسية...

ويرى الأستاذ محمد داود في تاريخ تطوان أنها لقبت بالحرة، تمييزا لها عن الاماء، لأن الناس في ذلك العصر كانوا يكثرون من التسرى بالجواري...

ويرى الأستاذ عبد الوهاب بن منصور : أن اسمها الحقيقي هو (الحرة)، لالا عائشة، ويؤكد أن لفظ الحرة ليس لقبا ولا صفة

وأحمد الرهوني في عمدة الراوين في أخبار تطاوين في ج : 4، بدون ترقيم : المكتبة العامة بتطوان.

وتحدث عنها الأستاذ عبد الرحيم جبور في كتابه : «أسرة بني راشد الشفشاونية ومدلولها التاريخي بشمال المغرب» نقلا عن الكتاب الأجانب.

175) المصدر السالف الذكر ص : 23 وتاريخ تطوان ج : 1 : 117.

لها، بل هو اسمها الشخصي، وقد اعتمد على ماورد مثبتا في عقد زواجها من السلطان أحمد الوطاسي (176).

وإذا كان لفظ الحرة ليس صفة، ولا لقبا لها، بل هو اسمها الشخصي، فبإمكاننا أن نتساءل : هل كان يا ترى اسم الحرة شائعا بين النساء في ذلك العصر أم لا ؟ وهل اسم الحرة تخيره لها والدها عن نظير أو عن غير نظير..؟

أم هو اسم نقل من الوصفية الى (العلمية) لغاية من الغايات ولمعنى من المعاني، كما هو الحال في كثير من الأسماء ؟

وللاجابة عن هذه الأسئلة لا بد من الرجوع الى الوثائق والمصادر...

وبالرجوع الى ذلك نجد : أن لفظ الحرة كان قد اشتهرت به بعض النساء الذائعات الصيت والشهرة في ذلك العصر...

فأم السلطان أبي عبد الله محمد بن الأحمر آخر ملوك غرناطة مثلا غلب عليها اسم الحرة واشتهرت به. ويذكر المؤرخون أن هذه السيدة علق بها لفظ (الحرة) الى درجة تنوسي معها اسمها الحقيقي الذي هو (عائشة).

ويذكر المؤرخون كذلك، أن هذه السيدة استطاعت أن تفرض وجودها في التأثير على سير الأحداث بمملكة غرناطة في المرحلة الأخيرة من مراحل دولة بني الأحمر بالأندلس، حيث اشتهرت في شبه جزيرة إيبريا شهرة واسعة، وأصبح اسمها يتردد

---

176) المجلد الأول من الوثائق الملكية تقديم وتنسيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور الوثيقة 115.

في المحافل والندوات... وأضحى الناس يتحدثون عن جرأتها وشجاعتها، ودهائها ومواقفها العجيبة (177).

ومن هنا لا يبعد أن تكون أم الحرة الشفشاونية تلك الأم، الأندلسية الأصل والتي عايشت الفترة الأخيرة من حياة غرناطة معايشة بكل إحساسها وعواطفها... لا يبعد أن تكون تلك الأم اختارت لابنتها الأميرة لقب الملكة الغرناطية الذائعة الصيت.

ولا يبعد كذلك أن يكون من اقتراح والدها الذي عرف بلاط بني الأحمر، وعاش في غرناطة في هذه الفترة بالذات.

ثم إن اسم (الحرة) لا شك أنه كان له صدى ملحوظ عند الجالية الأندلسية المقيمة بشفشاون في ذلك الوقت، وكذا عند الجالية الأندلسية المقيمة بتطوان (178).

وحسبما يبدو أنه نظرا لهذه الاعتبارات سميت الأميرة الراشدية (بالحرة) اعجابا وتقديرا لملكة غرناطة الذائعة الصيت.

ومن هنا يبدو كذلك أن مصدر وهم المؤرخين الأجانب جاء من اشتباه «العلم» بالصفة فالحرة الشفشاونية ظنوا أن اسمها عائشة كحرة غرناطة، وبذلك أصبحوا يطلقون على الحرة الراشدية (عائشة).

---

177) نهاية الأندلس للأستاذ عبد الله عنان ص : 185. ط : 2 بمصر 1958.

178) تثبت الوثائق ورود جالية أندلسية على شفشاون قبل تجديد بناء مدينة تطوان أي قبل سنة 888 هـ نقل ذلك العلامة أحمد الرهوني في عمدة الراوين عن عبد السلام بن أحمد السكيرج، ج : 1 : بدون ترقيم : مخ. م. ع. بتطوان.

وتذكر المصادر التاريخية أن عائشة الحرة ملكة غرناطة، زوجة السلطان أبي الحسن ابن الأحمر، وأم السلطان محمد أبي عبد الله ابن الأحمر، أطلق عليها لفظ الحرة تمييزا لها عن ضرتها (ثريا) الرائعة الجمال، ابنة أحد عظماء النصارى، والتي هام بها السلطان أبو الحسن على كبر سنه.

والهيام (بثريا) من قبل السلطان أبي الحسن، فتق عبقرية زوجه عائشة الحرة، وأصبحت تتدخل في القضايا السياسية... تثبيتا لوجودها ومكانتها، وتوطيدا لمستقبل ولديها محمد ويوسف، وهنا ظهرت عبقريتها وذاع صيتها.. (179)

ومهما يكن من أمر هذا الشبه، أو الاشتباه، فإن وثيقة عقد زواج الست الحرة بالسلطان أحمد الوطاسي، المشار إليه سالفا أثبتت بما لا مجال فيه للشك، أن اسم الأميرة الراشدية هو (الحرة) لا عائشة.

مولدها ونشأتها :

ولدت السيدة الحرة بشفشاون حوالي سنة 1493م/899 هـ وربيت ونشأت في حجر والدها الأمير علي بن موسى بن راشد، وتلقت تعليمها على يد أشهر العلماء ورجال الدين بهذه المدينة.

---

179) جاء في نهاية الأندلس للدكتور عبد الله عنان : «تنوه بها المصادر الأجنبية والعربية على السواء وهي ملكة غرناطة في فترة الاحتضار وزوج الأمير أبي الحسن ابن الأحمر رزقت منه بولدين محمد ويوسف ، عرفت بالحرة...» ص 185.

(180) ولا شك أنها بذكائها ومواهبها استطاعت أن تحصل على ثقافة هامة، انعكست على تصرفاتها وحياتها فيما بعد.

وفي هذا الموضوع يقول صاحب كتاب (أسرة بني راشد بشمال المغرب) «تروي لنا الأخبار سواء البرتغالية، أو الإسبانية، أن هذه السيدة النبيلة كانت تتوفر على ذكاء نادر، وأخلاق سامية هيأتها لتأخذ بيدها السلطة، وذلك بسبب التعليم الذي تلقته من أشهر العلماء ورجال الدين في عصرها...» (181).

زواجها من القائد المنظري بتطوان :

من المؤكد عند المؤرخين أن الست الحرة زفت الى القائد المنظري بتطوان في حياة والدها علي ا بن راشد، وذلك حوالي سنة (1510م/916 هـ) زفت وهي فتاة مكتملة النضج، في نحو الثامنة عشرة من عمرها، وتذكر بعض المصادر أن هذا الزواج كان بمثا بة تحالف متين بين إمارة شفشاون، وقيادة تطوان من أجل تقوية جبهة الدفاع ضد البرتغاليين المحتلين لثغور شمال المغرب (182).

---

180) كانت بشفشاون في هذه الفترة مجموعة من العلماء والفقهاء أمثال : الكاتب العلامة أبي الحسن علي بن ميمون، والفقيه القاضي علي ابن عسكر، والقاضي المفتي محمد ابن الحاج وغيرهم...

181) عبد الرحيم جبور (أسرة بني راشد بشمال المغرب) ص : 24.

182) نفس المصدر.

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الزواج كان من أبي الحسن علي المنظري الذي توفي عن سن عالية، والذي كف بصره في آخر حياته.. (183).

بينما يرى الأستاذ محمد داود مؤرخ تطوان، ـ حفظه الله ـ : أن هذا الزواج كان من قائد تطوان محمد المنظري حفيد الأول، ولعل الذي ينسجم مع الأحداث والوقائع التاريخية هو ما ذهب إليه الأستاذ داود.

زواج السيدة الحرة بالسلطان أحمد الوطاسي (184).

تحدثت بعض المصادر الأجنبية والعربية عن هذا الزواج، (185) والحقيقة أنه كان زواجا لافتا للأنظار، تحدث عنه المؤرخون، وعلق بأذهان كتاب المذكرات والتراجم... وذلك لأنه زواج سلطان ينتقل من فاس، ليتزوج في تطوان، وهو في جموعه العديدة، وحاشيته الكبيرة، وجيشه الوافر، وعدته، وعدده... وبالإضافة الى ذلك، كان السلطان في هذه الرحلة محاطا بحاشية كبيرة من العلماء وكبار المشايخ، وكل هذا أضفى على هذا الزواج هالة، وأعطاه شهرة، وإذا كان الأمر بهذه المثابة، فما هو المقصود من هذا الزواج يا ترى ؟ وما هي الغايات القريبة أو البعيدة

183) نفس المصدر.

184) أحمد الوطاسي : ثالث الملوك الوطاسيين (932 هـ ـ 956 هـ) (1524 ـ 1549م) في أيامه وقعت المعارك الحاسمة بين السعديين والوطاسيين إلى أن غلب الوطاسيون على أمرهم سنة : 956 هـ وفتك بهم محمد الشيخ السعدي، وأحمد هذا هو آخر ملك وطاسي استمر حكمه مدة طويلة على الجزء الشمالي من المغرب.

المتوخاة منه ؟ ولماذا كان هذا الزواج في تطوان بالذات، ولم يكن في فاس حيث قصور السلطان، ومظاهر أبهته ؟ لعله من الأكيد أن مثل هذه الأسئلة تتبادر إلى ذهن القارىء، وهو يقرأ عن زواج السلطان، أحمد الوطاسي بالست الحرة حاكمة تطوان.

وإذا كانت الإجابة بالتدقيق عن كل هذه الأسئلة تعد من الصعوبة بمكان، نظرا لسكوت المصادر عن ذلك، فإننا سنحاول على الأقل إلقاء بعض الأضواء على هذا الموضوع.

سنلاحظ أولا : أن علاقة السلطان أحمد الوطاسي بالست الحرة الراشدية لم تكن وليدة يوم وليلة، أو علاقة سريعة نشأت بعد زيارة السلطان لتطوان، ثم تحولت بعد أيام معدودة الى زواج... كلا لم يكن ذلك، بل علاقة السلطان بحاكمة تطوان كانت قائمة قبل هذه الزيارة التي انتهت بالزواج، إذ من المعلوم أن علاقة السلطان أحمد الوطاسي بالأسرة الراشدية بشفشاون كانت علاقة وطيدة للغاية، حيث كانت تربطه بهذه الأسرة روابط شتى.

فأخت السلطان أحمد الوطاسي السيدة عائشة بنت السلطان محمد الشيخ (910 ـ 931) الملقب بالبرتغالي، كانت هي زوجة الأمير ابراهيم أخ الست الحرة الذي أصبح وزيرا ومستشارا للسلطان، بل كان هذا على رأس القيادة العسكرية للسلطان أحمد الوطاسي، ومن أبرز الشخصيات في الدولة لذلك العهد، وذلك لما كان يتوفر عليه من مواهب في الميدان العسكري، والميدان السياسي والدبلوماسي.

فالسلطان أحمد الوطاسي إذا كان يعرف الست الحرة أخت وزيره، وصهره، معرفة حقيقة، وهي بالإضافة الى هذا وذاك عاملته على تطوان وإقليمها.

ولا شك أنه كانت بين السلطان والأميرة مراسلات ومكاتبات في مواضيع شتى سياسية وغيرها...

فالأميرة الراشدية بحكم ارتباطها، وارتباط شقيقها الوزير ابراهيم بالوطاسيين، كان هواها وطاسيا، وكانت على النقيض من أخيها لأبيها محمد بن راشد، حاكم شفشاون، الذي عمل على الاتصال بالسعديين بمراكش كما سلف.

أثار زواج السلطان أحمد الوطاسي بالأميرة الحرة حقد الاربيين وضغائنهم، حسبما تصرح به بعض الوثائق، جاء في عمدة الراوين : «أن ملك اسبانيا - فيليب الثاني (كذا) - (186) اغتاظ من تزوج أحمد الوطاسي بالست الحرة، لأن هذا يربط أواصر الصداقة والمودة بين مجاهدي تطوان، وشفشاون، وبين السلطان فيتحدون ضده..» (187) وسبقت الإشارة الى أن بعضهم شبهه بزواج الملكين الكاثوليكيين فردناند وايسابيلا.

---

185) ابن القاضي في لقط الفرائد في احداث 948 هـ ومرآة المحاسن ص : 216 الذي نقل عنه صاحب الاستقصا بالجزء الرابع : ص : 154 ط : دار الكتاب.

186) الملك فليب الثاني (1550 - 1598م) وهذا لم يكن عهد الست الحرة (1510 - 1542م) بل الذي كان على عهدها ملكا لاسبانيا هو : الملك شارل الخامس - كارلو كينطو - 1516 - 1555) ولعله سهو أو سبق قلم.

187) عمدة الراوين : 4 غير مرقم.

والحقيقة أن هذا الزواج كان سياسيا بالدرجة الأولى وبخاصة أن السلطان أحمد الوطاسي، كان يجد نفسه في موقف حرج جدا، وذلك نتيجة قيام السعديين بالجنوب، الذين أصبحت تشرئب أعناقهم لامتلاك المغرب كله، وكان قيامهم يعتمد على الدعوة الى الجهاد، وتوحيد صف المغاربة ضد الأجنبي الدخيل...

وكانت سياسة الوطاسيين منذ ظهورهم على مسرح السياسة بالمغرب، مهادنة العدو تارة، ومقاومته في بعض الأحيان، وهذه السياسة لم يكن الجمهور المغربي في مجموعه راضيا عنها، بل كانت منتقدة من طرف زعماء الجهاد ومن طرف العلماء... (188).

جاء في الدوحة في ترجمة أحد العلماء المجاهدين ـ الشيخ محمد البهلولي ـ الذي لفظ أنفاسه وهو يتحرق شوقا الى الجهاد : قال له بعضهم : «يا سيدي : أخبرك أن السلطان أمر بالغزو (وبرح به) وأمنت الناس عليه، والمسلمون في شوق لذلك، ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك...» (189).

فالسلطان الذي أمر بالغزو (وبرح به) ـ أي نادى به ـ وفرح الناس بأمره، هو السلطان أحمد الوطاسي، وذلك بعد موت أبيه محمد الشيخ (البرتغالي) وتنحيته لعمه أبي حسون سنة 932 هـ.

---

188) بدأ عهد الوطاسيين بعقد هدنة طويلة الأجل بين الملك الوطاسي محمد الشيخ ابن أبي زكريا (1470 ـ 1504م) وبين الملك البرتغالي الفونصو الخامس (1438 ـ 1481م).

189) الدوحة : 45 و 46. ط ح. فاسية.

إلا أن السلطان أحمد بعد ذلك تبع سياسة أبيه وجده في المهادنة، والمناوشة أحيانا.

وفي سنة (948 هـ/1541م) كان السلطان أحمد الوطاسي قد خسر عدة معارك مع السعديين (190) وكان يريد أن يحافظ على ما بقي له من شمال المغرب.

ولذلك كان من الضروري بالنسبة إليه، أن يتفقد هذه الجهات، وأن يستوثق من حكامها وأن يمتن صلاته بهم...

ولذا فزواج السلطان أحمد الوطاسي بحاكمة تطوان، كان زواجا سياسيا بالدرجة الأولى، ومما يؤكد ذلك أن السلطان لم يصحب عروسه معه بعد بنائه بها، بل تركها في تطوان، تحرس الثغور، وتنظم عمليات الحصار على سبتة، وعلى غيرها من الثغور المحتلة بالشمال.

وفي هدا الظرف بالذات، كان الخرق قد اتسع على الراتق، وكان السلطان أحمد الوطاسي، قد خاص مع السعديين عدة معارك لم يخرج منها بطائل، وكان في هذه الأثناء يحاول أن يهدىء الأوضاع في الجزء الذي بقي له من المغرب.

وبهذا يبدوا أن غايات الزواج وأهدافه كانت هي الوصول الى تهدئة الأوضاع بأقصى شمال المغرب.

190) لخص الكلام عن هذه المعارك الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في تعليقه رقم 32 بعروسة المسائل المطبعة الملكية : 1963.

وبهذا ندرك أن الزواج من الست الحرة كان تحالفا مع أبرز شخصيات شمال المغرب، في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الوطاسيين...

الست الحرة حاكمة تطوان :

تؤكد الوثائق العربية والأجنبية أن الست الحرة حكمت تطوان ونواحيها فترة طويلة من الزمن، فإذا اعتبرنا أنها شاركت زوجها محمد المنظري في الحكم - وهذا هو الراجح - تكون هذه السيدة قد حكمت تطوان ونواحيها ما يزيد عن ثلاثين سنة، أي منذ زواجها بالقائد المنظري سنة 1510م/916 هـ الى زوالها من الحكم سنة 1542م/949 هـ.

والغريب في الأمر : أنه خلال هذه المدة الطويلة من حكومة الست الحرة، نرى المصادر العربية تكاد تكون ساكتة عن الأحداث، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الإشارات العابرة هنا وهناك، فمن ذلك مثلا ما أشار إليه ابن عسكر في الدوحة عند ترجمته (للجاسوس المجهول) حيث قال : «واتوا به الى تطوان في ولاية الست الحرة بنت علي ابن راشد، وذلك في حدود الخمسين» أي من القرن العاشر، وتعرض لزواجها من السلطان أحمد الوطاسي ابن القاضي في لقط الفرائد، ومحمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن، وغيرهم... إلا أن كل ذلك إشارات عابرة لا أقل ولا أكثر... وهكذا نرى - بكل أسف - أن مصادرنا الوطنية لم تعتن بالحديث عن هذه السيدة عناية تناسب مركزها الاجتماعي

والسياسي... ونجد على العكس من ذلك أن المصادر الأجنبية تحدثت عن الست الحرة حاكمة تطوان في مناسبات عديدة. إلا أنه مما يلاحظ في هذا الموضوع أن كتابات الأجانب عنها، بالرغم مما لها من أهمية، فإنها لا تخلو من أخطاء فادحة.

فمن ذلك مثلا ما سبقت الإشارة إليه، من أنها كانت تسمى (عائشة) ومن ذلك أيضا ما ذكره (الكولونيل هنري دى كاستري) من أن الست الحرة هي والدة ا بن عسكر صاحب الدوحة (191).

ولقد رد عليه مقالته هذه كل من الأستاذ عبد الرحيم جبور في كتابه (أسرة بني راشد بشمال المغرب) والأستاذ محمد داود في كتابه (تاريخ تطوان) (192).

ومن ذلك أيضا الادعاء بأن السيدة الحرة انتهت حياتها بالقصر الكبير، وأنها دفنت خارج باب سبتة من هذه المدينة... (193) وهذا غير وارد في المصادر الوطنية، وربما كان مصدر هذا الادعاء : اعتقاد بعض الكتاب الأجانب بأنها والدة صاحب الدوحة، التي ربما يكون ذلك صادقا في شأنها.

مع أن المتواتر عند الشفشاونيين، أن السيدة الحرة انتهت حياتها بشفشاون حيث كانت في رعاية أخيها الأمير محمد، وأنها دفنت برياض الزاوية الريسونية بهذه المدينة؛ حيث ما يزال قبرها معروفا وحاملا لاسمها الى اليوم.

---

191) السلسلة الأولى المجلد الأول ص : 133 بالفرنسية نقل مقالته هذه الأستاذ عبد الرحيم جبور في كتابه (بنو راشد بشمال المغرب) ص : 25.

192) تاريخ تطوان للأستاذ محمد داود ج 1 : ص : 120.

193) تابع لمقالة دى كاستر السالفة.

إلا أنه بالرغم من كل هذا، فإن كتابات المؤرخين الأجانب تظهر عنايتهم بالحديث عن الأسرة الراشدية، وبخاصة حديثهم عن الأمير ابراهيم بن راشد، والأميرة الحرة.

فعن الحرة مثلا يقول الكاتب سبستيان د بركاس Sebastian de vargaz إنها كانت شديدة الإنفعال : ففي إحدى المناسبات تشاجرت مع حاكم سبتة (أفونصو دي نورنها Alfonso de Noranha فلجأت الى العنف والحرب لأنها كانت شديدة الاندفاع، وميالة الى الحروب... وأنها كانت مهتمة بتجارة الرقيق من المسيحيين على مستوى عال، وكانت سفنها دوما تجوب البحار، وكانت المراكب الجزائرية تلقى حفاوة بمرسى تطوان... (194) فمثل هذا النص لا نجده عند كتابنا الوطنيين، وهذا النص بالرغم من ظهور الانفعال على صاحبه يعطينا فكرة عن بعض الجوانب من سياسة الست الحرة حاكمة تطوان فهو يقول : إنها لجأت الى الحرب مع حاكم سبتة، والحقيقة أن اللجوء الى الحرب من طرف المغاربة كان يثير المحتلين الغاصبين لأنهم يريدون من السكان المجاورين لمراكز احتلالهم أن يلتزموا الهدوء، وان يرضوا بالأمر الواقع... وهذه سياسة كانت ترفضها الست الحرة كما كان يرفضهاالشعب المغربي برمته.

والغريب أن الأوربيين المحتلين، كانوا يرون مقاومة احتلالهم مجرد اندفاع وحب للحرب...!! ويذكر النص أن الست الحرة

194) (بنو راشد بشمال المغرب) ص : 24.

كانت لها عناية بالتجارة في الرقيق من المسيحيين... وكانت تجارتها هذه «على أعلى مستوى».

وكأن الأوربيين بهذا المنطق، يريدون أن يتجروا وحدهم فيما عداهم من الشعوب، أما أن يتجر غيرهم في المسيحيين فهذا مما يسجل ويستهجن ويشهر به...

ويتعرض النص للحفاوة التي كانت تلقاها السفن الجزائرية من طرف الست الحرة بمرسى تطوان. ومن المعلوم أن حفاوة المغاربة بالجزائريين كانت سياست متبعة من قديم الزمان.

والنص هنا يشير إلى وحدة خطة الجهاد بين المغرب والجزائر ضد المسيحيين المحتلين، وهو في نفس الوقت يشنع على الست الحرة حفاوتها بالسفن الجزائرية؛ لأن تضامن ووحدة شعوب المغرب العربي كان مما يحز في نفوس المستعمر وأذنابه... وهذه سياسة ما تزال متبعة ـ بكل أسف الى يومنا هذا.

ويشير النص كذلك الى أن أسطول الست الحرة، كان يجوب البحار دوما، وهذا كان مما يهدد المصالح الامبريالية والاستعمارية في ذلك الوقت...

ونرى الكاتب هنا بالرغم من قصر النص يتعرض لذكر قضايا حساسة بالنسبة لذلك العصر...

1 ـ محاربة المحتلين للثغور المغربية ومقاومتهم من طرف المغاربة، وهذه كانت قضية تشغل بال الجمهور المغربي.

2 ـ خطورة العمليات القرصنية ومخر سفنها للبحار....

3 ـ التجارة في الرقيق...

وبطبيعة الحال، تعد هذه القضايا من أبرز أحداث القرن السادس عشر الميلادي.

فهناك عدة لقطات من هذا النوع. وسيطول بنا الحديث إن نحن تتبعنا ذلك في هذا التعريف الموجز بالست الحرة.

إلا أن النص في مجمله يعطينا نظرة عن تأزم الأوضاع بين المغاربة والبرتغاليين. ولا شك أن عمليات المقاومة في هذه الفترة كانت مما يقلق بال المحتلين. وفي الفترة الأخيرة من حكم الست الحرة لتطوان ونواحيها نجد المقاومة المغربية يقظة وحذرة...

ومما يستفاد من كلام ابن عسكر في ترجمة (الجاسوس المجهول)، أن الناس في هذا الظرف بالذات، كانوا حذرين مترقبين، وأن العمليات الجاسوسية كانت على أشدها... (فالسيد الجاسوس) الذي ترجم له ابن عسكر (195) بالرغم من أن أمره لم يكن واضحا تماما، بل ربما كان جانب (الجذب) أرجح فيه من جانب الجاسوسية بالرغم من ذلك فإن الشكوك كانت تدور حوله، وألقي عليه القبض، وقدم لحاكمة البلاد الست الحرة بتهمة الجاسوسية... ونرى أن هذه الحادثة مثلا، كانت بعد زواج السلطان من الست الحرة، في حدود الخمسين من القرن، كما صرح بذلك ابن عسكر، والراجح أنها كانت سنة 949 هـ.

---

195) الدوحـــــة : 45.

وسنرى أنه في هذا الوقت بالذات كان أفراد من أسرة المنظري ـ المتنقلين بين فاس وتطوان ـ يعملون ضد الحكم الوطاسي بكل ما أوتوا من كيد وحيل.

ولقد نجح محمد الحسن المنظري في الانتقام من السلطان أحمد الوطاسي؛ حيث استطاع أن ينجح في ثورته ضد زوج السلطان وعاملته بتطوان.

ولعل من أهم أسباب نجاحه ، أن الناس في هذا الظرف الحرج من تاريخ المغرب، كانوا يسمعون عن السعديين وعن انتصاراتهم على البرتغاليين في الثغور بالجنوب، ولا شك أن مثل هذه الأخبار كانت تخلق موجة من السخط ضد الوطاسيين وضد حكامهم والموالين لهم...

في هذا الجو المفعم بالدعاية ضد الوطاسيين، قضي على حكم الست الحرة بتطوان.

ولعل انسياق الست الحرة مع السياسة الوطاسية الى النهاية هو ما كان محمد ابن راشد بشفشاون يلاحظه على أخته حاكمة تطوان.

ومهما يكن من أمر، فإن القضاء على حكم الست الحرة كان نتيجة انسياقها مع السياسة الوطاسية الى النهاية.

وتحدثنا المصادر : «أنه في 20 أكتوبر 1542 م اختفى من فاس محمد الحسن المنظري الباجي الأندلسي، بسبب خلافات عميقة مع السلطان أحمد الوطاسي وتوجه الى تطوان مرفوقا بأسرته وبعض فرسانه، تاركا متاعه وأملاكه... وطرد الست الحرة

بعد أن جردها من أملاكها، وفي 22 أكتوبر أعلن استقلاله عمليا عن ملك فاس...» (196).

وهكذا نرى أن الثائر محمد بن الحسن المنظري استطاع أن يستغل ضعف السلطان أحمد الوطاسي فيستقل بحكم تطوان ويطرد الست الحرة... وكانت هذه الأحداث سنة : 949 هـ/ 1542 م.

ز ـ أبو العلاء إدريس بن علي بن راشد :

من أفراد أسرة بني راشد الذين كان لهم ذكر في حضرة مراكش (197) على عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، الشاعر الأديب إدريس بن علي، بن ابراهيم، بن علي، بن موسى، بن راشد. وهو أحد أحفاد الأمير علي بن راشد مؤسس إمارة بني راشد بشفشاون.

وإدريس هذا ذكره أحمد المقري (تـ : 1041/31 ـ 1632) في كتابه (روضة الآس...) من بين الأدباء والشعراء الذين تعرف عليهم بمدينة مراكش (198) فقال : «أبو العلاء إدريس بن علي بن إبراهيم ابن راشد الشريف الحسني، لسلفه رئاسة ببلاد شفشاون، نشأ هذا المولى حفظه الله بحضرة الامامة، ذا أخلاق

---

196) (أسرة بني راشد بشمال المغرب) : ص : 26.

197) تشير المصادر إلى أنه بعد القضاء على امارة بني راشد بشفشاون ذهبت مجموعة منهم إلى المدينة المنورة بينما نفي الباقون إلى مراكش، ومن بين رواشد مراكش إدريس بن علي الصغير بن ابراهيم بن علي الكبير بن موسى بن راشد العلمي.

198) زار أحمد المقري مدينة فاس ثم مراكش قادما من تلمسان سنة 1009 هـ واتصل بكثير من العلماء والأدباء بالمدينتين معا، وكان ممن اتصل به مترجمنا هذا.



صورة أحد أبراج قصبة علي ابن راشد، وعلى اليمين باب ضريح الولي الصالح محمد بن الحسن بن ريسون، وفي روض هذا الضريح يوجد مدفن الست الحرة بنت علي بن راشد حاكمة تطوان وزوجة قائدها محمد المنظري.

حميدة، وسراوة نفس، وإيثار، وبذل، وله نظم رائق، وجملة ميلاديات يمدح بها أمير المؤمنين مولانا المنصور بالله أيده الله. ومن جملة مقطعاته في الاستخدام قوله :

سحت السحب من سماء جفوني
لحبيب جد في السير عني
وغدا قاصدا لسفح عقيق
قد رأيناه للبعاد بعين

وله :

قد قلت إذا أبدى التعنف عاذ لي
والجفن من جرى الدموع قريح
أهواه أسمر في الورى ولو أن قلبي
في رضاه بطعنة مجروح (199)

وبعدما أورد له المقري بعض أبيات من هذا القبيل قال : «لقيته بمراكش متين الجاه...» (200).

وترجم له ابن القاضي (ت : 1025 هـ) في درة الحجال، ويبدو من كلامه أنه كان على قيد الحياة سنة 1025 هـ لأنه يقول : «وله قصائد يمدح بها المخدوم، أبقاه الله بمنه، ولد بعد الستين وتسعمائة. والله أعلم في غالب ظني». (201) ونفس العبارة

---

199) «روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس المطبعة الملكية بالرباط سنة 1964 ص 188 بتقديم وتعليق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور...

200) نفس المصدر : ص : 189.

201) الدرة ج : 1 ص : 214 الترجمة رقم : 306 ط : القاهرة : 1970.

تقريبا أوردها المقرى في روضة الآس : «ولد بعد الستين وتسعمائة والله أعلم» (202) وعلى هذا يكون عند وفاته قد جاوز الستين من عمره. ومهما يكن فإن الوثائق تثبت أن الأسرة الراشدية انقرضت ولم يبق منها أحد بالمغرب. أما الذين انتقلوا الى المشرق فهم «غابوا غيبة انقطاع» كما يقول الصادق بن محمد بن ريسون في كتابه فتح العليم الخبير» (203).

ح ـ انقراض أسرة بني راشد أمراء شفشاون

تؤكد الوثائق أن أسرة بني راشد أمراء شفشاون قد انقرضت، ولم يبق منها أحد، سواء فرع (شفشاون وغروزيم) أو فرع المدينة المنورة، وكذا فرع مراكش، وفرع مكناس، أكد هذه الحقيقة محمد بن علي العلمي الشفشاوني في تقييد له عن النسب العلمي نقله عن آبائه وجدوده، وفي ذلك يقول :

«الحمد لله يقول كاتبه محمد بن علي بن عيسى بن علي بن أحمد بن علي المذكور ـ وهو علي الشريف والد قاضي شفشاون أحمد العلمي ـ ذكر جدنا رحمه الله، أن من القرباء الينا (اولاد بن راشد) وقد انقرض جميعهم رحمهم الله، ولم يبق منهم فرد واحد الآن، ولا أدركنا شخصا منهم وقد أدرك جدنا سيدي عيسى ابنة منهم توفيت، وهو الذي عصبها لقرابتها منه، وهو أمر معلوم عند الخاص والعام ببلدنا وبمكناس الزيتون...»

202) روضة الآس ط : الرباط : ص : 188.

203) فتح العليم الخبير ورقة : 66.

ثم بعد ذلك قال : «ذكر ابن عمنا المقيم بمراكش العلامة العدل سيدي أحمد بن المهدي ابن محمد العلمي، أنه لا نسبة لأولاد السوسي ولا لأولاد الزفيري، وكلاهما بمكناس، الذين يدعون أنهم من الرواشد، لا نسبة لهم بتاتا» (204).

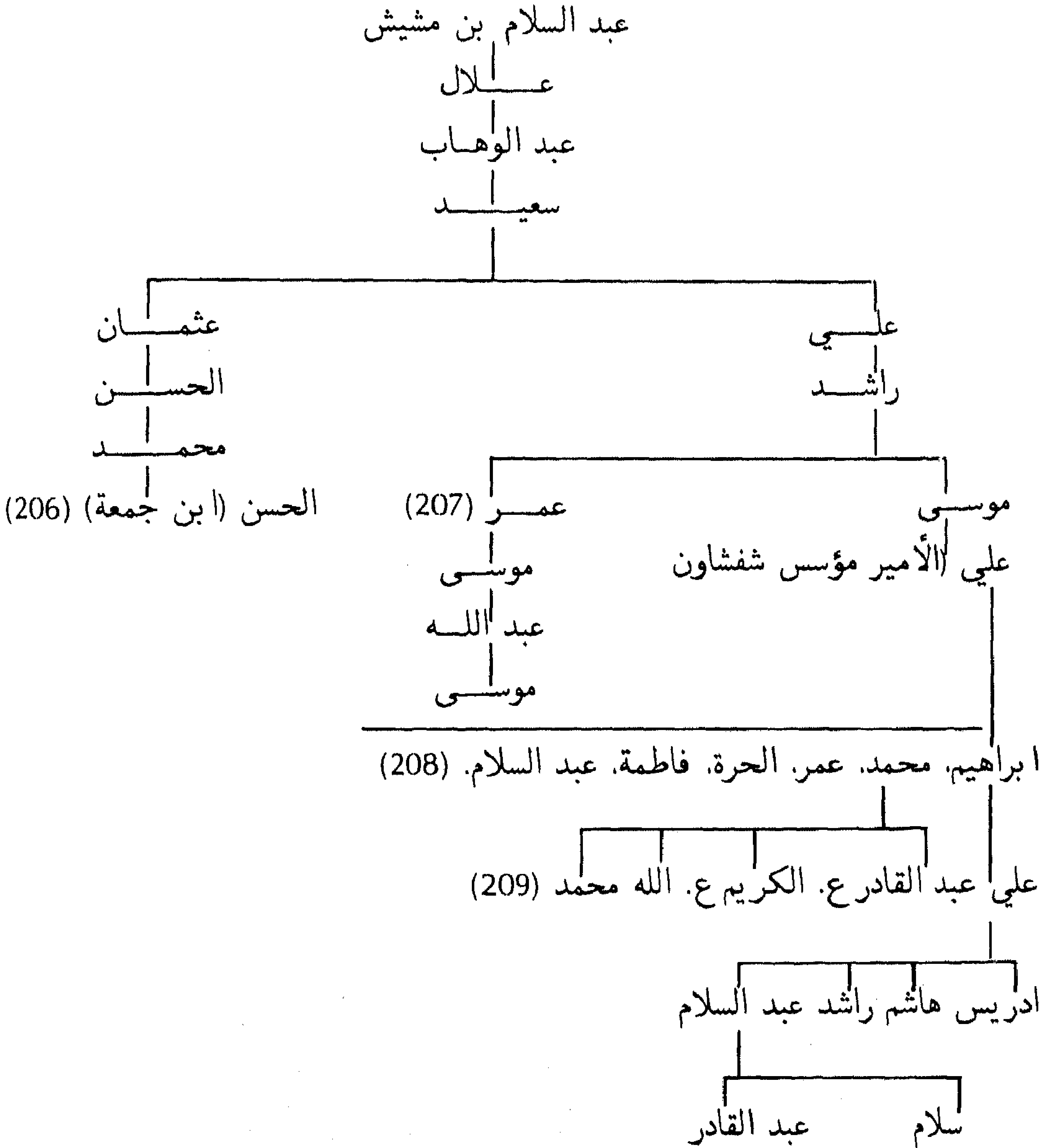
وجاء في فتح العليم الخبير : «... كما انقرض الرواشد أبناء عمهم أولاد سيدي محمد بن عبد القادر وأولاد سيدي محمد بن عبد الله المذكور من أهل (غروزيم) والبقاء لله وحده، ويذكر أن بعض الرواشد غاب لناحية المشرق غيبة انقطاع، ولم يظهر له أثر الى الآن» (205).

---

204) مجموع العلميين : م. ع. ت. رقم : 656 ص : 39.

205) (فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير) لمحمد الصادق بن ريسون م. ع. ت : رقم : 856 ص : 66.

شجرة آل راشد



عبد السلام بن مشيش
علال
عبد الوهاب
سعيد
علي
راشد
عثمان
الحسن
محمد
الحسن (ابن جمعة) (206)
عمر (207)
موسى
عبد الله
موسى
موسى
علي الأمير مؤسس شفشاون
ابراهيم، محمد، عمر، الحرة، فاطمة، عبد السلام. (208)
علي عبد القادر ع. الكريم ع. الله محمد (209)
ادريس هاشم راشد عبد السلام
سلام
عبد القادر

206) هو الحسن ابن جمعة شهيد معسكر الخروب وعنه أخذ ابن عمه علي امارة المجاهدين، وزاد في نشر المثاني (محمد بن الحسن) بين الحسن وعثمان انظر طبعة الرباط ج 1 : 220.

207) فرع عمر بن راشد لم تكن فيه الامارة وانتقل هذا الفرع إلى جبل العلم فيما بعد.

208) عبد السلام ويسمى سليم ذكره عبد الرحيم جبور عن المؤرخ البرتغالي برناردو رود ريكس ولم أجده عند غيره.

209) محمد هذا لم يذكره صاحب التقييد الذي نقلنا عنه هذه الأسماء وإنما ذكره ابن عسكر في الدوحة. اعتمدنا في هذه الشجرة على المصادر الآتية :

أ ـ مرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي الذي نقل نسب بني راشد عن ابن عمهم النسابة القاضي أحمد بن علي العلمي ص 179.

ب ـ كناشة تتحدث عن نسب العلميين بشفشاون وهذه أمدتنا بأسماء ذرية علي ابن راشد من ولديه : ابراهيم ومحمد، وهي من وثائق المخطوطات بالمكتبة العامة بتطوان، وتحمل رقم 656.

ج ـ دوحة الناشر التي ذكرت عددا من أفراد هذه الأسرة في أماكن متفرقة وخاصة في ترجمة عبد الله الهبطي ، وترجمة والدة المؤلف، والجاسوس المجهول.

د ـ تقييد عن شفشاون للصادق بن ريسون.

هـ ـ أسرة بني راشد لعبد الرحيم جبور.

و ـ نشر المثاني، ج : 1، لمحمد بن الطيب القادري.

المبحث الثالث :

الحالة الاجتماعية

- تمهيد عن الظواهر الاجتماعية
ب - عادة الوشم
ج - الوشم بجبال غمارة في هذه الفترة
د - مهنة الوشامة
هـ - عادة تناول الخمور
و - الزفـــان
ز - الولائم والحفـــلات
ح - المآتـــم

أ ـ تمهيد عن الظواهر الاجتماعية

من طبيعة الدراسات الاجتماعية أنها تهتم بالظواهر الناشئة عن حياة المجتمع، ولذلك فهي تهتم بجميع أوجه النشاط الاجتماعي، سواء من الناحية الدينية أو الخلقية أو السياسية... وما يرافق ذلك من عوائد وأعراف في مختلف مجالات الحياة التي يعيشها الناس في أفراحهم وأتراحهم وطرق تعاملهم، وتصرفاتهم فيما بينهم...

والظواهر الاجتماعية تتغير باختلاف الظروف وبمضي الزمن، وما يكون سائدا في مجتمع ما، وفي فترة معينة، قد لا يبقى له وجود في فترات أخرى لاحقة.

فكثير من الظواهر الاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمع القرن العاشر الهجري في مناطق جبال غمارة قد أنمحت اليوم ولم يبق لها وجود.

ويستطيع الباحث بعد رجوعه الى مظان مختلفة، أن يتعرف على ظواهر اجتماعية سادت في فترة معينة، ثم بادت وتلاشت وانتهى أمرها ولم يبق لها وجود.

قد يدرك الباحث أسباب ذلك وقد لا يدركه، المهم أنه يجد نفسه أمام ظواهر اجتماعية تختلف تمام الاختلاف عن الظواهر الاجتماعية للعصر الذي يعيش فيه.

وفي القرن العاشر الهجري كان مجتمع هذه المنطقة التي نتحدث عنها، يتميز بظواهر اجتماعية تختلف تمام الاختلاف عما نشاهده في العصر الحاضر.

حيث كانت هناك عادات وتقاليد وأعراف نستغرب نحن اليوم وجودها في ذلك العصر تمام الاستغراب. ولولا ثقتنا بالمصادر التي تتحدث عن ذلك، وتصفه بكامل التجرد. وبمنتهى الاخلاص بغية وصف الواقع كما هو، ورغبة منها في الاصلاح وتبديل الأوضاع. لولا ذلك لظننا أننا أمام أساطير خيالية. أو أمام أقاصيص مفتعلة، وحكايات مختلقة...

لكن رواد الاصلاح، ومنتقدى الأوضاع الاجتماعية في ذلك العصر، بدافع من الغيرة ومحاولة التأثير والتغيير... أبوا إلا أن يسجلوا تلك الظواهر الاجتماعية السائدة في مجتمعهم، تسجيلا دقيقا يتناول بعضها بإيجاز، ويطنب في وصف بعضها أطنابا كبيرا.

وفي طليعة هؤلاء المنتقدين الداعين الى الإصلاح وتغيير الأوضاع، الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي (ت : 963 هـ) (210) والشيخ أبو القاسم بن علي بن خجو الحساني (تـ : 656 هـ) (211) ، والشيخ عبد الوارث اليلصوتي (212)، والشيخ أبو العباس أحمد بن الحسن بن عرضون الزجلي ثم الشفشاوني (تـ : 992 هـ) (213).

---

210) أفردناه بترجمة خاصة في اخر هذا البحث، ص : 372 ـ 385.

211) انظر ترجمته في قسم التراجم، ص : 351.

212) ترجمت له في مبحث (اليلصوتيين بشمال المغرب) في نهاية هذا البحث، ص 467.

213) هو قاضي شفشاون مابين سنة 982 و 992 هـ وصاحب مؤلفات عديدة أشهرها مقنع المحتاج في آداب الأزواج، واللائق لمعلم الوثائق، وحدائق الأنوار، ورسالة التوادد والتحابب، (وشرح أسماء الله الحسنى) وغيرها.

فعند هؤلاء وغيرهم، نجد كثيرا من الأوصاف للظواهر الاجتماعية التي كان عليها مجتمع القرن العاشر الهجري بجبال غمارة.

وبالإضافة الى ما سجله هؤلاء عن هذه الفترة، في منظوماتهم أو تآليفهم ورسائلهم... (214) نجد مصدرا آخر يصور لنا صورا معبرة عن الحياة الاجتماعية في هذه الفترة، وهذا المصدر هو كتب النوازل. تلك الكتب التي سجلت مظاهر من حياة ذلك العصر. حيث كان بعض المستفتين يبسطون قضاياهم أمام أنظار الفقهاء المفتين ليعرفوا حكم الشرع فيها، وكانت هذه القضايا تعرض بكثير من الوضوح مصورة الواقع كما هو.

وبتعرفنا على بعض ما كتبه هؤلاء وأولئك نستطيع أن نكون فكرة عن حالة المجتمع في هذه الفترة التي نتحدث عنها.

وبرجوعنا الى «الألفية السنية» للشيخ أبي محمد عبد الله الهبطي مثلا، نرى أن صاحب هذه الألفية انتقد كثيرا من عوائد عصره انتقادا مرا، وسلط انتقاده على مختلف طبقات مجتمعه : حكاما وأمراء، وفقهاء، وقضاة، وعدول، وعوام، نساء، ورجالا، وهو أثناء ذلك يصور كثيرا من العادات التي ألفها الناس واعتادوها في ذلك الوقت.

---

214) مثل شرح منظومة مسائل ابن جماعة للشيخ أبي القاسم بن خجو (مخطوط خاص) ومقنع المحتاج لأحمد بن الحسن بن عرضون.

ينتقد مثلا انتشار عادة شرب الخمر، وعادة الوشم واختلاط النساء بالرجال في الأعراس، والحفلات، والمواسم، واختلاطهم بشواطىء الأنهار، وعند ساحل البحر...

ونجده قد خصص في منظوماته فصولا للحديث عن هذه الظواهر ونراه يلح في انتقاد بعض العادات، وفي طليعة العادات المنتقدة بحرارة وإلحاح، عادة الوشم، وكانت من الظواهر البارزة في المجتمع الغماري، في القرن العاشر الهجري، تلك العادة التي لا نجد لها اليوم أي أثر في هذه المجتمعات.

ونظرا لتفشي هذه العادة في ذلك العصر، فقد أثارت انتقاد المصلحين الاجتماعيين، من الفقهاء والعلماء، لأن عادة الوشم بقدر ما كانت تعمل على تشويه الأجسام، وتسيء الى الخلقة، كانت تزاول في جو يسيء الى الأخلاق والفضيلة، مما جعل تلك الظاهرة مثار انتقاد شديد واستنكار لاذع...

ب ـ **عادة الوشم** : (215)

الوشم عادة قديمة مارسها الانسان منذ الأزمنة الغابرة، وللشعوب في ممارسة الوشم طرائق مختلفة، كالوخز، والتلوين، وقد

---

215) قال في المختار الصحاح للرازي المتوفى سنة 666 هـ : «وشم يده من باب وعد إذا غرزها بابرة ثم ذر عليها النؤور وهو النليج والاسم أيضا الوشم وجمعه وشام واستوشمه سأله أن يشمه، وفي الحديث لعن الله الواشمة والمستوشمة. وجاء في لسان العرب الوشم ما تجعله المرأة على ذراعيها بالابرة ثم تحشوه بالنؤور وهو دخان الشحم والجمع وشوم ووشام قال لبيد : كفف تعرف فوقهن وشامها... (مادة وشم).

يقترن عند بعضها بالحجامة والتشريط، دلالة على الحزن، وقد يكون للحما ية من عين الحسود، أو لإ براز امتياز طبقي، أو را بطة قبلية معينة، أو مكانة اجتماعية.

واستعمل الوشم مع الكي بالنار، تحقيرا للمجرمين، أو المسجونين ومن الملاحظ، أن ظاهرة الوشم تقل في الشعوب الآخذة بأسباب الحضارة، والتعليم، (216).

ووجد الوشم على بشرة بعض المومياء المصرية القديمة التي تعود الى ما قبل الميلاد بالفي عام، ووجدت على بعضها أشكال شائعة اليوم بشمال افريقيا والوشم قديم في آسيا، كان يمارس في اليابان في ؛ ق. 6، ق. م. كما وجد في الصين والهند، وفي الهنود الحمر عند اكتشاف القارة الأمريكية.

واللفظ الأوربي للوشم هو (Tatouage), (Tattoa) :
وهو مأخوذ من لغة جزيرة (تاهيتي) بالمحيط الهادي (217) ومعنى اللفظ العلامة،وهو يدل على أن الهدف الأول من الوشم كان هو الوسم،كما في الإ بل والشياه.

وكان الوشم عند الاغريف شارة البربرية. أما الرومان فكانوا يشمون أرقاءهم والمجرمين (218).

---

216) الموسوعة الميسرة حرف الواو مادة (وشم).

217) وهي الجزيرة الرئيسية لمجموعة من الجزر تحيط بها في المحيط الهادي احتلت من طرف الفرنسيين سنة 1880م وأخذت استقلالها عام 1940 انظر ؛ Larousse حرف ؛ T

218) انظر مجلة العربي عدد 29 أبريل 1961 بحث للدكتور أحد زكي ص 100 .

دخلت المسيحية الى أوربا. ودخل معها الوشم، وكان بعضهم يشم الصليب على أجسادهم. وهذه العادة كانت متبعة عند الأقباط المسيحيين في مصر.

وفي القرن التاسع عشر انتشر الوشم بين عدد من الأفراد في أوربا، وعرض الموشومون أنفسهم على الناس في المجالات العمومية نساء ورجالا، واتخذ بعضهم ذلك مكسبا لربح المال.

ويشيع الوشم بصفة خاصة، بين البحارة الأوربيين.

وللوشم صالونات خاصة، توجد اليوم بالعواصم الكبرى وخاصة بالمدن الساحلية الكبيرة مثل لندن (219).

وهناك أبحاث هامة ودراسات مفيدة عن عادة الوشم بالمغرب، مع الإشارة الى طريقة ممارسته في الجزائر وتونس.

وهذه الدراسات والأبحاث تتناول أهدافه والغاية منه، كما تتناول رسومه وأشكاله وألوانه وأسماءه، والفوارق الموجودة بين أشكاله ورسومه من منطقة الى أخرى، ومن قبيلة الى قبيلة وتتناول الوشم عند البربر، وعند العرب، والوشم في الجبال وفي السهول، وعند الرجال والنساء، والوشم عند اليهوديات، كما تعرض للأعضاء الموشومة من الجسم، ولماذا يكثر وشم بعضها هنا وبعضها هناك، كالوشم على الذقن، والوجنة، والأنف، والعنق، والصدر، واليدين، والكتف، والرجل والفخذ...

---

219) نفس المصدر : ص 101.

وتتناول هذه الدراسات الحديث عن علاقة (الحرقوص والجناح) بالوشم، وعن حرفة الوشم، والوشامين والوشامات، وعن الاحتفال الذي يقام أثناء إجراء عملية الوشم.

وهناك بحث طريف عن (السيالة) و(العياشة) عند الفتيات والفتيان، وعن مناطق استعمالها والغاية من هذا الاستعمال... (220)

وفي القرن العاشر الهجري كانت عادة الوشم منتشرة بين سكان جبال غمارة انتشارا كبيرا، وخاصة بين نساء البادية.

ج ـ الوشم بجبال غمارة :

كانت المرأة توشم وهي في ريعان صباها، وكان النساء يباهين بالوشم ويفخرن به، وكان بعضهن يبالغن في استعماله بحيث يشمن أعضاء كثيرة من جسمهن : كالذقن والجبين والعنق والكتف والذراعين واليدين والساقين والقدمين.

وأمام هذه الظاهرة المتفشية في المجتمع الجبلي في ذلك الوقت، انبرى دعاة الإصلاح لنقد هذه العادة، والتشنيع على الوشامين والمستوشمين.

---

220) عن هذه الأبحاث انظر : مجلة (هسبريس) Hesperes الأعداد : الثلاثة أشهر الأولى من سنة 1925 : ص : 129.
والثلاثة أشهر الرابعة من سنة 1946 من ص : 323 إلى 511.
والثلاثة أشهر الرابعة من سنة 1948 من ص : 31 إلى 56.
والثلاثة أشهر الثالثة والرابعة من سنة 1949 من ص : 289 ـ 297 و ص : 11 ـ 46 و333 ـ 346.
والأشهر الأولى من 1951 من ص : 299 ـ 325.

وكان الشيخ عبد الله الهبطي في طليعة المنددين بعادة الوشم، ونجده في «منظوماته التي نظمها في محاربة العوائد الضالة (221) قد خصص عدة أبيات لانتقاد عادة الوشم واستهجانها، محذرا ومؤنبا، ولافتا للانظار الى ما في ذلك من تغيير خلق الله.

وهو أثناء انتقاده للوشم والوشامين، يعطينا صورة واضحة المعالم عن الجو الذي كانت تتم فيه عملية الوشم، ويرسم للوشام لوحة تشخصه تشخيصا واضح السمات... ويصفه بأنه كان يتزين بزي يجمع بين زي النساء والرجال، فهو يلبس الشاشية الحمراء من تحت العمامة البيضاء ويستعمل الكحل في عينيه، ويصبغ شفتيه بلحاء شجرة الجوز كالنساء... وبالإضافة الى ذلك، يصفه بأنه رجل مستهتر الى أقصى حدود الاستهتار، يحفظ الحكايات الخليعة والنوادر الوقحة...

وعندما يستدعى ليمارس عمله في الوشم، يحتفل به أهل المنزل ويقدمون له أحسن الطعام والشراب، وترحب به ربة الدار، ولا تحتجب منه النساء...

وهو يمارس عمله عادة وسط المنزل ، وتجلس الفتاة بين يديه، وهي في لباس خفيف لا يعوقه عن مزاولة عمله في الوشم...

---

221) الشيخ عبد الله الهبطي له عدة منظومات في (محاربة العوائد الضالة) حصلت على مجموعة منها عن طريق صديقي البحاثة الأستاذ سعيد أعراب وهي مجموعة تضم اثنين وثلاثين منظومة.

وكانت العادة أن البيت الذي يستدعي له الوشام يقصده الشباب ليشاهدوه وهو يمارس عمله، وكان الوشام بدوره يغتنم هذه الفرصة ليسمع الفتيات والفتيان حكاياته.. وقصصه، ونكته الخليعة.. كل هذا والفتاة بين يديه يلمس أعضاء جسمها ـ بحكم عمله طبعا ـ والشباب ملتفون حوله، يبادلونه الضحك والحديث، وترتسم على محياهم علامات الاعجاب، وأمارات الارتياح لما يفوه به من حكايات ونوادر...

بهذه الأوصاف أعطانا الشيخ عبد الله الهبطي صورة واضحة عن الوشم، وعن الجو الذي كانت تتم فيه عملية الوشم، ويؤكد الشيخ عبد الله الهبطي، أن ظاهرة الوشم كانت سائدة بين مختلف طبقات المجتمع الغماري في ذلك العصر.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن عادة الوشم بغمارة ـ التي هي الأجزاء الغربية من جبال الريف ـ كان يمتهنها الوشام ـ الذكر ـ وهذا (الوشام) كان يشم الفتيات والنساء، في حين أن العادة المتبعة في الوشم الى اليوم في إقليم الريف شرق غمارة، وفي كثير من الأقاليم الأخرى، أن المرأة ـ الواشمة ـ هي التي تمارس الوشم على الفتيات والنساء، وعلى الرجال أيضا.

وبهذا يظهر أن الوشم الذي كان سائدا في جبال غمارة كان محط انتقاد من ناحيتين :

1 ـ من جهة كونه وشم، والوشم محرم في الإسلام، لأنه فيه تغيير «للخلقة، ومنافاة للفطرة، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة (222).

2 ـ ومن جهة ثانية كان الوشم يزاوله رجل مستهتر في جو مناف للحشمة والوقار.

وفي موضوع التنديد بعادة الوشم يقول الشيخ عبد الله الهبطي في إحدى منظوماته ما يلي :

كسوقهم الوشام ما أقبح حالهم إلى كل خودة(223)حسناء مليحة
يكحل عينيه، وفوه مســــــوك وشاشية حمراء تحت العمامــة
الى غير ذلك من وصف الشماتة عليه من القهار أكبر لعنـــــة
وفي فمه القاني روائح تشتهي تنفس عنها بأطيب فيحـــــه
يجيء الى العذراء الى جبينها فيلقي عيوبه علىخيرجبهة(224)

ويلاحظ في هذه الأبيات ضعف التعبير مع كسر الوزن وهذه ملاحظة عامة في سائر منظومات الشيخ عبد الله الهبطي، ولعل سبب ذلك؛ أن هذه المنظومات كان القصد منها : إشاعتها بين «العامة» فهو لم يهتم فيها بجمال التعبير، بقدر ما كان يقصد إلى تبسيطها لتفهم من لدن الجميع.

---

222) فقه السنة للسيد سابق : ج 3 : 404 وعلق عليه قائلا أخرجه الخمسة إلا الترمذي ص : 495.

223) الخود : جمع خودات والخود : المرأة الشابة الحسنة الخلق القاموس المحيط ج 1 : (الخاء والدال).

224) هذه الأبيات من إحدى منظوماته في محاربة البدع والعوائد الضالة وهي تائية طويلة تقع في أكثر من مائتي بيت تحمل في مجموعة المنظومات التي أتوفر عليها رقم 2.

وفي هذه التائية نفسها يعطينا نظرة عن الأشكال والرسوم التي كان يرسمها الوشام على أجسام الفتيات. فيقول :

على خدها يلقي الصليب تعمدا ٥ كأنه قس يخط بريشة (225)
يمزق خدها تمزيق المعنــــت ٥ يسوده إذا كمثــل الغرابـــة
وشبان قومها جلوس بحولهـــا ٥ وصفحة صدرها بـدت للنزاهـة
فيرجلها يلقي الذي قد بدا له ٥ إلى غير ذلك من قبيح الحكاية
يغير خلقا جاء في أحسن خلقة ٥ ويبتغي زيادة في الصناعـــة
وليس يبالى بقاضي الجماعة (226) ٥ ولا بالفقيه والفقيــر ولا بمـــن
تعاطى أمور الناس مثل الوزارة (227).
فيا أهل غربنا أصيبت بناتكم ٥ وأنتم تشاهدون عين الوقعية (228)

مثل هذه الأبيات تعطينا صورة عن ظاهرة الوشم التـــي كانت سائدة في جبال غمارة في القرن العاشر الهجري. وهي في نفس الوقت تعطينا فكرة عن اهتمام بعض المصلحين بمحاربة هذه الظاهرة. ومن الملاحظ أن الشيخ عبد الله الهبطي قد ندد بعادة الوشم في أماكن متعددة من منظوماته وبخاصة في «الفتيه» التي سماها : «الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما

225) رسم الصليب على الأجسام عن طريق الوشم عادة كانت متبعة عند بعض المسيحيين بالشرق الأوسط.

226) في هذه الآونة كان قاضي شفشاون : هو أبو عبد الله محمد ابن الحاج وقد ترجمت له في مبحث قضاة شفشاون.

227) يشير هنا بصفة خاصة إلى الوزير إبراهيم بن راشد.

228) التائية المشار إليها سابقا.

غيروا في الملة الإسلامية . ففي هذه الألفية نجده قد عقد بابا للحديث عن عادة الوشم، عنوانه هكذا :

« باب ما وقع من التغيير في خلق الله بسبب تغيير الايمان»

فقال :

«وان دهاك ما سمعت من كلام ٥ فأين أنت من حديث الوشام»
«وقد أتوا حقا بذاك الفاسـق ٥ كي يشين صورة العواتق (229)
«قاموا إلى البكر التي أرادوا ٥ مسخا بوجهها الباهي وحـادوا»
«واحتالوا بالمكايد اللطيفـة ٥ فيما يزيل عنه حال الهيبـة»
«فيأمرونهـا بأكلهـا معـه ٥ وبالذي يزيد في المباسطـة»
«وعند ما هبت رياح الأنـس ٥ وطابت الأحـوال دون لبـس»
«دس اللعين لقمة في فيهـا ٥ وفاه عندها بما يغويهـا»
«وقد تزين اللعيـن الجاهـل ٥ بما له طبع النساء مائـل»
«مسـوك مكحـل .... (230)

إلى أن يقول :

«وكل من أراد متعـة البصـر ٥ وان يرى من النساء ما استتـر»
«أتى لمجلس اللعين الوشـام

ثم يمضي في اللوم والعتاب والتأنيب إلى أن يتطرق إلى وصف الرسوم والأشكال التي كانت ترسم على أجسام الموشومات، ومن المعلوم أن رسوم الوشامين، هي رسوم عريقة في القدم،

---

229) العواتق : جمع عاتق قال في المختار الصحاح جارية عاتق أي شابة أول ما أدركت فخدرت في بيت أهلها ولم تبن إلى زوج أي لم تنقطع عنهم إليه مادة (عتق).

230) (الألفية السنية) مخطوطة خاصة وتوجد نسخة منها بالمكتبة الملكية بالرباط تحمل رقم : 3607 ز.

وكانت لها دلالات متعددة. فالرسوم والأشكال التي استعملت في شمال إفريقيا كان لها وجود عند قدماء المصريين فيما قبل الميلاد بأكثر من ألف عام (231).

وفي معرض ذكر بعض الأشكال والرسوم يقول الشيخ عبد الله الهبطي :

«وأول مايلقي من العيب المبين ٥ ـ دمره المولى ـ على خير جبين»
«علامة دلــت بــلا تــوان ٥ على فساد العقل والا يمــــان»
«ثم فوق الخد يا إخوانـــي ٥ يلقي صليبـه مـن النصراني»
«ومن عظيم الغي والغبـاوة ٥ قد لقبوا صليبه (بالشامـــة)»
«ثم من الويل الذي لا ينفـك ٥ ما لقبوه عندهم (بالاحنـاك)»
«ا بهامه اليسرى مع السبابـــة ٥ بينهما شفتهـــا مضمومـــــة»
«لكي يحسن الغبي (السيالة) ٥ ....
«ثم إلى النحر البهي يفضـــي ٥ ممزقا لطولـه والعـــــرض»
«ثم إلى ما تحته من صـــدر ٥ ينوع الغبي ادهى الشــــــر»
«وفوق ما لها من الكتـــــف ٥ القى من الفعل القبيح ما عرف»
« يصور الوحــش والسلوقـــي ٥ في لحمها ذو الغي والنفـاق»
«مر بذاك المسخ للاظفـــار ٥ عليه لعنة الإله البـــــارىء»

إلى أن يقول :

«وهذا الأمـر عـم يا نبيــــه ٥ لم يخل منه عابد ولا فقيــه»

231) الدكتور أحمد زكي في مجلة العربي عدد : 29 / 4 / 1961 ص 101.

ونرى الشيخ عبد الله الهبطي في هذه الأبيات قد تعرض لذكر أسماء بعض الأشكال والرسوم التي كانت ترسم على أعضاء الموشومات ـ ومن هذه الأشكال التي ذكرها شكل يسمى «الشامة» ويقول : انهم لغباوتهم يسمونه بذلك، مع أن هذا الشكل هو رسم لصليب النصارى على الوجه الذي هو أشرف ما في الإنسان، بل يوضع فوق الخد الذي هو ابرز ما في الوجه.

ومن الجدير بالذكر أن حساسية الشيخ عبد الله الهبطي نحو التأثير الصليبي على المجتمع المسلم كانت قوية جدا، ولذلك نراه هنا يؤكد أن الناس لغبواتهم يسمون علامة (صليب النصارى) باسم غير اسمها الحقيقي، وما ذلك إلا لغفلتهم وغباوتهم وانخداعهم... وسبقت الإشارة في هذا الصدد أن نصارى مصر كانوا يرسمون الصليب على جسمهم، إخلاصا منهم للمسيحية وتقديسا لشعارها الذي هو الصليب.

ووجود بعض الأشكال والشعارات، والعمل على نشرها في بعض المجتمعات (كدسيسة) شيء لم يخل منه عصر من العصور، فعلى عهد الحماية بالمغرب ـ وما بالعهد من قدم ـ انتشر استعمال النجمة السداسية التي هي شعار ـ دولة إسرائيل ـ انتشر ذلك في منطقة الحماية الاسبانية، وفي منطقة الحماية الفرنسية ـ على أنه مجرد رسم للزخرفة، فكنت تراها في الأوراق الرسمية وفي طوابع البلديات والقيادات ، وفي كثير من الوثائق التي تصدر عن إدارة الحماية، واستعملت كذلك في الصفحات الأولى

والأخيرة من بعض الكتب العلمية والأدبية (232) وفي زخرفة بعض الدور والمساجد .... (233) وخفي أمر ذلك على كثير من الناس.

وفي القرن العاشر الهجرى نجد أن الشيخ عبد الله الهبطي قد تفطن لدسيسة استعمال شكل الصليب على خدود الفتيات والنساء فنبه على ذلك وندد به.

ومن الأشكال التي جاء ذكرها في النظم السالف، شكل يسمى (بالسيالة)، وهذا الرسم هو عبارة عن خط عمودى يرسم على ذقن الفتاة تمييزا لها عن الفتى - في نظرهم - والسيالة تأخر استعمالها في بعض الجهات من جبال غمارة، وهي ما تزال تحمل هذا الاسم إلى يومنا هذا عند من يستعملها، كقبيلة بني يطفت بإقليم الحسيمة - مثلا - :

وفي جهات من غمارة، ما يزال بعض الناس يقولون : «ان لم أفعل كذا، فأنا صاحب (سيالة)» أي أنثى.

وفي بعض الجهات من قبائل الريف الغربي ترسم على أذقان بعض الصبيان اعتقادا بأنها تبعد عنهم العين، وتسمى

232) مثل الصفحات الأولى والأخيرة من درة الحجال لابن القاضي : طبعة الرباط سنة 1934 (اعمال الاعلام) لابن الخطيب وتاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول طبعة الرباط.

233) دخلت الزخرفة بالنجمة السداسية إلى بعض المساجد مثل المسجد الأعظم بتطوان ومسجد سيدي عبد الله الحاج بتطوان كذلك وقد أزيل ذلك أخيرا.

(بالعياشة) (234) لأنه في اعتقاد بعض العامة ـ إلى يومنا هذا ـ أن الفتى إذا تحلى بشيء مما هو خاص بالفتيات، فإن ذلك يدفع عنه العين ويؤكد له استمرارالحياة... ولذلك (فالعياشة) عندهم قد تكون سيالة على ذقن الفتى، أو قرطا في أذنه، أو غير ذلك مما هو خاص بالجنس الآخر، وكان المجتمع لا ينظر إلى هذه (العياشة) نظرة استهزاء، بل كان ذلك شائعا مقبولا، وأمرا عاد يا... والعياشة لها أشكال مختلفة في كل من المغرب، والجزائر، وتونس.

وجاء في الأجوبة الكبرى للشيخ عبد القادر بن علي الفاسي (235) (ت : 1091هـ) أنه سئل عن (السيالة) هل يجوز استعمالها أم لا ؟ فأجاب : «أما السيالة التي في ذقن المرأة فهي من الوشم المحرم الملعون فاعله».

ومن الرسوم في الوشم ما كان يسمى (بالاحناك) وهذه التسمية غير معروفة الآن في هذه الجهات ـ وربما كانت إسما لرسوم ترسم على العذار ـ

وذكر الشيخ عبد الله الهبطي أن الوشامين كانوا يرسمون الوحش على أجسام الموشومات، والسفن وهي عائمة في البحر وفي ذلك يقول :

---

234) أطال الحديث عن العياشة الأستاذ (جون هربر) J. Herber أثناء بحثه المطول عن (الوشم بالمغرب) انظر مجلة (هسبريس) Hesperes عدد الثلاثة أشهر الرابعة من سنة 1946 ص : 328.

235) الأجوبة الكبرى للشيخ عبد القادر الفاسي ص : 17، ط . ح، ف 1319 هـ.

وينشيء صورا كالسلوقي مطالبا ٥ وقدامه وحشية كالغزالـــــــة
كتصويره العقاب في طيب لحمها ٥ على هيئة له فياشر هيئـــــــة
إلى غير ذلك كسفن في بحرهـا ٥ فما شاءه يلقيه في غير خشية (236)
على كتفها يمر بمسخه إلـــــى ٥ أصابع يديهـــــــا (237)

ونستفيد من هذه الأبيات أن الوشام كان فنانا ماهرا بحيث كان يستطيع رسم أنواع من الوحوش، وفي أوضاع مختلفة وعلى هيئات متعددة. ومعنى ذلك أنه كان ينشيء لوحات فنية على أجسام موشوماته.

ونجد أوصافا أخرى لهذه الرسوم عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الهبطي (ت : 1001) وذلك عندما تعرض في ترجمة والده لذكر ما قام به في مجال محاربة الوشم، الذى يغير خلقة الحسان، بسبب الرسوم التي كان يرسمها الوشام على الوجه، والصدر، والنحر، والجيد، والأيدى والأرجل. ويقول : أن هذه الرسوم كانت تمثل النسر، أو الجمل، أو الذئب، أو الظبية أو السلوقي... وكان الناظر إليها يظنها وكأنها في الفلات والآجام...

وينعت الوشام بأنه كان يشيع الفساد، ويزينه، ويحث عليه...

---

236) لاحظنا من قبل ضعف أسلوب هذا النظم، لأن القصد منه، كان إشاعته بين الطبقات الشعبية، وبالإضافة إلى ذلك، فإن تعاقب النساخ على النص الأصلي ادخل عليه كثيرا من التحريف والتغيير. وينتشر التحريف غالبا فيما لايصحح ولا يقابل.

237) تائية الشيخ عبد الله الهبطي المشار إليها سالفا.

ويؤكد أن ظاهرة الوشم كانت شائعة بين مختلف الطبقات بالبادية والحاضرة، وبأنها كانت تمارس تحت أعين العلماء والفقهاء والأمراء... وان وزر ذلك يقع عليهم جميعا.

ويذكر أن أباه تصدى لهذه العادة الشنيعة بكل حزم وصرامة، وبدون هوادة، وبذلك استطاع حسم هذا الداء واستئصاله من جبال غمارة (238).

تلوين الوشـــم :

لتلوين رسوم الوشم لا بد في ذلك من تمزيف الجلد بالإبرة، أو المشرط واستعمال مادة ملونة يبقى أثرها تحت الجلد بصفة دائمة. ويستعملون في ذلك اللون الأزرق أو الأسود، وقد يستعمل الأحمر ـ أحيانا ـ ويوضع اللون فوق الجروح التي أجريت حسب تصميم الوشام.

وفي جبال الريف استعمل في التلوين مسحوق حجر أسود يسمى (اسبو) يوجد في الطبيعة ويدعك دعكا جيدا فوق حجر مقعر خاص لهذه الغاية. ويؤخذ مسحوقه ويذر فوق الجروح ـ الرسوم ـ وقد يعوض مسحوق هذا الحجر بمادة الكحل ـ الاثمد ـ.

ويستعمل في التلوين كذلك النيلج ـ النيلة ـ وأحيانا يضيف الوشام إلى الصبغة بعض الأدوية التي تعجل بشفاء الجرح.

---

238) المعرب الفصيح في ترجمة الشيخ النصيح مخطوطة خاصة بالرباط، البيت رقم : 411 ورقة 10.

وكثيرا ما كان الوشام يتعهد الموشومة إلى أن يبرأ الجرح تماما. ثم بعد ذلك يغسل بالماء ما علق بمكان الوشم من دم أو بقايا السواد. وبعد هذا تبدو رسوم الوشم واضحة وقد استقرت تحت الجلد في قرار مكين.

فهذه العملية (التجميلية) لم تكن في منتهى السهولة، بل كان يرافقها ألم الوخز، والجراحة، وكانت تحتاج إلى صبر وانتظار... ومن هنا يبدو أن الوشام ربما كان يهدف من وراء حكاياته ونكته إلى تخدير الموشومة، أو جعلها تسبح في عالم آخر يخفف عنها ألم عملية الوشم.

ويبدو أن الوشام كان بارعا في خلق جو يجعل موشومته تعيش تحت تأثيره، فيقص القصص والنوادر، ويلقي بالنكت التي تنبعث لها ضحكات الشباب الملتف حوله للاستئناس به، ولمشاهدة عملياته... وكل هذا كان يؤثر على الموشومة، فتنسى ما تحسه من ألم الجرح ووخز الابر.

وبالرغم من هذا، فإن عملية الوشم يمجها الذوق السليم، ولذلك حرمها الإسلام، ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة.

د ـ مهنة الوشامة :

نظرا لإقبال الناس على الوشم بجبال غمارة في ذلك العصر ـ فإننا نستطيع أن نؤكد أن (مهنة الوشامة) كانت من المهن التي

تدر على أصحابها دخلا مربحا، لأن عمل الوشام من الناحية الاجتماعية كان يؤهله العيش الرغد، ويعطيه وسط مجتمعه اعتبارا خاصا، ومن هنا ندرك أن (مهنة الوشامة) كان لها اعتبارها في القرن العاشر الهجري، حيث كان الوشام يعد من طبقة الفنانين المرموقين، وكان إلى ذلك يتميز بطرفه ونكته... وبذلك كانت مهنته ذات مردود مربح، إلا أن هذه المهنة بالرغم من الشأو الذى بلغته في جبال غمارة، فقد تعرضت لموجة من الانتقادات وجهها إليها المصلحون الاجتماعيون مثل :

الشيخ عمر بن عبد الوهاب العلمي (ت : 958هـ) والشيخ أبي القاسم بن خجو الحساني (ت : 956هـ) والشيخ عبد الوارث اليلصوتي (ت : 970هـ) وغيرهم... وتصدى لها الشيخ عبد الله الهبطي بكيفية جادة، وبأسلوب لاذع في منظوماته، ودروسه وكتاباته ومجالسه... فكان لعمله هذا أثر بالغ في استئصال جذور هذه العادة من قبائل غمارة، وبذلك تلاشت هذه الظاهرة وانمحت ولم يبق لها اليوم وجود في هذه الجهات.

هـ ـ عادة تناول الخمــــور :

نجد المصادر التي تعود إلى هذه الفترة تتحدث عن انتشار عادة شرب الخمر بين الناس في مجتمع القرن العاشر الهجرى.

وتتحدث كذلك عن محاربة دعاة الإصلاح، ونقاد الأوضاع الاجتماعية لهذه الظاهرة، وفي طليعتهم الشيخ عبد الله الهبطي

الذى خصص للحديث عن ظاهرة شرب الخمر عدة أبيات من منظوماته التي وصف فيها مظاهر وعادات كانت تسود مجتمع عصره. ودعا الناس فيها إلى التخلي عن الرذائل وإلى نهج الطريق القويم.

وفي موضوع محاربته لشرب الخمر جاء في إحدى منظوماته قوله :

«إذا كنت منصفا فهاك دلائـــــلا ٥ تدل على صدقي وصدق قضيتـــي»
«شراب الخمور فاش في غير حشمة ٥ على جهره، وفاق كلّ البريـــة»
«فذاك بشربه وذاك بكسبـــــه ٥ وهذا مداهن لأهل الغوايـــــة»
«تعامى خيار الخلق عن كل منكر ٥ ولكن تسارعوا إلى كل فتنـــة»
.... (239).

فالشيخ عبد الله الهبطي يصرح في هذه الأبيات أن شرب الخمر كان فاشيا في مجتمعه. فهذا يشربها. والآخر يكسبها ويدخرها. وثالث يداوم على مجالسة شاربيها.

وكل هؤلاء كانوا يساهمون في تفشي رذيلة شرب الخمر. ويشير إلى أن كبار القوم وخيارهم تعاموا عن هذا المنكر. في حين أنهم يسارعون إلى اثارة الفتن والمشاكل...

والشيخ عبد الله الهبطي عايش هذه الفترة بكامل وعيه وإدراكه، وحارب الرذائل بمختلف ألوانها وأشكالها، لا بمنظوماته

---

239) تائية الهبطي في ذم العوائد الضالة.

فحسب، بل بتنقلاته كواعظ ومرشد وبكتاباته إلى أعيان القبائل ووجهائها، وبدروسه التي كانت متواصلة، وفي غير انقطاع.

ونقتطف هنا بعض الأبيات من الفيتية السنية المشهورة) التي يقول فيها :

«...شرب الخمر في المحافـــل ٥ بمحضر المفضول قل والفاضـــل»
«يشربونها على ائتـــلاف ٥ بمحضر المئيـــن والآلاف»
«مع أن فيهم للكتاب حافظـــا ٥ ولا يقبلون فيها حتما واعظـــا»
«ان جئتهم بآية وبالخبـــر ٥ تبسموا بل قهقهوا بلا حذر (240)»

ويسترسل في الحديث عن شرب الخمر محذرا وموبخا ومعددا لاضرارها، ومنذرا بعذاب الآخرة، مازجا كل ذلك بوصف متعاطيها والمدمنين عليها. ذاكرا أن الله تعالى أنعم عليهم بنعمة العنب لينتفعوا به، فإذا هم يكفرون النعم، ويحولون نعمة العنب إلى رجس وأضرار...

إلى أن يقول :

«الخمر صار عند أصحاب الغنـى ٥ ـ من جهلهم ـ أجل ما قد يقتنى
اتخذوه عدة للحادثـــات ٥ به ينال العزما بين الطغـــاة
وربما استغنوا عن النســـاء ٥ وعنه مالهم من استغنـــاء
إن سافروا به يسافـــرون ٥ أو قدموا، إليه يقدمـــون
وكل ما كان إلـى الإنفـــاق ٥ في الخمر قد أتى بلا إشفاق (241)

240) (الألفية السنية للشيخ عبد الله الهبطي في الفصل الذي عقده للحديث عن انتشار بدعة شرب الخمر... ورقة 14 .

241) الألفية السنية، ورقة : 15.

هكذا نراه وكأنه يصف طائفة من مجتمعنا الحاضر.

وفي هذه المنظومة يأسف الشيخ الهبطي لحالة الاصرار على تعاطي الخمر. ويأسف لعدم جدوى الوعظ والإرشاد. بل يذكر أن حفاظ القرآن الكريم موجودون بين شاربيها. وفي ذلك بالغ الاستهتار بالقيم الدينية والأخلاقية...

نقل الشيخ أحمد بن عرضون (ت : 912 هـ) في كتابه : مقنع المحتاج في آداب الأزواج - وهو يتحدث عن جولات الشيخ عبد الله الهبطي في المداشر والقرى، وعن محاربته البدع والمنكرات - نقل حكاية (تائب) كان ممن يتعاطى الخمر ويدخرها. فلما حل الشيخ الهبطي بمدشره أصر هذا الشخص على عدم لقياه، وعلى عدم الاستماع إليه. لكنه أمام أسلوب الشيخ عبد الله الهبطي في الدعوة، لم يسعه إلا أن يأتي إليه. ويقول هذا التائب «فلما رآني ورأيته وسلمت عليه، ما وسعني إلا التوبة في الحين. وقلت له يا سيدي عندي في مخزوني خمس وعشرون (فخارة) (242) من الخمر، لا أدع أحدا ينجس بها فمه. بل مر من يهرقها عن آخرها...» (243).

242) الفخارة : هي الجرة والجرة جمع جرار : اناء من خزف له بطن كبير وعروتان وفم واسع.

243) مقنع المحتاج في آداب الازواج : 133 مخ. خ. ع. ر : 1026 ك.

ويذكر أبو عبد الله محمد الصغير الهبطي (تـ : 1001هـ) في ترجمة والده وهو يتحدث عن محاربته لشرب الخمر : أن والده أراق في سنة واحدة، نحو الفين من الدنان والجرار (244).

وتدلنا هذه النصوص على أن عادة شرب الخمر كانت منتشرة في هذه المنطقة انتشارا كبيرا. ولعل سبب ذلك يعود إلى كثرة الكروم الموجودة بها.

وعرفت هذه المنطقة ازدهار زراعة الكروم منذ العهد الروماني (82 ق م ـ 435 ب.م) وكان الرومان لهم عناية بصناعة الخمور من العنب، وتوارث سكان المنطقة هذه الصناعة منذ ذلك الوقت.

ولما دخل الإسلام حارب عادة شرب الخمر... إلا أنه كانت تأتي علىالناس فترات يضعف فيها الوازع الديني والخلقي، فيعودون إلى عوائدهم القديمة، وبخاصة في مثل ظروف القرن التاسع الهجري، والنصف الأول من القرن العاشر، تلك الفترة التي احتل فيها الأجانب أهم ثغور البلاد، والتي تدفقت فيها أفواج من المهاجرين الأندلسيين الذين صحبوا معهم كثيرا من عاداتهم التي ألفوها بشبه جزيرة ايبيريا.

ومهما يكن من أمر أسباب انتشار ظاهرة شرب الخمر، فإن هذه الظاهرة كانت من بين الظواهر التي عرفها مجتمع القرن العاشر الهجري، وكانت من بين الظواهر المنتقدة من لدن دعاة

224) المعرب الفصيح عن ترجمة الشيخ النصيح لمحمد الصغير الهبطي ورقة : 10 .

الإصلاح الاجتماعي، وهي ظاهرة كانت منتشرة في المغـــــرب بصفة عامة وبخاصة بين المترفين من الأمراء والقواد والحجاب وغيرهم، ومما يدل على ذلك ما جاء في رسالة السلطان زيدان بن أحمد المنصور، التي أجاب بها على رسالة الشيخ أبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم السوسي (تـ : 1035/ 1626) والتي جاء فيها :

... «وكان قواد المولى المذكور، مثل وزيره بن شقرا، وعبد الكريم بن الشيخ، وعبد الكريم بن مومن العلج، والهبطي، والزرهوني، وعبد الصادق بن ملوكة، وغيرهم، ممن لم يحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمر، واتخاذ القيان وبسط الحرير، وغير ذلك من آلات الفضة والذهب، وكانوا في عصر أحمد بن موسى السملالي ـ (تـ : 970هـ) ـ المذكور...» (245).

ويذكر صاحب النزهة أن : «عبد الله ابن الشيخ المأمون توفي بمرض اعتراه بسبب أسرافه في شرب الخمر وادمانه عليه، وكان لا يفارقه ليلا ولا نهارا، ويتعاطاه سرا وجهرا.

وكان والده الشيخ المامون مدمنا على شربها كذلك (246).

وكانت منتشرة بين القواد الصغار وبين الجنود، ففي سنة 1011هـ عندما دخل المنصور إلى فاس للقضاء على فتنة ولده

245) النزهة ط : مدينة انجى 1888 ص : 217 و 218.
246) النزهة ص : 171.

الشيخ المامون، في هذه السنة كان المنصور يجلس بالديـــوان ويجمع عليه العلماء، وفي مجلس من مجالسه هذه، وعظه قاضي شفشاون أبو عبد الله محمد بن عرضون موعظة تأثر لها غاية التأثر، فأمر باراقة الخمر التي كانت عند خدامه وجنوده وبإحراق القناطير المقنطرة من التبغ (247).

ويذكر الافراني في النزهة أن (شراكة) الذين كانت فاس تئن تحت وطأة طغيانهم وفسادهم أيام عبد الله بن الشيخ المأمون السالف الذكر ـ كانوا يتعاطون الخمر ويشربونها جهارا في الطرقات وبمرأى الناس (248).

ومعنى هذا أن ظاهرة شرب الخمر كانت موجودة في كثير من الجهات، والذي يهمنا هنا : وجود هذه الظاهرة بين سكـــان جبال غمارة بكيفية تكاد تكون عادية، حيث كانت تشرب في المجامع «وبمحضر المئين والآلاف» على حد تعبير الشيخ عبد الله الهبطي (249).

والعجيب في أمر هذه الظاهرة : أنها تلاشـت ولـم تبـق منتشرة فيما بعد هذه الفترة، ولعل سبب ذلك يعود إلى ما قام به

247) نوازل العلمي ج : 2 الملازم الأخيرة انظر تفصيل ذلك في ترجمة الشيخ محمد بن عرضون، ص : 425.

248) النزهـــــــة 233.

249) يذكر الحسن بن محمد الوزان أن الناس في كثير من جهات جبال الريف الغربية كانوا ينتجون الخمر ويشربونها، أكد ذلك عندما تكلم عن بني زرويل، وبني أحمد، وبني زروال... وغيرها من مناطق جبال غمارة، وقال عن بني أحمد مثلا : «يعقد سوق مرة في الأسبوع يباع فيه الخمر والزيت والزبيب الأحمر بكميات كبيرة. (وصف افريقيا) ص : 341 الترجمة العربية. وكثيرا ما يصف بعض الجبليين بالمبالغة في السكر : 342.

الدعاة المصلحون من أمثال الشيوخ المشار إليهم... لأننا سنلاحـظ فيما بعد أنه مع انتشار الأفكار الصوفية بهذه المنطقة، وبخاصة على يد تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني، أخذت كثير من العادات السيئة تتقلص بهذه المنطقة، حيث اتجه الناس إلى الانخراط في الطرق الصوفية والأخذ عن شيوخ التربية الروحية.

سنرى أنه كان لانتشار الأفكار الصوفية في هذه المنطقة، وعلى الخصوص الطريقة الجزولية الشاذلية ـ تأثير على الناس وحملهم على التخلي عن كثير من العوائد الضالة.

و ـ الزفـــــان :

الزفان لغة : الرقاص، إلا أنه يستفاد من الأوصاف التي يصفه بها الشيخ عبد الله الهبطي وغيره من فقهاء القرن العاشر الهجرى، أن لفظ الزفان كان يطلق على رقاص من نوع خاص، ويستفاد كذلك أن دور الزفان كان دورا رئيسيا في جوقته الغنائية. ويبدو من أوصافهم، أن (الزفان) كان شخصا مستهترا بالغ الإستهتار، حيث كان يردد أثناء رقصه مقطوعات غنائية خليعة، وهو إلى جانب ذلك يتميز بهندامه الخاص، وكانت له عند النساء مكانة خاصة، بل منهن من كانت تحفظ كل ما ينظمه، ويردده أثناء حفلاته.

وكانت حفلات الزفان حفلات ماجنة تصحبها خمر ويصحبها رقص النساء.

وفي الزفان يقول الشيخ عبد الله الهبطي :

فلو رأيت وسمعت يا فـــــلان ه ما يفعلون في حضور الزفـــــان
لديه يحضرون بالجمع الكبيــر ه لم يبق عنه شائب ولا صغيــــر
سوى الذى يخاف نهب الـــدار ه وشيع الحريم والجــــــوارى
نساؤهم يشطحن للزفــــــان ه سمعا وطاعة لذا الشيطـــــــان
إليه يحشرون في جمع كبيـــــر ه كأنهم هناك جمع من حمير (250)

إلى أن يقول في الزفان :

يعيب التي تخاف من زنــــــى ه ويمدح التي لها به اعتنــــــا
كمدحه التي تجيء الصاحـــــب ه ووعدها يكون غير كـــــاذب
والناس كلهم يستمعــــــــون ه بغاية الفهم عليه يقبلـــون (251)

ومنظومات الهبطي على العموم يسودها اللحن، وكسر الميزان، والتحريف.

وهذه الملاحظة ينبغي أن نأخذها بالاعتبار، لوجود أبيات مهلهلة، وأحيانا غير مفهومة إلا بصعوبة كبيرة. والسبب يعود إلى ما أشرنا إليه من قبل.

إلى أن يقول :

ولنقتصر على ذكر ذي الارجاس لما لها من شهره في الناس (252)

---

250) الشيخ عبد الله الهبطي في كلامه عن (الزفان) قال : (باب ما وقع من التغيير في دين الإسلام الدال على تغيير الايمان بسبب الملعون الزفان. الألفية السنية. ورقة : 10.

251) نفس المصدر ورقة : 11.

252) نفس المصدر.

وهكذا يثبت الشيخ عبد الله الهبطي أن هذا النوع من الطرب الشعبي كان محبوبا عند سكان هذه الأقاليم الذين كانوا يقبلون عليه ويتنافسون في إقامة حفلاته.

وكان ولعهم به شديدا نساء ورجالا. وكانوا يستمعون إلى مقطوعاته الماجنة، وهم في نشوة مما يسمعون، لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم... بل يذكر الشيخ الهبطي أن بعض الطلبة من حفاظ القرآن الكريم كانوا يحضرون هذه الحفلات ويشاركون فيها...

وفي ذلك يقول :

«والطالب الفصيح بالدلائل ٥ يعصى وفوه للضلال قائل»

«فما استحيا لذكره الزفان ٥ بقوله سيدهم فلان» (253)

والطالب الفصيح بالدلائل هو الحافظ لكتاب الله العزيز، ويبدو أن بعض الطلبة كان يستهويهم غناء الزفان، وكان الزفان بدوره يغريهم ببعض الكلمات وربما سمى بعضهم فيقول : «سيد الناس فلان».

أما النساء فكن يرقصن على نغمات صوت الزفان.. ويرقصن أمام جميع الحاضرين... ويبدو أن هذه الحفلات كان يسودها نوع من الانحلال، وكان ذلك مما يغضب رجال الدين ودعاة الإصلاح

---

253) نفس المصدر.

وبخاصة في هذا الظرف بالذات الذي كانت فيه أهم ثغور المغرب ما زالت محتلة من طرف الأجنبي الغاشم.

وأمام هذا الوضع كان يشق على دعاة الإصلاح الاجتماعي أن ينساق الناس مع شهواتهم وعواطفهم إلى أبعد الحدود ناسين أو متناسين ما يفرضه عليهم الواجب الديني والوطني من أجل تحرير بلادهم...

ونجد الشيخ عبد الله الهبطي ـ الذى تصدى لنقد الأوضاع الإجتماعية الفاسدة، نجده في منظوماته يذكر الناس بالثغور المحتلة من حين لآخر، ويذكرهم بعدوهم الصليبي المتربص بهم.. (254).

وتفطن الغيورون إلى أن الانسياق وراء الشهوات وتفشي الانحلال الخلقي يعرض المجتمع إلى الضياع والدمار والخراب.

فهذا مثلا الشيخ أحمد ابن عرضون في كتابه مقنع المحتاج، نراه يغتنم كل فرصة ليحذر الناس من الانحلال الخلقي، ومن الانحدار في مهاوى الشهوات... ويحثهم في نفس الوقت على التزام السلوك القويم والتشبت بالأخلاق الفاضلة، وهو ينادى رب

---

254) ومما جاء في منظومة له نقلها الشيخ أحمد بن عرضون في كتابه مختصر مقنع المحتاج في آداب الأزواج قوله :

كيف بكونهم من المخاذل	حريمكم سبي ولا مقاتل ؟
لم يلقك الأمير في ذا الطرف	لتلتهي بصيد وحش الطرف (كذا)
وتتركن صيانة الثغور	حتى سبى العدو من بالدور

مختصر مقنع المحتاج ص : 212 مخ. خ. ع. ت رقم : 593.

الأسرة بقوله : «احذر من سائر المتهتكين كالوشام، والزفـــان، وكحضور الاعراس المختلطة، وحضور المواسم التي تقام على قبور الصالحين...» (255) إلى غير ذلك من التحذيرات والتنبيهات التي ملأ بها الشيخ أحمد بن عرضون كتابه مقتع المحتاج في آداب الأزواج... (256).

ونظرا لخطورة دور الزفان على أخلاق مجتمع القرن العاشر الهجرى بالجبال الغمارية، فإن جماعة من علماء ذلك العصر تصدت للحديث عن أخطار ما ينشره من فسوق وفجور، وشنعت على أعماله وأقواله، وذلك مثل الشيخ عبد الوارث اليلصوتي (تـ : 970هـ) والشيخ أبو القاسم بن خجو (ت : 956هـ) والشيخ عمر بن عبد الوهاب (ت : 959هـ) والشيخ عبد الله الهبطي (ت : 963هـ) ولقد أتى صاحب مقنع المحتاج في آداب الأزواج بأقوال هؤلاء جميعا (257).

ز ـ الولائم والحفـــــلات :

كان الناس بجبال غمارة مولعين بإقامة حفلات صاخبة، وكانوا يتخذون من الأعراس مناسبة لإقامتها، ولذلك كانت حفلات الأعراس يسودها على العموم ما يلي :

---

255) مقنع المحتاج في آداب الأزواج مخ. خ. ع. تـ رقم 1026 ك ص : 110.

256) مقنع المحتاج لأحمد بن الحسن بن عرضون أثناء حديثه عن الولائم والحفلات فهو قد انتقد حفلات الزفان واتى بأقوال العلماء في التحذير منها...

257) المصـــــــدر الســـــــالـــــــف.

1 ـ الاختلاط بين الجنسين، وكان النساء يرقصن في هذه الحفلات أمام الجميع تحت تأثير صوت الزفان ونغماته.

2 ـ كان شرب الخمر عادة تمارس في هذه الحفلات.

3 ـ كانت تسود في هذه الحفلات مظاهر الخلاعة والتهتك، حيث يقع التغرير بالشابات، والجميلات من النساء.

4 ـ كانت العادة في الأعراس أن وزراء العريس ـ أى أصدقاءه الدين يلازمونه أيام حفلة العرس ـ هم الذين يتولون فسخ خيوط عقود الحلي التي تتزين بها العروس، كما كانوا يساعدونها على التخفيف من بعض الثياب ليلة الزفاف.

وكان الوزراء يتولون ذلك من يوم دخول العريس بعروسه إلى نهاية حفلات الزفاف التي كانت تدوم أسبوعا كاملا أو أكثر.

5 ـ كانت العادة أن أحد الأصدقاء من أقارب العريس هو الذى يحمل العروس على ظهره من وسط بيت أبيها إلى أن يضعها فوق ظهر الدابة التي تحملها إلى دار العريس، وعند وصولها لهذه الدار يحملها شاب آخر من ظهر الدابة إلى أن ينزلها في المكان المعد لها داخل غرفتها بدار العريس.

6 ـ كان النساء يصطفن بباب غرفة العروسين انتظارا لنتيجة عملية الافتضاض.

7 ـ كان الفتيات غير المتزوجات هن اللاتي يقمن بصبغ يد العريس بالحناء، بحيث يجتمعن عليه، وتحاول أقواهن بسط

كفيه، وهو يجدبها ويقبضها، والفتيات يتعاون على وضع الحناء في كفيه، إلى أن تتم هذه العملية في جو من الدعابة والممازحة...

وأثناء هذه المداعبة تتعالى الضحكات وتتبادل الفكاهات... (258) إلى غير ذلك من العوائد التي يطول ذكرها والتي انقرض معظمها الآن.

وقد بسط هذا الموضوع وتحدث عنه بكثير من التفصيل الشيخ أحمد ابن عرضون في كتابه القيم (مقنع المحتاج في آداب الأزواج) ونقل أقوال علماء عصره في انتقاد مثل هذه العادات المخالفة للسنة الإسلامية والمنافية للحشمة والوقار...

وكانت هذه الأوضاع تثير العقلاء وبعض الفقهاء والصوفية وغيرهم... وكثيرا ما جند المصلحون أنفسهم لانتقاد العوائد الضالة والعمل بمختلف الوسائل لتبصير الناس بأضرار ذلك، مستعملين أسلوب الترغيب تارة وأسلوب الترهيب تارة أخرى...

ومما نقله أحمد ابن عرضون في هذا الصدد قوله : «إن سيدنا وبركتنا سيدي عيسى بن عبد الوهاب (259) قال في بعض

---

258) جاء في مقنع المحتاج لأحمد بن عرضون : «قال عمر بن عبد الوهاب : من أكبر البدع المحرمة اجتماع النساء على صبغ الحناء في يد العروس (كذا) ـ أي العريس ـ حتى يلوثن يده بأيديهن، وذلك من سخافة العقل والخروج عن الدين والسنة، ولا يجوز أن يصبغ الحناء في يده ولو لنفسه لأنها من زينة النساء» مقنع المحتاج ص : 207 مخ. خ. ع. ر).

259) أسرة (بن عبد الوهاب) كان بها مجموعة من العلماء والفضلاء وهي من أهم الأسر (العلمية) حفدة الشيخ عبد السلام بن مشيش، ومن أبرز أفراد هذه الأسرة الشيخ أبو حفص عمر بن عبد الوهاب (ت : 959 هـ) وهو من أبرز تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني.

تآليفه ومن خطه نقلت» وينبغي لصاحب الوليمة أن يتجنب كل منكر وبدعة، وأن يلتزم السنة، عله يفوز بحضور الملائكة في تشييع زوجته إلى منزله، وذلك من أفضل الكرامات..» (260).

فمثل هذا الاغراء كان يجرى على لسان بعض العلماء من أجل أن يرتدع الناس عن الانغماس في المنكرات التي كانت شائعة وسائدة في حفلات الزفاف وغيرها من الولائم.

وأشاد أحمد بن عرضون في هذا المقام بالشيخ عبد الله الهبطي، ويذكر أنه عمل على محاربة البدع، بقوله وعمله وكتابته، وشنع على المبتدعين ايما تشنيع، ونظم في التحذير منهم ومن أفعالهم المنظومات العديدة...

وبالإضافة إلى حفلات الأعراس التي كانت تسودها هذه العوائد المنتقدة، كان بعض الناس يحضرون الزفان في حفلات العقيقة (261) بل كان النساء يتباهين ويفتخرن بذلك، وبطبيعة الحال أنه كلما حضر الزفان في حفل من الحفلات إلا ورافقه

وولده القاضي أحمد ابن عبد الوهاب وغيرهما. أما محمد بن عيسى هذا فهو أخو أبي حفص عمر بن عيسى بن عبد الوهاب السالف الذكر وهو من العلماء نقل عنه أحمد بن عرضون مرارا في كتابه المقنع.

260) مقنع المحتاج : ص : 114.

261) وفي ذلك يقول الشيخ عبد الله الهبطي وهو يتحدث عن المرأة الجبلية.

إذ يجود ربنا عليها — بنعمة عظيمة مثل ابنها
تقوم في الوقت بلا توان — وتبعث الرسل للزفان...

الألفية السنية ص : 13 مخ . خاص.

شرب الخمر، ورقص الصبايا من النساء وقول الفحش إلى غير ذلك من مظاهر التفسخ والانحلال.

ومن الحفلات التي كانت تقام في القرن العاشر الهجرى بهذه الجهات حفلة ختم القرآن الكريم ـ الحذقة ـ وكان الاحتفال بذلك يكتسي أهمية بالغة، وكان يرأسها معلم الكتاب، ويحضرها الخاصة والعامة بما فيهم حكام البلد، ووجهاء القبائل المجاورة وتدوم أحيانا عدة أيام.

وحفلة ختم القرآن الكريم لم تكن كالحفلات التي تقام حاليا بالمؤسسات التعليمية عند نهاية السنة الدراسية، بل كانت حفلات تكتسي طابع الهيبة والوقار، ويحضرها الفقهاء والطلبة في لباسهم الأبيض الناصع، وينظم موكب المحتفلين من الكتاب الذى تم به الختم، إلى منزل التلميذ المحتفل بختمه، ويصطف الناس في هذا الموكب حسب مراتبهم، ويكون في طليعة الموكب عادة قاضي البلد والعلماء والفقهاء وعلية القوم، من حكام ووجهاء وغيرهم، ثم كبار الطلبة والتلاميذ... ويمشون جميعا في الأزقة والشوارع في تؤدة ووقار مرددين لأناشيد وترانيم تنظم لهذه المناسبة (262).

---

262) تحدث أحمد ابن عرضون في الفصل الذي عقده لتعليم الصبيان عن حفل ختم القرآن (بكتابه مقنع المحتاج) ووصف اهتمام الناس به ـ وفي ثمرة أنسي في التعريف بنفي لسليمان الحوات (ت : 1234 هـ) جاء وصف حفل ختم أقامته له والدته بشفشاون وهو وصف يدل على القيمة الكبيرة التي كانت تعطى لهذا الحفل (ثمرة انسي، مخ. خ. ع. ر : 1264 كضمن مجموع).

ومما يلاحظ في الاحتفال بحفلة الختم هذه : أن بعض الطلبة من حفاظ القرآن الكريم ادخلوا عليها في بعض الجهات من هذا الإقليم ـ وفي هذه الفترة بالذات ـ عوائد غريبة، ومن ذلك ما نقله أحمد ابن عرضون (ت : 992هـ) في (مقنع المحتاج) من وصف حفلة لختم القرآن الكريم، وجاء هذا الوصف على لسان مستفت عن هذا الاحتفال هل يجوز أو لا يجوز ؟ والسؤال موجه للعلامة المفتي أبي القاسم ابن خجو الحساني :

«سيدى رضي الله عنكم وأدام بكم الانتفاع، وجعلكم من أهل السنة والاتباع، جوابكم سيدي في حضور الطلبة (الختم) مزينين وبعضهم مكحلين مسوكين، يذكرون الله تعالى بالسهو واللهو، وتعلية السكاكين والنبابيل والشطح بها، وغير ذلك على أعين النساء وحضورهن ومشاركتهن بالزغاريت إلى غير ذلك من أنواع اللهو، لأنهم حضروا ختمة صبي لإمام لهم، واجتمعوا بإزاء مسجدهم ورفعوا علامات مختلفة الألوان ـ أى أعلاما ـ وابتدأوا الغناء برفع الأصوات من حول المسجد المذكور، ومعهم (تركيا بزبطانة ـ كذا ـ (263) ورفعوا أصواتهم بذكر «الرحمن» مع ضرب الكف والشطح، ومنهم من يضرب برجله الأرض، ومنهم من يرفع بنفسه في الهواء، وفي وسطهم واحد منهم يلعب وفي يديه سكاكين، وذاك كله مع حضور النساء، وانكر عليهم الفقراء والأخيار ونحوهم فرفضوا قولهم، وضادوهم، وإمام المسجد المذكور

263) مقنع المحتاج في آداب الأزواج ص : 419 ؛ مخ. خ. ع. ر : 1026 ك. ونقل أبو الحسن العلمي بنوازله السؤال والفتوى معا انظر ج. 2. ملزمة : 34 ص : 5.

أقرهم على ذلك فهل تجوز سيدي شهادته ؟ وإمامته أم لا ؟ لقد شق الأمر على أهل الدين. وطلبنا جوابكم الكريم. والسلام عليكم ورحمة الله» (264).

بالرغم من ضعف أسلوب صاحب السؤال فإنه قد استطاع أن يصور هذا الاحتفال تصويرا دقيقا. ويبدو أن صاحبه من أتباع الطرق الصوفية. لأنه ذكر أثناء السؤال أن (الفقراء) ـ أى المريدين ـ عارضوا الطلبة في احتفالهم بختم القرآن الكريم على هذه الكيفية الموصوفة. إلا أن أولئك الطلبة لم يهتموا بمعارضة (الفقراء). ولا بمعارضة الاخيار من الناس لهم.

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن أصحاب الطرق الصوفية في هذا العصر أخذوا ينتقدون وينكرون بعض العوائد الضالة السائدة بين الناس. وكانوا يلجأون بالطبع إلى الفقهاء ليأيدوهم بالفتاوى الشرعية. وبالفعل كانت فتوى أبي القاسم بن خجو صارمة في هذا الموضوع. حيث أفتى بعدم جواز إمامة إمام المسجد والد الصبي. وبعدم جواز شهادته. ـ ويبدو أن إمام المسجد كان يزاول العدالة ـ ثم وبخ المفتي في فتواه الطلبة على فعلهم هذا. المنافي للأدب مع القرآن الكريم، ومع السنة الحميدة القويمة...

ولعل هذا النوع من حفلات ختم القرآن الكريم كان شائعا. لأننا من خلال استنكار السائل ندرك أن الاستنكار كان موجها لإقامة مثل هذا الحفل بمنزل إمام مسجد يؤم الناس في الصلاة.

264) نفس المصدر والصفحة.

ويشهد عليهم، ولعله لو لم يكن هناك هذا الاعتبار ـ الذي يبدو أنه محط السؤال ـ لما وجه مثل هذا الاستفتاء لعالم ومفتي كبير كالشيخ أبي القاسم بن خجو، ولربما مرت القضية من غير أن يعيرها الناس كبير اهتمام.

ومهما يكن من أمر، فإن حفلات القرن العاشر الهجرى بهذه المنطقة كانت تسودها أنواع من الانحراف، وكان ذلك يحتاج إلى تقويم وتهذيب وإلى وجوب قيام حملة ضد هذه الانحرافات...

وبالفعل قامت حملة عنيفة تزعمها في هذه الناحية جماعة من الفقهاء كان في طليعتهم الشيخ عبد الله الهبطي.

ويبدو أن تلك الحملة أتت بنتائج إيجابية؛ لأننا سنلاحظ فيما بعد تلاشي الكثير من هذه العوائد... واضمحلالها، وأشير هنا إلى أنه في هذا الوقت بالذات حاول كثير من مصلحي ذلك العصر نشر عادة الذكر الجماعي جهرا في الحفلات المختلفة... (265).

ويذكر أحمد ابن عرضون في كتابه مقنع المحتاج أن السيد عبد الله الهبطي وجماعة من أتباعه وصلوا إلى أحد المداشر بقبيلة بني زجل) فصادفوا حفل عرس قد أقيم بأحد المنازل،

265) هذه القضية أي (الذكر جماعة) أطال فيها أحمد ابن عرضون وذكر ان جده لامه ألف فيها كتابه (ضياء النهار المجلى لغمام الأبصار في نصرة الفقراء أهل السنة الأخيار ولخص كلامه فيها كذلك في شرحه على نظم مسائل ابن جماعة في البيوع ـ وتحدث صاحب مرآة المحاسن عن مسألة الذكر جماعة وأطال فيها.

فتوجهوا إلى مسجد المدشر، وبينما هم في المسجد يذكرون الله، إذ جاء صاحب العرس، واستدعاهم لمنزله، فلبوا الدعوة، وذهبوا بجماعتهم، ولما وصلوا إلى المنزل، وجدوا بعض البيوت مملوءة بالمدعويين الذين كانوا يتكلمون بصوت مرتفع، ويتندرون ويخوضون في أحاديث شتى... فلما دخل الشيخ عبد الله الهبطي وجماعته، واستقروا في المكان المعد لهم، شرعوا في الذكر جهرا وفي ترديد الأناشيد الصوفية، واجتمع الحاضرون عليهم، وهكذا أصبح الجميع في حضرة الشيخ، واستمر الشيخ الهبطي في ذكره والناس يستمعون.

يقول أحمد ابن عرضون :

«وبهذا أبدلت بعض العوائد الفاسدة في الأعراس بذكر الله تعالى...»

وفي هذا الفصل بالذات يشيد أحمد ابن عرضون بمواقف الشيخ عبد الله الهبطي، ومواقف الشيخ أبي القسم بن خجو في ميدان محاربة العوائد الضالة والبدع والمنكرات (266).

ح - المآتـــم :

في نهاية الحديث عن الولائم والأفراح نعرج على موضوع المآتم، لأن عادات الناس في مجتمعاتهم تشمل الأمرين معا، ولأنه

266) مقنع المحتاج ص : 133 مخ. خ. ع. ر. رقم 1026. ومن العوائد في هذا العصر، كان الحلاق الذكر يحلق للسيدات ويزج حواجبهن وكان يستدعي لهذه الغاية (الألفية السنية) (باب معاشرة الأجانب)، البيت 400 وما بعده.

كما تحتاج الولائم والأفراح إلى أتباع منهاج قويم يبرهن عـــن النضج الإنساني، فكذلك المآتم تحتاج إلى نفس المنهاج القويم، لأن النفس الإنسانية لا يصلحها إلا الاعتدال في حالتي الفرح والغضب، والسخط والرضا...

فإذا ما أرخى الإنسان العنان لنفسه، وفقد السيطرة عليها سواء في فرحه، أو في حزنه، فإن ذلك لا محالة يدل على نقصان في نضجة الفكري، ونقصان في تطوره العقلي، وفي مزاجه الشخصي...

ومن أجل ذلك رأينا دعاة الإصلاح الاجتاعي في القرن العاشر الهجرى يدعون الناس إلى كبح جماح النفس في الحالتين معا، فكما يعاب على الإنسان أن تبطره وتطغيه النعمة، كذلك يعاب عليه أن يضعف ويجزع، وأن يفقد أعصابه وتوازنه أمام المكاره والشدائد...

وفي موضوع المآتم يقول الشيخ عبد الله الهبطي :

ومن إقامة البرهـــــــان ٥ على ذهاب الدين والإيمـــان
ما اظهروا من كفرهم بربهـم ٥ عند حلول الموت في قريبهـم
ترى نساء أولئك الفجــــار ٥ في حالة كحالة أهل النــــار
يثقبن خدهن بالأظفــــار ٥ تسخطا على الاله البـــاري
كحلقهن مالهن من شعــــر ٥ لا يرتضى فعلهن من كفــر
يرفعن صوتهن بالمحـــذور ٥ ويصحن عند ذلك بالثبـــور
وبالحبل عممن الرؤوس ثـــم ٥ لطخنها بطينة من الحمـــا

كجعلهن الروث فوق الــرأس ٥ تسخطا على رب النـــــاس
ونوحت وغردت تغريــــدا ٥ وأخرجت من قلبها التوحيــدا
وصرخت بكفر من له الــورى ٥ في قبضة وما يشاؤه جـــرى

إلى أن يقول :

من كان ذا عقل وذا إيمـــان ٥ يسلم القضاء للرحمـــــان
ويأمر النساء بالرجـــــوع ٥ عن ذلك المحال إلى المشروع
فذلك النواح والصيـــــاح ٥ ليس به لأحد صـــــلاح
وإنما يزيد في الآفـــــات ٥ لجملة الأحياء والأمـــوات

إلى أن يقول :

يا من وعى حفظ كتاب اللــه ٥ مالى أراك عن هداه ساهـــي
اقرأ ودبر كلمات القـــرآن ٥ ترى الذى يلقاه كل إنســان
اقرأ ودبر كلمات الذكــــر ٥ ترى الذى يكون يوم الحشـــر
اقرأ ودبر ما أتاك في الســور ٥ ترى الذى يكون من خير وشـر
....(267)

ففي هذه الأبيات صور لنا الشيخ عبد الله الهبطي حالة الثكلى وهي فاقدة لأعصابها وخارجة عن أطوارها الطبيعية...

وهي حالة يرثى لها، أظافر تثقب الخدود، وشعر يحلق، ونحيب وعويل، وصراخ بالويل والثبور، ثم لي الحبال على الرؤوس، وتلطيخها بالطين وروث الدواب... كل هذا مع التلفظ بكلمات تخرج الإيمان من القلب، وتدل على الكفر بقضاء الله

---

267) الألفية السنية للشيخ عبد الله الهبطي، ورقة : 12 و 13 و 14.

وقدره، وعلى عدم الرضا بما أمضاه وقضاه... ويتعجب من تلك التي كانت تغني مع الزفان في الأفراح وترقص له وهي نشيطة خفيفة الحركات، تلك التي كانت تهزها الكلمات الماجنة، وتعبث بعواطفها العبارات الخليعة. هاهي الآن تصاب في أعصابها، وعقلها... فتجزع أشد الجزع عند مصيبة الموت... وها هي تشق الجيوب وتلطم الخدود وتنادي بالويل والثبور...

وكل هذا ناتج عن عدم التدبر والاتزان، وناتج عن الانسياق مع العواطف والأهواء إلى أقصى الحدود...

وفي مثل هذه الأحوال يكون لزاما على العقلاء أن يتدخلوا لانقاذ الموقف، وللتنبيه إلى ما يجب نهجه في الفرح والترح...

ولذلك نرى الشيخ عبد آلله الهبطي ينادي بأعلى صوته على حفاظ القرآن الكريم، ويذكرهم بما ورد في كتاب الله العزيز، ويأمرهم بالتدبر لمعانيه، من أجل القيام بحملة إرشادية يهتدى الناس بها....

المهم هنا : أننا نلاحظ أن بعض العادات الجاهلية استمر العمل بها في المآتم، وهي عادات يستنكرها العقل السليم، والشرع القويم... فبعض النساء في جبال غمارة، كن يبالغن في تضخيم حالة الحزن على الميت، فيسئن إلى أنفسهن إساءة بالغة، وهذا مما كان يحز في نفوس دعاة الإصلاح، ولذلك كانوا يحاربون مثل هذه العوائد بكل ما أتوا من صبر وعزيمة.

المبحث الرابع :

ظاهرة التصوف في القرن العاشر

أ ـ انتشار أفكار الغزالي بين المتصوفة في هذا العصر

ب ـ تأثير الشيخ عبد الله الغزواني على فقهاء هذه المنطقة

ج ـ مكانة بعض رجال التصوف في هذا الإقليم.

أ ـ انتشار أفكار الغزالي بين المتصوفة في هذا العصر

يعتبر القرن العاشر الهجري بالمغرب من أهم الفترات التي ازدهرت فيها الحركة الصوفية.

ويكفي أن يكون ظهور الدولة السعدية في مطلع هذا القرن على يد أرباب الزوايا وشيوخ التصوف (268).

وفي هذا القرن كثرت الزوايا (269) والرباطات (270) وتشبع المجتمع المغربي بالأفكار الصوفية.

ولا شك أن القرن العاشر كان نتيجة لما سبقه طوال أزيد من أربعة قرون.

والحركة الصوفية في المغرب هي جزء من تاريخ مجتمعنا لأنها أثرت على حياتنا السياسية والثقافية وعلى حياتنا الفكرية بصفة عامة بل لونت مرافق حياتنا في مختلف مظاهرها الاجتماعية والفكرية.

---

268) انظر الاستقصا ج : 5 ص : 7، وما بعدها.
والحركة الفكرية في عهد السعديين للدكتور محمد حجي. ج : 1. 41 و 42.

269) الزوايا : جمع زاوية : مكان معد للعبادة وايواء الواردين من المريدين واطعامهم وعرفت بأنها مدرسة دينية أو دار مجانية للضيافة وهي بذلك تشبه الدير في العصور الوسطى : دائرة المعارف الإسلامية ج 10 ع 9 : 332 ومن أقدم الزوايا بالمغرب التي حملت هذا الاسم، زاوية الشيخ محمد صالح الماجري (تـ 731 هـ) وتكاثرت الزوايا في العصر المريني ونمت حولها مدارس لطلبة العلم انظر : ابن مرزوق المسند الصحيح الحسن 158.

270) الرباطات : جمع رباط والرباط في الإسلام أصله مكان يجتمع فيه الناس من أجل الجهاد وحراسة الثغور، وتطور هذا المفهوم فيما بعد، إلا أنه لم يخرج عن معنى المرابطة والمجاهدة وكانت الربط بمثابة معاهد لتعليم العلم، ولتربية خاصة، تقوم على التعليم والتثقيف والجهاد.

ويتجلى ذلك في مختلف أوجه النشاط الذي قام به أسلافنا في ميدان الكتابة والتأليف، حيث «نجد أخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية التي قامت بالمغرب مبعثرة في كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات، وفي كتب الفقه مثل شرح ميارة على المرشد، ومعيار الونشريسي... وتحوى المصنفات المغربية في هذا المجال أكثر مما تحويه مصنفات الشرق لأن الدور الذي لعبه التصوف المغربي لا يكاد يضاهي» (271).

ومما لاشك فيه أن المغاربة لهم في مجال التصوف جولات رائدة، ولا نغالي إذا قلنا أن مساهمة هذه المنطقة في ميدان التصوف كانت مساهمة ملحوظة، حيث نجد عددا من أقطاب التصوف ينتمون الى هذه الناحية، مثل الشيخ عبد السلام بن مشيش (ت : 622 هـ)والشيخ أبي الحسن الشاذلي (ت : 656 هـ)، والشيخ أبي الحسن علي بن ميمون الغماري الإدريسي (ت : 917 هـ) والشيخ عبد الله الغزواني (ت : 933 هـ)، والشيخ أبي المحاسن يوسف التليدي (ت : 950 هـ)، والشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن عيسى بن ريسون (ت : 951 هـ) والشيخ عبد الله الهبطي وغيرهم...

وإذا كانت بداية القرن السادس الهجري مثلا بالمغرب تتسم بحملة الفقهاء ورجال الحكم على بعض المتصوفة، وعلى

---

271) عبد العزيز بن عبد الله معطيات الحضارة المغربية ج : 1 : 131 ط دار الكتاب بالبيضاء 1963م.

بعض الأفكار الصوفية، مما أدى إلى إحراق كتاب احياء علــوم الدين للغزالي (272) والى امتحان ابن العريف (ت : 536 ه) وابن برجان (ت : 536 هـ) وغيرهما (273) فإن ذلك ما لبث أن تغير نهائيا بعد فترة قصيرة من الزمن، حيث أصبحت أفكار الغزالي في التصوف محط عناية ودراسة من لدن صوفية المغرب، وذلك ابتداء من العصر الموحدي حيث أسس أحد تلامذة الغزالي وهو صالح ابن حرزهم (274) زاوية بفاس، ومن هذا التاريخ - الذي هو منتصف القرن السادس الهجري - ظهرت العناية بدراسة كتاب الأحياء للغزالي، ويذكر صاحب التشوف يوسف ابن الزيات التادلي (ت : 627 هـ) أن علي بن اسماعيل ابن حرزهم (ت : 559 هـ) - وهو ابن أخ صالح السالف الذكر - جرد (الأحياء) مما أخذ على صاحبه، ثم تراجع عن ذلك (275).

ويلاحظ أن الأفكار الصوفية وبخاصة أفكار الغزالي، قد انتشرت على عهد الموحدين والمرينيين ثم فيما بعد ذلك.

---

272) كتاب احياء علوم الدين للإمام الغزالي (ت : 505 هـ) أحرق بالمغرب والأندلس على عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500 هـ - 537 هـ) ويتحدث عن هذا الاحراق جماعة من المؤرخين والكتاب.

273) عن ابن العريف انظر : التشوف للتادلي ترجمة (18) ص : 96 ؛ ط : الرباط 1958 والاعلام للمراكشي : 2 ؛ 5 وما بعدها (ترجمة مطولة) وعن ابن برجان انظر التشوف أيضا في ترجمة علي ابن حرزهم : 148 و 149 وانظر ص : 135 وعنهما أيضا انظر الموسوعة المغربية للاعلام البشرية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في : (ابن أبي الرجال) وابن العريف ج 1 و 2. ط : فضالة 1975.

274) التشوف للتادلي ص 71، ترجمة (8) وجذوة الاقتباس لابن القاضي : 1 : 358 ط : دار المنصور الرباط، والسلوة : 3 : 69 ولم يذكروا له تاريخ الوفاة وكلهم يؤكدون لقاءه للإمام الغزالي.

275) التشوف للتادلي : ص : 148.

ويذكر ابو الحسن الجزنائي : «أن من بين الكتب التي كانت تقرأ على الناس بمسجد القرويين ـ بعد صلاة الصبح والفراغ من قراءة الحزب ـ كتاب الاحياء لأبي حامد الغزالي (276).

ـ وكان ذلك في العصر الذهبي لبني مرين ـ و(حلية الأولياء لأبي نعيم (277) والشفا) للقاضي عياض (278) وهكذا أصبح كتاب (الاحياء) يسرد بالقرويين واعتنى الناس بقراءته ومراجعته واعتنوا كذلك بمختصر الاحياء للبلالي (279) الذي كان يقرأ بالقرويين أيضا (280) وجاء في ثبت علي (ابن هارون) مختصر الاحياء للبلالي مما أجازه فيه شيخه أبو عبد الله محمد ابن غازي المكناسي (281).

---

276) جني زهر الآس في بناء مدينة فاس، ص : 80 و 81 بتحقيق وتقديم الأستاذ عبد الوهاب بن منصور : المطبعة الملكية سنة 1967. الرباط.

277) أبو نعيم : هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الاصبهاني المتوفى سنة 430 هـ وهو محدث وصوفي ومؤرخ، له (دلائل النبوة) وله تاريخ اصبهان.

278) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ص) لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (تـ 554 هـ) يقول الجزنائي السالف الذكر : «وأمر أبو عنان بزيادة كتاب الشفا للقاضي عياض واستمر الحال على ذلك إلى الآن..» أي أمر بزيادته بالإضافة إلى تفسير الثعلبي، و (حلية الأولياء) : جنى زهر الآس ص : 81.

279) هو شمس الدين محمد البلالي العجلوني ـ والبلالى بكسر الباء ـ توفي حوالى سنة 749 هـ قال عنه السخوي في (الضوء اللامع) لازم أبا بكر الموصلي وتميز في التصوف ولازم النظر في الاحياء.. وصارت له به ملكة قوية، واختصره اختصارا حسنا وأقبل الناس على تحصيله، سيما المغاربة، (الضوء اللامع) (حرف الميم).

280) الروضة المقصودة لسليمان الحوات ورقة : 138 مخطوط الخزانة العامة رقم 2211 د.

281) فهرس أحمد المنجور : ط : الرباط : 1976 ص : 43 بتحقيق الأستاذ محمد حجي ـ الذي كتبت فيه كلمة البلالي بالفاء بدل الباء.

وينقل أحمد ابن عرضون عن الاحياء وعن مختصره في كل من كتابية (مقنع المحتاج) (ورسالة التوادد والتحابب) (282).

وأفكار الغزالي في التصوف لم تنتشر بواسطة (الاحياء) (ومختصره) فقط بل بمختلف كتبه في التصوف. ومن ذلك مثلا ما نجده في الإجازة التي أجاز بها الشيخ عبد القادر زين الدين بن أحمد البكري، الشيخ محمد بن غازي المكناسي، وفي ذلك يقول ابن غازي : «وأجازني - أي الشيخ المذكور - بمدينة مكناس سنة ثمانين وثمانمائة... (منهاج العابدين للإمام الغزالي) أخبرني به عن جمال الدين بن جماعة خطيب القدس قراءة عليه أيضا... ورسالة القشيري وكتاب الفردوس، والحكم لابن عطاء الله. (283).

وهكذا نجد أن علماءنا الكبار كانوا يستجيزون شيوخ العلم لا في كتب الفقه والحديث والقراءات، والأصول وغيرها، فحسب، بل حتى في كتب التصوف التي تأتي في طليعتها كتب الغزالي.

وجاء في كتاب جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي أن الإحياء للغزالي بدأ تدريسه حوالي 652، بالإضافة الى تفسير الثعلبي (ت : 427 هـ) وحلية الأولياء لأبي نعيم، ثم أضاف أبو عنان الشفا للقاضي عياض، وتولى هذا الكرسي عدد من العلماء... (284).

---

282) أشرنا للكتابين في مناسبات مختلفة.

283) فهرس ابن غازي : 126 و 127، ط الدار البيضاء : 1979.

284) جامع القرويين : 2 : 372.

ويبدوا ان افكار الغزالي تغلغلت في أعماق المتصوفة بالمغرب حسبما يستفاد مما كتبه كتاب القرن العاشر الهجري وغيرهم فمحمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن مثلا ينقل عن الغزالي في كثير من المناسبات، ويعقب بتحليلاته وآرائه على تصرفات بعض المشايخ فمن ذلك مثلا ما عقب به وهو يتحدث عن ورع والده يوسف الفاسي (285) فقال : «بعث اليه بعض فقراء الريف - أي المريدين - طرائف من الفواكه الغريبة فقبلها وتصدق بها، وقال إنها جاءتني على يد تباشر الحرام فأنا أعافها... ثم قال : وقد ذكر في الأحياء (أي إحياء علوم الدين للغزالي) أن ذا النون المصري حبس) فلم يأكل أياما في السجن، فكانت له أخت في الله، فبعثت له طعاما من منزلها على يد السجان، فامتنع ولم يأكل، فعاتبته المرأة، فقال : كان حلالا، لكن جاء على طبق ظالم، وأشار به الى يد السجان، قال الغزالي : يعني أن القوة التي أوصلت الطعام اليه لم تكن طيبة، وهذا غاية الورع.

ومثل هذا كثير نجده بين صفحات المرآة هنا وهناك كما نجد النقل عن الغزالي أمرا شائعا عند علماء هذه المنطقة، الى درجة أن بعضهم عندما يمدح شخصا من العلماء العاملين يقول : «وهو غزالي زمانه» وذلك مثل قولة أبي القاسم ابن خجو في عبد الله الهبطي - انظر الدوحة في ترجمة عبد الله الهبطي - وتأثير الغزالي على صوفية المغرب موضوع جدير بالدراسة ولقد تفطن لهذا التأثير بعض الباحثين المحدثين فقال : «نجد أن تعاليم

985) صاحب المرآة تكلم عن الورع ومذاهب الورعين فيه، المرآة ص : 34 و 35.

الغزالي الذي حافظ على تعاليم (الجنيد) وجدت في بلادنا أرضا خصبة، لأن الغزالي من الذين استطاعوا أن يفرقو بين الفلسفة القرآنية و بين فلسفة المدرسة العربية للفكر اليوناني، لا سيما وأن الغزالي لم يصل الى رتبة العارف الصوفي إلا بعد أن عانى من محنة البحث وقد أعطانا في كتابه المنقذ من الضلال المنهج الذي سار عليه حتى وصل الى نتيجته السعيدة» (286).

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها تثبت لنا مختلف الوثائق أن الطريقة الجزولية الشاذلية اكتسحت المنطقة كلها، ولا غرابة في ذلك وبخاصة ونحن نعلم أن زعماء هذه الطريقة كان أصلهم من هذه الناحية، وفي طليعتهم الشيخان : عبد السلام بن مشيش، وأبو الحسن الشاذلي، كما أشرنا الى ذلك من قبل، وفي مطلع القرن العاشر الهجري غادر علي ابن ميمون الغماري الإدريسي المغرب، وقصد بلاد المشرق وهناك أسس طريقته الميمونية، ونشر تعاليمه الصوفية، وتسمى طريقته أيضا (بالخواطرية) نسبة الى الخاطر الذي يخطر على الذهي، جاء في مرآة المحاسن (أهل الخاطر) هم طائفة من الفقراء يعرفون بهذا الاسم، لهم اتصال بالشيخ أبي الحسن علي بن ميمون الغماري المغربي (287).

---

286) علال الفاسي مجلة الثقافة المغربية ع. 1 ـ 1970.

287) المرآة : 235 و 236 وبقية النص : طريقهم معرفة الخواطر والكلام عليها وعرضها على الشيخ فكلامهم كله دائر على قولهم : قال لي خاطري كذا ثم يميزون في تلك الخواطر، وأدركناهم يجتمعون بمسجد في حومة برزخ من عدوة الأندلس من فاس يعرف ذلك المسجد بهم.. وكان شيخ الطائفة إذ ذاك الشيخ أبو عبد الله محمد العوفي وخلفه بعد موته بعض تلامذته ثم انقرضوا.

وعن طريقة علي ابن ميمون هذه يقول ابن عسكر في الدوحة. ولما قدم ـ أي علي بن ميمون ـ بلاد المشرق انتشرت علومه. ودعا الخلق إلى الحق. فهدى الله به من سبقت له العناية من عباده. وخلف الفحول من تلامذته. واندرست الطرق بطريقته. فالطريقة الميمونية بالمشرق. كالطريقة الشاذلية بالمغرب. (288)

وإذا كان النشاط الصوفي لعلي ابن ميمون الغماري قد تجلى فيما نشره من تربيته الروحية في المشرق. وفيما ألفه هناك من كتب في موضوع التصوف. وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإن نشاطا موازيا آخر كان يقوم به متصوفة هذه المنطقة في موطنهم الأصلي. ومجتمعهم المغربي. مثل الشيخ عبد الله الهبطي. والشيخ أبي القاسم بن خجو وغيرهما (289).

ب ـ تأثير الشيخ عبد الله الغزواني على فقهاء هذه المنطقة.

وفي النصف الأول من القرن العاشر الهجري نجد أن الشيخ أبا محمد عبد الله الغزواني (ت : 935) قد أصبح من كبار المربين ومن أبرز شيوخ التصوف. بل إليه انتهت المشيخة

288) الدوحة : ص : 24 ط. ف.

289) سبقت الإشارة إلى أن صاحب مقنع المحتاج نقل بعض مظاهر نشاطهما في هذا الميدان أثناء حديثه عن الوليمة. انظر ورقة : 133 من المقنع وما بعدها.

الكبرى في هذا العصر، إذ عنده تلتقي الطرق الموصلة الى الشيخ التباع والشيخ الجزولي فالشاذلي. (290).

واستطاع الشيخ عبد الله الغزواني أن يجذب اليه عدة أعلام من الفقهاء والعلماء والوجهاء وبخاصة من هذه المنطقة ـ أمثال الشيخ أبي حفص عمر بن عبد الوهاب (ت : 958 هـ) والشيخ عبد الله الهبطي، والشيخ أبي القاسم بن خجو (ت : 956 هـ) والشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن ريسون (ت : 951 هـ) والشيخ أبي الحجاج يوسف التليدي (ت : 950 هـ) والشيخ أحمد الحداد الخمسي (ت : 962 هـ) وغيرهم.

وكان كبار تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني ينتمون الى هذه الناحية، وكانت له معهم حكايات ومساجلات ومراسلات ورحلات، وزيارات... كما تنص على ذلك كتب التصوف المنتمية الى هذه الفترة ومنها التي تتحدث عن تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني (291).

وكان الشيخ الغزواني لا ينقطع عن زيارة هذه المنطقة حيث كان يتردد عليها من حين لآخر... وكان ينظم مع تلامذته رحلات لزيارة اخوانهم، وخاصة منها تلك الرحلات التي كان

---

290) عن هذه السلسلة انظر مرآة المحاسن وخاصة في الفصل الذي عقده المؤلف للحديث عن شيوخ والده . ص : 189.

291) مثل الدوحة، والمرآة وممتع الاسماع، والالماع، والمعرب الفصيح لمحمد الهبطي ...

ينظمها الشيخ الغزواني لزيارة ضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش (292) وهي رحلات كثيرة وفي مواسم مختلفة.

وقام تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني بنشر الأفكار الصوفية بين الناس. وجندوا أنفسهم لذلك. وهذا ما سنلاحظه عندما نتحدث عن نشاط الشيخ عبد الله الهبطي في ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ج ـ مكانة بعض رجال التصوف في هذا الإقليم

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها كانت مدينة شفشاون واقليمها قد شربا من خمرة التصوف حتى الثمالة. بل الى درجة يخرج فيها الأعيان والوجهاء والعلماء وفي طليعتهم أمير البلد، ووزير الملك، يخرجون وهم حفاة ورؤوسهم مكشوفة رافعين أصواتهم بذكر الله في الأزقة والشوارع. يفعلون ذلك من أجل توديع شيخ من شيوخ التربية الصوفية زار المدينة وهو الشيخ أبو الحجاج يوسف التليدي أحد تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني ـ كما أشرنا الى ذلك فيما سبق ـ وفي وصف هذا المشهد، يقول ابن عسكر : «رأيته ـ أي الشيخ يوسف التليدي ـ وهو بشفشاون وقد خرج يشيعه الناس وفيهم الوزير أبو سالم ابراهيم بن راشد (293)

---

292) جاء وصف إحدى هذه الزيارات في (المعرب الفصيح) لمحمد الهبطي وجاء وصف لزيارة أخرى في مناقب أبي الحجاج يوسف التليدي. وسيأتي الكلام عن ذلك في ترجمة عبد الله الهبطي وترجمة التليدي.

293) إبراهيم بن راشد انظر ترجمته في أسرة بني راشد، ص : 94 ـ 113.

والقاضي ابن الحاج (294) وغيرهم من رؤوس الناس ومشى بينهم وهم يذكرون الله مع تلامذته جهرا بالمناوبة على عادة الفقراء. والقاضي والوزير ومن معهما حفاة ورؤوسهم مكشوفة أدبا مع الشيخ والمريدين، ولهم شهيق وزفير...» (295).

إنه مشهد غريب من نوعه يرى الناس فيه وهم حفاة مكشوفو الرأس بما فيهم أمير البلد وقاضيها وعلية القوم... فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأفكار الصوفية قد تغلغلت في الناس تغلغلا كبيرا. وبذلك أصبح شيوخ التربية الصوفية محط احترام وتبجيل وتقدير من لدن الجميع، بما في ذلك رجال السلطة وهذا شيء ليس بالأمر الهين في حد ذاته... لأنه يدل على مقدار تأثير الأفكار الصوفية على الناس.

وفي هذه الفترة بالذات كان جمهور الشعب المغربي مصنفا تصنيفا طرقيا غريبا. فالناس طوائف، وهم اما من أتباع هذا الشيخ أو ذاك، ومن حين لآخر كان يحدث خلاف حول بعض القضايا بين أتباع شيوخ التربية الصوفية، ويذكر ابن عسكر في الدوحة أن أتباع الشيخ أبي الحجاج يوسف التليدي كانوا معجبين بكرامات شيخهم، وكانوا يذيعون منها الشيء الكثير، في حين كان الشيخ عبد الله الهبطي ينكر الإغراق في ادعاء الكرامات وكان لا يعترف في هذا المجال إلا بما يوافق الشرع والمنطق السليم، ومن أجل ذلك كان يحدث حوار بين أتباع الشيخين :

---

294) ابن الحاج القاضي عرفنا به ضمنا قضاة شفشاون، ص : 330.

295) الدوحة ترجمة أبي الحجاج يوسف التليدي ص : 15.

الهبطي، والتليدي، وكان كل فريق ينتصر لآراء شيخه، وكان الشيخ عبد الله الهبطي يوصي تلامذته بعدم الخوض مع معارضيهم في هذا الموضوع (296).

مع العلم أن كلا من الشيخ عبد الله الهبطي والشيخ يوسف التليدي من تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني.

والخلاف بين أتباع شيوخ التربية الصوفية في بعض القضايا كان موجودا بالفعل، وتعرضت بعض المصادر للحديث عنه أحيانا. ومن ذلك ما حكاه محمد بن عبد الله الهبطي من وجود خلاف عميق بين طائفتين من (الفقراء) بضواحي فاس حول قطبانية بعض الأولياء، وكان هذا الخلاف حادا وعنيفا ومن رحمة الله بالمتخاصمين حول هذا الموضوع، أن مربهم الشيخ عبد الله الهبطي الذي استمع لمقالة كل طائفة منهم، وأخيرا استطاع بايضاحاته ولباقته أن يحسم النزاع بينهم.

ولم تكن ظاهرة اتخاذ الشيخ المربي والانخراط في شيعته ظاهرة خاصة بالرجال فقط، بل كانت هذه الظاهرة عامة بين الرجال والنساء فكما يوجد للشيخ مريدون، كانت له مريدات أيضا، وغالبا ما كانت توجد (زاوية) النساء الى جانب زاوية الرجال، وأحيانا تكون زاوية النساء هي المسؤولة عن إطعام ضيوف الشيخ أو ضيوف الزاوية على العموم.

---

296) نفس المصدر.

وكان النساء يأخذن الورد عن الشيخ مباشرة. ويحدثنا ابن عسكر في الدوحة عن والدته عائشة الادريسية فيصفها بأنها كانت من أمثل المريدات، وبأنها تبركت بعدة شيوخ، وأخذت عنهم... وبذلك فهي قد كانت من الفقيرات المجتهدات ومن النساء الصالحات... (297).

ويذكر الشيخ محمد بن عبد الله الهبطي - في المعرب الفصيح - أن والده ابتعد عن شيخه الغزواني عندما أقبل جمع من النساء بقرية تلمبوط للسلام عليه والتبرك به وأخذ الورد عنه (298).

كما يذكر أن زوجة والده، آمنة بن خجو كانت منصرفة الى تدبير شؤون (الفقيرات) بزاويتهم والى تعليم النساء (299).
ويتحدث كذلك عن زوجة أخرى لوالده كانت من العابدات المتبتلات (300).

ومما يذكر في هذا الصدد أنه كانت هناك شيخات صوفيات، يقمن على زاويتهن بمفردهن، ويعطين الورد للرجال والنساء معا، ومن الشيخات الصوفيات الشهيرات في هذا الميدان : الزهرة الكواش (فتح التأييد) (301).

---

297) ترجمة والدة المؤلف.
298) المعرب الفصيح، ورقة : 10.
299) نفس المصدر.
300) فوائد محمد الهبطي.
301) ورقة : 36.

وليس غرضنا في هذا المبحث أن نتحدث عن التصوف في هذه المنطقة من جميع جوانبه. لأن ذلك يحتاج الى بحث مستقل بذاته. وإنما الغرض هو : الإشارة إلى وجود هذه الظاهرة وإلى مبلغ تأثيرها على حياة الناس وتأثرهم بها. وبذلك فهي كانت من الظواهر السائدة بين أفراد مجتمع هذه المنطقة في هذه الفترة التي نتحدث عنها.

المبحث الخامس:

العنصر اليهودي بالمنطقة

أ ـ اليهود بشفشاون.

ب ـ اليهود بالإقليم والتذمر من بعض أفعالهم.

العنصر اليهودي بالمنطقة :

تتحدث المصادر التاريخية عن وجود جالية يهودية كانت تسكن جبال غمارة في هذه الفترة. كما كانت تسكن مناطق أخرى من جبال الريف.

ومن المعلوم أنه بعد ما ضيق نصارى شبه جزيرة الأندلس الخناق على المسلمين، وسيطروا فيها على المناطق الإسلامية، لم يعد من الممكن لليهود المقام في ظل الحكم الصليبي، ولذلك أخذوا يهاجرون مع المسلمين الى نفس الأماكن التي كان يقصدها هؤلاء. وبما أن جماعة من مهاجري الأندلس نزلت بالمناطق الشمالية من المغرب، كشفشاون، وتطوان، والعرائش، والقصر الكبير، وقرى جبال غمارة... (302) فإن الجالية اليهودية وجدت بهذه الأماكن كلها كذلك. واستوطن عدد من اليهود البادية المغربية، وكونوا بيوتا لهم بين منازل السكان المسلمين.

وكان اليهود بصفة عامة يعملون في التجارة وفي بعض المهن التي كادت تكون مقصورة عليهم وحدهم. مثل : السروجية (أي صناعة البردعة) (303) والصياغة، ولحم القصدير... وكانوا يعملوه كذلك باعة متجولين، واسكافيين متنقلين (304).

---

302) احالات مهمة عن هذا الموضوع في المعجم التاريخي للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله (حرف الياء) مكتبة المعارف بالرباط بدون تاريخ. وكذا في كتابه معلمة المدن والقبائل أثناء الكلام عن (دبدو) ص : 195.

303) البردعة : الحلس الذي يلقى تحت الرحل (مختار الصحاح للرازي، حرف الباء).

304) كان هذا النوع من الاسكافيين يحمل على ظهره صندوقا يضم أحذية بالية وجلودا وما يحتاج إليه الاسكافي عادة من ثقاب وخيوط وابرة وشمع... وهذا الصندوق يسمى (الربيعة) ومن هنا جاءت كلمة (ربيعة اليهودي) (أو ربعة اليهود) بضم الراء وسكون الباء، وهي عبارة ما تزال مستعملة عند بعض الناس إلى يومنا هذا، بهذه المنطقة.

أ ـ اليهود بشفشاون :

دخل اليهود الى هذه المدينة منذ تأسيسها على يد علي ابن راشد، سنة : 876 هـ؛ لأنهم كانوا من جملة المهاجرين الأندلسيين الذين قصدوها للاستيطان بها.

ونجد الوثائق تتحدث عن سكنى الأندلسيين : بمدينة شفشاون منذ المرحلة الأولى من حياتها على عهد علي ابن راشد. جاء في (عمدة الراوين في أخبار تطاوين) نقلا عن مؤرخ تطوان الفقيه عبد السلام السكيرج (305) (ت : 1250هـ) أن المهاجرين الأندلسيين الغرناطيين عندما طلبوا النزول بتطوان من السلطان محمد الشيخ الوطاسي (ت : 910 هـ) كتب السلطان الى عامله بشفشاون وهو سيدي علي بن راشد العلمي أن يبعث لهم رجلا صالحا لبناء الأسوار فبعث لهم الولي الصالح سيدي محمد بن علي المنظري الأندلسي الأصل، الشفشاوني الدار... (306).

ويستفاد من هذا النص أن جالية أندلسية كانت تسكن بشفشاون قبل تجديد بناء مدينة تطوان، (307) ومما يدلنا على وجود جالية يهودية في وقت مبكر في مدينة شفشاون ما رواه

---

305) عبد السلام السكيرج عرف به الأستاذ محمد داود في كتابه تاريخ تطوان ج 1 : 47، وذكر انه الف «نزهة الاخوان» في تاريخ تطوان، الذي يحتوي على فوائد تاريخية لاتوجد في غيره، وعنه نقلها من كتب عن تطوان من بعده... انظر ج : 1 ص : 48 و 49.

306) عمدة الراوين في أخبار تطاوين للشيخ أبي العباس أحمد الرهوني (تـ 1953م) ج 1 بدون ترقيم مخطوط المكتبة العامة بتطوان.

307) تذكر الوثيقة العرضونية : أن علي ابن راشد عندما دخل المدينة لأول مرة كانت معه جماعة من الإسرائيليين.

محمد بن عسكر في الدوحة : من أن علي ا بن ميمون (ت : 917هـ) قاضي شفشاون على عهد أميرها الأول علي ا بن راشد - غادر منصب القضاء بشفشاون؛ لأنه استنكف من تقبيل يد يقبلها اليهود. (308) وكانت مغادرة القاضي ا بن ميمون لشفشاون سنة 894 هـ (309).

وكانت الجالية اليهودية في هذا العهد تسكن من هذه المدينة في مكان يسمى (اد بنعبد الله) (310) خارج سور البلد قرب باب الحمار (311) ثم بعد ذلك انتقل اليهود من هذا المكان الى (الملاح) داخل سور المدينة. على مسافة قصيرة من دار الامارة. وكان ذلك في بداية النصف الثاني من القرن العاشر الهجري على أيام السلطان عبد الله الغالب السعدي (312).

وفي الملاح (●) الجديد انشأوا لهم بيعتين غاية في الفخامة (313) ولهم بشفشاون مقبرة مسورة شرق المدينة عدوة وادى

---

308) دوحة الناشر لمحمد ابن عسكر ص : 23 ط. ح. ف.

309) هذا التاريخ استفدناه من تصريحه في كتابه (رسالة الاخوان) بأنه مكث بعد مغادرته لشفشاون بفاس سبع سنين يدرس بالقرويين وانه توجه إلى المشرق سنة 901 هـ.

310) (إد فلان) في اللهجة المحلية بهذه المنطقة نسبة الشيء إلى هذا الفلان وهو تعبير مستعمل بكثرة ومن ذلك اسم السوق العمومي بشفشاون (اد مومن) أي نسبة المكان إلى مومن، (واد مزاحم) أي نسبة المكان إلى مزاحم (واد الحريقي) (واد خروف) وغيرها من الأسماء... واد بنعبد الله هو مكان ينسب إلى أسرة (بنعبد الله الرباطية، الشفشاونية الأصل.

311) إحدى أبواب مدينة شفشاون من الجهة الشرقية.

312) تقييد عن تاريخ شفشاون للشيخ الصادق بن ريسون.

313) دائرة المعارف الإسلامية حرف الشين مادة شفشاون الترجمة العربية.

(●) الملاح : بتشديد اللام، يطلق في المغرب على الحي الذي يسكنه اليهود.

شفشاون، وهي ما تزال على حالها الى يومنا هذا، في مكان (يسمى المطيربة) (314).

وبعد تجديد بناء مدينة تطوان وسكنى اليهود بها أصبح يهود شفشاون ونواحيها على اتصال دائم باخوانهم بتطوان (315).

وفي قيصرية شفشاون كانت لهم محلات تجارية، وكانوا يتجرون في الثياب المستوردة بصفة خاصة، ونسبت اليهم بشفشاون بعض المحلات التجارية (كالتريبعة د اليهود) (316) مثلا.

وكانت لبعضهم دكاكين في فنادق المدينة لصناعة سروج الدواب (317) وكان حي الصياغين بشفشاون يضم عددا من اليهود الذين يعملون في صياغة الذهب والفضة، وكان بعضهم يتعاطى مختلف أنواع التجارة.

وكانت للجالية اليهودية بشفشاون اتصالات وثيقة ببعض الأسر، حيث كانت تتبادل معها الهدايا، والزيارات، وكانت هذه

---

314) قرب مقبرة اليهود بشفشاون تمر الطريق الرابطة بين هذه المدينة ومدينة الحسيمة وبشرق المقبرة تمر الطريق الذاهبة إلى (رأس الماء).

315) لم يبق اليوم وجود لليهود بشفشاون بل كل يهودها انتقلوا إلى تطوان ثم إلى جهات أخرى من العالم وخاصة إلى إسرائيل والسبب في انتقالهم أن شفشاون لم تبق مكانا تجاريا كما كانت من قبل.

316) تنطق بالتصغير، (التربعة) : مكان مربع يطلق بشفشاون على بناء مكون من طبقتين - غالبا - يجتمع فيهما أصحاب تجارة معينة أو حرفة مخصوصة كحرفة الخياطة أو الخرازة أو غيرها.

317) أي (البراذع) وصناعة البراذع كانت من اختصاص اليهود ثم تعلمها منهم بعض المسلمين فيما بعد.

العلاقات الودية بين الاسر اليهودية والآسر المسلمة تستمر لفترات طويلة من الزمن...

وكانت الجالية اليهودية تعمل بحرية كاملة في ميادين التجارة والصناعة.

ب ـ اليهود بالاقليم، والتذمر من بعض أفعالهم :

كما وجد اليهود بمدينة شفشاون وجدوا كذلك بقرى ومداشر اقليمها. وكانوا يزاولون نفس المهن المذكورة سالفا. والى جانب ذلك اشتهروا بقيامهم بالمعاملات الربوية، وقرض النقود بفوائد باهظة، وكان المجتمع الإسلامي يوفر لهم الأمن والاستقرار... إلا أن بعضهم كان يقوم بأعمال تسبب استياء الناس وتذمرهم... كمغالاتهم في المعاملات الربوية التي كانت تؤدى الى أن إفقار بعض الأسر. وكان بعض المسلمين يقلدونهم في ذلك. نظرا لما كانت تدره المعاملات الربوية من أرباح على حساب المضطرين والمحتاجين (•).

وبالإضافة الى مغالاتهم في المعاملات الربوية. كان بعضهم يتقرب الى ذوي السلطة والنفوذ. ويجاريهم في أهوائهم. وشهواتهم وقضاء مآربهم... كل ذلك قصد استغلالهم والتأثير عليهم... والتوصل الى السلطة والنفوذ من جهتهم.

(•) انتقد الشيخ عبد الله الهبطي في (الفيته السنية) شيوع ظاهرة التعامل بالربا وعقد فصلا لذلك قال في أوله :

اباحة الربا على الاطلاق لديهم في جملة الأسواق . (الألفية السنية ورقة : 16).

ونظرا لقيام بعضهم بمثل هذه الأعمال كانت جماعة من علماء جبال غمارة ترى رأى الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت : 911 هـ) في اليهود (318) مثل الشيخ أبي القاسم بن خجو الحساني (ت : 956 هـ) والشيخ أبي حفص عمر بن عبد الوهاب العلمي (تـ : 958 هـ) وغيرهما، كما صرح بذلك ابن عسكر في الدوحة (319).

وذلك لأن بعض اليهود في هذه الفترة من تاريخ المغرب العربي كانوا يسيطرون في أهم المدن على مصادر التجارة والمال، ويتوغلون في شراء ذمم بعض المسؤولين ليصبحوا صنائع لهم (320).

وجاء ذكر اليهود في ألفية الشيخ عبد الله الهبطي، في معرض حديثه عن وجوب صيانة المرأة البدوية فقال :

---

318) اشتهر محمد بن عبد الكريم المغيلي بقيامه بحملة ضد طغيان اليهود وتسلطهم بسبب تقريبهم من ذوي النفوذ، وألف في ذلك عدة رسائل، إلا أن آراءه في هذا الموضوع لم يوافقه عليها جل العلماء وممن انتقد آراءه الشيخ أبو العباس أحمد ابن زكري التلمساني (تـ 899 هـ) (ترجم له صاحب الدوحة، والزركلي في الاعلام : 1 : 220 ـ) ومحمد بن غازي العثماني، (تـ : 919 هـ) شيخ الجماعة بفاس، وغيرهما.
والشيخ المغيلي زار فاس على عهد محمد الشيخ الوطاسي (تـ 910 هـ) لكنه رجع عنها غاضبا لعدم انسجامه مع الهيئة العلمية بها، وتنقل بعد ذلك عبر الصحراء المغربية وسكن (توات) ثم ارتحل لحوض النيجر وهناك لقي حظوة عند أميرى (كانو) و (سنغاي) ثم رجع إلى توات التي قتل اليهود بها ولده وبتوات توفي سنة 911 هـ وأصله من (مغيلة) بضواحي تلمسان.
انظر : الدوحة : 96. ط. ف. وكتاب : أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي : ط : الجزائر، وانظر الحركة الفكرية في عهد السعديين للأستاذ محمد حجي : 1 ص 268 وما بعدها ط : فضالة 1977.

319) الدوحة : ص 98.

320) أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي ص 11. نفس المصدر السالف.

(ورؤ ية اليهود أ يضا للحريم

في أي د ين جاء ذاك يا ند يم

لكن حب الجاه والأمــوال

أفضى بنا طرا الى الضلال) (321)

ويفهم من كلامه هذا. أن اليهود كانوا يرون النساء المسلمات في غير ما كلفة. نظرا للعلاقات التجارية وغيرها التي كانت سائدة بين المسلمين واليهود.

ويدل هذا على أن اليهود كانوا قد اندمجوا في المجتمع الإسلامي اندماجا كبيرا. وجاء ذكر اليهود أ يضا في (مقنع المحتاج في آداب الأزواج) لأبي العباس أحمد بن عرضون (ت : 992 هـ) وبما أن موضوع هذا الكتاب هو الحديث عن آداب الزواج. وعن الأسرة. وتربية الأولاد وتعليمهم... فإن أحمد ابن عرضون حذر المرأة المسلمة من كيد بعض اليهود ودعم تحذيره هذا بحكايات وقصص..

ويذكر أن المرأة المسلمة كانت تتساهل في الحجاب مع اليهود وكانت تتعامل معهم كباعة متجولين. وكصاغة. تصوغ عندهم حليها.. وفي ذلك يقول : «اليهود الذين يدورون على الديار فإنهم يتعاملون مع النساء. وليس لهم مقصود في الغالب سوى النساء..) (322).

---

321) الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة إلى ما غيروا في الملة الإسلامية في الفصل الذي تحدث فيه الشيخ عبد الله الهبطي عن ظاهرة الاختلاط، ورقة : 12، .

322) (مقنع المحتاج) لقاضي شفشاون أحمد بن عرضون (تـ 992 هـ). مخ. خ. ع. ر. 1026 ك ورقة : 275.

وأشار احمد بن عرضون الى أن النساء اليهوديات كن يدخلن الحمام مع المسلمات..

وذكر أن اليهوديات كن يقمن بتعليم الخياطة للفتيات المسلمات، وأنهن كن يدخلن لدور المسلمين من أجل هذه الغاية. ومن المعلوم أن بعض اليهوديات اشتهرت باتقانهن لصناعة الأشرطة الحريرية والأزرار : (السفيفة والقيطان والعقاد).

ويستفاد من الذين تحدثوا عن اليهود في هذه الفترة أنهم كانوا يهدفون الى تحقيق هدفين :

1) الحصول على المال بمختلف الوسائل وسلوك كل الطرق من أجل تحقيق ذلك.

2) الاتصال بذوى السلطة والنفوذ والتقرب اليهم والتأثير عليهم من أجل تسخيرهم لمصلحتهم.

وفيما يعود إلى الهدف الأول، فإن بعض اليهود أصبحوا في ثراء عريض، وأصحاب أموال ضخمة، وأملاك واسعة، ودرت عليهم المعاملات الربوية أرباحا طائلة، وكانوا يأخذون مقابل أموالهم المقترضة ضمانات ورهائن كثيرا ما كانت : تتحول الى ملكياتهم الخاصة.

أما فيما يتعلق بالهدف الثاني فقد استطاع بعض اليهود التأثير على كثير من ذوي السلطة والنفوذ من الحكام والأمراء والقواد... وذلك خدمة لهدفهم الأول وتعزيزا لمركزهم المالي.

واستطاع بعضهم ان يصل الى اعلى المناصب في الدولة كالوزارة وغيرها (323).

وكان هذا التقرب من الحكام مما أثار عليهم نقمة بعض الفقهاء. ولاحظنا سابقا أن الشيخ المغيلي بنى فتواه ضدهم على هذه النقطة بالذات... ومهما يكن من أمر. فإن البلاد الإسلامية وقد وسعتهم وحمتهم واعتبرتهم من مواطنيها. ووجدوا في الشرع الإسلامي حماية لهم. وكان القضاة المسلمون يأخذون لهم الحق وينصفونهم... كل ذلك بوازع إسلامي لا يفرق في التقاضي بين مسلم وغير مسلم...

بل أصبح اليهود في المجتمع الإسلامي مدللين ويتمتعون في تصرفاتهم بحرية لا يعرفها حتى المسلم نفسه. يقول ابن عرضون :

«وجرت عادة النساء أنهن لا يتسترن من اليهود، وتجد اليهودي يدخل الدار من غير مشورة، وكأنه رب الدار. وأما الكبراء من القواد والعمال وغيرهم فلا تسأل عن أمورهم فقد اختاروا اليهود للكشف عن حرائرهم..» (324).

فهذا النص وأمثاله يعطينا صورة واضحة المعالم عن اندماج الجالية اليهودية في المجتمع المغربي المسلم اندماجا كبيرا. الى

---

323) الاستقصا للناصري ج 4، 98. : (دار الكتاب). تحت عنوان : (رياسة اليهوديين هارون، وشاويل، وما نشأ عن استبدادهما) إلى أن يقول : شرعا في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال. واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الأشراف والفقهاء فمن دونهم.

324) مقنع المحتاج لابن عرضون ص : 275.

درجة أنهم كانوا يدخلون دور المسلمين من غير مشورة، وإن كبار القوم كانوا يجعلون منهم بطانة لهم. ويظهرون لهم نساءهم، أي الشيء الذي ما كانوا يفعلونه مع المسلمين أنفسهم...

وكل هذا يدلنا على أن الجالية اليهودية في هذه الفترة كانت ذات رفاهية من الناحية المادية. وكان لها اعتبارها في المجتمع المسلم، وكانت تزاول سائر أنشطتها الدينية والاقتصادية... بكامل الحرية والاطمئنان.

المبحث السادس:

المرأة في هذا الإقليم

أ ـ العناية بالمرأة.
ب ـ المرأة والثقافة.
ج ـ ملابس المرأة.
هـ ـ المرأة والتصرف.

المــــــرأة :

كانت المرأة في هذا الإقليم الجبلي تقوم بدورها كعضو فعال في مجتمع ذلك العصر فهي في البادية تقوم بأشغال البيت إلى جانب أشغالها في الحقل والغابة.

فهي التي تسقي الماء وتخبز الخبز وتطهي الطعام وتغسل الملابس.

وهي في الحقل عاملة في الحصاد والنقل. وفي جمع الغلل المختلفة كجني الزيتون، وقطف العنب وجمع مختلف المحصولات الزراعية.. وتعمل في تسميد الأرض ونقشها وسقيها... وتعتني بالماشية، وتتعهدها بالتربية والرعاية، وتوفر لها التغذية في موسم الأمطار، وإبان تساقط الثلج.

وهي إلى جانب عملها في الميدان الفلاحي كانت تزاول بعض الصناعات : كصناعة الأواني الفخارية وحلج الصوف، وغزله وإخراج السدى الجيد منه، وكصناعة (الصامت) وهو شراب يستخرج من عصير العنب بعد طبخه وتركيزه، وصناعة الجبن الجيد من الألبان... وهذه الصناعة كانت مقتصرة على بعض الأسر وهي أندلسية الأصل.

وكانت المرأة في البادية عمدة الحياة وأساسها. وتتحمل في مختلف الأعمال القسط الأكبر من المسؤولية. وبذلك كانت ربة بيت بكل ما في الكلمة من معنى.

أما المرأة في المدينة فكانت تزاول الخياطة والطرز والعمل في تصنيع الصوف من تصبين وحلج وغزل الأنواع الجيدة الممتازة وغزل السدى الرقيق الممتاز. وتلوين الصوف بالألوان المختلفة كالأحمر. والأزرق. والأصفر. كل هذا بالإضافة إلى أشغال المنزل من خبز وطهي وغسل الثياب وتربية الأطفال والعناية بهم. وتنظيم أثاث البيت وصيانته إلى غير ذلك من الأعمال.

وأشار أحمد بن عرضون في كتابه (مقنع المحتاج) إلى أن الفتيات في المدينة كن يتعلمن الخياطة عند معلمات مسلمات ويهوديات.

ومما تجدر الإشارة إليه ونحن نتحدث عن المرأة بشفشاون أنها في هذه الفترة كانت تعتني بتربية دودة القز وتستخرج من شرانقها الحرير الجيد وتعالج ذلك بأسلوب صناعي متقن وتجعل الحرير ألفافا. وكان هذا الحرير يصدر لبعض المدن وإلى فاس بصفة خاصة. حيث كانت تصنع منه الملابس الحريرية المختلفة وخاصة ملابس النساء (325).

أ ـ العناية بالمرأة :

إذا ما أنعمنا النظر فيما كتبه بعض فقهاء هذه المنطقة عن المرأة نجد أنها حظيت عندهم باهتمام كبير. وخصها بعضهم

325) تقييد عن تاريخ شفشاون ص 4. ويستفاد من الحسن بن محمد الوزان أن صناعة الحرير المستخرج من دودة القز انتقلت مع الغرناطيين إلى المغرب (وصف إفريقيا) الترجمة العربية ص : 222. ط : الرياض : 1399.

بعناية فائقة. ومن هؤلاء مثلا الشيخ عبد الله الهبطي في منظوماته المختلفة. وأحمد ابن عرضون في كتابه (مقنع المحتاج في آداب الأزواج) وغيرهما. كل ذلك بغية تحسين أوضاعها في مجتمع ذلك العصر.

فالشيخ عبد الله الهبطي مثلا نلاحظ أنه يصرخ بشدة في وجه الذين يعملون على انحراف المرأة أو يساعدون على ذلك، وفي وجه الذين يعملون على تركها غارقة في الجهالة إلى الاذقان... ويحث المرأة على صيانة كرامتها وحفظ شرفها. ويحثها على طلب العلم. ويحذرها من جميع أنواع السفهاء والمتهتكين والمغررين بها... كالزفان والوشام. والخماس والراعي والحائك... ويحذرها من اليهود الذين كانوا يتجولون على الدور كباعة متنقلين وأصحاب حرف متجولين...

وصرف مجهودات هامة في تنبيه المرأة وتنبيه ذويها. ونادى بوجوب تعليمها. وبالدرجة الأولى ما يتعلق بأمر عقيدتها ودينها. فهو في (ألفيته السنية) عقد فصولا تحدث فيها عنها. وبين الأخطار التي تتعرض لها...

أما القاضي أحمد ابن عرضون وهو كذلك ممن خصص في كتابه مقنع المحتاج صفحات كاملة للكلام عن المرأة. وكيف ينبغي أن تعاشر. وحث على معاشرتها بالحسنى وبالأخلاق الكريمة. كما حث على وجوب رعايتها وتعليمها...

ويعرف الذين درسوا الفقه الإسلامي بالمغرب، أن أحمد ابن عرضون هذا هو صاحب الفتوى الجريئة التي أعلن فيها عن وجوب انصاف المرأة البدوية، وأن من حقها أن تأخذ النصف أو ما يناسب عملها فيما تركه زوجها مما تجمع لهما من عملهما المشترك. وبالرغم مما أثارته هذه الفتوى من ردود فعل من طرف بعض الفقهاء فإن صاحبنا ظل متشبثا برأيه في الموضوع (326).

ب ـ المرأة والثقافة :

الملاحظ في هذا المجال هو أن بعض البيوتات كانت تعتني بتثقيف بناتها ونسائها، وذلك بدافع حب الثقافة والمعرفة، وبغية نشر الوعي الثقافي بين أفراد الأسرة، حيث كانت ترى أن التخلي عن ذلك يعتبر نقيصة، وبخاصة منها الأسر التي توارثت العناية بالتعليم والتثقيف.

في حين كانت بعض الأسر الأخرى تعمل على تثقيف بناتها ونسائها استجابة لحث بعض العلماء المصلحين على ذلك.

---

326) عن هذه المعركة الفقهية حول نصيب المرأة فيما تركه زوجها مما ساهمت هي في تحصيله. انظر المراجع الآتية : شرح العمل الفاسي للرباطي، باب الشركة ؛ ج 1 ؛ رقم 3 عند قول صاحب العمل الفاسي :

وخدمة النساء في البوادي للزوج بالدرس وبالحصاد
قال ابن عرضون لهن قسمة على التساوي بحساب الخدمة
لكن أهل فاس فيها خالفوا قالوا لهم في ذاك عرف يعرف

وانظر : المعيار الجديد للشيخ المهدي الوزاني ج ؛ 7 ؛ 380. في المصدرين معا طرحت القضية وذكرت أقوال المؤيدين والمعارضين، وأورد المهدي الوزاني النصوص الكاملة لفتاوي الفريقين.

إذ كان بعض الفقهاء والمربين بينادون بتعليم المراة و ينادون باحترامها... وكانت هذه الدعوات تصادف في بعض الأوساط قبولا واستجابة..

ومن بين هؤلاء وأولئك ظهرت المرأة المتعلمة والفقيهة والحافظة للقرآن الكريم كلا أو بعضا. والعارفة بشؤون د ينها. كما عرفت هذه الفترة المرأة العا بدة والمتبتلة...

ونجد بعض الأسماء النسائية تتردد على صفحات بعض الكتب المنتمية إلى هذا العصر. وإلى هذه المنطقة بالذات. فمن ذلك مثلا : إسم والدة صاحب الدوحة السيدة عائشة أم أحمد الحسنية (ت 969هـ) زوجة القاضي أ بي الحسن علي ا بن عسكر. وهذه السيدة خصها ولدها محمد بترجمة حافلة متحدثا عن صلاحها وتقواها. وحسن فراستها وإخلاصها لزوجها. كما تحدث عن أخذها عن شيوخ التربية الصوفية وعن زيارتها لهم وزيارتهم لها...

وذكر مواقفها الحازمة الشجاعة أمام أمراء بني راشد بشفشاون. كموقفها مع زوج الوزير ا براهيم ا بن راشد. وموقفها أمام أخيه الأمير محمد ا بن راشد.

ونستخلص من ترجمتها أنها كانت من فضليات النساء وأنها كانت ذات شخصية قوية (327).

---

327) انظر : الدوحة ص 19 وما بعدها. ط : ح. ف.

ومن السيدات الشهيرات في هذه المنطقة : السيدة الفقيهة آمنة بن خجو، وهي أخت الشيخ أبي القاسم بن خجو الحساني، وزوجة الشيخ عبد الله الهبطي.

وهذه السيدة كانت فقيهة عالمة، تحدث عنها ابنها الشيخ محمد الصغير الهبطي، وذكر أنها كانت من الفقيهات العالمات، وأنها كانت تحاور زوجها عبد الله الهبطي محاورة علمية، وتسأله أسئلة دقيقة في موضوعات علمية مختلفة، وينقل اعتراف والده بأنه قد استفاد من علمها ومن جودة إدراكها (328).

وتحدث محمد الصغير الهبطي عن زوجة أخرى لوالده تسمى فاطمة بنت عبد الله أوثول، من شرفاء أولاد أوثول ببني زجل ووصفها بالزهد وحب العبادة، وذكر أنها كانت تحفظ آيات من القرآن الكريم، وأثنى على أخلاقها وسلوكها، وذكر أنها كانت تقضي معظم أوقاتها في العبادة والتوجه إلى الله تعالى (329).

وذكر أحمد ابن عرضون أثناء كلامه عن وجوب تعليم المرأة أن والدته كانت تحفظ سور المفصل (330).

ومن السيدات الشهيرات في هذا الإقليم، السيدة الحرة بنت علي بن راشد وقد أفردناها بترجمة خاصة ضمن الحديث عن أسرة بني راشد، وهي سيدة تثقفت ثقافة عالية على يد أشهر الفقهاء في بلدها شفشاون.

---

328) المعرب الفصيح ورقة : 22 البيت : 400 وما بعده.

29) (فوائد محمد الهبطي) يحتوي على معلومات تتعلق ببعض أسر هذه المنطقة.

330) مقنع المحتاج : 284.

وإلى جانب هذه النماذج يذكر سليمان الحوات ان عمته الفقيهة خديجة الحوات، كانت تعلم النساء بزاوية الشيخ أبي الحجاج يوسف التليدى، ومن أجل القيام بهذه المهمة كانت تنتقل من مقر سكناها بجبل العلم ببني عروس، إلى (زاوية بني تليد) بالاخماس السفلى، وتنقطع للتعليم مدة من الزمن ثم تعود لمقر سكناها (331).

وفي القرن العاشر الذى ألف فيه أحمد ا بن عرضون كتا به مقنع المحتاج نجده يقول في كتابه هذا ما يلي : «ان المرأة إذا كان لها زوج يجب عليه أن يعلمها إن كانت جاهلة، فإن لم يفعل، طالبته بذلك، فإن لم يفعل طالبته بالخروج إلى التعلم، فإن لم يأذن لها في الخروج، خرجت بغير إذنه...» (332).

وفي هذا العصر كانت زاوية الشيخ عبد الله الهبطي بالجبل الأشهب مدرسة يتعلم فيها النساء والرجال والولدان...

وكثيرا ما حث المصلحون من الفقهاء على وجوب تعليم المرأة، والرفع من مستواها مثل الشيخ عمر بن عبد الوهاب العلمي، (ت 958هـ) والشيخ أبي القاسم بن خجو، والشيخ عبد الله الهبطي، وأحمد ا بن عرضون وغيرهم، ونبهت المرأة من طرف هؤلاء إلى مواطن الزيغ والزلل فعملت على إصلاح شأنها فأخذت تأنف من الرقص بمحضر الرجال أمام الجموع الغفيرة، وأخذت

---

331) ثمرة انسي في التعريف بنفسي ورقة : 4.

332) مقنع المحتاج : ورقة 236.

تستبشع الوشم وتبتعد عنه، وتتجافى عن الجلوس بين يدى الوشام، الذى كان يعمل على تشويهها ويسيء إلى خلقتها..

وتصبرت أمام مصيبة الموت، وعند فقدها لعزيز عليها وضبطت عواطفها، وتحكمت في أعصابها إلى حد بعيد، فكفت عن شق الجيوب، ولطم الخدود، وعن العويل والمبالغة في النحيب، وتخلت عن كثير من العوائد السيئة وبذلك أكدت أنها عملت على الرفع من مستواها.

ج ـ ملابس المـــــرأة :

دفعت الغيرة على المرأة الشيخ عبد الله الهبطي رحمه الله إلى وصف جمالها وقوامها وزينتها ليعقب بعد ذلك باللوم على زوجها الذى يترك زوجته الشابة تتعرض لمواقف الشبه والأخطار...

ففي الأبيات الآتية نراه يصف المرأة البدوية وهي ذاهبة في طريقها إلى حفلة عرس، أو إلى حضور موسم من المواسم وهي في كامل زينتها بادية الوجه والأطراف تبدو زينتها للرائي فتخلب لبه، تاركة وراءها موجة من روائح العطور الزكية، والرجال ينظرون إليها ويتهامسون عليها وتهفو قلوبهم نحوها.

ومن خلال أوصافه لها أعطانا صورة عن زينة المرأة البدوية بجبال غمارة في القرن العاشر الهجرى، فهي إلى جانب أعمالها

الكثيرة في الحقل، كانت تعتني بمظهرها، وكانت جاذبيتها وأنوثتها تسحر لب الشباب وتلعب بعواطفهم...

ففي وصف زينة المرأة البدوية يقول :

«وقد تزينت بخير لبسـة ٥ كليلة أتت بها عروسـة»
«دلالها يدلى بخير صـدغ ٥ وفمها بجوزة ذو صبـغ» (أ)
«وعينها كحيلة بالاثمـد ٥ وخضبة من حنة على اليـد»
«وخرصة ضاءت على الخدالمنير (ب) ٥ وقصة من تحت منشف الحرير»
«سوارها في يدها والخلخـال ٥ في رجلها من فوق ضوء الشربال»
«ومن بزيمها النقى الصافـي ٥ قد أرسلت خيطا إلى الاكتـاف»
«وحزمة منقوشة مـدورة ٥ قد أرسلت إلى الكعاب الفاخـرة»
«تعطرت بكل عطر فائـق ٥ فواحها إلى البعيد لاحـق»
«تبخترت في مشيها إذا مشـت ٥ فبالحمام يا أخي تشبهـت»
«كيف تساق هذه إلى الضـلال ٥ يا حرتي لم يبق في الحق رجال»
...(333).

زينة المرأة البدوية هذه، هي في الحقيقة لا تختلف عن زينة المرأة في الحاضرة إلا بعض الاختلاف.

(أ) دلالها : خيط يدلى وهو منظوم بالأحجار الكريمة.
(ب) خرصة : تكون من الذهب غالبا حلقة كبيرة بها أحجار كريمة توضع في الأذن على شكل مفتل كبير.
(ج) قصة الشعر من تحت (منشف الحرير) : نسيج رقيق شفاف.
333) المصدر : مختصر مقنع المحتاج مخ. م. ع بتطوان ضمن مجموع : 213 رقمه : 593.



الحائك هو اللباس الخارجي الذي ترتديه المرأة الشفشاونية وهي ذاهبة لقضاء مآربها.
وتبدو في الصورة بعض الشفشاونيات وهن يرتدين (الحائك) الذي يصنع من القطن الجيد الأبيض الناصع البياض.

(فالـدلال) و(الخرصـة) و(الخلخـال) و(الشر بـال) و(الحـزام المطرز) بالذهب أو الحرير. والحناء، وصبغ الفم. والكحل. والأساور. كل هذه الأدوات كانت تتزين بها المرأة في المدينة إلا ما ذكره من (بزيمها الصافي) فالبزيم الفضي منذ وقت غير قصير وهو خاص بالمرأة البدوية، والبزيم : هو عبارة عن ورقتين سميكتين من الفضة مقعرتين منقوشتين بنقوش ذات زخرفة مختلفة وهما في شكل ورقة شجر التوت تقريبا تضعهما المرأة على صدرها وتربط بينهما بسلسلة من الفضة. ويثبتان فوق الثياب بممسك فضي. والبزيمان إلى يومنا هذا من لوازم زينة المرأة البدوية بهذه الناحية.

أما الحزام. فالذى يرسل منه إلى (الكعاب). هو خيوطه الحريرية التي تكون طويلة. يفضل منها بعد عقدها ما يدلى إلى الأرض. وتكون ملونة ومفتولة بفنية واتقان. ويعطي منظرها وهي متدلية رونقا للمرأة (334).

والمرأة بجبال غمارة بصفة عامة جميلة وجذابة. ونظرا لانفتاح هذا الإقليم على حضارات مختلفة. فإن المرأة قد تأثرت بتلك الحضارات وتجلى ذلك في العناية بهندامها وفي حرصها على النظافة حرصا شديدا (335).

---

334) تأخر بشفشاون تزين المرأة بالزينة التي وصفها الشيخ عبد الله الهبطي إلى منتصف القرن الرابع عشر الهجري، وما تزال بعض العجائز يحكين عن هذه الزينة كما جاءت في الأبيات السالفة.

335) يقول الحسن الوزان عن منطقة شفشاون : «وسكان هذه المنطقة يتميزون بحسن هندامهم». الترجمة ص : 335.

وتتميز المرأة بشفشاون وضواحيها بلباس الحذاء الأسود وهو من العادات العائدة إلى هذه الفترة وينقل بالتواتر أن لبس المرأة الشفشاونية لهذا الحذاء، كان حدادا على سقوط مدينة غرناطة سنة (896هـ) التي هاجر بعض سكانها إلى هذه المدينة. وهذا الحذاء يصنع لها خصيصا بشفشاون ويسمى (بالريحية) وهو حذاء متقن الصنع، من الجلد الناعم الخالص. وما زال يصنع بشفشاون إلى يومنا هذا.

هـ ـ المرأة والتصوف :

ان موجة التصوف التي انتشرت بالمغرب، وعلى الخصوص في هذه الفترة، وأصبح للتصوف بسببها شيوخ، ومربون، ومريدون، وأتباع، كانت هذه الموجة تشمل الرجال والنساء معا.

فالشيخ المربي كان يعطي (الورد) للرجال والنساء على السواء، وكثيرا ما كانت تقوم زاوية النساء إلى جانب زاوية الرجال.

وخير نموذج للزوايا الصوفية التي تجمع بين جناحي الرجال والنساء بهذه المنطقة هي زاوية الشيخ يوسف التليدى بالأخماس السفلى (336) حيث كانت زاوية النساء تستقبل الفقيرات. وتعقد بها حلقات الذكر والعمارة والسماع أسوة بزاوية الرجال. وكثيرا ما كانت تبرز من بين الفقيرات مجتهدات

---

336) سيأتي الحديث بحول الله عن زاوية الشيخ التليدي بترجمته في قسم التراجم.

يشتهرن بإخلاصهن ومواظبتهن وحسن إدراكهن لمقاصد التصوف و بفهمهن للعبارات والإشارات الصوفية...

وعن مساهمة المرأة في التصوف حكى الشيخ محمد الصغير بن عبد الله الهبطي قصتين تتعلقان بوالده. والقصتان يتجلى فيهما إقبال المرأة على التصوف وعلى تشبع بعض النساء بالأفكار الصوفية.

القصة الأولى مرت في المبحث المتعلق (بمظاهر التصوف في هذا العصر) (337).

والثانية تتلخص فيما يلي :

يقول محمد الصغير الهبطي «حدثني الشيخ موسى الوزاني (338) عن الزيارة التي قام بها والدي لشيخه الغزواني بمراكش. حيث خرج من بلده في جماعة من الاخوان ومروا على فاس. وفي مدينة فاس انضمت إليهم جماعة من الفاسيين واتخذت الترتيبات النهائية للرحلة. و بينما الهبطي يستعد للسفر. و يوصي الفقراء بعدم حمل ما لا نفع فيه... إذ فاجأتهم جماعة من النساء يردن مصاحبة (الفقراء) لزيارة الشيخ عبد الله الغزواني. فرفض الشيخ عبد الله الهبطي مرافقتهن للجماعة. لكن وفد النساء أصر على الذهاب معها. وأخيرا استطاع النساء التأثير على أفراد من

337) ملخصها : أن جماعة من النساء أقبلت على الشيخ الغزواني وسلمت عليه... وتبركت به... بقرية تلمبوط. انظر : ص : 205.

338) انظر الكلام عنه أثناء الحديث عن (معهد المواهب)، ص 300.

الجماعة ولم يجد الزوار بدا من السماح لهن بمرافقتهن، وأسندت القافلة أمر السهر على النساء، والاشراف على شؤونهن أثناء الرحلة إلى (الفقير) الكهل يعقوب الذى كان يهوديا يقيم بفاس، فأسلم وحسن إسلامه، وأخذ عن الشيخ الغزواني، وأصبح من محبيه ومريديه، - يقول محمد الهبطي - : قام الكهل يعقوب بمهمته خير قيام إلى أو وصلت القافلة إلى مراكش وإلى حضرة الشيخ عبد الله الغزواني، وبعد دخول وفد النساء لدار الشيخ، خرج الغزواني غاضبا، وأخذ يوبخ الشيخ عبد الله الهبطي على اصطحاب النساء معه في هذه الرحلة الطويلة الشاقة... فقال له ما كنت أرى هذا، لكن بعض الفقراء ألحوا علي في ذلك فلم أجد مهربا، فوجه الشيخ الغزواني لومه لهذا البعض، لكن هذا البعض بدوره ألقى تبعة ذلك على المريد يعقوب، وهنا اتجه غضب الشيخ الغزواني نحو يعقوب فسبه الشيخ، وشتمه، وعيره بأصلـه اليهودى، و بمكر اليهود...» (339).

بالرغم من الفوائد العديدة التي تستفاد من هذه القصة فإن الذى يهمنا منها هنا هو:أن المرأة ساهمت في ميدان التصوف (كفقيرة) ومريدة وزائرة وسائحة... (340).

---

339) (المعرب الفصيح في ترجمة الشيخ النصيح) في الفصل الذي عقده الناظم للحديث عن ورع الشيخ ابتداء من البيت : 575 إلى البيت : 608.

340) (السياحة) في الاصطلاح الصوفي هي زيارة الأحباب والاخوان في الله والشيوخ، وقطع المسافات من أجل ذلك قصد تمتين الروابط والتماس الموعظة والفائدة.

فالرحلة من فاس إلى مراكش لم تكن من السهولة بمكان في ذلك الوقت، ومع ذلك تجشمت المرأة مشقة ذلك، تعلقا منها بالتصوف، وإخلاصا منها لشيوخه ولرجاله.

وجاء في (فتح التأييد) : أن السيدة الزهرة بنت عبد الله الكواش، كانت لها زاوية بمراكش ذات أهمية كبيرة في ميدان التصوف، زارها سيدى محمد ابن علي بن ريسون (ت 1018) وأخرجت له طعاما أكله بزاويتها بسوق الحجر بإزاء الجامع الأعظم الذى أسسه يوسف بن تاشفين...» (341).

وذكر محمد بن عسكر في الدوحة أن والدته كانت تعقد موسما في بيتها كل سنة بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي، وكانت تذبح الذبائح من البقر والغنم وتطعم الطعام... (342) ومن المعلوم أنه في مثل هذه المناسبة كانت تنشد الأناشيد في مدح صاحب الذكرى، وتسرد بعض أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم من كتب السيرة النبوية، مع ذكر بعض مواقفه صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة الإسلامية (343).

وسبقت الإشارة إلى أن زاوية الشيخ أبي الحجاج يوسف التليدى بالأخماس السفلى قرب شفشاون، كان جناح النساء بها

---

341) (فتح التأييد) للحسن بن محمد بن ريسون (ت 1055).

342) الدوحة ترجمة والدة المؤلف.

343) عادة الاحتفال بالمولد النبوي من طرف النساء ما زالت موجودة بشفشاون إلى يومنا هذا عند بعض العائلات وخاصة عند الشرفاء الريسونيين، وأثناء الحفل تقوم إحدى السيدات من هذه الأسرة بسرد الشمائل النبوية ويتخلل ذلك تلاوة الأمداح وانشاد الأناشيد المناسبة لهذه الذكرى.

نشيطا. وكانت المرأة في هذه الزاوية هي المشرفة على إطعام الطعام وطهيه وتقديم ألوانه وأصنافه. واستمر نشاط زاوية الشيخ التليدى من النصف الأول للقرن العاشر الهجرى إلى ما بعد وفاة صاحبها بأكثر من قرنين من الزمن.

وهكذا نجد أن المرأة سواء بهذه المنطقة أو بغيرها من الأقاليم المغربية ساهمت في الحياة الصوفية، وتشبعت بروح التصوف وأفكاره.

القسم الثاني

الحياة الفكرية

تمهيـــــد :

مباحث هذا القســـم :

المبحث الأول : ـ من مظاهر الحياة الفكرية في هذا العصر.

المبحث الثاني : ـ دور المسجد وأثره الثقافي.

المبحث الثالث : ـ الحياة الثقافية بمدينة شفشاون.

المبحث الرابع : ـ معهد المواهب بالجيل الأشهب.

المبحث الخامس : ـ معهد تلمبـــوط.

المبحث السادس : ـ قضاة شفشاون ودورهم الثقافي.

المبحث السابع : ـ المراسلات العلمية بين شفشاون وفاس.



تبدو صومعة مسجد ريف الأندلس
وسقوف المنازل بالقرميد

تمهيـــد :

«نظرة موجزة عن النشاط الثقافى بشمال المغرب»

منذ القديم عرفت المناطق الشمالية من المغرب كثيرا من الهجرات البشرية. حيث كانت هدفا للغزاة والفاتحين والمهاجرين. فالمنطقة قد عرفت الإنسان الفنيقي، والقرطاجي، وتأثرت بهذا الإنسان لغة وحضارة...

وعرفت كذلك : الجندى والقائد والتاجر والراهب الروماني، ثم البزانطي، وعرفت المحارب الوندالي...

وبالإضافة إلى أولئك جميعا عرفت مجموعة من اليهود، سكنتها واستوطنتها في فترات مختلفة.

عرفت كل أولئك بثقافاتهم، ولغاتهم، وحضاراتهم وتذكر بعض الوثائق أن الجيش الذى قدم مع موسى بن نصير، ونزل بهذه المنطقة كان من بين عناصره من يتكلم القبطية والعبرانية والسريانية (344)، ولا شك أن المنطقة عرفت اللغة البونيقية واللاتينية... بالإضافة إلى اللهجات الأمازيغية المحلية.

344) عن تقييد ينقل عن : (مناقب موسى ابن نصير، وسكان الشاون) لأحمد بن عرضون (قيد عام 999 هـ) واحتفظ بصورة فوتوغرافية منه وعن هذه الفقرة ورد في الموسوعة المغربية.. «معلمة المدن والقبائل» من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة : 1977 للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله : ص : 28 «يوجد كتاب لأحمد ابن عرضون ورد فيه أن قبيلة بني زجل كانت تتكلم قبل الإسلام القبطية والعبرانية والسريانية». فالكتاب المشار إليه غير موجود لحد الآن - ونتمنى أن يوجد -، اما التقييد المنقول عنه فهو لايتضمن عبارة المعلمة وإنما يذكر أن الجيش الذي كان مع موسى بن نصير كانت وحداته من عدة أقاليم ويتكلم بعضها اللغات المذكورة. لا ان قبيلة بني زجل كانت قبل الإسلام تتكلم تلك اللغات . ومن هنا ندرك أن عبارة المعلمة توقع القارىء في غلط فادح.

ومما لا مجال فيه للشك أن العامل الجغرافي جعل من هذا الإقليم صلة وصل بين أوربا وافريقيا. وبين الشرق والغرب. وبعد الفتح الإسلامي تأثرت المنطقة بالثقافة العربية الإسلامية وذلك ابتداء من عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد وجنودهما.

وعرفنا من قبل أن أول إمارة عربية أسست شرق هذه المنطقة. وتلك هي إمارة بني صالح (بالنكور)» (345).

والمنطقة كانت عبر العصور معبرا إلى الأندلس ـ منها وإليها ـ وبعد الفتح الإسلامي أصبح التأثير العربي واضح المعالم وانتشرت اللغة العربية بسرعة في الناحية الغربية من جبال الريف. وبذلك تعربت المنطقة الجبلية في وقت مبكر.

وابان ازدهار الحياة الفكرية بالأندلس. كانت مدن هذه المنطقة مثل طنجة وسبتة وبادس، من أهم القواعد في ربط الصلات السياسية والثقافية... بين المغرب والأندلس وأثناء التنافس على الزعامة السياسية والثقافية. بين المغرب وشبه الجزيرة الأندلسية (346) كانت مدن هذه المنطقة مركز إحساس في ذلك

345) صالح بن منصور الحميري افتتح قطر النكور زمن الوليد بن عبد الملك ونزل تمسمان وعلى يده أسلم بربرها من صنهاجة وغمارة، ثم ارتد أكثرهم وأخرجوا صالحا، ثم استردوه بعد ذلك، وسعيد بن ادريس منهم هو باني (النكور) البكري، المسالك، ص : 91.
وهادم النكور هو موسى بن أبي العافية الذي قتل أميرها المؤيد، ص : 97 نفس المصدر.

346) لقد تطلع المروانيون لامتلاك المغرب، وبالفعل بسطوا نفوذهم على كثير من أجزائه وعلى الخصوص في عهد عبد الرحمان الناصر الذي ملك سبتة وطنجة، وامتد نفوذه شمالا وجنوبا. وبسط المغاربة بدورهم فيما بعد نفوذهم على بلاد الأندلس ابتداء من عهد الادارسة الذين استطاع أحد أمرائهم أن يكون له مملكة بمالقة ثم في العهد المرابطي والموحدي...

التنافس. واشتد الاحتكاك بين منطقتين لا يفصلهما إلا شريط بحرى، ضيق. ونتيجة لذلك أصبحت سبتة وطنجة وبليونش والقصر الكبير وبادس وجبال غمارة وبلاد الهبط مراكز اشعاع ثقافي.

وظهرت بهذا الإقليم شخصيات بارزة في ميدان الثقافة والفكر، مثل القاضي عياض (ت : 544 هـ) والشريف الإدريسي (ت : 548هـ) وأبي العباس السبتي (ت : 601هـ) والشيخ عبد السلام بن مشيش (ت : 622هـ) وأبي الحسن الشاذلي (ت : 656هـ)، وأبي الحسن الصغير الزرويلي (ت : 719هـ) وأبي يعقوب البادسي (ت : 734هـ) وابن بطوطة الطنجي (ت : 771هـ) ومحمد النالي المسفر (ت : 911هـ) وغيرهم... (347).

في نهاية الدولة المرينية، وخلال العهد الوطاسي - الذى شهد نهاية الأندلس - أصبحت الثغور المغربية تسقط أسيرة في يد الأجنبي المهاجم، وفي هذه الفترة كذلك أمست المنطقة مأوى

347) لعل هذا هو الذي حدا بابن عسكر أن يقول : «ولهذه البلاد المزية التي لاتنكر على سائر بلاد المغرب بنشأة الغرتين العظيمتين المجمع على شرفهما وقطبانيتهما أبي محمد عبد السلام ابن مشيش وأبي الحسن الشاذلي ومن علمائها أبو الحسن الصغير شارح المدونة المعروف عند المشارقة بالمغربي، ومنها شيخ الإسلام عياض بن موسى، وأبو العباس ابن العريف (تـ : 536 هـ) وشيخ المواهب أبو العباس السبتي، والطنجي، والصرصري ، (كان حيا سنة 754 هـ) شارح المدونة وأبو الضياء مصباح الأغصاوي (تـ 719 هـ) وولي الله أبو الحسن بن ميمون (تـ 917 هـ) والفقيه ابن العقدة (تـ 911 هـ) ومنها كان ظهور الشيخ سيدي أبي محمد الغزواني (تـ 935 هـ) ومنها الشيخ سيدي عبد الله الهبطي (تـ : 963 هـ) وغيرهم من أكابر الاعلام...» ـ الدوحة المقدمة ـ .

للأسر النازحة من مناطق الاحتلال. كما كانت ملجأ للمهاجرين الأندلسيين فيما قبل ذلك و بعده.

ونتيجة لهذه الأوضاع الجديدة توثقت الصلة بين مناطق الشمال و بين فاس العاصمة الثقافية.

وخلال العصر الوطاسي الذى يصادف نهاية القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين واصلت المعاهد الثقافية بالمغرب نشاطها الفكرى الذى عرفته من قبل. والذى ازدهر بصفة خاصة خلال العصر المريني. ثم بعد ذلك جاء عهد الوطاسيين الذى يقع بين سنتي : (786 ـ 956هـ).

و بالرغم من كون هذا العهد هو عهد جمود وخمود فإن الحياة الثقافية واصلت سيرها ـ بكيفية أو بأخرى ـ ولم يصبها من الجمود والضعف مقدار ما أصاب الحياة السياسية.

المبحث الأول :

مظاهر الحياة الفكرية

أ ـ أحد علماء هذه المنطقة يصف النشاط الثقافي بالقرويين.

ب ـ ما يستفاد من هذا الوصف.

لعله من الصعب جدا أن نربط دائما ازدهار الحياة الفكرية والثقافية بالحياة السياسية. وذلك نظرا لعدم اطراد النظرية القائلة بتلازمهما. فكلنا يعلم مثلا. أن الأوضاع السياسية في الفترة الأخيرة من عهد بني مرين. وفي عهد الوطاسيين، كانت مضطربة. وتعاني من الضعف والتفكك. ومع ذلك لا يمكننا أن نقول : أن الحياة الفكرية في هذه الفترة بالذات أصيبت بمثل ما أصيبت به الحياة السياسية. وليس معنى ذلك أن الحياة الثقافية لم تتأثر بتاتا لكن تأثرها لم يكن بالقدر الذى يعوقها عن السير، وعن مواصلة نشاطها.

وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح فيما قبل العصر الذى نتحدث عنه مباشرة. فالملاحظ أن الحياة الفكرية واصلت نشاطها في العصر الوطاسي بالرغم من تمزق وحدة البلاد. وضعف الحكم المركزى، وبالرغم من الهجمات المتواصلة على السواحل المغربية من طرف البرتغاليين، والإسبان، وبالرغم كذلك من انشغال كثير من العلماء بقضايا التحرير، وبالمشاركة الفعلية في الجهاد.

ولعل سبب ذلك يعود إلى أن المد الفكرى والثقافى لم يتوقف لمجرد اغتيال ملك، أو هجوم على منطقة. أو قيام ثورة في جهة ما من جهات المغرب، بل الملاحظ : أن الحياة الفكريـــة ظلت صامدة تشق طريقها بالرغم من تأزم الأوضاع السياسية واضطرابها.

وفي هذه الفترة بالذات تثبت لنا الوثائق استمرار النشاط الفكرى لا في فاس وحدها حيث يوجد مركز جامع القرويين باطره الثقافية. وهياكله التعليمية المتوارثة. بل استمر هذا النشاط حتى في المراكز الثقافية المنتشرة عبر أنحاء البلاد.

أ ـ أحد علماء هذه المنطقة يصف النشاط الثقافى بالقرويين

في القرن التاسع الذى يمثل قمة الجمود السياسي نلاحظ مظاهر للنشاط الفكرى، فهذا علي ا بن ميمون الغمارى أحد علماء هذه المنطقة (ت : 917هـ) (348) يصف الحياة الثقافية بالقرويين في هذه الفترة فيؤكد أن الحياة الفكرية كانت نشيطة.

ومن خلال وصفه للدراسة بالقرويين في هذا العصر، نستفيد أن الحياة الفكرية استمرت تشق طريقها، ونستفيد كذلك أن مواد الدراسة كانت معتددة وذات شعب شتى، ومستويات مختلفة.

ومن أهم المواد الدراسية في ذلك الوقت الفقه، والنحو، والأصول والتفسير، والحديث وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، والحساب، والطب، والهيئة.. إلا أن الدراسات الفقهية كانت محط عناية كبيرة، وكانت تخصص لها مجالس مختلفة ومستويات متعددة.

---

348) تأتي مصادر ترجمته بحول الله في مبحث قضاة شفشاون، ص : 329.

و يستفاد من علي ا بن ميمون أن الدراسة كانت تعتمد على حفظ النصوص المختصرة، والجامعة لاطراف المادة، وكان عمل المدرس هو الشرح، والتعليق والتنظير، والمقارنة، وجل مواد الدراسة كانت لها - مستويات متعددة، بداية وتوسط، فتوسع وتدقيق، وكانت الغاية هي الوصول إلى الفهم الدقيق، مع تحصيل المسائل العلمية تحصيلا يتسم بعمق الإدراك، والقدرة على البيان والوضوح، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الإحاطة بجوانب الموضوع ومحاولة التعرف على كل ما قيل فيه، مع التوسع في الشروح والتعليقات.

ومن أجل الوصول إلى هذه الأهداف كان الطالب يجد ليله ونهاره ويعمل بمختلف الوسائل حتى ينتقل من مستوى إلى مستوى أعلى منه. وكان تعدد المستويات يساعد الطالب على اختيار انسب مستوى يلائمه، وهو أثناء كل ذلك يحاول جمع شتات المواد التي يعتني بها، ويكثر من حفظ النصوص ومن الرجوع إلى المصادر والمراجع، محاولا الوصول إلى الإدراك العميق والفهم الدقيق.

وهكذا كانت الحياة نشيطة بالرغم من الضعف السياسي المتجلى في التنافس والتطاحن على السلطة، وفي الوجود الأجنبي بأهم سواحل البلاد، وعن هذا النشاط الثقافي الذى ألمحنا إليه يحدثنا أ بو الحسن على ا بن ميمون فيقول عن دراسته بفاس، التي كانت تتميما لدراسته بجبال غمارة :

((فلما أتيت إلى فاس وجدتها روضا من رياض الجنة وذلك على أيام المريني الشيخ ابن أبي زكرياء (محمد الشيخ الوطاسي ت 910هـ) رحمه الله. وبارك في ذريته (349). وكان في ذلك الزمان الرجال الأفاضل من العلماء قراءة وفهما...)) (350).

وبعد هذا يذكر أسماء مجموعة من الشيوخ الكبار. ويذكر المواد التي درسها عليهم فيقول : «فأما القراءة فالشيخ الأستاذ المصمودى (ت 912هـ). والأستاذ أبو بوقوين (351) والأستاذ المجاصي. والشيخ الولي أبو الفرج الطنجي (ت : 889هـ) (352) والأستاذ الهبطي (تـ : 930 هـ) (353) والأستاذ الزجني (تـ : 916 هـ) (354) والخراط (355) والدقون (تـ : 920 هـ) (356) والبرذعي (تـ : 920 هـ) (357).

349) الذي خلف محمد الشيخ الوطاسي هو ولده محمد الشيخ الملقب بالبرتغالي (910 هـ - 931 هـ) وعلى هذا (فرسالة الاخوان) التي هي مصدر هذا النص ألفت بين سنة 910 هـ وسنة 917 هـ التي هي سنة وفاة المؤلف علي بن ميمون.

350) (رسالة الاخوان) للشيخ علي بن ميمون مخطوط : خ. ع. ر : 1780 د. ص : 67 واسمها الكامل : (رسالة الاخوان من أهل الفقه وحملة القرآن).

351) جاء ذكره في فهرس الشيخ أبي العباس أحمد المنجور، ذكره في شيوخ أبي عبد الله محمد بن غازي المكناسي (تـ 919 هـ) قائلا : ابن غازي عن الحباك، عن الأستاذ الصالح أبي داود سليمان (بويقر بن) فهرس المنجور ص : 17. ط : الرباط نشر الأستاذ حجي 1976م، حاولت قدر المستطاع إثبات تاريخ وفيات المتحدث عنهم في هذا النص، والإحالة على مصادر ترجمتهم.

352) أبو الفرج محمد بن محمد بن موسى الطنجي خطيب جامع الاندلس : الجذوة ج 1 : 243 ط الرباط ألف سنة من الوفيات : 151 و 269، ودرة الحجال ترجمته 601 ط القاهرة.

353) وهو محمد بن أبي جمعة الهبطي الصماتي صاحب وقف القرآن الكريم انظر ترجمته في كتاب جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي ج 2 وقد ذيلها بمصادر ترجمته.

354) عبد المومن الزجني تـ : سنة 916 هـ انظر : درة الحجال لابن القاضي ج : 2 : 401 : ط : القاهرة والجذوة : 448 : الرباط.

335) لم أعثر عليه.

هؤلاء كلهم وجدتهم حين أتيت إلى طلب العلم بفاس سادات، كان بعضهم فوق بعض...» وا بن ميمون يعترف أن هؤلاء كانوا أكبر منه سنا. وبأن عددا وافرا منهم كان يحضر دروس الأستاذ أبي عبد الله محمد الصغير (358) (ت : 887هـ) إلى أن يقول : «كل واحد منهم قائم على حاله يعلم في ناحية. فبعضهم جمع بين الفقه وعلم القراءة. وبعضهم فقهاء دون قراءة.

فأما الفقهاء القراء فالمفتي بن موسى الزمورى (ت : 896هـ) وا بن غازى (ت : 919هـ) المكناسي. وسعيد المكناسي. والهبطي المذكور ـ أي الصماتي (ت : 930 هـ).

أما الفقهاء فالورياجلي (ت : 894هـ) (359) والزواد. وموسى العربي. والحميدى : (ت : 894هـ) (360) وا بن علال القاضي

356) الجذوة : 1 : 132 : ط : الرباط النيل 88، السلوة : 3 : 248، الدرة : 1 : 92 ط الرباط، شجرة النور، 276 انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين للدكتور محمد حجي : 2 : 348.

357) أديب وفقيه أندلسي الأصل، أخذ عن ابن غازي : الجذوة : ص 606 ط. الرباط والدرة : ترجمة : 362. واسمه عبد الرحمن بن علي البرذعي الجدامي، وذكر أحمد الونشريسي في (إيضاح المسالك في مذهب الإمام مالك) بأنه ثاني إثنين ممن قرظا كتابه، ص : 421، بتحقيق الأستاذ أحمد الخطابي، ط : وزارة الأوقاف ، بفضالة : 1980.

358) انظر عنه : فهرس ابن غازي ص : 36 ـ 69 ط : الدار البيضاء 1979 تحقيق محمد الزاهي، والنيل 321 ودرة الحجال : 2 : 139 ط مصر : 1971.

359) هو من شيوخ ابن غازي ترجم له لصاحب الدوحة 24 ط. ح. ف. السلوة : 3 : 204 الدرة : 2 : 341 : ط الرباط. مجلة الاعتصام (المغربية) ع : 3 : سنة 76، وهو غير عبد العزيز الورياغلي (تـ 876 هـ) وخلط بينهما الأستاذ عبد الله كنون في ترجمته لابن غازي بمشاهر رجال المغرب عدد : 12 : ص : 18. وما بعدها، وله ترجمة هامة في الجذوة : 439.

360) قال في الجذوة : ص : 405 عبد الرحمن الحميدي الفاضل الإمام من أهل مدينة فاس توفي سنة : 894هـ / 1488م وقال في الدرة : (ليس هو من نسب عبد الواحد أي القاضي الحميدي المشهور ـ وإنما اتفقا في النسبة فقط ترجمة : 1015 ط : القاهرة : 1971م وترجمه صاحب النيل : 175.

حينئذ. والكزنائي (361) والزقاق (ت : 912هـ) (362) وابن أبي جمعة : (ت : 917هـ) (363) ومحمد بن ابراهيم. وابن عقدة الأغصاوى (ت : 911هـ) (364) وهؤلاء كلهم سادات معلومون. ودونهم في المقام والسن عدد كبير. ولم أذكر هنا إلا المشاهير في ذلك الزمان. من الفقهاء والقراء...)) (365).

وبعدما أعطانا قائمة بأسماء مشاهير العلماء. حسبما اسعفته به ذاكرته وهو بالصالحية بمدشق الشام - في العشرة الأولى من جمادى الثانية سنة : 915هـ - (366) أخذ يذكر المواد التي كان يدرسها عليهم. فقال : «كنت أحضر مجلس الأستاذ الصغير المذكور في مدرسة مصباح (367) في التفسير والالفية. وجر السطر. حسبما هو معلوم في اصطلاحهم. ومجلس في البرى والخرازى والضبط (368) ومجلس أبي الفرج الطنجي. ومجلس المصمودى

361) عمر بن عبد العزيز الجزنائي كان حيا سنة 900 الفقيه العيسوبي الفرضي الناظم الناثر... الجذوة : 495، والدرة ترجمة رقم : 1202.

362) أبو الحسن علي بن قاسم، ترجم له ابن القاضي في الجذوة : 476 / ط الرباط وصاحب الدوحة : 43 ط. ح. ف. والسلوة : 2 : 84 ونيل الابتهاج 211.

363) محمد ابن أبي جمعة الفقيه المدرس : درة الحجال : ج 2 ترجمة 621 النيل 332.

364) موسى ابن عقدة الاغصاوي انظر : الدوحة : 27، والجذوة : 347 ط : الرباط، ونيل الابتهاج : 343، توفي سنة : 911 هـ).

365) رسالة الاخوان من أهل الفقه وحملة القرآن لعلي ابن ميمون الادريسي مخ. خ. ع. الرباط رقم : 1780 د. ص 67.

366) نفس المصدر ص : 52.

367) المدرسة المصباحية تنسب إلى الفقيه مصباح اليلصوتي الزرويلي (تـ 750 هـ) يأتي التعريف به في الكلام عن اليلصوتيين، ص : 465.

368) البري : المقصود به : مؤلف أبي الحسن علي بن محمد الشهير بابن بري المتوفي سنة 730 وهو مؤلف في القراءات واسمه : الدرر اللوامع في قراءة نافع، والخرازي أي مؤلف مورد الظمآن في الرسم وهو لمحمد بن ابراهيم المعروف بالخراز وكان إمام القراء بفاس توفي سنة 818 هـ.

في الألفيــة والجروميــة (369) جــددت سلكــة علــي أبــي الفــرج المذكور بقالون ـ (المتوفى : (220هـ) ـ (370) وورش (371) ـ (ت : 197هـ) ـ وجددت باللوح على الأستاذ أبي العباس أحمد الزجني المذكور قبل، وقرأت عليه علم الوقت، ثم شرعت في درس المدونة (372) باللوح (373) فأول من استفتحت عليه الزقاق ـ أبو الحسن ـ رحمه الله، ثم انتقلت إلى أبي عبد الله ابن أبي جمعة المذكور قبل، ثم انتقلت إلى الشيخ الحميدى ولازمته

---

369) الالفية لمحمد ابن مالك ، ومقدمة ابن اجروم لمحمد الصنهاجي الفاسي (تـ 723 هـ).

370) أي بقراءة قالون، وهو عيسى بن ميناء القارىء النحوي، ولقب بقالون لجودة قراءته لأن قالون معناه الجيد في أصل وضعها، قرأ على نافع بن عبد الرحمن أحد القراء السبعة المتوفي سنة 169 هـ انظر (مناهل العرفان في علوم القرآن) لمحمد الزرقاني : 1 : 454.

371) هو عثمان بن سعيد المصري يكنى أبا سعيد ويلقب بورش لشدة بياضه رحل إلى المدينة وقرأ على نافع ختمات سنة 155 هـ ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رياسة الاقراء، وكان حسن الصوت جيد القراءة توفي سنة 197 هـ ويقول صاحب الشاطبية :

فاما الكريم السر في الطيب نافع ... فذاك الذي اختار المدينة منزلا
وقالـون عيسـى ثم عثمان ورشهم ... بصحبته المجـد الرفيـع تاثـلا

372) المدونة : لابن القاسم (تـ : 191 هـ / 807م) أبو عبد الله عبد الرحمن تلميذ الإمام مالك وعنه أخذ سحنون (تـ : 240 هـ / 854م) وهو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن سحنون التنوخي المالكي وصارت رواية سحنون هي الأساس للمدونة قال ابن خلدون (واتبع الناس مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة، وعكف أهل القيروان على المدونة، وأهل الأندلس علـى (الواضحة) و (العتبية) ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة المختلطة في كتابه المسمى (بالمختصر) ولخصه أيضا أبو سعيد البرذعي خلف تـ : 400 هـ ـ من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب... وكتب أهل إفريقيا عن المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي، وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم...) عن المقدمة : 338. ط بن شقرون. مصر.

373) المقصود بعبارة اللوح انه يكتب في اللوح القدر الذي يريد أن يستظهره من الكتاب ثم يعيد قراءته إلى أن يحفظه عن ظهر قلب، وفي هذا العصر شاعت الكلمة القائلة (من لم يستظهر النص فهو لص).

كثيرا. والله أعلم إني وصلت بالدرس للمدونة باللوح إلى النصف وختمت النصف الآخر بالكتاب..)) من خلال هذا النص ندرك مقدار الجدية التي كان يتحلى بها طالب العلم في ذلك الوقت، فهو ينتقل من حلقة إلى حلقة، ومن دراسة مادة إلى دراسة مادة أخرى، ومما يلفت النظر في هذا النص : أن المدرس الواحد يدرس لطلبته عدة مواد في جلسة واحدة، فهو عندما ينتهي من حصة يشرع في حصة أخرى، وفي مادة جديدة. وهكذا كان يستغرق المجلس الواحد عدة ساعات..

وإلى جانب المواد السالفة، يذكر علي ابن ميمون مواد أخرى فيقول : ((ولزمت مجلسه ـ أى الحميدى ـ في الموطأ (374) وكنت قارئه، وكذا لزمت مجلسه في المدونة والرسالة (375) والعمدة في الحديث، (376) مدة من الزمن، إلى أن من الله علي

374) (الموطأ) كتاب للإمام مالك ابن أنس، إمام المذهب المالكي، وإمام دار الهجرة (المتوفي 179هـ) (للموطأ) روايات كثيرة أشهرها : رواية يحيى بن يحيى الليثي المغربي الأندلسي، وبها أخذ المغاربة، وهذه الروايات هي عبارة عن نسخ لتلامذة الإمام مالك، ومن الروايات المتداولة أيضا رواية محمد بن الحسن الشيباني (تـ : 189 هـ). وللموطأ شروح متعددة، عد منها القاضي عياض في المدارك، أكثر من تسعين شرحا للفقهاء المالكية دون غيرهم، وللحافظ ابن عبد البر وحده ثلاثة شروح أطولها وأشهرها (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) (وكتاب الاستذكار) وكتاب (التقصي في مسند حديث الموطأ ومرسله) والتمهيد طبع منه بالمغرب لحد الآن عشرة أجزاء بعناية جلالة الحسن الثاني نصره الله.

375) لأبي محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة 386 هـ وهي رسالة في فروع الفقه المالكي واعتنى بها فقهاء المالكية غاية العناية ولها عدة شروح.

376) لعبد الغني المقدسي (تـ : 600 هـ) شرحها محمد بن علي ابن دقيق العيد (تـ : 702 هـ) وخرج هذا الشرح عنه الوزير ابن الأثير الحلبي (تـ : 699 هـ) وشرحها من المغاربة أحمد بن يوسف الفاسي (تـ : 1021 هـ) 1612م والعمدة كتاب ذكر فيه مؤلفه أهم الأحاديث المتعلقة بالأحكام.

بمعاني الرسالة في ذلك الوقت، حتى كنت أحسها بقلبي كما تحس الأشياء الحسية. ـ شكرا لله ـ (377) ولزمت مجلس العشوشي في مجلس الحساب، وكذا مجلس أبي النور الشاهد (378) ثم انتقلت ولزمت مجلس أبي عبد الله المكناسي الحيسوبي (ت : 918هـ) قاضي الجماعة (379) يومئذ قبل أن يتولى القضاء في فرائض الحوفي ـ (ت : 588هـ) ـ (380) وتلخيص ابن البناء (381) (ت : 721هـ) إلى أن فتح لي في ذلك ما لم يفتح على كثير من أبناء جنسي، وقرأت عليه في علم الوثائق (382) وشيئا من العمدة في الحديث، وقرأت عليه والله أعلم نظم ابن الياسمين (ت :

---

377) يستفاد من هذا الكلام : أن العناية برسالة ابن أبي زيد كانت ما تزال عناية كبيرة في هذه الفترة، وستقل هذه العناية فيما بعد.

378) لم أعثر على ترجمته.

379) محمد بن محمد بن عبد الله اليفراني الشهير بالمكناسي قاضي الجماعة ومفتي فاس وصاحب كتاب المجالس، وفي الجذوة محمد بن عبد الله، وفي لقط الفرائد محمد بن علي بن محمد توفي سنة 917 هـ.

380) أبو القاسم الحوفي الاشبيلي القاضي الزاهد كان يتعيش من صيد السمك الفرضي اختصرها ابن عرفة التونسي (تـ : 803 هـ).

381) ابن البناء : أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي (تـ : 721 / 1321) ترجم له في (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) جـ : 1 : 278) والاعلام للمراكشي : 2 : 202 ط الملكية بالرباط.

ولابن البناء مؤلفات كثيرة منها (تلخيص في عمل الحساب)شرحه بنفسه وهو المقصود هنا ومنها المؤلف الآتي ذكره عند ابن ميمون ـ منهاج الطالب في تعديل الكواكب السبعة).

382) علم الوثائق في الفقه الإسلامي هو : علم يرشد الموثق إلى كيفية كتابة الوثيقة بكيفية محكمة في جميع مجالات التوثيق القانوني وهذا هو المقصود هنا بالوثائق، وللوثائق مدلول آخر طغى على المدلول الفقهي، وهو الوثيقة التاريخية التي لها اليوم معاهد خاصة بها وأقسام بكليات الجامعات والمدارس الخاصة. وللدول المتحضرة عناية كبيرة بجمع الوثائق التاريخية منذ الثورة الفرنسية، ابتداء من سنة 1796م.

601هـ) (383) في الجبر والمقابلة)) ثم يقول : وقرأت على أبي عبد الله محمد بن ابراهيم المذكور الوثائق للفشتالي (384) وقرأت عليه السيرة لابن اسحاق (385) وحضرت غير مرة مجلس ابن عقدة (386) في تلخيص ابن البناء. وقرأت عليه في التعديل (منهاج الطالب في تعديل الكواكب السبعة) لابن البناء. وحصلت ذلك على ما ينبغي. وحضرت مجلس المفتي المواسي المذكور في البرهانية (387) في التوحيد. إلى غير ذلك مما حضرت فيه)) (388).

ب ـ ما يستفاد من هذا الوصف

ومن عرض ابن ميمون لما درسه بالقرويين نرى أن مواد الدراسة كانت متعددة ومتنوعة فهو قد درس الموطأ في الحديث للإمام مالك. والعمدة في الحديث لعبد الغني المقدسي (ت : 600هـ) ثم رسالة ابن أبي زيد أبي محمد عبد الله القيرواني

---

383) ابن الياسمين هو عبد الله بن محمد بن حجاج الرياضي الحيسوبي كان من خدام يعقوب المنصور الموحدي توفي ذبيحا بمراكش سنة 601 هـ. وهو صاحب كتاب العدد. وله أرجوزة في الجبر والمقابلة.

384) الفشتالى : عبد الملك بن شعيب الفقيه الموثق القاضي توفي بفاس سنة 706هـ / 1306م).

385) محمد ابن اسحاق بن يسار المدني ثم العراقي إمام في المغازي والسير ادرك الصحابي الجليل أنس بن مالك، وابن المسيب، وأبا سلمة بن عبد الرحمن، وروى عن أبيه وعميه، وعن عطاء ابن رباح وعكرمة والزهري... وروي عنه كثيرون توفي سنة : (152 / 769م) وفي طليعة الآخذين منه : عبد الملك بن هشام المتوفي (216 / 834م).

386) مر في تعليق : 364.

387) البرهانية لأبي عمرو عثمان بن عبد الله القيسي القرشي المعروف بالسلاليجي (ت : 564 هـ / 1168م) والبرهانية في علم الكلام.

388) (رسالة الاخوان) المصدر السالف.

(ت : 386هـ) ثم درس الحساب والفرائض ودرس نظم ابن الياسمين في الجبر والمقابلة.

وإذا امعنا النظر في النص المتقدم نجد أن الاهتمام كان ينصب على ثلاث مواد رئيسية :

1 ـ العلوم القرآنية من تفسير وقراءات، وضبط، ورسم وغير ذلك.

2 ـ المواد الفقهية : فقه العبادات، وفقه المعاملات والأحكام وما يتعلق بمهمة القضاء والشهادة، وما إلى ذلك من أقوال الفقهاء في مختلف أبواب الفقه وموضوعاته.

3 ـ العناية بقواعد اللغة العربية واشتقاقاتها، ونحوها، وصرفها، وما إلى ذلك من اعراب، ومعاني وبيان وبديع.. (389).

وكانت دراسة التفسير ميدانا لتطبيق كثير من العلوم؛ لأن المفسر كان يعتني ببيان أوجه القرآت، وبيان أوجه الإعراب، وتقرير القواعد البلاغية والبيانية، واستنباط الأحكام الفقهية...

وكانت هناك عناية بدراسة الحديث النبوى كالعمدة في الحديث لعبد الغني المقدسي، والموطأ للإمام مالك وصحيحي

389) وكانت دراسة اللغة العربية تجر إلى دراسة الآداب العربية شعرا ونثرا لأن مجال تطبيق القواعد المدروسة كان هو النص الأدبي وكان للأدب شيوخه وأساتذته وذكر لنا علي ابن ميمون من بينهم : الشيخ عبد الرحمن البرذعي أديب فاس في هذه الفترة.

الأمامين : (البخارى (ت : 256هـ) ومسلم ت : 261هـ) وأحيانا سائر الكتب الستة (390).

ولقد لاحظنا من قبل العناية بتدريس الوثائق، والفرائض، والحساب، والجبر، والمقابلة وعلم الفلك...

وإلى جانب هذه المواد كانت تدرس مواد أخرى : كالأدب والتصوف.

وحظيت الدراسات الصوفية في هذه الفترة بعناية كبيرة حيث كان للتصوف في هذا العهد سوق رائجة وكانت كتبه تدرس بالقرويين، مثل : الأحياء للغزالي (ت : 505هـ) ومختصر الأحياء للبلالي (ت : 749هـ) (391)، والحكم لابن عطاء الله الاسكندرى (ت : 709هـ) والمباحث الأصيلة لابن البناء السرقسطي (392) والتشوف إلى رجال التصوف للتادلي (ت : 627هـ).

وهذا النشاط الثقافي الذى عرفته البلاد في هذه الفترة الحالكة من تاريخنا الوطني يسجل بكل اعتزاز وفخر حرص

---

390) وهذه الكتب هي : الجامع الصحيح للإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وسنن النسائي وسنن ابن ماجة، ويضع بعضهم الموطأ بدل سنن ابن ماجة، ويلحق عادة بهذه المجموعة : مسند الإمام أحمد.

391) البلالي بكسر الباء هو : شمس الدين محمد البلالي العجلوني، لازم أبا بكر الموصلي، وتميز في التصوف ولازم النظر في الأحياء بحيث كاد يأتي عليه حفظا، وصارت له به ملكة قوية واختصره اختصارا حسنا... الضوء اللامع (حرف الميم)، انظر تعليق : 279.

392) ابن البناء السرقسطي وهو صاحب (المباحث الأصيلة عن جملة الطريقة الصوفية منظومة في : 473 بيت : اعتنى بشرحها كثير من أعلام الصوفية.

المفكرين والمثقفين على المضي في أداء رسالتهم بالرغم من المثبطات والمعوقات.. التي كانت تهيمن على الكيان السياسي.

والحقيقة أن القرويين كانت تمثل - في هذه الفترة بالذات - مركز اشعاع ثقافي، وكانت أقاليم شمال المغرب نظرا لعوامل مختلفة، وأسباب متعددة تغذى القرويين بالطلاب والفقهاء، وتتجاوب مع جوها الثقافي تجاوبا تاما.

ولعل أهم أسباب ذلك يتجلى فيما يلي :

1 - قرب القرويين لمختلف جهات هذه المنطقة، وهذا عامل جغرافي له أهمية.

2 - وجود عناصر أندلسية وعربية سكنت هذه المنطقة منذ الفتح الإسلامي، وهذه العناصر كانت على اتصال دائم بمدن الأندلس وبفاس في نفس الوقت.

3 - المنطقة كانت بمثابة جسر يربط داخل المغرب بالمدن والقرى الأندلسية، وهذا كان من شأنه أن يساعد على وجود مراكز إشعاع مثل سبتة وطنجة والقصر الكبير، ومدارس جبال غمارة التي سنتحدث عن بعضها فيما بعد.

4 - بعد القرن الرابع الهجري تعربت هذه المنطقة تعريبا يكاد يكون كاملا وبخاصة بعد ورود عدد من الأسر الإدريسية عليها، وكان من شأن ذلك أن توثقت الصلة بين فاس وهذه المناطق.

5 ـ أن المنطقة المتحدث عنها عرفت بعد سقوط سبتة ثم القصر الصغير وطنجة وأصيلا. عرفت موجة جديدة من مهاجري هذه الثغور وذلك مما متن العلاقة بين هذه المنطقة وفاس التي تحتضن (جامع القرويين).

هذه العوامل وغيرها جعلت هذه المنطقة وثيقة الصلة بالقرويين وخلقت تجاوبا فكريا عبر العصور بينهما. وكان من نتائج ذلك أن ظهرت شخصيات بارزة من هذا الاقليم في رحاب القرويين وبين علمائها وأعلامها اللامعين مثل :

- أبي الحسن الصغير الزرويلي اليلصوتي (ت : 719 هـ)
- وأبي الحسن علي الصرصري (كان حيا سنة : 750 هـ)
- وأبي الضياء مصباح الزرويلي اليلصوتي (ت : 750 هـ)
- ومحمد النالي المسفر (911 هـ)
- وعلي بن ميمون (917 هـ)
- وأبي الفرج الطنجي (889 هـ)
- وابن العقدة (ت : 911 هـ)
- وعلال الحاج شيخ الإمام أحمد المنجور (ت : 981 هـ)

وغيرهم...

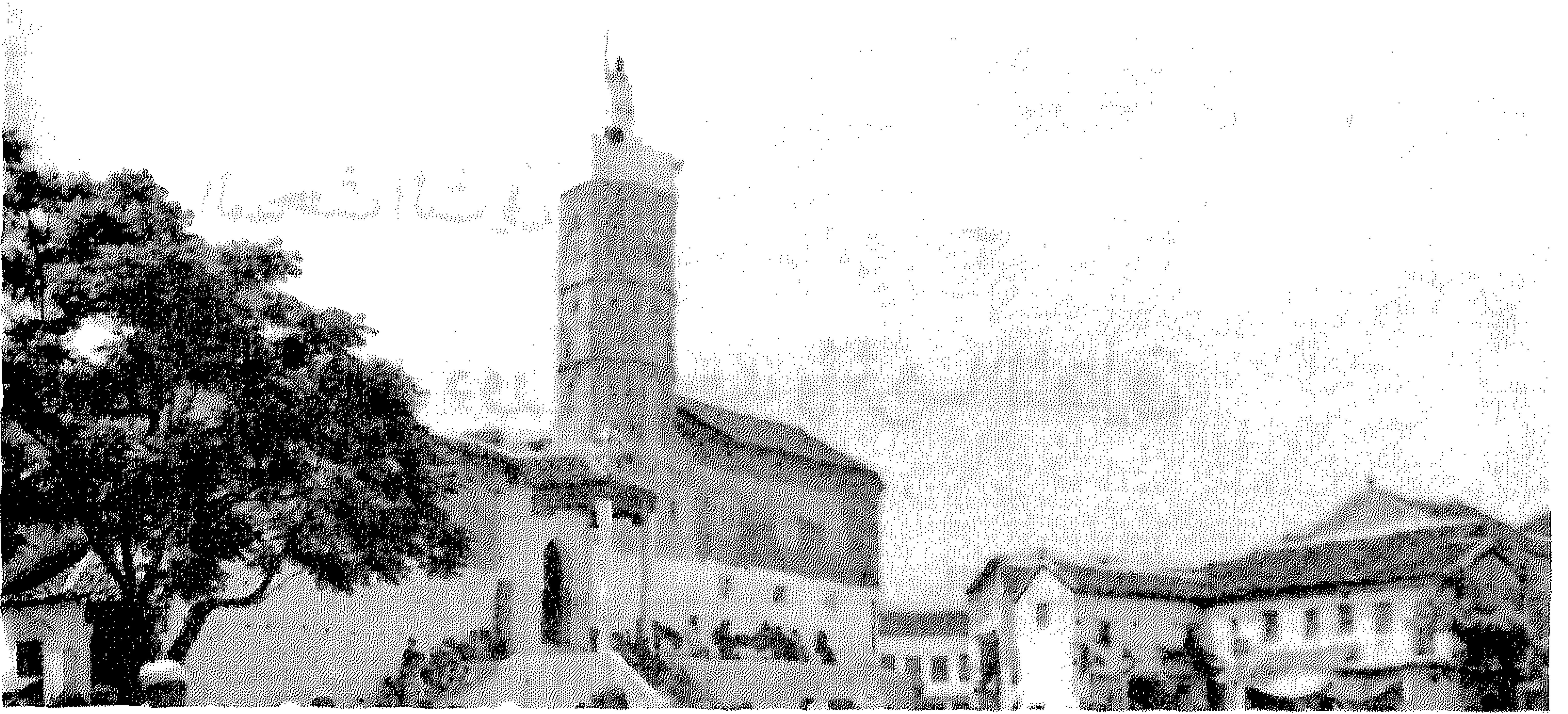
وسنلاحظ فيما بعد. أن المواد التي كانت تدرس بالقرويين كان جلها يدرس بمعاهد جبال غمارة، ومن ضمنها معاهد هذه المنطقة المتحدث عنها.

وسيتضح من خلال التعرف على الصلات التي كانت تربط بين المثقفين في هذه المنطقة وبين إخوانهم بجامعة القرويين. أن الحياة الفكرية بشفشاون وأحوازها، كانت وثيقة الصلة بالحياة الفكرية بفاس، التي كانت تمثل أهم مظهر من مظاهر الحياة الفكرية بالمغرب في هذا العصر.

المبحث الثاني :

دور المساجد وأثرها الثقافي

أ ـ وجود بعض المساجد بالمنطقة منذ زمن الفتح
ب ـ الدور الثقافي للمسجد.
ج ـ أشهر المساجد بالمنطقة
د ـ عناية بعض القضاة بالمساجد.



الباب الشمالي للمسجد الأعظم بشفشاون ومنارة المسجد وتبدو إلى جانب المنارة غرفة المؤقتين وهي مسقوفة بالقرميد.

للمسجد دور هام في حياة السكان ، لأنه من أهم مؤسساتهم الاجتماعية التي تكتسي حلة من القداسة. وكان المسجد بالنسبة إليهم : المكان المفضل الذي تنطلق منه أهم تصرفاتهم وحركاتهم..

أ ـ وجود بعض المساجد بالمنطقة منذ زمن الفتح

عرفت هذه المنطقة المساجد منذ عهد بعيد، حيث نجد بعض المساجد بها يعود تأسيسه الى زمن الفتح في القرن الأول الهجري، فمن ذلك مثلا مسجد موسى بن نصير (ت : 98 هـ/ 716م) (393) الذي يوجد وسط قبيلة بني حسان (اقليم تطوان)، وهو مسجد صغير يقع على هضبة من هضاب جبال الريف الغربية، ويرتفع موقعه عن سطح البحر بسبعمائة متر، وهذا المسجد ما يزال قائما الى يومنا هذا، ويسمى عند العامة مسجد الملائكة ـ تعظيما لقدره ـ ويسمى أيضا (الجامع البيضا) وهو يقع في منتصف الطريق بين شفشاون وتطوان وعلى بعد ثلاثين كيلومترا منهما معا وهو شمال شفشاون وجنوب تطوان.

ومسجد موسى ابن نصير هذا تحدث عنه : أبو الحسن علي مصباح الزرويلي اليلصوتي (ت : 1150 هـ/1737 م) (394) في كتابه سنى المهتدى (395) حيث زاره سنة 1124 هـ، وأعطى عنه

393) موسى ابن نصير (19 ـ 98 هـ) وأهم فترة قضاها أميرا بالمغرب مابين : (88 و 98 هـ).

394) انظره في بحثنا عن الأسرة اليلصوتية، ص : 455.

395) كتاب سنى المهتدى مخ. م. م. الرباط تحت رقم 596.

معلومات هامة. وكان الى ذلك التاريخ ما يزال يحمل اسم (مسجد موسى ا بن نصير) (396).

وعلى بعد نحو ستين كيلومترا لجهة الجنوب الشرقي يوجد مسجد (الشرافات) الذي ينسب تأسيسه إلى طارق بن زياد الليثي المغربي (397) حسبما ذكره ا بن عسكر في الدوحة (398).

ومسجد الشرافات مسجد قديم قام بدور هام في حياة السكان. لأنه لم يكن مسجدا للصلاة وكفى. بل كان معهدا ثقافيا ومركز اشعاع فكري. وفي منتصف القرن العاشر الهجري كان يقوم على هذا المسجد الشيخ أ بو العباس أحمد الحداد (399).

ب ـ الدور الثقافي للمسجد

استمرت سنة بناء المساجد منذ زمن الفتح الإسلامي، وقامت مساجد هذه المنطقة عبر العصور بوظائفها : الدينية والتثقيفية والاجتماعية... وبإزاء كل مسجد كان يوجد مكان خاص لتعليم الأطفال القراءة والكتابة. وتحفيظهم القرآن الكريم. وكانت (الجماعة) من أهل المداشر والقرى تعمل جهدها في

---

396) عن مسجد موسى ابن نصير بقبيلة بني حسان انظر بحثا عنه للأستاذ سعيد اعراب بمجلة دعوة الحق العدد السابع السنة الثامنة ص : 90.

397) طارق ابن زياد : أحد القواد الفاتحين ولي على طنجة من قبل موسى بن نصير سنة 89هـ واشتهر بفتحه للأندلس سنة 92 هـ / 711م كما اشتهرت خطبته البليغة في الآدب المغربي.

398) الدوحة : ص : ط م. ف.

399) ترجم له صاحب الدوحة ص : 18 : ط : ح. ف.

اختيار القائمين بوظائف المسجد والعناية به، وكانت لا تألوا جهدا في اختيار من يسهر على تحفيظ القرآن الكريم لأبنائها، وعلى تعليمهم القراءة والكتابة، وكانت الجماعة تتكفل - بروح تعاونية - بأداء واجبات من يقوم بهذا العمل، بل كانت تعمل في نفس الوقت على اختيار فقيه متمكن من أمور الدين ليقوم بوظيفة الخطابة يوم الجمعة في المسجد الجامع، وهذا الفقيه نفسه في غالب الأحيان كان يقوم بمهمة تدريس العلم للطلبة بالمسجد، وكان طلبة العلم يفدون على العلماء بالمساجد، ويسكنون حولها في مآو خاصة أعدت لسكناهم.

وبالمسجد كان الطلبة يتعلمون قواعد اللغة العربية، والأحكام الفقهية في العبادات والمعاملات، ويدرسون البلاغة والعروض والأدب، والحساب والتنجيم، والطب والتصوف... (400).

ومنذ عهد مبكر أصبحت مساجد جبال غمارة معروفة بوفرة طلابها، وفقهائها.

وفي القرن العاشر نجد بعض المساجد يقوم بدوره في التثقيف أحسن قيام، وكان ذلك امتدادا لما قامت به المساجد في القرون السالفة لا بجبال غمارة فحسب بل بمختلف جهات المغرب وبخاصة بالمناطق الجبلية (401) ففي هذه الفترة بالذات

---

400) سيأتي الحديث عن المواد التي كانت تدرس ببعض المعاهد الثقافية في هذه الفترة.

401) أكد موليبيراس في كتابه (المغرب المجهول) «انه تسود في أعماق الجبال المغربية حضارة حق هي ثمرة المبادىء القرآنية كما تتغلغل ثقافة فكرية مدهشة»(عن المعجم التاريخي للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله) (حرف الجيم).

نجد مسجد (تلمبوط) (402) شمال مدينة شفشاون يقوم بدور ثقافي هام بهذه النواحي، ومن أبرز شيوخ هذا المسجد الشيخ سليمان الملولي الزجلي القرشي الأصل (403) شيخ القراءات وعلوم القرآن في عصره، والشيخ عبد الله القسطالي الأندلسي الأصل (404) المبرز في التفسير وعلوم القرآن، والشيخ الحسن بن يوسف بن عرضون (405) صاحب النوازل الفقهية المنسوبة اليه، وأخوه الشيخ أبو حفص عمر بن يوسف بن عرضون (406).

وفي نفس هذه الفترة نجد مسجد مدشر (سعادة) بقبيلة بني حسان (407) وهو مسجد كان يقوم عليه الشيخ أبو القاسم بن خجو الحساني المفتي المشهور (408) وبه تخرج عدد من أسرة ابن خجو كعلي ابن خجو والد الشيخ أبي القاسم، والحسن ابن

---

402) قرية شمال مدينة شفشاون، تبعد عنها بنحو 25 كيلومترا وهي مركز قيادة قبيلة بني زجل الغمارية.

403) أبو الربيع سليمان الملولي الزجلي يقول عنه أحمد ابن عرضون في كتابه مقنع المحتاج «أستاذ بلدنا وإمام جيلنا الناسك سيدي أبي الربيع سليمان الزجلي الملولي القرشي رحمه الله تعالى» (مقنع المحتاج) مخ. خ. ع. ر 1026 ك ص 112.

404) انظر ترجمته : في الدوحة الناشر لابن عسكر : 23.

405) هو صاحب النوازل المنسوبة إليه، ووالد القاضيين المشهورين : أحمد ومحمد ابني عرضون، وكان الحسن هذا أحد علماء الجيل المبرزين في منتصف القرن العاشر الهجري عن نوازله ينقل الزياتي والعلمي والوزاني وغيرهم.. توفي بعد سنة 950 هـ.

406) هذا : أحد شيوخ القاضي أحمد ابن عرضون (ت : 992 هـ) ذكره مرارا في تآليفه أنظر مثلا رسالة التوادد والتحابب (م. ع تطوان ر 826) ومقنع المحتاج في الفصل الذي عقده للكلام عن تعليم الأطفال. ص : 377.

407) قبيلة بني حسان تقع بين شفشاون وتطوان وهي قريبة من شفشاون ومدشر سعادة، من فرقة (بني امهارون) من هذه القبيلة وهو قرب الحدود بين قبيلة بني حسان وقبيلة بني زجل.

408) انظر عنه دوحة الناشر ص : 13.

خجو اخوه، واختهما الفقيهة أمنة ابن خجو، وعلي ولد أبي القاسم وغيرهم...

ونجد كذلك مساجد بني جبارة (409) و(بني زرويل) كالمسجد الجامع (بغرانقاضي) والمسجد الجامع بمدشر بني عاصم، وهذه بالأخماس السفلى ومن تلك المساجد تخرج عدد وافر من أفراد الأسرة اليلصوتية (410) وغيرهم...

ج ـ أشهر المساجد بالمنطقة

ومن أشهر المساجد مسجد قرية (الخزانة) تلك القرية التي اشتهرت بكثرة فقهائها ووفرة طلابها... (411).

وبالإضافة الى هذه المساجد بأحواز مدينة شفشاون كانت هناك مساجد داخل المدينة نفسها تقوم بدور التثقيف والتوجيه، وفي طليعتها المسجد الجامع الذي أسسه بنو راشد في أوائل القرن العاشر الهجري والذي جعلوه بجانب مركز حكمهم بالقصبة وهو في مكان مرتفع يطل على المدينة من سائر الجهات، ويشتمل على أربع بلاطات مسقوفة بالقرميد الأحمر تعتمد على أساطين

---

409) (بني جبارة) فرقة من الأخماس السفلى كان بها عدد وافر من العلماء خلال القرنين التاسع والعاشر ذكر بعضهم العلامة أبو القاسم بن خجو عرضا في إحدى فتاويه بنوازل العلمي : ج 2 : 110.

410) الأسرة اليلصوتية ارجع إلى البحث الخاص بها في نهاية القسم الثالث ص : 451.

411) (الخزانة) تقع على بعد نحو عشرين كيلومترا شرق شفشاون قرب (مركز قيادة بـاب تازة) وبها يوجد ضريح سيدي مولود، من أبناء يلصو العثماني الذي سيأتي الكلام عنه في مبحث اليلصوتين.

تربط بينها عقود من نصف دائرة، وله اربعة ابواب وهي موزعة على الجهات الأربع منها الباب الشرقي الذي يسمى (باب الجنائز) وهو ينفتح على صحن متسع به بعض أشجار النارنج (412).

أما الباب الجنوبي فينفتح على صحن المدرسة المجاورة للجامع وهذه المدرسة من تأسيس محمد بن راشد (413). والمسجد الجامع بشفشاون عرف نشاطا فكريا متواصلا منذ تأسيسه وكانت مجموعة من العلماء والفقهاء تدرس به مثل : القاضي علي ابن ميمون (ت : 917 هـ/ (414) ومثل القاضي علي مصباح السريفي والد صاحب الدوحة، والذي شغل منصب القضاء بشفشاون (415) والقاضي محمد بن أحمد ابن الحاج (416) والمستشار علي ابن الشريف العلمي (417) والقاضي أحمد ابن الحسن بن عرضون (ت : 992 هـ) وأخيه القاضي محمد بن الحسن بن عرضون (ت : 1012 هـ) وغيرهم...

412) عادة غرس الأشجار بصحون المساجد، من تأثير الأندلسيين على المدينة، وهي من بقايا مذهب الإمام الأوزاعي الذي انتشر بالأندلس قبل المذهب المالكي وبنوازل العلمي في جواب عبد الله القوري عن غرس الأشجار بالمسجد قوله قال ابن عبد البر في تاريخه : وفي أيام صعصعة غرست الشجرة في الجامع وهو مذهب الأوزاعي والشاميين، ومالك وأصحابه يكرهونه. ثم نقل العلمي فتوى أحمد الونشريسي.
في هذا الموضوع انظر : نوازل العلمي ج : 2 : 72 في باب مسائل الحبس.

413) حوالات الجامع الأعظم بشفشاون المجلد الأول : 16 الوثيقة 18 ص 61 والوثيقة 59.

414) ترجم له صاحب الدوحة ص : 25 : ط. ح. ف وانظر ترجمتنا له بمجلة دعوة الحق العدد : 8 : السنة : 16 نونبر 74. ص : 165.

415) تقييد عن تاريخ شفشاون للسيد الصادق بن ريسون.

416) القاضي بن أحمد ابن الحاج، انظره : في قضاة شفشاون، ص : 330.

417) مرآة المحسان في ترجمة أحمد بن علي العلمي ص : 170.



مسجد سيدي أبي خنشة بحي الخرازين
الباب الشرقي لمسجد سيدي (أبي خنشة) وتبدو المنارة وإلى جانبها بعض الغرف التي كانت في بعض الفترات مأوي لطلبة العلم، وبخاصة في القرن العاشر الهجري.

وبالإضافة الى الدور التثقيفي الذي كان يقوم به المسجد الجامع بشفشاون كانت مساجد أخرى بالمدينة تقوم بنفس الدور تقريبا منها : مسجد (أبي خنشة) (418) الذي كانت تعقد به حلقات للتدريس، وكانت به بعض المآوى للطلبة وممن كان يسكن بمآوي مسجد سيدي أبي خنشة في النصف الأول من القرن العاشر هـ الشيخان الاخوان عبد الرحمن (ت 950 هـ) وعلي (ت : 963 هـ) ابنا ريسون (419) وهذا المسجد، هو مسجد حي الخرازين بشفشاون، ومثل (مسجد الأندلس) الذي بني بالحي الذي كانت تسكن به الجالية الأندلسية شمال المدينة.

ومسجد (حي الصبانين) وكانت هذه المساجد تتوفر على مكتبات علمية . كمكتبة (مسجد الجامع الكبير) (420) ومسجد حي الأندلس (421) اللذين كانا يتوافران على مكتبتين علميتين تضمان نفائس الكتب.

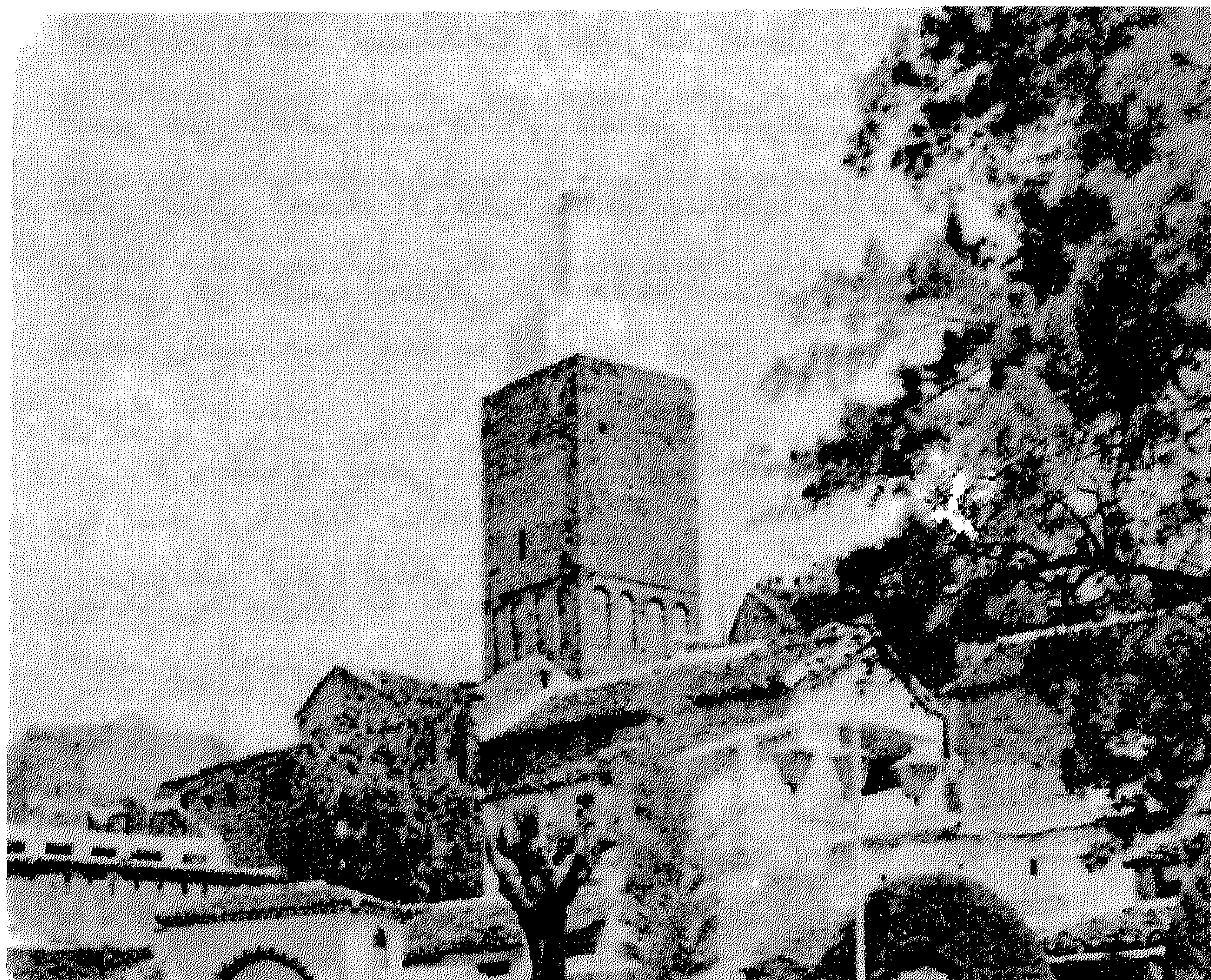
---

418) مسجد سيدي أبي خنشة يقع حاليا وسط مدينة شفشاون، وقديما كان بالجنوب الغربي منها، وكان هذا المسجد يتوفر على صحنين شرقي وعربي، وكلاهما كانت به بعض الأشجار، وكان بجانب الصحنين بعض المآوي لسكنى الطلبة، وكان بالصحن الغربي فواره رخامية مستديرة للوضوء تظللها شجرةتين كبيرة تكاد تظلل الصحن كله.
وفي الإصلاح الأخير دخل الصحن الغربي في المسجد ولم يبق به إلا الصحن الشرقي ومسجد أبي خنشة يتوفر على أوقاف كثيرة ومتنوعة وهو أوفر مساجد شفشاون أوقافا.
(انظر المجلد الثاني لحوالات مسجد سيدي أبي خنشة بنظارة الأوقاف بشفشاون).

419) الدوحة : ص : 15 ط. ح. ف.

420) في المبحث الذي خصصه الأستاذ سعيد اعراب للحديث عن (الجامع الكبير بشفشاون) تحدث عن خزانة كتب هذا الجامع، وعن عادة وقف الكتب عليها (دعوة الحق) العدد الأول السنة السادسة ص : 28.

421) عن خزانة مسجد حي الأندلس انظر كناشة القاضي عبد الكريم الحضري الشفشاوني بالمكتبة العامة بتطوان تحت رقم : 193.



صورة منارة جامع حي الأندلس

وعلى الجملة فدور المسجد كان دورا هاما في حياة السكان : دينيا، وثقافيا واجتماعيا.

ونظرا للدور الهام الذي كان يقوم به المسجد في الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية... تنافس الناس في التبرع على المساجد، ووقف الممتلكات والعقارات عليها، وكانت تسند مهمة السهر على أوقاف المساجد الى القاضي الشرعي، وكان القاضي هو الذي يتولى احصاء الأوقاف وضبط مداخلها والإشراف عليها لأن القاضي هو النائب الحقيقي عن خليفة المسلمين.

د ـ عناية بعض القضاة بالمساجد

ونظرا لوفرة أوقاف مساجد شفشاون وأحوازها، عمل القاضي أحمد بن الحسن بن عرضون، على ضبطها وتنظيم حوالاتها ضبطا محكما، وأفرد لها ديوانا خاصا بها، وظل القاضي أحمد بن عرضون حريصا على شؤونها، وضبط مداخيلها الى أن توفي سنة 992 هـ وخلفه أخوه محمد في منصب القضاء بشفشاون وأحوازها فسار سيرته في الأوقاف والحفاظ عليها والعناية بالمساجد.

وفي موضوع العناية بأوقاف مساجد شفشاون وأحوازها نقرأ الوثيقة التالية : «الحمد لله نسخة سؤال بخط الفقيه محمد مخشان (ت : 1042) (422) وعقبه جواب بخط الفقيه سيدي العربي بن

422) ترجم له محمد الصغير الافراني في الصفوة ص : 152 ط. ح. ف. ومحمد الحضيكي في الطبقات في باب محمد.

يوسف الفاسي (ت : 1052 هـ) ونصه «الحمد لله يتفضل سيدنا القدوة سيدي العربي بالجواب، وهي أن مسجدين أوقاف كل واحد منهما مدون بخظ القاضي المبرز في العدالة والفضل، وهو سيدي أحمد بن الحسن بن عرضون رحمه الله، ثم إن ناظرا تولى النظر على المسجدين في زمانه فجمع أوقاف المسجدين، وجعل يصرف الغلة عليهما من غير تمييز، بل كلما احتاج المسجد أو أحدهما يأخذ من مجموع الغلتين، ثم صرف ذلك الناظر في دولة القاضي المذكور، وتولى آخر، واستمر على ما استمر عليه الناظر قبله بقية حياة سيدي أحمد المذكور، ثم مدة أخيه سيدي محمد رحمه الله الى قرب انقضائها ومات الناظر الثاني، والغلات مجموعة تصرف على ما ذكر، وخزن الغلات كلها في بيت في حرم أحـد المسجدين طول المدة، وقدرها ما يقرب من ثلاثين عاما، ثم مات سيدي محمد رحمه الله، وجعل بكل مسجد ناظر، وأخذ ديوان كل مسجد ناظره، والجميع بخط سيدنا المذكور - أي القاضي أحمد بن عرضون - وقد تقرر ضبطه رحمه الله للأوقاف وغيرها، حتى أنه لم يدع وقفا من أوقاف العمالة الشفشاونية حاضرة وبادية إلا دونها، وجعل عليها عاملا يطوف عليها مدة دولته احتراسا من الضياع... الخ (423).

وكلام المستفتي ما يزال طويلا، لأنه بين (للمفتي) (النازلة) بكامل الدقة والوضوح، ولا شك أن تلك الإيضاحات ألقت أضواء

423) ملحق الجزء الثاني لحوالات المسجد الأعظم بشفشاون ص : 176.

على مقدار اهتمام القاضي - في النظام الإسلامي - بقضايا الأوقاف، والتدقيق في شأنها، والحرص عليها، وعلى غلاتها وفوائدها... كل ذلك حفاظا على رسالة المسجد، وعلى الدور التثقيفي الذي يقوم به في المجتمع الإسلامي.

وفي نهاية الوثيقة جاء جواب العلامة المفتي أبي حامد الفاسي هكذا : «المرسوم في ديوان القاضي العالم العدل الثبت الموثوق به رحمه الله، أحق بأن يعمل عليه، ولا يعارض ببينه...» (424).

وهذه الفتوى زيادة على المعلومات التاريخية المستفادة منها، تدلنا بكيفية واضحة، على مقدار العناية بأوقاف المساجد التي هي في الحقيقة عناية بالمساجد نفسها لأن المسجد كلما اتسعت مداخله، الا واتسعت مرافقه، ونشطت وظائفه...

وكان القاضي - في غالب الأحيان - بحكم وظيفته، وبحكم مركزه الاجتماعي وبحكم كونه من العلماء... كان هو المسؤول الأول عن الأوقاف التي تصان بها المساجد.

ولذا رأينا الوثيقة السالفة تثني على عمل القاضي أحمد بن عرضون في هذا المجال، لأنه بواسطة الأوقاف تصان الحياة الفكرية والثقافية، وسنرى فيما بعد، أن القاضيين العرضونيين لم ينقطعا عن التدريس مدة توليهما للقضاء بشفشاون.

---

424) نفس المصدر.

ونستخلص من هذا أن المسجد كان مؤسسة تقوم بوظائف هامة في حياة الناس، وكان في طليعة هذه الوظائف، الوظيفة الثقافية.

وإلى جانب اهتمام القاضي بأوقاف المساجد كانت الهيئة العلمية في كل جهة من جهات العالم الإسلامي، لها اهتمام خاص بالمساجد، لأن المساجد في الإسلام، هي مصدر الإشعاع الفكري والثقافي والحضاري...

ومساجد شفشاون لعبت دورا فعالا في تنشيط الحركة الفكرية بالمدينة، كما سنلاحظه من خلال موضوعات هذا البحث.

المبحث الثالث :

الحياة الثقافية بمدينة شفشاون

أ ـ وجود بعض الشخصيات الثقافية بالمدينة
ب ـ المدينة تعرف نشاطا ثقافيا في الفترة الأولى من حياتها.
ج ـ العلماء الزوار.

من المعلوم أن شفشاون أسست في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري (1471/876) وأسست في مكان حصين قصد إيواء أسر المجاهدين وقصد التمكن من صد الغزو البرتغالي الذي كان يهدف الى التوغل نحو داخل البلاد بعد ما احتل أهم ثغورها.

و بعدما أسست المدينة للغاية المذكورة، أصبحت في حاجة الى مرافق ووظائف : اجتماعية، واقتصادية، وإدارية، ودينية، وقضائية... وما الى ذلك من المرافق التي تتطلبها مدينة ناشئة، وكان أول ما أنشىء من ذلك دار الحكومة، أي القصبة، أو دار الإمارة - وانشئت الى جانبها دار القاضي، ودار الكاتب، ثم أسس المسجد الى جانب كل ذلك.

وأصبحت المدينة بالرغم من طبيعة موقعها الحصين أصبحت تتطلب وظائف مختلفة في ميادين شتى من ميادين الحياة...

أ - وجود بعض الشخصيات الثقافية بالمدينة

سبقت الإشارة الى شخصيات علمية وثقافية كانت موجودة بالمدينة منذ التأسيس الأول مثل : أبي الحسن علي بن عمر بن مصباح ابن عسكر (425) الذي تقلد منصب القضاء بالمدينة في الفترة الأولى من حياتها، ومثل علي ابن ميمون الإدريسي الحسني الذي كان أول كاتب رسمي مع الأمير علي ابن راشد، والذي ما زالت داره بشفشاون تحمل اسم دار الكاتب بن ميمون

425) جاء ذلك في تقييد عن تاريخ شفشاون للفقيه محمد صادق ابن ريسون.

(426) وقد ولى منصب القضاء بالمدينة لفترة من الزمن. (427) ومثل الفقيه المفتي أبي الحسن علي العلمي والد القاضي أحمد العلمي - وهو المعروف بعلي الشريف. جد شرفاء القوس بشفشاون. (428) ومثل القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن الحاج. الذي تولى منصب القضاء بشفشاون لفترة طويلة من الزمن (429). ومثل الحسن بن محمد العلمي. أخ السيدة ريسون الآتي ذكره.

ولا شك أن مثل هؤلاء العلماء والفقهاء. وغيرهم كان لهم دور ثقافي بالإضافة الى دورهم الوظيفي.

ب - المدينة تعرف نشاطا ثقافيا في الفترة الأولى من حياتها.

تؤكد الوثائق أن المدينة عرفت نشاطا ثقافيا في الفترة الأولى من حياتها. ففي هذا الوقت المبكر من حياة المدينة. كانت موئلا لطلبة العلم ومدرسيه. حيث كان طلبة العلم يقصدونها للتعلم بها. وللاغتراف من معين علمائها... ومن الذين أموها في

---

426) نفس المصدر السابق.

427) انظر الدوحة ص : 23 ط. ح. ف - وستأتي ترجمته بحول الله - ص : 329.

428) جاء ذكره في مرآة المحاسن في ترجمة ولده. أحمد العلمي ص : 165 الذي قال انه تولى منصبا حكوميا مع ابن راشد بسبب روح ترامت إليه.

429) جاء ذكره في (نوازل العلمي) في عدة أبواب منها قوله : «وأجاب أبو عبد الله محمد بن الحاج القاضي زمن الرواشد بشفشاون» نوازل العلمي ج : 1 : 120 وذكره صاحب الدوحة في ترجمة أبي الحاج يوسف التليدي ص : 14. ط. ح. ف.

هذا الوقت المبكر من أجل الدراسة بها الشيخان الجليلان : عبد الرحمن وعلي ابنا ريسون (430) وهما في ريعان شبابهما. وكانت أمهما قد تزوجت بعد وفاة أبيهما سيدي عيسى، قال أبو علي الحسن بن محمد بن علي بن ريسون (980 - 1055) في كتابه «فتح التأييد في مناقب سيدنا الجد وأخيه الوالد». (استعملها زوج أمها في رعاية الغنم والمعز، فافترس الذئب يوما شاة فضربهما فبلغ ذلك خالهما سيدي الحسن بن محمد وكان من أهل العلم والدين بمكان لا يجهل، وكانت له وجاهة عند الخاص والعام، مع ما انضاف لذلك من شرف النسب، فأتاهما متغيظا وحملهما لقرية شفشاون، وكان مأواه بها، وهي محل قراره، فدفعهما للعلم والقراءة، وأحسن معاملتهما، الى أن بلغا وظهرت نجابتهما وفضلهما، فانقطع سيدي عبد الرحمن بجامع سيدي أبي خنشة (431) من القرية المذكورة، وبيته بها معروف الى اليوم، وآثر الخلوة، على الجلوة، والانفراد على الخلطة، واشتغال بتحصيل العلم...» (432).

430) ترجم لهما صاحب الدوحة ص : 15 ط. ح. ف. والمهدي الفاسي في ممتع الاسماع 32 و 85 وتحفة أهل الصديقية : 37، وعبد السلام القادري : الدراسني : 147 ومحمد الحضيكي : طبقات : 2 : 319 وادريس الفضيلي : الدرر البهية : 2 : 72، وأحمد الرهوني في عمدة الراوين : 5 بدون ترقيم والحسن بن محمد بن ريسون : في فتحه ومناقبه.

431) ما زال هذا المسجد يحمل نفس الاسم وهو مسجد جامع يقع بحومة الخرازين قرب باب العين من مدينة شفشاون.

432) فتح التأييد : ص : 21 ومناقب الأخوين مخ : الخزانة العامة بالرباط رقم : 2286 ك. ص : 116.

هكذا نرى أن الشيخين الجليلين قضيا شطرا من حياتهما في طلب العلم بشفشاون، حيث انقطع الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن ريسون (ت 950 هـ/1543 م) بأحد بيوت مسجد سيدي أبي خنشة (433) من أجل التفرغ للعلم والعبادة.

وهذا النص يدلنا على أن المدينة أصبحت منذ بداية القرن العاشر الهجري مركزا ثقافيا يؤمه الطلبة والمدرسون، وعشاق المعرفة ومن المعلوم عند كتاب التراجم أن ابن عسكر صاحب الدوحة قضى شبابه في هذه المدينة متنقلا بين حلقات الدرس ومتصلا بعلمائها وفقهائها وصلحائها... (434).

ونلاحظ أن الحياة الفكرية والثقافية رافقت نمو المدينة منذ التأسيس الأول ثم تطور ذلك فيما بعد تطورا ملحوظا. (434).

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الهجري نجد هناك أسرا علمية استقرت بالمدينة وسكنتها كأسرة العرضونيين (435)

---

433) عن أبي خنشة، جاء في الوثيقة العرضونية، «شاوره علي ابن راشد في الدخول إلى مدينة شفشاون ليسكنها فأذن له»، ومعناه أن أبا خنشة كان موجودا بالمدينة سنة 876هـ.

434) انظر ترجمة ابن عسكر عند العباس بن ابراهيم في الاعلام... ج : 4 ص 175 وعند ليفي بروفنصال في : (مؤرخو الشرفاء) ص : 160 ط : الرباط، ترجمة الأستاذ عبد القادر الخلادي.

435) أسرة ابن عرضون تولى عدد من أفرادها منصب القضاء بمدينة شفشاون وأصلها من بني زجل بضواحي المدينة.

وأسرة السكاج (436) وأسرة آجليان (437) وأسرة مخشان، وأسرة أولاد بن علوش اليلصوتية، بالإضافة الى الشرفاء العلميين الذين استوطنوا المدينة منذ التأسيس الأول.

وممن درس بشفشاون في هذه الفترة أبو العباس أحمد بن يحيى العلمي، جد الشرفاء الشفشاونيين بفاس (●).

هذا مع العلم أن الجالية الأندلسية التي سكنت المدينة في وقت مبكر كانت تضم عددا من رجال الثقافة والفكر، ونجد أن بعض الأسر الأندلسية بشفشاون توارثت بعض الأنواع من المعارف كالطب والصيدلة في أسرة أولاد المفرج، والبيطرة في أولاد البيطار، وفن البناء في أولاد العاقل، ومثل عدد من الأسر الأخرى التي توارثت فن الموسيقى الأندلسية. بل نجد أن الجالية الأندلسية أثرت على المدينة في مظهرها العام، حيث طبعتها بالطابع الأندلسي، ويتجلى ذلك في شكل البناء المسقوف بالقرميد، وفي طريقة مد المنازل بالمياه بواسطة شبكة من الأنابيب المحكمة الصنع، كما يتجلى المظهر الأندلسي في العناية بالزهور داخل المنازل، وكذا في صحون المساجد الى غير ذلك من التأثيرات الأندلسية...

---

436) أسرة السكاج تحدث عنها كل من صاحب لقط الفرائد ص : 287 ط الرباط، ضمن ألف سنة من الوفيات نشر الأستاذ محمد حجي، والمعرب الفصيح ورقة 24 وصاحب نوازل العلمي ج 2 : 528 ط حجرية بفاس سنة 1332 هـ.

437) تنبيه الولدان للكلالي (المقدمة).

●) انظر ترجمته بالقسم الثالث من الكتاب، ص : 444.

مع العلم أن الملامح العسكرة بدأت تزول عن المدينـــة ابتداء من الربع الأول للقرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي ـ وذلك نظرا للتغيير الذي طرأ على السياسة البرتغالية تلك السياسة التي أخذت في هذا الوقت بالذات تجنح نحو التخلي عن التوغل في الداخل. والاقتصار على الاحتفاظ بالمراكز المحتلة. وذلك ابتداء من أواخر عهد الملك البرتغالي (عمانويـل) الأول (1491 ـ 1521) وطوال عهد (جيان الثالث)(1521 ـ 1557) وكان الدافع لفكرة التراجع :

1 ـ فشل القوات البرتغالية في احتلال مراكش سنة (1515م/ 920 هـ) وكذلك فشلها في نفس السنة. في احتلال المعمورة. ذلك الاحتلال الذي كانت الغاية منه. التوجه نحو فاس العاصمة.

2 ـ ظهور قوة السعديين الجديدة بجنوب المغرب، وهي قوة قامت على الجهاد وعملت على تحرير الثغور المحتلة... ونتيجة لهذه الأوضاع الجديدة لم تبق هناك ضرورة لوجود معسكر بعيد عن مراكز الاحتلال. وهذا كله جعل مدينة شفشاون تعيش حياة استقرار عادية. بل جعل المدينة مركزا ثقافيا وصناعيا وتجاريا.

وبالرغم من أن الوثائق التي نتوفر عليها لا تعطينا تفاصيل هامة عن الحركة الثقافية بالمدينة. إلا أننا نستفيد من الإشارات الواردة فيها أن حركة التدريس والتعليم كانت حركة نشيطة وغير

منقطعة. فحلقات الدروس كانت تعقد بمساجد المدينة وعلى الخصوص بالمسجد الأعظم.

وإذا كانت العادة بالمغرب كما يقول ابن خلدون : البداية بحفظ القرآن الكريم واستظهاره عن ظهر قلب، وختمه عدة مرات... فإن هذه العناية كان لا ينفصل عنها - في كثير من الأحيان - العناية بالعلوم القرآنية وبخاصة ما يتعلق منها بالقراءات ورواياتها المختلفة، وما يتعلق بضبط القرآن ورسمه وتتبع ألفاظه وجمله وآياته...

وفي نهاية القرن التاسع الهجري كان القاضي ابن ميمون السالف الذكر يسكن مدينة شفشاون، وكان قد تضلع في الدراسات القرآنية بمدارس غمارة التي كانت في هذا الوقت تعيش فترة ازدهار في هذا الفن، حيث تمازجت فيها وتلاقحت المعارف الأندلسية بالمعارف المغربية في هذا الميدان، كما درس بن ميمون بفاس على أهم علماء هذا الفن في ذلك الوقت كالأستاذ أبي جمعة الهبطي الصماتي (ت : 930 هـ) والأستاذ أبي محمد الصغير النيجي (ت : 887 هـ) وغيرهما.

فحفظ القرآن ودراسته ومعرفة علومه مع أتقانه ضبطا ورسما. كان هو الشغل الشاغل لعلماء وفقهاء ذلك العصر، ويشير الأستاذ عبد الله كنون في كتابه النبوغ المغربي الى عناية أهل هذا العصر بالعلوم القرآنية فيقول : «وإن ننس لا ننس ما وجد في هذا العصر من كثرة الإقبال على علوم القراءة وشدة العناية بها حتى

لقد تخصص بها علماء كثيرون لا يزاولون غيرها من العلوم، كما شارك فيها سائر العلماء، بل كان وصف العالمية لا يكمل إلا بها. ويمكننا أن نقول : «ان هذا عصرها الذهبي في افريقيا كلها بلغت فيه الى أوج الكمال وحسبك دليلا وقف القرآن الذي وقع الإجماع عليه وجرى العمل به في المغرب منذ ذلك الوقت إلى الآن إنما وضع في هذا العصر وكان واضعه الأستاذ الصماتي...» (438).

واشتهر محمد مشخان (ت : 1042 هـ) قاضي شفشاون ثم تطوان (439) بتعاطيه لتدريس التفسير ومات بتطوان، وقد وصل في التفسير الى قوله تعالى : «وآخرون اعترفوا بذنوبهم... (440).

أما المواد الأخرى فكان تدريسها مزدهرا كذلك، جاء في فتح التأييد (441) عن الفقيه الأجل القاضي العدل سيدي الحسن الخالدي قال : حدثني المرابط سيدي محمد أسلوفان اليرثني قال : «كنا نحضر مجلس سيدي محمد بن عرضون في تدريس العلم، وكان يقرأ يوم الخميس والجمعة الحكم لابن عطاء الله رضي الله عنه... وكان سيدي محمد بن عرضون له اليد العليا في سائر العلوم، وكان وحيدا في علم العربية والمعقول والتصوف...

---

438) النبوغ المغربي ج : 1 : 240 ط : بيروت : 1961.

439) انظر الصفوة ص : 152 وطبقات الحضيكي حرف الميم وتاريخ تطوان : م 1 ج 3 ص : 339.

440) نفس المصدر.

441) المصدر السالف الذكر.

(442) ومن خلال هذا النص نرى أن القاضي محمد بن الحسن بن عرضون كان يقوم بتدريس كثير من المواد بالمسجد الأعظم بشفشاون وكان يخصص يومي الخميس والجمعة لتدريس حكم ابن عطاء الله الأسكندري، والحقيقة : أن كلا من أحمد ابن عرضون (ت : 992 هـ) وأخيه محمد (ت : 1012) كان يقوم بعملية التدريس بشفشاون، ويثبت الشريف العلمي «أن أبناء ابن عرضون تصدوا للتدريس في المدينة الراشدية زمنا» (443).

ويذكر صاحب مرآة المحاسن : أن قاضي شفشاون أحمد العلمي، كان من أبرز شيوخه بهذه المدينة : القاضي محمد ابن عرضون السالف الذكر.

ج ـ العلماء الزوار

وكما عرفت المدينة فقهاء ومدرسين قارين، عرفت كذلك عددا من العلماء الزوار الذين كانوا يتخذون من شفشاون محطة استجمام، واستراحة، تطول أحيانا لبضعة أيام، بل وربما لبضعة أسابيع، وغالبا ما كان ذلك، وهم في طريقهم لزيارة ضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش، ويبدوا أن زيارة ضريح الشيخ ابن مشيش (444) وبخاصة في القرن الثامن والتاسع والعاشر، كانت قد

442) فتح التأييد ص : 44.

443) ملحق حوالة المسجد الأعظم بشفشاون ج : 2 ص : 176.

444) ضريح ابن مشيش يقع على قمة جبل العلم ويبعد عن شفشاون بنحو 50 كيلومترا وعن تطوان بمثل هذه المسافة تقريبا، وهو في قبيلة بني عروس من إقليم تطوان.

اصبحت عند كثير من العلماء من القربات التي يتقربون بها الى الله تعالى، ويسعون في تحقيقها كلما أمكنهم ذلك، الى درجة أن العلامة أبا عبد الله محمد بن سودة زار ضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش سبعين مرة (445) أي بمعدل مرتين في السنة طيلة خمس وثلاثين سنة. وكان الزائرون من فاس والقبائل المجاورة لها يمرون من شفشاون، وكان العلماء من هؤلاء يعقدون حلقات للتدريس بمساجد المدينة أو في بعض زواياها. واستمر ذلك الى ما بعد القرن العاشر، حيث نجد شيوخ الزاوية الناصرية مثلا، يواظبون على هذه الزيارة، وعلى النزول بشفشاون، الشيء الذي نشأ عنه مصاهرة بينهم وبين الشرفاء العلميين بهذه المدينة (446)، وبين غيرهم من الأسر.

ومن زوار المدينة في منتصف القرن العاشر الهجري الشيخ الإمام علي بن هارون المطغري شيخ الجماعة في عصره يقول ابن عسكر في الدوحة متحدثا عن زيارة هذا العالم : «وانتهت إليه رياسة العلم في وقته، لقيته بشفشاون وسمعته يفتي بجواز المغارسة في الأرض». (447) ويبدو أن هذا السماع كان أثناء درس

---

445) الروضة المقصودة لسليمان الحوات مخ. خ. ع. ر. ص : 251 تحت رقم 2351 ك.

446) ثمرة انسي لأبي الربيع سليمان الحوات مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1264 ك وطلعة المشتري في النسب الجعفري لأحمد بن خالد الناصري في أماكن مختلفة من الجزء الأول والثاني.

447) الدوحة : ص 40 ط. ح. ف. قال توفي في أواخر العشرة الخامسة (949 هـ) ويستفاد من الإمام أحمد المنجور في الفهرس أن علي ابن هارون كانت ترافقه مجموعة من العلماء مثل عبد الواحد الونشريسي وعبد الوهاب الزقاق، ومحمد اليستني وغيرهم الفهرس ص: 44 : ط. الرباط.

من الدروس. ويحدثنا في موضوع آخر من دوحته فيقول متحدثا عن مجالسة علمية مع الشيخ أبي العباس أحمد الحداد : «جلست معه رحمه الله مرة بشفشاون وصرت أتكلم معه في التصوف وطريق المواهب، وكنت كثير الحفظ أقول له قال الشيخ فلان وروى عن الشيخ فلان، فقال لي : إلى متى من قول فلان، ورويت عن فلان، فماذا أقول أنا وأنت ؟» ومما لاشك فيه، أن هذه كلمة جديرة بالوقوف عندها، لأنها تدل على أن بعض علمائنا في هذه الفترة، كان يتوق إلى تجديد مناهج الدراسة، وإلى بعث روح خلاقة، وطموحة في طلبة العلم. (448).

وكان العلماء الزوار يساهمون في تنشيط الحركة الثقافية بالمدينة. واستمر ذلك الى ما بعد القرن العاشر كما يستفاد من قصيدة للعلامة الشيخ الحسن اليوسي، وصف فيها طبيعة هذه المدينة وأشاد بأهلها وبالجو الثقافي الأخوي الذي كان يغمره بها. ومن هذه القصيدة قوله :

وأحبة كانوا لنا ٥ كالراح بالماء التأم
لم يعد بين بيننا ٥ ولو الفراق بنا ألم
البين بين جسومنا ٥ لا بين أنفسنا يحم
والنفس أرض قد سرى ٥ منها المعين ذو الكرم
والدين روض قد رعى ٥ فيه من العقبى رعم
العلم ورد ما حلا ٥ إلا لمن نزع الحلم

448) نفس المصدر ص 18.

ومطلع هذه القصيدة، قول الإمام اليوسي رحمه الله.

شفشاون مأوى الشمم ٥ والمجد عن طول الأعم
بلد بحسبك منظر ٥ منه ومخبره أتم

وهي قصيدة في نحور أربعين بيتا (449).

وعن مثل هذه الزيارات حدثنا أبو الربيع سليمان الحوات.

فقال : «وممن كان يتعهد شفشاون بالزيارة مقتفيا في ذلك بعمل والده الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن ناصر زارها في السنة التي بايع فيها أمير المومنين مولاي محمد بن عبد الله، فمر على ضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش وحط بشفشاون، محط أسلافه وأشياخه، ونزل بزاوية جده الشيخ العلامة سيدي محمد بن ناصر، وكان برفقته في هذه الزيارة العلامة الشيخ أحمد بن عبد الله الرباطي، والعلامة الشيخ أحمد بن العربي المراكشي.. وغيرهما» (450).

هذا ومن المعلوم أن أبا عبد الله محمد الحوات القاضي الشريف العلمي الشفشاوني والد أبي الربيع سليمان الحوات كان من شيوخ العلامة سيدي أحمد بن ناصر (451) ويذكر سليمان

449) انظر ديوان أبي الحسن اليوسي ص 6، ملزمة ، 4 ط، ح، ف.
450) أبو الربيع سليمان الحوات (ثمرة انسي في التعريف بنفسي المصدر السالف.
451) هو ابن الإمام سيدي محمد بن ناصر وتوفي سنة 1126 هـ.

الحوات علاقة النسب والمصاهرة التي كانت تربط بين الأسرتين الناصرية بدرعة والعلمية بشفشاون.

ونستخلص مما سلف أن شفشاون بالإضافة الى من كان بها من المدرسين، والفقهاء كانت - تحظى بزيارة جهابذة العلماء وفطاحل الفقهاء.

وهذا الجو الثقافي كان يجعلها مقصد طلاب العلم والمعرفة وبخاصة من ضواحيها والأقاليم المجاورة لها...

ومن الزيارات التي احتفظت بها الوثائق زيارة أحد العلماء الأتراك الذين كانوا يقيمون ببغداد، وهذه الزيارة تحدث عنها الشيخ القاضي أبو العباس أحمد ابن عرضون في كتابه (حدائق الأنوار) في سياق حديثه عن الأسانيد التي أخذها عن بعض المشايخ العلماء قائلا «تلقيت سندا عن عالم قدم من المشرق، يسمى محمد المهدي، ينتسب لعبد القادر الجيلاني في طريقته. قدم من بغداد لزيارة أولياء المغرب، فجاء من الجزائر في سفينة وخرج بثغر تطوان، واجتاز علينا بشفشاون فلقيته يوم الأربعاء ثاني المحرم فاتح عام (988 هـ) ورأيت عليه سمتا حسنا، وظهر لي من البركة في المجلس ما أوجب أن أطلب منه سند المصافحة فقال لي : أتحب سلطان الأولياء عبد القادر الجيلاني ؟ فقلت نعم، فناولني يده المباركة وصافحني ودعا لي بدعاء لم أفهمه للعجمة

التي غلبت عليه، وسألت عنه خديمه، فأجابني بأنه لا يعرف إلا الكلام التركي.. (452).

هذا النص له أهمية تاريخية، زيادة على أنه يؤكد لنا أن شفشاون كانت مزار العلماء والفضلاء... وعلى الجملة قد ازدهرت الحياة الفكرية بشفشاون خلال القرن العاشر الهجري، وما بعده، وساهمت في هذا الازدهار العوامل التي أشرنا إليها من قبل.

ومن خلال النصوص السالفة يتأكد لنا أن مساجد مدينة شفشاون خلال القرن العاشر الهجري، كانت معاهد لتدريس العلم، وميدانا لحلقات الدروس المختلفة، وإذا أضفنا الى ذلك ما عرفته مساجد شفشاون من العناية بالخزانات العلمية ـ حسبما مر في مبحث المساجد ـ فإننا نتأكد من أن الحركة الفكرية سواء بالمدينة أو بأحوازها كانت حركة نشيطة، ويتمثل هذا النشاط الفكري بصفة خاصة في مؤلفات الشيخ عبد الله الهبطي،وأبي القاسم بن خجو، ومحمد الهبطي، وابن عسكر، وفي مؤلفات قاضي شفشاون الشيخ أبي العباس أحمد ابن عرضون، التي تتجاوز خمسة وعشرين مؤلفا (453) وتتمثل في مؤلفات أخيه القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن ابن عرضون، (454) وغيرهم...

---

452) (حدائق الأنوار...) لأحمد بن عرضون، مخ. خ. م. رقم 942 غير مرقم.

453) نسب له الأستاذ عمر الجيدي في رسالته عنه التي قدمها لنيل الدبلوم العالي بدار الحديث الحسنية سنة 1976 تسعة وعشرين مؤلفا.

454) مؤلفات محمد بن الحسن بن عرضون انظر حديثنا عنه في مبحث قضاة شفشاون، ص : 338.

445) ذكر له صاحب مرآة المحاسن بعض المؤلفات (المرآة : 170 وما بعدها).

وتمثل النشاط الفكري كذلك في كثرة الفتاوي الفقهية، وفي نشاط المفتين الذي بدأ واضحا في نوازل الحسن بن عرضون (456) ونوازل الحسن ابن عمران الجباري (●) ونوازل عبد العزيز الزياتي، (456) ونوازل أبي الحسن علي العلمي (458) وغيرهم...

وتمثل النشاط الفكري من جهة أخرى في المراسلات العلمية بين مثقفي هذه المدينة، وبين علماء القرويين بفاس، حيث كانت هناك مراسلات مستمرة بين الجانبين، وبخاصة بين الشيخ محمد القصار القيسي (ت : 1012 هـ) (459) وبين تلامذته بشفشاون مثل أحمد بن الحسن بن عرضون، وأخيه محمد، وأحمد العلمي المذكورين آنفا، وبين القاضي محمد بن أحمد ابن الحاج وبين العلامة عبد الواحد الونشريسي شيخ الجماعة بفاس (ت : 955 هـ) (460).

وبهذا نرى أن النشاط الثقافي لمدينة شفشاون كان يتجلى في عدة ميادين فكرية، ومظاهر ثقافية.

456) ذكرها ونقل عنها أبو الحسن العلمي في نوازل وذكر في مقدمة كتابه أنها من أهم مصادره (مقدمة نوازل العلمي) وهي غير معروفة الآن.

457) الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة مخ. م. ع. بتطوان : 178 والمكتبة العامة بالرباط : 66 ح.

458) نوازل العلمي المشهورة (طبعت على الحجر بفاس عدة طبعات).

●) ينقل عنها العلمي بنوازله، انظر مقدمة نوازل العلمي.

459) انظر مصادر ترجمته عند الدكتور محمد حجي (الحركة الفكرية ج : 2 363.

460) انظر مبحث قضاة شفشاون، ص : 330.

المبحث الرابع :

معهدُ المواهب بالجبَل الأشهب

أ ـ موقع معهد المواهب والغاية من تأسيسه.

ب ـ أهم المواد الدراسية التي كانت تدرس به .

ج ـ أشهر شيوخ معهد المواهب.

د ـ أشهر تلامذته .

هـ ـ إشعاعه الثقافي .

معهد المواهب (●) بالجبل الأشهب

هذا معهد أسسه الشيخ عبد الله الهبطي (ت : 963هـ) (461) في النصف الأول من القرن العاشر الهجرى، والشيخ عبد الله الهبطي مؤسس هذا المعهد، كان قد جاب بلاد غمارة طولا وعرضا، وأخيرا استقر به المطاف بالجبل الأشهب، الذي يسمى حاليا في الخرائط (بالجبل الأقرع) (462).

وفي سفح هذا الجبل، وقرب مدشر (ماكو) شرق مدينة شفشاون حط الشيخ عبد الله الهبطي الرحال، وسمي المكان الذي نزل فيه بالمواهب، بدل المعاتب، (463) وأسس زاويته التي أصبحت نواة لمعهد المواهب بالجبل الأشهب.

●) المواهب : مدشر في سفح الجبل الأشهب المتفرع عن جبل ماكو شرق مدينة شفشاون.

461) الشيخ عبد الله الهبطي أفردناه بترجمة خاصة بالقسم الثالث من هذه الدراسة.

462) هذه التسمية أي : (الجبل الأقرع) (El Jabal Lakraa) هي المثبتة حاليا في الخرائط الطوبوغرافية، انظر مثلا خرائط المصلحة الطوبوغرافية التابعة لوزارة الفلاحة قسم الخرائط بالرباط، وخاصة منها خريطة رقم : 493، ويسمى هذا الجبل عند كتاب القرن العاشر الهجري بالجبل الأشهب وبسفحه توجد زاوية عبد الله الهبطي وهي تقع على ارتفاع 770م عن سطح البحر في تضاريس وعرة بين طيات القسم الغربي من جبال الريف، وعلى الخريطة المشار إليها كتبت «زاوية سيدي عبد الهبطي) هكذا : Zaouite Ilhabteg وكتبت كلمة : ماكو هكذا : (Majjo) وتنطق عند الأهالي بالكاف المعقودة.

463) جاء في الدوحة : (ودفن - أي عبد الله الهبطي - بموضع يعرف بالمواهب وقد كان اسمه (معاتب) فأبدل الشيخ اسمه، من الجبل الأشهب بلاد بني زجل قبيلة مدينة شفشاون من بلاد غمارة على ثلاثة أميال من ناحية قبلتها وقبره مشهور هناك رحمه الله) ص : 12 ط. ح. ف. ومثله في (ثمرة انسي) لأبي الربيع سليمان الحوات : خ. ع. ر : 1264 ك.

قصد الشيخ عبد الله الهبطي في زاويته الطلبة والمريدون والزوار.. لأنه جعل من زاويته هذه معهدا لتدريس العلم وفنون المعرفة.

ولم يكن معهد الشيخ عبد الله الهبطي خاصا بمستوى واحد، بل كان معهدا ذا مستويات متعددة، يدرس به الكبير والصغير، بل كان به جناح خاص بالنساء، تشرف عليه زوجة الشيخ عبد الله الهبطي السيدة آمنة بنت الفقيه علي بن خجو (464).

وعمل مؤسس هذا المعهد على أن يكون مفتوحا في وجه الجميع، وفي ذلك يقول أحد تلامذته الشيخ محمد ابن عسكر : (كان - أي الشيخ الهبطي - أحرص الناس على تعليم عباد الله. ويأمر من يلقى بتعليم الأهل والأولاد والعبيد والاماء...) (465).

فصاحب معهد المواهب كان حريصا على نشر العلم والمعرفة بين مختلف طبقات مجتمعه، ويرى أن المعرفة حق للجميع، ويؤكد صاحب

464) تحدث عنها الشيخ محمد الصغير الهبطي في (المعرب الفصيح في ترجمة الشيخ النصيح) وفي فوائده.
465) الدوحة ترجمة الشيخ عبد الله الهبطي ص : 11 ط. ح. ف.

الدوحة هذا المعنى فيقول : ((... لم ير أحد من الرجال والنساء بزاويته إلا أن يكون تاليا لكتاب الله، أو ذاكرا لأسمائه، أو متعلما لمعرفة، إلى أن لقي الله تعالى على ذلك ...)) (466).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المعهد كان نشيطا، وكان (العمل به جادا وحازما...).

درس بهذا المعهد عدد وافر من رواد المعرفة وشيوخ العلم وطلابه... وسنأتي بحول الله على ذكر مجموعة من هؤلاء.

ب ـ أهم المواد الدراسية التي كانت تدرس بمعهد المواهب.

ذكر أحد تلامذة معهد المواهب، المواد التي درسها بهذا المعهد، وهي مواد متعددة ومختلفة كانت هي مواد الدراسة في كثير من معاهد البلاد الإسلامية، وهذا التلميذ هو أبو عبد الله محمد الصغير الهبطي، ذكر ذلك في منظومته التي ترجم بها لوالده مؤسس هذا المعهد، وسنذكر هذه المواد حسب الترتيب الذى جاء في المنظومة قال : ((أقرأنا ـ أي الشيخ عبد الله الهبطي

466) نفس المصدر.

ألفيه ا بن مالك (ت : 672هـ/1273م) بشروحها. (467) ولامية ا بن مالك في التصريف بشرح ا بن الناظم. .

وأقرأنا العروض والأوزان الشعرية ـ لم يسم الكتاب ـ

والتلخيص بالشرح المطول للتفنزاني (468).

وأقرأنا التنقيحات للقرافي (469) بشروحها المختلفة.

ومختصر ا بن الحاجب (470) بشرحه المعروف للشيرازى (471).

---

467) ابن مالك : هو جمال الدين محمد بن محمد الطائي الجياني الأندلسي توفي بدمشق سنة (672 هـ / 1273م) وله مؤلفات هامة في قواعد اللغة العربية ترجم له ابن الابار في التكملة : 875 وتحدث عنه أحمد المقري في نفح الطيب : ج 2 ص : 222 و 225 ط صارد : 1968 بتحقيق د : إحسان عباس، وإسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين : 2 135 ط : دار المثنى ببغداد بالأوفست.

468) هو الشيخ سعد الدين مسعود بن عمر التفتزاني الخرساني الشافعي صاحب المختصر على التلخيص الذي هو : (تلخيص المفتاح في العلوم والبيان) للشيخ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي خطيب دمشق وهو تلخيص لمؤلفه : (مفتاح العلوم) الذي يقال إنه أعظم ما ألف في علم البلاغة.

وسعد الدين التفتزاني من أشهر شراح هذا التلخيص، وقد شرحه شرحين مطول ومختصر، وله مؤلفات متعددة (توفي سنة 793 هـ ـ 1391)، انظر حاجي خليفة في كشف الظنون ج: 1 : ع : 473 ط : دار المثنى بغداد، وابن القاضي في درة الحجال 2 : 115 ط : القاهـرة 197، والفقيه المرير في الأبحاث السامية : 2 : 274.

469) هذا الكتاب هو تنقيح الفصول في الأصول لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن ادريس القرافي المالكي (تـ 684 هـ / 1285م) ذكر فيه أنه جمع المحصول في أصول الفقه لفخر الدين محمد الرازي (تـ 606 هـ ـ 1209م) وأضاف إليه كتاب الإفادة للقاضي عبد الوهاب المالكي ورتبه على مائة فصل، وفصله على عشرين بابا. انظر كشف الظنون لحاجي خليفة ج : 1 ع : 499 ، مصور عن ط استنابول لسنة 1951 وانظر الأبحاث السامية للفقيه محمد المرير : 2 / 297 : ط تطوان 1955.

470) ابن الحاجب هو الإمام جمال الدين أبو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب وهو من أشهر وأبرز فقهاء المالكية ألف كتاب : (منتهى السؤل والأمل في علم الأصول والجدل)

واقرأنا مختصر السنوسي (472) في المنطق.
وأقرأنا إيساغوجي في المنطق (473) ونظمه لنا.
وعقائد السنوسي الكبرى والوسطى والصغرى (474).

صنفه أولا ثم اختصره، والمختصر هو المشار إليه هنا،وهو المتداول والمعروف بمختصر ابن الحاجب وهذا المختصر له عدة شروح.

471) الشيرازي : قطب الدين محمد بن مسعود الشيرازي (تـ 710 هـ ـ 1310م) أحد شراح مختصر ابن الحاجب، ومن شراحه كذلك : العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (تـ 756 هـ ـ 1355م) وتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (تـ 771 هـ ـ 1369م) الذي سمي شرحه : رفع الحاجب، عن مختصر ابن الحاجب. وللإمام سيف الدين الأبهري حاشية على شرح الايجي السالف الذكر، وعليه حاشية أخرى لمولانا مرزجان حبيب الله الشيرازي (تـ : 994 هـ ـ 1585م) . ومن أشهر شراح مختصر ابن الحاجب : العلامة سعد الدين التفتزاني (تـ : 793 هـ ـ 1391م) السالف الذكر.

472) السنوسي هو : الإمام أبو عبد الله محمد السنوسي (تـ : 895 هـ ـ 1480م) الفرضي الحيسوبي صاحب المؤلفات المشهورة في العقائد، وله مقدمة في المنطق وضع لها شرحا وله شرح إيساغوجي في المنطق كذلك، وله شرح على نظم ابن الحباك (تـ : 780هـ ـ 1465م) في الاسطرلاب، وله الاكمال على صحيح الإمام مسلم. وله العقيدة الكبرى وهي ما يسمى (بعقيدة أهل التوحيدة) والعقيدة الصغرى وهي مايسمى(بأم البراهين،)والوسطى وشرحها أيضا. ترجم له ابن عسكر في الدوحة ص : 90 ط : ح. فاس. وابن القاضي في درة الحجال : 2 : 41 رقم الترجمة 605 ط : دار التراث القاهرة سنة : 1971.

473) ايساغوجي معناه : المدخل، وهو اسم لكتاب وضعه (فرفوريوس) الصوري على مقولات ارسطو، وتناول فيه كليات ارسطو، وكانت عنده أربعا فزاد (فرفوريوس) عليها كليا خامسا، وهو النوع الذي لم يكن أرسطو يعده من الكيات، بل كان يعده الموضوع نفسه، إذ الأحكام العلمية تصدر على الأنواع لا على الأفراد والنوع إنما يضاف إلى الفرد مثل قولنا سقراط إنسان. ترجم كتاب «ايساغوجي إلى العربية في صورة اقتباسات وملخصات وشروح منها كتاب لأبي الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي الشافعي، وممن شرحه السنوسي، والأبهري (تـ : 669 هـ ـ 1264م)وله شروح كثيرة ونظمه عبد الرحمن بن محمد الأخضري (تـ : 983 هـ ـ 1575م) رجزا. ومن شراحه أبو الحسن بن محمد القرشي الشهير بالقلصادي (تـ : 891 ـ 1486) ـ انظر فهرس المخطوطات العربية القسم الثالث ج : 1 ص 125 ط الرباط : 1973. والموسوعة الميسرة حرف الألف ص : 285.

474) سبق الكلام عن الشيخ السنوسي وعن (عقائده) الكبرى، والوسطى، والصغرى، وله أيضا صغرى الصغرى، وعقائد السنوسي اشتغل الناس بها كثيرا ودرسوها وشرحوها وعلقوا عليها... انظر الدوحة ص 90 وكشف الظنون : 2 عمود 1142. ودرة الحجال : 2 : 441 ط القاهرة.

وأقرأنا علم الكلام (475) بكتاب السلاليجي (476) (ت 574هـ/ 1178م).

والرسالة بشرحها... (477).

وأقرأنا التفسير في مواطن كثيرة، بالمذهبين الظاهر والباطن (478).

---

475) علم الكلام : علم يقتدر به على اثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها، وموضوعه ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته عند المتقدمين، وقيل موضوعه الموجود من حيث هو موجود، وعند المتأخرين موضوعه المعلوم من حيث ما يتعلق به من اثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا. انظر كشف الظنون : 2 عمود 1503.

476) السلاليجي : هو الإمام أبو عمر عثمان كان مبرزا في علم الكلام وهو صاحب البرهانية الشهيرة في هذا الفن وغيرها، توفي بفاس ودفن بها سنة : (564 هـ ـ 1168م) انظر التشوف للتادلي ص : 49 ط الرباط، وجذوة الاقتباس : 2 : 458، ط : الرباط. والسلوة : 2 : 183، والنبوغ المغربي : 1 : 149 ط : الثانية بيروت : 1961، وجامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي : 1 : 169.

477) (الرسالة) في فروع الفقه المالكي، لأبي محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني (310 ـ 386 هـ ـ 932 ـ 996م) وللرسالة عدة شروح شرحها من المغاربة إبراهيم التسولي التازي، وأحمد الزقاق التجيبي الفاسي، وعبد الرحمن بن عفان الجزولي. انظر كشف الظنون : 1 حرف الراء.
وجذوة الاقتباس لابن القاضي : 1 : 86 و 133 و ج : 2 : 401.
وشجرة النور الزكية ... 96، رقم الترجمة : 227.
والأبحاث السامية لمحمد المرير : ج : 2 : 148.

478) (التفسير بالظاهر والباطن) معناه : ان الآية الكريمة يقرر فيها ما يفيده ظاهرها ثم ان كانت فيها إشارات خفية لا يدركها الا ذوو الأذواق المرهفة، والبصائر النيرة، فإن تلك الإشارات تقرر أيضا، وليس المراد (بالباطن) ان التفسير كان يدرس على الطريقة الباطنية الشيعية تلك الطريقة التي يقول أصحابها : ان الظاهر غير مراد، وإنما المراد هو ما يفيده الباطن حسب تأويلاتهم الخاصة بهم.
فمثل هذه المذاهب الباطنية لم تكن منتشرة في المغرب، ولم يعتن بها الناس ببلادنا بل المعروف هو أن كثيرا من علماء السنة كانوا يحذرون من التفاسير الباطنية، وحتى الغزالي الذي يرى أن بعض الآيات تحمل معاني خفية، لايقول بتفسير أهل الباطن

وأقرأنا تلخيص الحساب بشرحه (479).

وعلم الجدول (480) وقال لنا ((علمه واجب، لكن تدريسه للظالمين (481) ضلال)).

ومن هذه القائمة التي ذكرها أبو عبد الله محمد الصغير الهبطي - وهو يتحدث عن عمل أبيه في ميدان التدريس - نستفيد أن معهد المواهب للشيخ عبد الله الهبطي، كانت تدرس به مختلف المواد التي كانت تدرس في كثير من المعاهد بمختلف جهات المغرب، بل في مختلف جهات العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

المفرقين في التأويل والذين كان مرادهم هو تحريف القرآن الكريم والخروج به عن مقاصده ومراميه... بل يرى الغزالي مع جمهور أهل السنة : أن المعنى يستفاد من الألفاظ، ومن ظاهر الكلام... وكلمة الغزالي في الاحياء قاطعة في هذا الموضوع، وقد نقلها كل من الشيخ عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان في علوم القرآن) ج : 1 من ص : 470 ص : 474 ط : القاهرة . والشيخ الصابوني في التبيان في علوم القرآن) ص : 173، ط بيروت وتحدث السيوطي عن هذا الموضوع في كتابه : (الاتقان في علوم القرآن) في آخر الجزء الثاني في : (النوع السابع والسبعون) من ص 173 ـ 185، ط دار الفكر بيروت بدون تاريخ ، وهناك نقل أقوال العلماء في تفسير الصوفية وتفسير الباطنية : ص : 184.

479) (تلخيص الحساب) لأبي العباس أحمد بن محمد ابن البنا الازدي العددى المراكشي المتوفى سنة : (1321/721) وقد شرحه بنفسه وسمى شرحه : (رفع الحجاب في تلخيص الحساب) وله عدة مؤلفات، وترجم له الكثيرون انظر الإعلام للعباس المراكشي : 2 : 202 والنبوغ المغربي للأستاذ عبد الله كنون 1 : 213، ط : الثانية بيروت 1961م، والموسوعة المغربية للاعلام... للأستاذ ع. بنعبد الله : 1 : 50.

480) علم الجدول وهو علم كان يهتم به بعض الطلبة والفقهاء ألف فيه ابن البنا الازدى ووضع لتأليفه شرحا انظر : النبوغ : 220 ط : 2 : بيروت.

481) هذه المواد ذكرها الشيخ محمد الصغير الهبطي في منظومته التي ترجم فيها لوالده والتي سماها (المعرب الفصيح عن ترجمة الشيخ الرضي النصيح) مخطوط خاص بالرباط. احتفظ بصورة منه.

وبالإضافة إلى المواد المذكورة كانت تدرس بمعهد المواهب مواد أخرى، يحدثنا ابن عسكر في الدوحة عن بعضها فيقول ((أخذت عنه - أي عن الشيخ عبد الله الهبطي - علوما كثيرة وانتفعت به، أخذت عنه علوم الكلام، وعلم المعاملات، وفنون التصوف، ورويت عنه سلسلة المشايخ عن طريق شيخه المذكور - أي عبد الله الغزواني...)) (482) وذكر الشيخ محمد الصغير الهبطي : أن والده كان ينظم لطلبته المعلومات، حتى يسهل عليهم فهمها وحفظها.

ج - أشهر شيوخ معهد المواهب

وكان الشيخ عبد الله الهبطي يتولى التدريس بنفسه في هذا المعهد لكثير من المواد، ومع ذلك فهو لم يكن وحده في ميدان التدريس، بل كان إلى جانبه ولده محمد الكبير، (483) الذى يعترف أخوه محمد الصغير بأنه قد استفاد منه كثيرا، وبأنه كان متضلعا في العلوم، قريبا من مرتبة أبيه تحصيلا وفهما وإدراكا... ويعترف بأن أخاه هذا هو شيخه الثاني بعد أبيه، وبأنه درس عليه، وانتفع به.

---

482) الدوحة : ترجمة الشيخ عبد الله الهبطي ط.ح. فاس.

483) المعرب الفصيح السالف الذكر. وفي هذه المنظومة ذكر الناظم أن أخاه محمد الكبير كان يحل للطلبة المشاكل العويصة، وبأنه كان يقوم بالتدريس والإفتاء، وتذكر عنه بعض التقاييد لأحد أفراد أسرته أنه ارتحل بعد موت أبيه إلى قبيلة (ارهونة ناحية وزان، واستوطن بها، وذريته ما تزال موجودة هناك إلى يومنا هذا.

وإلى جانب محمد الكبير ا بن الشيخ عبد الله الهبطي، كان أخوه محمد الصغير، يقوم بمهمة التدريس، وبقي محمد هذا مدرسا بهذا المعهد إلى أن انتقلت إليه مهمة تسييره بعد موت أ بيه.

ومن أساتذة هذا المعهد كذلك الشيخ العلامة أبو عمران موسى بن علي الوزاني (ت : 1562/970) (484) ويعد هذا الشيخ من أخلص تلامذة الشيخ عبد الله الهبطي، لازمه مدة طويلة، ورافقه في كثير من رحلاته وأسفاره، ودافع عنه بلسانه وقلمه.

والشيخ موسى الوزاني من العلماء الذين عملوا في ميدان التأليف، والفتوى، واستنساخ الكتب العلمية، وكتابة البحوث المفيدة، والردود المركزة، بالإضافة إلى التدريس.

ومن الأساتذة ((الزائرين)) بهذا المعهد الشيخ أبو القاسم بن خجو (ت : 1549/956) الذى كان هو نفسه صاحب معهد بمدشره سعادة من قبيلة بني حسان، كان هذا الشيخ يتردد على صديقه وصهره عبد الله الهبطي، ويشاركه في نشاطه الفكرى : تدريسا وحوارا، وقياما بالدعوة... (485).

---

484) انظر ترجمته في الدوحة ص : 32 ط. ف. وله عدة فتاوى مبثوثة بنوازل العلمي انظر مثلاج : ج 1 : 267. وتحدث عنه صاحب المعرب الفصيح،. مرتين : 1 في تلامذة والده 2 عند ذكر موت والده ودفنه.

485) عن الشيخ أبي القاسم بن خجو انظر الدوحة ص : 13 وترجمته في القسم الثالث من هذا المبحث : وترجمت له بدعوة الحق السنة 17 العدد : 8 ص : 73 شوال 1396 اكتوبر : 76.

د ـ أشهر تلامذة معهد المواهـــب

أما تلامذة معهد المواهب والمستفيدون منه فهم كثيرون جدا. ذكر محمد الصغير الهبطي في منظومته مجموعة منهم، وبإلقاء نظرة فاحصة على هذه المجموعة التي ذكرها. نجد أنه يوجد من بينها القاضي، والفقيه، والمفتي، والشيخ الصوفي المربي، والمريد المنتور، وغيرهم.

والشيخ محمد الصغير الهبطي، عندما ذكر تلامذة والده قسمهم إلى مجموعتين : مجموعة كان أفرادها قد ودعوا الحياة أثناء نظمه لترجمة والده، ومجموعة أخرى، كان أفرادها ما يزالون على قيد الحياة أثناء نظمه للترجمة.

ففي القسم الأول ذكر خمسة وعشرين تلميذا من تلامذة هذا المعهد، وهم :

1 ـ أبو القاسم بن خجو الحساني (ت : 956هـ) المشار إليه سالفا.

2 ـ موسى بن علي الوزاني (ت : 970هـ) المذكور آنفا كذلك، وهما من تلامذة المعهد وأساتذته في نفس الوقت.

3 ـ محمد بن موسى القزوى، ويقول فيه الناظم إنه شب في بيت شيخه، ولازمه، وكان في رعايته، ثم يصفه بخفة الروح، وأن شيخه كان يحبه ويثني عليه..

4 ـ أبو عبد الله محمد الحداد الزياتي (ت : 975/1567) وهذا ممن لازم الشيخ وآثره على الأهل والوطن... ووصفه صاحب الدوحة : بالصلاح والانقطاع إلى الله تعالى (486).

5 ـ محمد بن منصور، ويدعى بالسكاج، يصفه الناظم بأنه كان من أذكياء التلاميذ ونجبائهم... ويصفه كذلك بالخلق السهل وبالقناعة، ويشير إلى أنه رحل مع شيخه إلى فاس.

ومحمد بن منصور السكاج هذا، جاء ذكره في نوازل العلمي أثناء كلام الشيخ موسى بن علي الوزاني ـ السالف الذكر ـ عن رحلة الشيخ عبد الله الهبطي إلى فاس، وأنه كان برفقته هو، وصاحبنا هذا، (487) ويستفاد من ابن القاضي في لقط الفرائد أن أسرة السكاج كانت تقطن بشفشاون في منتصف القرن العاشر الهجرى (488).

6 ـ مسعود البكار، ويقول فيه محمد الصغير الهبطي، السيد الأستاذ، ويظهر من وصفه بالأستاذية أنه كان ملما بعلوم القرآن، وبروايات القراء...

7 ـ ومنهم أخوه سليمان البكار، ويصفه بالزهد والحرص على العبادة.

---

486) انظر الدوحة ص : 103 : ط : ح : ف.

487) يستفاد من حكاية موسى الوزاني التي أوردها صاحب النوازل أن ذهاب الشيخ عبد الله الهبطي إلى فاس كان بدعوة من السلطان محمد الشيخ السعدى في قضية تتعلق بسجن بعض المريدين، لعل ذلك كان أيام محنة أرباب الزوايا سنة : 958 تلك المحنة التي تحدث عنها صاحب الدوحة،وصاحب الممتع،وصاحب الاستقصا ـ انظر نوازل العلمي : ج : 2 : 528.

488) انظر لقط الفرائد لابن القاضي في وفيات سنة : 925 هـ.

8 ـ أبو العباس أحمد البوطي ((الكريم الشجاع)) ويصفه بأنه كان محبا للجهاد، وحراسة الثغور، ومن أجل ذلك : ((هاجر الزوجات والمهاد وحالف الارق والسهاد...)) (489).

9 ـ أبو مهدى عيسى الحفاف، وهو من محبي الشيخ وخدامه ومن خاصة أصحا به.

10 ـ القاضي موسى المصيمدى، وكان بكاء رقيق العاطفة وصاحب حال..

11 ـ القاضي محمد بن عسكر صاحب الدوحة، وأبيات الشيخ محمد الصغير الهبطي في ا بن عسكر تناقلها كتاب التراجم و بخاصة عند الحديث عن نهاية ا بن عسكر، وموته بمعركة وادى المخازن الشهيرة.

وهذه الأ بيات هـــي :

((ومنهم القاضي الذي لا ينكــر محمد أخو الدهاء عسكــــــر
فهو المعين والقمين والنفيـــس والاحوذى الفطن الندب الرئيــس
وإن يكن أتى بذنب ظاهـــر فقلبه من الشكوك طاهـــر
وهو بشيخه الزكي معتصـــم وحبله من حبله لم ينفصـــم
رأيته في النوم ذا بشـــارة وهيئة حسنة وشـــارة))

12 ـ ومنهم : القاضي أحمد بن عرضون (490) (ت : 992هـ) (صديق الناظم وخله الوفي...) والقاضي أحمد ا بن عرضون من

---

489) أسرة البوطي يوجد أفراد منها بتطوان إلى يومنا هذا.

490) ترجم له ابن القاضي في الجذوة : 1 : 160 ط : دار المنصور الرباط، واحمد بن عجيبة في البستان خ : خ : م. الرباط : 1 : 141 والكتاني في السلوة : 2 : 260، والدكتور عبد الهادى التازى في جامع القرويين : 2 : 512...

قضاة العدل، ومن كبار فقهاء عصره، وله عدة مؤلفات من أشهرها : (اللائق لمعلم الوثائق) (ومقنع المحتاج في آداب الأزواج) و(حدائق الأنوار...) وغيرهما، وله فتاوى فقهية قيمة.

13 ـ ومنهم : محمد قشمر الصوفي ذو الخلق اللين.

14 ـ محمد البوزراتي من قبيلة : (بني بوزرة) الغمارية وكان صهرا للشيخ؛ حيث كانت بنت أخيه زوجة للشيخ عبد الله الهبطي.

15 ـ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الشدادى (491).

16 ـ محمد النالي، ذو الخلق الطيب، والحلم، واللين (492).

17 ـ أبو عبد الله محمد الوزاني، خديم الشيخ، وكان من المنشدين المجيدين (493).

18 ـ أبو الحسن علي باغوز ((وهو من فحول حلقة الذكر، وممن كان يعمل فكره باستمرار في مناجاة مولاه.

19 ـ أبو العباس أحمد الهدار الذي كان من الزهاد ومعرضا عما سوى الاله.

20 ـ أبو سالم إبراهيم الهائم في حب الله.

---

491) نسبة إلى بني شداد فرقة من قبيلة بني زجل الغمارية ومركز هذه الفرقة هو (قيادة تلمبوط).

492) النالي نسبة إلى (بني نال) وبنو نال هم : احدى بطون غمارة، وينتسب إلى بني نال علماء اجلة، انظر الدوحة ص : 27 ونوازل العلمي : ج : 1 : 249 وج : 2 : 213 والدرة والجذوة لابن القاضي وغيرها...

493) ذكره الدكتور محمد حجي (الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين) : ج : 2 : 473 توفي قبل سنة 995 هـ.

21 ـ الحسن المدن المتصف بالنبل والكرم ((رافق الشيخ منذ زمن الطلب)).

22 ـ أبو علي الحسن وهو من المريدين الذاكرين، ذكره ابن عسكر في الدوحة في ترجمه الشيخ عبد الله الهبطي (494).

23 ـ عثمان البوزراتي (495) وهو من التلاميذ الذين كانوا يحضرون حلقات الذكر، وكان ذا صوت حسن الخ.

24 ـ أبو زكرياء يحيى بن حجاج، ويصفه صاحب المنظومة بأنه كان حلاجي الصفات. ولست أدرى ماذا يقصد بهذا الوصف ؟ هل كان هذا السيد من القائلين بوحدة الوجود ؟ ذلك المذهب الذي اشتهر به الحلاج، أم ماذا ؟ ولعله يقصد بكونه حلاجي الصفات : أنه كان من الهائمين في حب الله، ولا يرى في الكون شيئا سواه.

25 ـ أبو الحسن علي مشيك الذي ملئت رحاب صدره ودا وحبا وشوقا.. (496).

والملاحظ في ذكره لهذه المجموعة من تلامذة والده، أنه لم يذكر تاريخ وفاة أي واحد من أفرادها، بالرغم من أنهم كانوا قد ماتوا أثناء نظمه لهذه الترجمة، لأنه نظمها حسبما صرح بذلك سنة : (995هـ/1587م).

494) الدوحة : ص : 12.

495) نسبة إلى قبيلة (بني بوزرة) الغمارية.

496) المعرب الفصيح في ترجمة الشيخ النصيح الفصل الخامس عشر، وهو الفصل الذى خصصه ناظم الترجمة للحديث عن تلامذة والده.

وقبل أن ينتقل ليذكر مجموعة أخرى من تلامذة والده، كانت على قيد الحياة أثناء عكوفه على نظم هذه الترجمة، أنهى الكلام عن المجموعة الأولى بهذه الأ بيات :

((وكلما فتقته من نشرهـــم فذاك دون حالهم وقدرهـــم
وقد تركت منهم كثيريـــن شيمهم كشيم المذكوريـــن
لا تحسبوا تغافلي عن ذكرهـــم لوصمة في دينهم أو فكرهـــم
بل إنما ذهبت للتقليـــل تنصلا من عهدة التطويـــل
ولنعطف العنان للأحيـــاء في البدو والحضر والأحياء (497)

وبعد هذا التمهيد أخذ في ذكر مجموعة من تلامذة والده كانت ما تزال على قيد الحياة سنة : 995هـ).

ويبدو أن أفراد هذه المجموعة كانوا أصغر سنا من أفراد المجموعة الأولى؛ لأن نظم هذه الترجمة كان سنة : 995هـ - كما ذكر - وموت الشيخ عبد الله الهبطي كان سنة 963هـ - أى بعد اثنين وثلاثين سنة، وهي فترة زمنية تمثل ثلث القرن تقريبا.

وسنجد أن عدد أفراد هذه المجموعة، أقل من عدد أفراد المجموعة الأولى، وهذا شيء طبيعي ما دام النظم قد وقع بعد المدة المشار إليها سالفا.

وبدأ في ذكر أفراد المجموعة الثانية بشيخه الثاني بعد أبيه، وشيخه هذا هو أخوه.

---

497) نفس المصدر.

1 ـ (محمد الكبير) وصرح بأنه أكبر منه سنا، وكذا قدرا، وذكر أنه استفاد منه، وأنه هو واياه استفادا من أبيهما.

((أدبنا بظاهر الطريقـــــــة هذبنا بباطن الحقيقـــــــة
كم حكمة غرسها يمانيـــــــة في قلبنا في السر والعلانيـــة))

... ثم يعترف بأنه أقصر باعا من أن يصف جميع مواهب أخيه (محمد الكبير)، ويقول :

((فكم سؤال معضل نزل بـــــه مد له بنابه ومخلبـــــــــه
اذهب كيد سحره بالعلـــــــم وفك قيد مكره بالفهـــــــم
أحيا قلوبا قحطت بعلمـــــه أحيا شعوبا شحطت بفهمه (498)

ويذكر بعد ذلك أنه إذا قيس أخوه بأبيه فهو أقل منه قدرا وعلما، أما إذا نظر للأخ وحده فإنه يعد من كبار العلماء...

2 ـ أبو العباس أحمد الصباغ التازى، ويقول فيه :

فهو ان حضر أحلى موجـــود وإن يغب عنه أعز مفقـــود
شاركنا في الشيخ خدمة الحضر وفاز ـ بشراه ـ بخدمة السفـر

ويشير الناظم بعد هذا إلى أن هذا التلميد كان مع شيخه بمشور فاس الجديد، أثناء المناظرة المشهورة بين (الهبطي واليسيتني) بمحضر السلطان محمد الشيخ السعدى، وأن التلميذ أحمد الصباغ التازى تعرض لوعيد اليستني (499) وتهديده لأنه

---

498) تأتي (شحط) بمعنى امتلا فيكون المعنى امتلات بفهمه، أى استفادت واقتنعت...

499) عن هذه المناظرة انظر الدوحة ـ ترجمة الشيخ عبد الله الهبطي ـ وكتاب (مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص) لأبي علي اليوسي ط. ح. ف. والنبوغ المغربي للأستاذ عبد الله كنون : 2 : 49 : ط 2 بيروت 1961 ومقالنا (بدعوة الحق) «حول النفي في كلمة الإخلاص»، محرم : 1397 هـ.

كان قد وقى الشيخ بنفسه، وأعلن أن (كلمة الشهادة) نفيها مسلط على الشريك المماثل المقدر، لا على الاحجار والأشجار)).

وبقي أبو العباس الصباغ في صحبة شيخه إلى أن توفي الشيخ، وعند ذلك خرج هائما على وجهه إلى أن اتصل بالشيخ أحمد بن موسى السملالي (500) (ت : 1564/971) بسوس. وفي آخر حياته سكن بفاس البالي إلى أن توفي - رحمه الله - ولا يذكر الناظم تاريخ الوفاة، إلا أنه بالتأكيد كان بعد سنة 995هـ.

3 - أبو محمد عبد الله بن سعيد الحاجي (ت : 1603/1012) (501) أحد العلماء المشهورين في ذلك الوقت، ويصفه الناظم ببحر المعارف العذب، وبأنه كان يبدىء ويعيد في ميدان العلم، ثم يصفه بعلو المقام بين شيوخ التربية، بل ينصح لمن يبحث عن شيخ التربية الصوفية أن يقصده بأرض حاحة، لأن الشيخ عبد الله الحاحي عاد إلى حاحة بعد موت الشيخ عبد الله الهبطي، ويبدو أن مهمته في الرحلة وطلب العلم بهذه الجهات قد انتهت بموت شيخه الهبطي، ويصفه الشيخ محمد الصغير الذى خلف أباه : ((بخلى)) ويؤكد أنه أتى إلى زاويتهم

---

500) ترجم له صاحب الدوحة ص : 83 ووصفه بالعلم والمعرفة وبرسوخه في مقامات التربية الصوفية وابن القاضي في درة الحجال : 1 : 165 ط : القاهرة والعربي الفاسي في المرآة، في مواضيع مختلفة، والحضيكي في الطبقات : 1 : (حرف الألف) وغيرهم، انظر الحديث عنه مع مصادر ترجمته، (في الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين) للدكتور محمد حجي : 2 : 601، ط : فضالة 1978.

501) ترجم له ابن عسكر في الدوحة ص : 76 والحضيكي في الطبقات : 2 : 218، والافراني في الصفوة ص : 10 وما بعدها وغيرهم ترجم له الدكتور محمد حجي وذكر مصادر ترجمته (المصدر السالف) 2 : 560.

وكله شوق وهيام إلى المعرفة، وأن والده استقبله بحفاوة وصرف له فائق العنا ية...

وهكذا كان معهد الشيخ عبد الله الهبطي يستقبل الرواد والطلاب والزوار من أماكن بعيدة ومن مختلف جهات المغرب لأن طلبة العلم كان من عادتهم شد الرحال في طلبه ـ كما هو معلوم ـ والرحلة في طلب العلم كانت داخلية وخارجية، وكثير من علمائنا مارسهما معا، في حين أن بعضهم اقتصر على الرحلة داخل المغرب، فعبد الله بن سعيد الحاحي ينتقل من حاحة إلى جبال شفشاون ليطلب العلم والتربية الصوفية، وأبو العباس أحمد التازى ـ التلميذ السالف الذكر ـ رأيناه يذهب للأخذ عن الشيخ أحمد بن موسى السملالي في بلاد سوس، ويدلنا هذا على أن الروابط الثقافية كانت متينة بين مختلف جهات المغرب تلك الروابط التي كانت تربط بين العلماء لا بالمغرب فحسب بل في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

4 ـ الشيخ القاضي الحسيب النسيب أبو عبد الله محمد الحضرى الذي صحب الشيخ عبد الله الهبطي، وأخذ عنه وعول عليه، ويقول عنه صاحب المنظومة، يكفيك أن تلقي نظرة على شرحه للمباحث الأصلية لابن البناء (502) لتدرك مقدار فهمه

(502) هو : أحمد ابن البناء السرقسطي ناظم المباحث الاصلية عن جملة الطريقة الصوفية) هذه المنظومة تناولها بالشرح عدد من رجال التصوف مثل : الشيخ أحمد زروق البرنوصي (ت : 899هـ/1493م) والشيخ محمد الشطيبي (ت : 960 هـ) والشيخ احمد بن عجيبة (ت : 1224هـ/1810م) ويقول الشيخ أحمد زروق ابن البناء السرقسطي ((هو قريب من عهدنا والظاهر أنه أحد اعلام فاس في القرن التاسع الهجرى، انظر عنه جريدة الميثاق عدد 281 ـ 282. ترجم له بها الأستاذ عبد الله كنون.

وإدراكه لأسرار التصوف، ومقدار تأثره بمعارف شيخه، ويبدو أن قاضينا هذا كان من الفقهاء الذين مزجوا بين الفقه والتصوف، وهذه ظاهرة تكاد تكون عامة بين فقهاء هذا العصر.

5 ـ أبو العباس أحمد المرجاني ذكره بعد القاضي محمد الحضرى السالف الذكر فقال :

((ومنهم عقد الهدى الرجانـــي
أحمـد قـد عـرف بالرجانــــي

فإن نبت عنه عيون الاوبـــاش
فالشمس قد تعشي عيون الخفاش))

ويبدو من كلامه هذا أن بعضهم كان يستصغر من شأن هذا الرجل ولذلك قال : فالشمس قد تعشي عيون الخفاش)).

6 ـ أبو الحسن علي بن عثمان، ويصفه بالتعمق في علوم التصوف ويقول فيه : ((أعجوبة الدهر وواحد الزمن...)) ولم ينسبه إلى قبيلة ولا إلى مكان، ويبدو من كلامه عنه : انه كان معروفا عندهم ومشهورا بينهم.

7 ـ أبو محمد عبد الله بن حسون (503) وصفه (ناظم الترجمة) بالعلم والتقى والديانة، والانقطاع إلى الله، مع حب العلم والجهاد...

((وهو ابن حسون أخو الصيانـــة   والعلم والتقاة والديانـــة

(503) عبد الله بن احمد بن حسون السلاسي (ت : 1013هـ/1604م) له شهرة ومكانة بمدينة سلا، وهو أحد العلماء البارزين في عصره جمع بين العلوم الشرعية والمعارف الصوفية.

إلى أن قال :

نبا عن الأوطان والمعاهـــد وآثر الثغور والمساجـــد

فاطلبه أن تشافى ثغر ســــلا

في حزب أهل الحزن لا فيمن ســـلا

فعبد الله بن حسون بعدما قضى مدة من الزمن في صحبة شيخه عبد الله الهبطي، انتقل إلى مدينة سلا وأصبح أحد المشهورين من أوليائها وعلمائها (504).

8 ـ أبو مهدى عيسى الوكيلي التادلي الذي أتى إلى الشيخ في المرحلة الأخيرة من حياته، فوجده قد اتجه بالكلية إلى العلوم الصوفية، ولذلك انتفع به هذا التلميذ غاية الانتفاع في ميدان التصوف، وكان الشيخ في هذه الأثناء ملازما للزاوية لا يفارقها وقد اقعده المرض الذي ألم به، لكنه بالرغم من ذلك لم ينقطع عن التدريس والقاء الدروس ((وبحره العذب يفيض بالدرر)).

قطوفه دنت فويق الأرض يا قاطف خذها بغير فرض))

حسب تعبير صاحب المنظومة.

---

504) من المعلوم أن الشيخ عبد الله بن حسون هو شيخ الفقيه المجاهد محمد العياشي الذي حارب البرتغاليين والإسبانيين حيث حاصر الثغور المحتلة في أزمور، والمعمورة والعرائش، وكانت له مواقف بطولية مشهورة وشيخه عبد الله بن حسون تلميذ للشيخ عبد الله الهبطي والهبطي تلميذ للشيخ المجاهد محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازى الذى ألف كتابا في الجهاد والحث عليه، وله فيه قصائد وملاحم رائعة، وهكذا نلاحظ أن الشيخ عبد الله بن حسون لم يتلق عن شيخه الهبطي المعارف والتربية الصوفية فحسب بل تلقى عنه حب الجهاد وروح المقاومة، وبغض الاجنبي الدخيل المحتل، وكان من نتائج هذه الروح الجهادية ظهور المجاهد العياشي على مسرح الأحداث بالمغرب ـ عن المجاهد العياشي السلاوى انظر كتاب الفقيه (املاق) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 91د.

وبعدما تحدث الشيخ محمد الصغير الهبطي عن هؤلاء الأشخاص الثمانية من تلامذة أبيه الذين كانوا على قيد الحياة سنة : (1586/995) قال :

((وقد تركت منهم معـــارف قد ملئت قلوبهم عـــوارف
لكنهم كفو عن الكـــلام فملت عنهم إلى الاعـــلام

ويفهم من هذا الكلام أنه لم يذكر سائر تلامذة أبيه وبخاصة منهم الذين كفوا عن الكلام، ربما يقصد عن نصرة أبيه، والاتصال به... هذا ومن المعلوم أن الشيخ عبد اللهبطي تعرض في آخر حياته إلى انتقادات من بعض الفقهاء (505) في هذا الوقت الحرج بالنسبة إليه، كان المخلصون من تلامذته يدافعون عنه ويؤازرونه... في حين أن البعض الآخر منهم، كان موقفه سلبيا، ولعل أصحاب الموقف السلبي، هم الذين مال عنهم الناظم، فلم يذكرهم من جملة تلامذة والده في هذه المنظومة.

هـ - الاشعاع الثقافي لمعهد المواهـــب :

والملاحظ من خلال منظومة محمد الهبطي أن معهد المواهب كان مركزا ثقافيا هاما استقطب عددا من الفقهاء والطلبة، وشيوخ التربية الصوفية وكان من بين تلامذة الشيخ عبد الله الهبطي مجموعة من الشيوخ الكبار، مثل الشيخ أبي القاسم بن خجو الحساني، والعلامة المفتي أبي عمران موسى الوزاني،

505) (المعرب الفصيح) الفصل الخامس ؛ الأبيات ؛ 1349 وما بعدها.

والشيخ عبد الله بن سعيد الحاجي، والقاضي ابن عسكر صاحب الدوحة، والقاضي أبي عبد الله محمد الحضري، والشيخ غبد الله ابن حسون السلوى،والقاضي أبي عمران موسى المصيمدي، وغيرهم.

... ومن خلال ما عرفناه عن معهد المواهب نتأكد أنه كان مركزا ثقافيا نشيطا، ساهم في تنشيط الحركة الفكرية بالمغرب خلال القرن العاشر الهجرى، وارتبط بواسطة طلابه وشيوخه بمراكز ثقافية أخرى في مختلف جهات المغرب، وبذلك امتد اشعاع معهد المواهب إلى جهات عديدة ونواحى مختلفة.

هذا مع العلم أن عبد الله الهبطي شيخ هذا المعهد كانت له اتصالات ومراسلات مع مراكز ثقافية مختلفة مثل : فاس (506) ومراكش (507) ومعاهد جبال غمارة (508) وغيرها...

وبطبيعة الحال كان لهذا المعهد وغيره من المعاهد العلمية المغربية اتصال بمعاهد الشرق كمصر والشام، والحجاز، والعراق... لأن الرحلات العلمية من أجل الاتصال بالفقهاء، والمحدثين وشيوخ التربية الصوفية، وغيرهم من العلماء كانت غير منقطعة بين المغرب والمشرق، وكانت الرحلة إلى الديار المقدسة من أجل أداء فريضة الحج تذكي حماس عشاق المعرفة فيستسهلون الصعاب، ويجمعون بين الحج إلى بيت الله الحرام، وبين الاتصال

---

506) انظر : نوازل العلمي : 2 : 545 ملزمة : 31 ص : 8.

507) ممتع الاسماع ط : ح. ف. سنة 1313 هـ ص : 85.

508) مقنع المحتاج في آداب الأزواج. باب : (الوليمة والتحذير مما احدث فيها من البدع) مخ خ. ع. ر : 1026 ك.

بكبار شيوخ العلم، فيستجيزونهم ويحضرون دروسهم، وربما أجازوهم هم أنفسهم.

والحقيقة : أن العالم الإسلامي، بالرغم من أنه كان في هذه الفترة يعيش مرحلة خمود فكرى، وتفكك سياسي، فإن العلاقة الثقافية بين مثقفيه لم تنقطع أبدا، بل كانت الرحلات العلمية مستمرة، والروابط الثقافية قائمة بين مختلف أرجائه، لأن إحساس المسلمين كان - دائما - إحساسا واحدا، وكان التجاوب بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي، تفرضه طبيعة العقيدة التي يومن بها المسلمون جميعا، تلك العقيدة التي من شأنها - إن رسخت وتمكنت من النفوس - أن توحد قلوبهم ومشاعرهم وعواطفهم (509)، أن تجعل منهم وحدة حقيقية.

ومن الحكمة البالغة في دين الإسلام، أن يكون حج بيت الله الحرام فريضة على المسلمين، لأنه في هذا اللقاء السنوى يعرف المسلمون عن بعضهم البعض الشيء الكثير حيث يتصلون، ويتعارفون، فتلتحم عواطفهم ومشاعرهم...

509) في الفترة التي ألف فيها الشيخ أبو عبد الله محمد بن يجبش التازى (كتاب الجهاد) بمدينة تازة بالمغرب الشرقي، ونظم الملاحم الشعرية الحماسية، وحرض المغاربة على مقاومة الهجوم البرتغالي الصليبي... في هذه الفترة بالذات ألف الشيخ زين الدين أحمد المعبرى الهندى كتابه (تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين) بمدينة فينان بمنطقة ملبار قرب (كاليكوت) - تسمى اليوم (كوزيكود) (Kozhicod) على الساحل الجنوبي الغربي للهند، وذلك ليس من قبيل الصدف فحسب بل لأن البواعث كانت واحدة والآلام والآمال كانت واحدة أيضا طبع كتاب (تحفة المجاهدين...) (بحيدر أباد دكن) بعناية (الحكيم السيد شمس الله القادرى) مدير مجلة التاريخ سنة 1931 والكتاب يصف مخازى البرتغاليين في احتلالهم لهذه المنطقة وما ارتكبوه من جرائم ومقاومة المسلمين لهم... مع التحريض على الجهاد بادلة من الكتاب والسنة...

وكان الحاج المثقف لا يعود إلى وطنه إلا وقد ملأ وطابه علما ومعرفة... وأخذ عن عدة شيوخ، (واستجاز وأجاز (510) وكان ينقل إلى بلاده تآليف ومناهيج ومعرفة.

وكان من شأن هذا الاتصال أن جعل المعاهد الثقافية بالمغرب على صلة وثيقة بمعاهدة المشرق، وبالرغم من أن لكل منها طابعه الخاص به، ومميزاته الذاتية، فإنها في مجموعها تنطلق من تصور واحد، ومن عقيدة واحدة يؤمن بها الجميع.

بالقائنا نظرة على المواد التي كانت تدرس بمعهد المواهب من الجبل الاشهب ندرك أن تلك المواد كانت لا تختلف عما كان يدرس في القرويين بفاس، أو في معاهد سوس، والأطلس المتوسط، أو في معاهد شمال افريقيا ومصر والشام والحجاز والعراق والهند إلا اختلافا طفيفا.

وهذا التلاحم بين مختلف مراكز الثقافة الإسلامية كان من أهم مميزات هذه الثقافة، فهي بالرغم من تعدد مجالاتها وموضوعاتها فهدفها كان واحدا وهو : ترقية الإنسان، وإسعاده، والأخذ بيده إلى شاطىء النجاة.

---

510) (الاجازة) : هي أن يجيز الشيخ الطالب الذي طلب منه الإجازة، فيقول له : أجزت لك أن تروى عني كتابي هذا أو كتبي هذه، أو الكتاب أو الكتب التي قرأتها على الشيخ فلان، ويبين سنده إلى الشيوخ الذين أخذ عنهم متسلسلين إلى مؤلف الكتاب. والإجازة أصلا من اصطلاح المحدثين، إلا أنها استعملت من طرف الفقهاء والاصوليين وغيرهم، ووقع التوسع في استعمالها فشملت أنواع الرواية المختلفة في العلوم العقلية والنقلية.

المبحث الخامس :

معهد تلمبوط بشمال شفشاون

أ ـ موقعــــه

ب ـ أشهر شيوخــه

سبقت الإشارة الى أن الجبال الغمارية كانت منذ زمن الفتح الإسلامي مأوى لكثير من الأسر العربية كاليلصوتيين والعرضونيين والحسنيين ـ وغيرهم، ثم أصبحت هذه الجبال فيما بعد وخلال أحقاب طويلة مأوى لكثير من الأسر الأندلسية، وبمضي الزمن أضحت جبال غمارة تتوفر على مراكز ثقافية في كثير من جهاتها ونواحيها.

أ ـ موقعـــــه :

وخلال هذه الفترة التي نتحدث عنها كانت قرية تلمبوط التي تقع شمال مدينة شفشاون على نحو عشرين كيلومترا منها، كانت هذه القرية مركزا ثقافيا هاما حيث ظهر بها في هذه الفترة بالذات شخصيات علمية بارزة، مثل : الشيخ العلامة أبي الربيع سليمان الملولي الزجلي القرشي، وكان هذا الشيخ أستاذا في القراءات وعلوم القرآن الكريم، وفي هذا الشيخ يقول القاضي أحمد بن الحسن بن عرضون (ت : 992 هـ) (أستاذ بلدنا وإمام جيلنا الحاج الناسك سيدي أبي سليمان الزجلي الملولي القرشي رحمه الله تعالى) (511).

وتناول الحديث عنه : أبو ربيع سليمان الحوات (ت : 1234 هـ في معرض حديثه عن قبيلة بني زجل فقال : (ومنها

511) مقنع المحتاج في آداب الأزواج، الفصل الثالث في التحذير مما احدث في الولائم.

الأستاذ المقرىء المفسر الحاج سليمان الملولي وولده سيدي علي...) (512)

ويذكر أحمد بن الحسن بن عرضون السالف الذكر : أن الشيخ عبد الله الهبطي، خمس منظومة الشيخ سليمان الملولي في البدع ومحاربة الأهواء الضافة (513).

وبهذا ندرك أن أبا الربيع سليمان الملولي الزجلي ساهم في الحياة الثقافية مساهمة مشكورة ببني زجل، حيث كان أستاذ جيل بكامله، وهو أستاذ مبرز في القراءات والعلوم القرآنية، والى جانب ذلك كان من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، نظم في تهجين العوائد الضالة التي كانت منتشرة بجبال غمارة.

ومن الشخصيات العلمية التي ظهرت بقرية تلمبوط في هذه الفترة : الشيخ عبد الله القسطلي الزجلي الأندلسي الأصل (ت : 1514/920) (514) وهذا الشيخ اتخذ من قرية تلمبوط مسكنا ومقرا له بعد ما أنهى تحصيله ورحلاته العلمية بالمغرب والأندلس.

واشتهر الشيخ القسطلي في ميدان علوم القرآن الكريم، والتفسير فأمه الطلبة والفقهاء للأخذ عنه من جهات مختلفة، ومن

---

512) ثمرة انسي في التعريف بنفسي مخ. خ. ر : 1264 ك.

513) نفس المصدر الذى أشرنا إليه في التعليق رقم : 511.

ولم يذكر أحد ممن تعرض لذكر الشيخ سليمان الملولي تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته لكن الظاهر من كلامهم أنه عاش في النصف الثاني من القرن التاسع الهجرى وأوائل القرن العاشر.

514) انظر الدوحة ص : 23 ط. ح. ف.

أبرز تلامذته الذين درسوا عليه، الشيخ عبد الله الهبطي (ت : 963 هـ) الذي لازمه مدة طويلة، وكان شيخه هذا يجله ويقدره تقديرا كبيرا، وبعدما أنهى دراسته عليه، كان لا ينقطع عن زيارته، ولا عن مجالسته، وكان هذا التقدير متبادلا بين الشيخ وتلميذه.

ومن الذين ساهموا في الميدان الثقافي بقرية تلمبوط مساهمة فعالة أفراد من الأسرة العرضونية وهي أسرة من صميم بني زجل الغمارية، نبغ فيها مجموعة من الفقهاء والقضاة، مثل الحسن بن يوسف بن عرضون (515) وأخيه عمر بن يوسف بن عرضون (516) وولديه : أحمد ومحمد (517) وغيرهم. فهؤلاء جميعا هم من أساتذة معهد تلمبوط، ومن تلامذته في نفس الوقت.

ب ـ أشهر شيوخـــه

ومن شيوخ هذا المعهد : الشيخ أبو عبد الله (محمد أخفاق) وهو شيخ الحسن بن يوسف بن عرضون، كان معاصرا للشيخ أبي عبد الله محمد النالي، (518) (ت : 920 هـ) ويقول عنه أحمد بن

---

515) انظر مقدمة نوازل العلمي حيث يعترف مؤلف هذه النوازل أن من أهم مصادره : نوازل الحسن بن يوسف ابن عرضون ـ نوازل العلمي : ج. 1 ص : 2 ط : ف.

516) ذكره القاضي أحمد بن عرضون في عدة مناسبات في كتابيه (مقنع المحتاج) و(رسالة التوادد والتحابب).

517) احمد ومحمد هما القاضيان المشهوران بعدلهما وضلاعتهما... توليا منصب القضاء بشفشاون بالتتابع في النصف الثاني من القرن العاشر الهجرى، انظر الحديث عنهما في مبحث القضاة.

518) ترجم له صاحب الدوحة ص : 27 ص. ح. ف.

محمد بن عرضون في كتابه (ناصر الحكام) : (كان نسابة عصره) قال ذلك بعدما وصفه بالعلم والمشيخة فيه. وبأنه أحد شيوخ جده الحسن بن عرضون. (519)

وخلال القرن العاشر الهجري عرف معهد تلمبوط نشاطا ملحوظا. ومن الذين كانوا يترددون عليه في هذه الفترة. الشيخ عبد الله الغزواني. (ت : 935 هـ) والشيخ أبو القاسم بن خجـو. (ت : 956 هـ) والشيخ أبو عمران موسى الوزاني (ت : 979 هـ) والشيخ عبد الوارث اليلصوتي) ت : 971 هـ) وغيرهم واتخذ الشيخ عبد الله الهبطي من قرية تلميوط مقرا له فترة من الزمن. فاجتمع عليه بها الطلاب، والعلماء، وكان لا يفتر عن التدريس، والإرشاد، والتوجيه، وبهذه القرية أسس مسجدا ما زال يحمل اسمه الى يومنا هذا. (مسجد الشيخ عبد الله الهبطي) بتلمبوط.

وكان العلماء والصلحاء يشدون الرحلة الى تلمبوط (520) للتبرك، بشيوخها والاستفادة منهم، وفي نفس الوقت للمساهمة بالنشاط الفكري في هذه القرية.

أما المواد الدراسية التي كانت تدرس بمعهد تلمبوط، فكانت لا تختلف عما كان عليه الحال في كثير من جهات

---

519) (ناصر الحكام على تحفة الاحكام) لابن عاصم الأندلسي وهو مخطوط خاص عرض بمعرض الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات سنة : 1974 (دون ترقيم).

520) يحدثنا الشيخ محمد الصغير الهبطي (ت : 1001 هـ) عن تردد الشيخ عبد الله الغزواني على قرية تلمبوط، وزيارته لها واجتماعه بوالده فيها (المعرب الفصيح عن ترجمة الشيخ الرضي النصيح) في الفصل الذى عقده للحديث عن ورع أبيه ورقة 13.

المغرب، إلا أنه كان في طليعتها العلوم القرآنية، والقراءات والتفسير، وكان الشيخان الملولي والقسطلي مبرزين في العلوم القرآنية.

وإلى جانب هذه المواد كانت تدرس مختلف العلوم والفنون : كالفقه، والأدب، وقواعد اللغة العربية، والعروض، والفرائض، والحساب... وهذه المواد الأخيرة كان العرضونيون مبرزين فيها، وكانوا من أساتذتها المرموقين (521).

ولم ينته نشاط معهد تلمبوط بانتهاء القرن العاشر الهجري، بل استمر نشاط العرضونيين بهذا المعهد خلال القرن الحادي عشر؛ حيث برز في هذه الآونة من الأسرة العرضونية القاضي محمد بن أحمد بن الحسن بن عرضون، صديق أحمد المقري التلمساني (522) وابن عمه أحمد بن محمد بن الحسن بن عرضون (523) صاحب شرح تحفة ابن عاصم السالف الذكر، وغيرهما.

---

521) يشير ابن القاضي في الدرة والجذوة إلى تضلع القاضيين أحمد ومحمد ابني عرضون في هذه المواد. (انظر مبحث قضاة شفشاون. ويذكر أحمد ابن عرضون في (مقنع المحتاج) أنه درس الأدب والعروض على عمه أبي حفص عمر بن عرضون. (المقنع) ص : 377 ورسالة التوادد والتحابب مخ خ. ع. تطوان رقم : 836.

522) نوازل العلمي ج : 2 : ملزمة 18 ص : 1.

523) كان لاحمد ومحمد ابني الحسن ابن عرضون أولاد من العلماء من بينهم أحمد ومحمد اللذان شغلا منصب القضاء بشفشاون في القرن الحادى عشر الهجرى انظر فتاويهما بنوازل العلمي، وأورد لهما الشيخ أحمد الرهوني فتوتين أثناء كلامه عن نسب (أولاد البقال) ج : 5 (من عمدة الراوين في أخبار تطاوين) بدون ترقيم مخطوط المكتبة العامة بتطوان.

وهكذا تعاقب على التدريس بمعهد تلمبوط عدة أعلام من شيوخ العلم ومدرسيه، وبذلك يكون معهد تلمبوط قد ساهم في النشاط الفكري فترة طويلة من الزمن، حيث كان من أهم المراكز الثقافية بجبال غمارة.

وهذا المعهد تخرج منه عدة قضاة، تولوا منصب القضاء بشفشاون منهم أحمد بن عرضون، ومحمد ابن عرضون، وهما ابنا الحسن بن عرضون، ثم أحمد بن محمد، ومحمد بن أحمد، والقاضي محمد مخشان وغيرهم.

المبحث السادس:

قضاة شفشاون في القرن العاشر الهجري

أ ـ وظيفة القاضي

ب ـ بعض قضاة شفشاون

1 ـ علي بن الحسين ابن عسكر

2 ـ علي بن ميمون الغماري

3 ـ محمد بن أحمد الحاج

4 ـ محمد بن علي بن عسكر

5 ـ أحمد بن الحسن ابن عرضون

6 ـ محمد بن الحسن ابن عرضون.

ج ـ الدور الثقافي لبعض القضاة.

من قضـــاة شفشـــــاون

عرفنا من قبل تاريخ تأسيس المدينة وأسبابه، وكانت المدينة في الفترة الأولى من وجودها تحتاج الى وظائف متعددة، نظرا للدور الذي أصبحت تقوم به كمركز لمجتمع بشري يظم عناصر من السكان من مختلف النواحي والجهات.

والمدينة لم تنشأ الا لتقوم بوظائفها في مختلف مرافق الحياة.

أ ـ وظيفة القاضي :

كان في طليعة الاحتياجات التي تحتاج إليها المدينة الناشئة، وظيفة القاضي؛ لأن هذه الوظيفة كانت تعتبر من أهم الوظائف التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية، فوظيفة القاضي كانت وظيفة أساسية في تسيير شؤون الناس، فهي لم تكن محصورة في معرفة أسباب النزاع والخلاف بين المتخاصمين في قضايا محدودة تحديدا ضيقا ثم الحكم بينهما، بل كانت مهمة القاضي (524) أوسع من ذلك، لأن القاضي كانت تسند اليه مهام متعددة، حيث كان يعين المحتسب (526) ومراقبي الأسعار،

524) عن المهام التي كان يزاولها القاضي انظر : كتاب الأبحاث السامية في المحاكم الإسلامية للفقيه محمد المرير ج : 2 : 27 وما بعدها.

525) المحتسب : هو الشخص الذى يلي ولاية الحسبة انظر عن هذه الولاية : الأبحاث السامية لمحمد المرير ج؛ 2 من 99 إلى ص : 126 ط : تطوان 1955، والتراتيب الإدارية ج : 1 : 284 وما بعدها. والنظم الإسلامية للأستاذ حسن ابراهيم حسن، وصاحبه ط : الاميرية بالقاهرة 1953، ص : 73.

ونظار الأوقاف، وائمة المساجد.. وكان هو الرقيب على أموال الأيتام والقاصرين والغائبين، بل كانت تسند إليه في بعض الأحيان ولاية المظالم والشرطة (526).

ومعنى هذا أن القاضي كان هو الشخصية الرئيسية التي تكون بإزاء الحاكم أو الأمير، وما ذلك الا لأن الأمير أو الحاكم كان لا بد لهما من الرجوع الى القاضي باستمرار، لأن الأحكام في الإسلام صادرة عن شرع الله، وشرع الله يعرفه القاضي الذي تخصص فيه، ودرسه على شيوخ مختصين في معرفة الأحكام الشرعية...

ولم يشذ أمير شفشاون عن هذه القاعدة، فكان الى جانبه قاض أو قضاة يعينهم بنفسه في منطقة حكمه.

ب ـ **بعض قضاة شفشاون :**

1 ـ أسند علي بن راشد منصب القاضي إلى أبي الحسن علي بن عمر بن الحسين بن مصباح السريفي المعروف بابن عسكر ـ وهو والد صاحب الدوحة، وعلي ابن عسكر هذا تحدث عنه ولده محمد في الدوحة في ترجمة والدته، وذكر أنه تعرض لأسر البرتغاليين، هو وأحد أصدقائه، حيث سجنا معا، بمطمورة تحت الأرض في طنجة (527) وذكر الناصري صاحب الاستقصا :

526) تحدث عن هذين الولايتين صاحب كتاب الأبحاث السامية ج : 2 : 17 وص : 66 بمزيد من التفصيل.

527) الدوحة : ص : 19 ط : ح. ف.

أنه كان من جملة الفقهاء الذين تعرضوا للأسر والمحن على يد النصارى (528) وذكر العلامة السيد الصادق بن ريسون (1282 ـ 1376) في تقييده عن تاريخ شفشاون : (ان علي ا بن راشد بنى خارج دار المخزن من جهة الشرق دارين كبيرين : أحدهما لقاضيه ووزيره ا بن عسكر والد صاحب كتاب الدوحة. والدار الأخرى لكاتبه الفقيه بن ميمون (ت : 917 هـ/1511 م) (529) وهي لجهة الغرب من دار المخزن...) (530).

ونستفيد من هذا أن أول قاض بشفشاون على عهد الأمير علي ا بن راشد : أبو الحسن علي ا بن عسكر السريفي الذي كان قاضيا ووزيرا في نفس الوقت (531).

لكن المصادر لا تحدثنا عن هذا القاضي إلا حديثا مقتضبا جدا. وأشرت الى أن ولده محمد ا بن عسكر ذكر أنه كان أسيرا

---

528) الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصرى ج : 4 ص : 111. ط : دار الكتاب بالبيضاء.

529) عن ترجمة القاضي علي بن ميمون، انظر :
أ ـ الدوحة : 23. ط : ح. ف.
ب ـ مجلى الحزن عن المحزون في مناقب علي بن ميمون لعلي بن عطية علوان (ت : 936هـ).
ج ـ الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزى : 271 ط : بيروت 1945.
د ـ جامع كرامة الأولياء للنبهاني (حرف العين).
هـ ـ الموسوعة المغربية للاعلام البشرية لعبد العزيز بن عبد الله : 2 : 29 (ابن ميمون).
و ـ الاعلام للزركلي : 5 : 180.

530) تقييد عن تاريخ شفشاون للعلامة الصادق بن ريسون ص : 2.

531) اما عن الفرق الزمني بين القاضي أبي الحسن علي ابن عسكر وبين ولده محمد (936 ـ 986هـ) فذلك مما يدعو إلى التأمل، وليس له من تفسير إلا أن يكون القاضي علي بن عسكر قد ولد له ولده محمد، وهو في سن متقدمة جدا أى في نحو الثمانين من عمره.

عند البرتغاليين في طنجة. وذكر أن خلاصه كان من كرامات أمه ولم يفرده بترجمة خاصة كما فعل مع والدته.

ويبدو أنه عزل من منصبه في القضاء بشفشاون.

2 ـ **القاضي علي بن ميمون** : تؤكده الوثائق(532)، أن الذي تولى منصب القضاء فيما بعد بهذه المدينة : أبو الحسن علي بن ميمون الشريف الإدريسي البوزراتي الغماري،الذي بنى له الأمير علي ابن راشد دارا قرب دار الإمارة، وبقيت هذه الدار تحمل اسم دار الكاتب بن ميمون إلى العهود المتأخرة، بل إلى يومنا هذا عند بعض الشرفاء الريسونيين بشفشاون.

ويستفاد من صاحب الدوحة : أن القاضي علي بن ميمون بعد ما شغل منصب القضاء بشفشاون مدة من الزمن غادر هذا المنصب زاهدا فيه، وفي الحظوة التي كان يحظى بها عند الأمير علي ابن راشد، واتجه الى فاس التي مكث بها سبع سنين، ثم بعد ذلك اتجه الى المشرق سنة (901 هـ/1495 م) مارا بالجزائر وتونس، وبعد ما حج تجول ببلاد الشام وتركيا، وأخير استقر في صالحية دمشق وبقي بالشام الى أن توفي بقرية (مجدل معوش) قرب بيروت سنة : 917 هـ وما يزال قبره مزارة الى الآن.

وإذا كانت بعض الوثائق قد أسعفتنا باسم قاضيين من قضاة الأمير علي ابن راشد بشفشاون، الذي ظل أميرا على المدينة والإقليم الغربي لجبال الريف مدة تزيد عن أربعين سنة، فإنها ـ

---

532) الدوحة ص : 23.

وبكل أسف ـ لم تسعفنا بأسماء قضاة آخرين شغلوا هذا المنصب في عهد هذا الأمير نفسه مع أنه من المؤكد أن علي ابن راشد قد أسند منصب القضاء بشفشاون لغير القضيين السالفي الذكر، لأن القاضي أبا الحسن علي بن ميمون غادر شفشاون متخليا عن منصبه، حوالي سنة (893 هـ / 1487 م) (533).

ومن هذا التاريخ الى موت الأمير علي بن راشد سنة 917 هـ/1511م) لم نعثر على من كان يشتغل منصب القضاء بشفشاون، إلا أنه بعد فترة يسيرة من هذا التاريخ نجد أسماء قضاة آخرين، تتردد إما في كتب النوازل، أو في حوالات حبسية، أو كتب الفقه أو كتب التراجم.

3 ـ **القاضي ابن الحاج** : من قضاة شفشاون على عهد بني راشد : القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحاج الذي شغل منصب القضاء بشفشاون مدة طويلة، فهو قد تقلد هذا المنصب على عهد الأمير ابراهيم بن علي بن راشد، ومن المعلوم أن هذا الأمير، خلف أباه بعد موته (534)، وبقي أميرا على شفشاون الى أن قلده السلطان أحمد الوطاسي منصب الوزارة، وخلال هذه الفترة كان القاضي ابن الحاج يشغل منصب القضاء بشفشاون، وشغل هذا المنصب كذلك خلال عهد الأمير محمد بن علي بن راشد.

---

533) ترجمت لعلي ابن ميمون في (دعوة الحق) ع : 8 : ص : 16 نومبر /1974.

534) انظر مبحث (بني راشد) السالف الذكر.

وذكر ابن عسكر في الدوحة القاضي ابن الحاج عرضا في ترجمة أبي الحجاج يوسف التليدي (ت : 950 هـ) حيث ذكر أن الوزير ابراهيم بن راشد والقاضي ابن الحاج كانا من جملة المودعين للشيخ أبي الحجاج يوسف التليدي (535).

ونجد للقاضي ابن الحاج : فتاوى في نوازل العلمي، الذي سماه ووصفه فقال : «محمد بن أحمد بن الحاج القاضي زمن الرواشد بشفشاون. (536).

ويستفاد من جواب أجابه به الشيخ عبد الواحد بن أحمد الونشريسي (ت : 955 هـ) (537) أن قاضينا هذا، كان ذا شخصية مرموقة، وكان صاحب اهتمام بالقضايا العلمية الرائجة في عصره، ونص هذا الجواب أورده أبو الحسن علي بن عيسى العلمي في نوازله، وهو حول موضوع كان يشغل بال العلماء في ذلك الوقت، وكثر فيه الجدل والاستفتاء : موضوع (عقائد العوام) وفي اقليم شفشاون، وفي هذا الوقت بالذات كان الشيخان : عبد الله الهبطي، وأبو القاسم بن خجو، يحثان الناس على تعلم العقائد، وعلى معرفة الله تعالى، ومعرفة رسله عليهم السلام... ويبدو أن القاضي ابن الحاج كان على خلاف معهما، ولذلك وجه سؤاله الى أبرز شخصية علمية في مدينة فاس الشيخ عبد الواحد الونشريسي، وجاء الجواب هكذا :

---

535) الدوحة ص : 15 : ط : ح : فاس.

536) نوازل العلمي الجزء الأول ص : 120 والجزء الثاني ملزمة 33ص : 6.

537) نوازل العلمي : ج : 2 ملزمة : 33 ص : 6 و7.

(الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وأصحا به،الفقيه الأجل القاضي الأعدل الزكي الأ بر التقي سيدي محمد بن أحمد بن الحاج حملنا الله وإ ياكم على أنعم سبيل وأوضح منهاج، يسلم عليكم محبكم، ومعظمكم باتم التعظيم أفقر العبيد الى الله، وأحوجهم الى عفوه ورضاه عبد الواحد الونشريسي وفقه الله.

والجواب عن الموضوع المسؤول عنه يقع في صفحة ونصف من نوازل العلمي، وهو مدعم بالحجج من الكتاب والسنة، مع مناقشة لرأي أبي حامد الغزالي في موضوع عقائد العوام.

وجاءت الإشارة الى القاضي ا بن الحاج في منظومة الشيخ محمد الصغير الهبطي التي ترجم بها والده، وذلك عندما تحدث عن البلا يا والمحن التي تعرض لها والده، وفي ذلك يقول :

كم سامه بالضرب والتهاون   والي وقاضي الجور بشفشاون
سجنه القاضـي عـدو نفسـه   من غير جرم موجب لحبسه

الخ... (538).

ووالي شفشاون في هذه الفترة هو : محمد بن علي بن راشد، أما القاضي فهو القاضي ا بن الحاج.

ومن المعلوم أن الشيخ عبد الله الهبطي كان ممن ندب نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان عمله هذا يجعله

---

538) المعرب الفصيح في ترجمة الشيخ النصيح ورقة (11) هناك تناقض واضح بين وصف الشيخ عبد الواحد الونشريسي للقاضي ابن الحاج، وبين وصف محمد بن عبد الله الهبطي له، ومن خلال ما أوردناه تتضح أسباب ذلك.

يصطدم بالولاة والحكام، ولذلك كانت هناك عداوة ملموسة بين الشيخ عبد الله الهبطي وبين والي شفشاون محمد بن راشد، ويتجلى ذلك بوضوح فيما حكاه ابن عسكر في الدوحة عن المناظرة بين الشيخين عبد الله الهبطي ومحمد اليسيتني وأثناء هذه المناظرة كان محمد ابن راشد يريد الإيقاع بالشيخ الهبطي. ويتجلى ذلك أيضا في بعض الإشارات التي أشار بها محمد الهبطي حول علاقة والده مع امارة بني راشد (539) ولا شك أن قاضي شفشاون كان مواليا لأمراء بني راشد أولياء نعمته.

4 ـ القاضي محمد ابن عسكر :

وفي سنة 969 هـ/1561م انتهى أمر بني راشد بشفشاون، وانتهى أمر القاضي ابن الحاج معهم، لأنه في هذه السنة بعث السلطان السعدي عبد الله الغالب جيشا للقضاء على نفوذ بني راشد بقيادة ابن أخيه الأمير (محمد بن عبد القادر) وبعد القضاء على إمارة شفشاون أسند السلطان عبد الله الغالب مهمة القضاء والإفتاء الى المتفاني في خدمته ـ القاضي محمد بن عسكر صاحب الدوحة (ت : 986 هـ).

وابن عسكر تاقت نفسه الى هذا المنصب أيام حكم بني راشد لشفشاون إلا أنهم لم يمكنوه منه، بالرغم من أن والده كان يعمل معهم وزيرا وقاضيا، ويبدو أنه منذ أن عزل بنو راشد والده من مهامه التي كان يتولاها لهم لم تتحسن العلاقة بين الأسرتين،

---

539) ترجمة الشيخ عبد الله الهبطي في قسم التراجم.

وهذا مما جعل ابن عسكر يغادر شفشاون غاضبا ويعمل على الاتصال بالسلطان عبد الله الغالب، واستطاع ابن عسكر أن ينجح في التقرب من البلاط السعدي وبذلك أسند له السلطان عبد الله الغالب مهمة القضاء والافتاء بالقصر الكبير (قصر كتامة) وبلاد الهبط، ثم بعد القضاء على نفوذ بني راشد بشفشاون أسند له نفس السلطان مهمة القضاء والإفتاء بهذه المدينة وإقليمها.

مارس ابن عسكر مهمة القضاء بشفشاون وهو يشعر بالانتصار على أعدائه بني راشد، وبأنه قد استطاع أن يثأر لنفسه منهم،

ظل ابن عسكر قاضيا على شفشاون مدة تزيد عن عشر سنين من 969 ـ 981 هـ) وأثناء هذه المدة كانت العلاقة بين القاضي الشفشاوني، والبلاط السعدي لا تزداد الا توطدا ومتانة، الشيء الذي جعل من ابن عسكر أحد رجال البلاط المخلصين، ولذلك سيترك منصبه بشفشاون، ليلتحق بالبلاط السعدي بصفة رسمية، وليكون أحد الملازمين للسلطان والمرافقين له، وتوطدت العلاقة بصفة خاصة بين محمد المتوكل بن عبد الله الغالب (981 ـ 983 هـ) وبين القاضي ابن عسكر وبذلك أصبح ابن عسكر من أبرز شخصيات البلاط السعدي في هذه الفترة.

وأضحى ابن عسكر لا يتأتى له الجميع بين منصب القضاء بشفشاون، وبين مهامه الجديدة في البلاط السعدي، وبما أننا عقدنا ترجمة خاصة لابن عسكر فلا حاجة لإطالة الحديث عنه هنا.

5 ـ القاضي أحمد ابن عرضون :

أسند منصب القضاء بشفشاون للقاضي أبي العباس أحمد بن الحسن ابن عرضون، ولا يبعد أن يكون ذلك بإيعاز من ابن عسكر نفسه، لأن ابن عسكر كان مخلصا تمام الإخلاص لشيخه أبي محمد عبد الله الهبطي.

ومن المعلوم أن زوجة الشيخ عبد الله الهبطي (السيدة آمنة بن خجو) هي عمة والدة أحمد بن عرضون، التي هي بنت الشيخ أبي القاسم بن خجو.

وكانت أسرة الهبطي، وابن خجو، وابن عرضون، تكون ثالوثا متضامنا وكان ابن عسكر صديقا حميما ومخلصا لأسرتي شيخيه الهبطي، وابن خجو، واحتفظ له ابن شيخه محمد بن عبد الله الهبطي بجميل هذا الإخلاص، فاعتذر عنه بعد موته في معركة وادي المخازن، تلك الموتة الشنيعة، اعتذر عنه في وقت كان الحديث عن ابن عسكر بالجميل يعد جريمة في نظر الجميع... والغالب على الظن أن كلمة ابن عسكر كانت مسموعة عند السلطان عبد الله الغالب، وعند ولده محمد المتوكل.

ومهما يكن من أمر فإن أحمد بن الحسن بن عرضون أصبح قاضيا بشفشاون ابتداء من عهد محمد المتوكل (983/981 هـ/ 1573 ـ 1575 م) وأحمد ابن عرضون، كان من القضاة الذين يفتخر بهم هذا المنصب، وكان ذا مواهب في ميدان القضاء والافتاء وصاحب مؤلفات عديدة تدل على غزارة علمه، وسعة

اطلاعه. والذين ترجموا له أو نقلوا عنه يتحدثون عنه بإعجاب وتقدير (540) لأن الرجل جمع بين العلم والتواضع.

مر كلام القاضي محمد مخشان وكلام العلامة المفتي أبي حامد محمد العربي الفاسي عن قاضينا هذا ووصفهما له بأنه قاضي العدل، وبأنه موثوق بكلامه وكتابته... (541).

ظل أحمد ابن عرضون قاضيا على شفشاون نحو عشر سنين، وهذه السنوات العشر تقع ما بين سنة : (982 ـ 992 هـ) وهي فترة ذات أحداث جسام في تاريخ المغرب.

ففي سنة (983 هـ/1575 م) دخل أبو مروان عبد الملك المعتصم وأخوه أحمد (المنصور) من الجزائر ومعهما جيش من الأتراك، وانقضا على ابن أخيهما محمد المتوكل، وكانت الأحداث جساما، ودام هذا الصراع بين الملك الطريد محمد المتوكل وبين عميه ما يزيد عن سنتين، ثم بعد ذلك لجأ المتوكل الى البرتغال وسلم لهم مدينة أصيلا التي كانت قد تحررت من احتلالهم بعد جهد جهيد سنة : (1550/957). ومعنى هذا أن الأحداث كانت قاسية في هذه الفترة وبخاصة بشمال البلاد، كل هذا وأحمد ابن عرضون لم تمض على تعيينه إلا مدة قصيرة من الزمن.

---

540) من الذين ترجموا لأحمد ابن عرضون ابن القاضي في الجذوة : 1 : 160 وأحمد بن عجيبة بأزهار البستان : 1 : 141 وصاحب السلوة : 2 : 268، ومحمد المرير في (الأبحاث السامية 2 : 197، والدكتور ع. الهادى التازى في (جامع القرويين : 2 : 512 وشجرة النور : 286، وقدم عنه أخونا الأستاذ عمر الجيدي رسالة لنيل ديبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية بالرباط.

541) انظر : مبحث دور المسجد في هذا العصر. (من هذا البحث).

ثم بعد ذلك تهيأ المغرب المسلم ليخوض معركة فاصلة مع البرتغاليين ومع صليبي أوربا. فخاض معركة وادي المخازن سنة (1578/986) وفي هذه الفترة كان صاحبنا أحمد ا بن عرضون هو القاضي بشفشاون، وكانت هذه المدينة من بين المناطق التي شاركت في هذه المعركة مشاركة فعالة (542) وانتهت المعركة بالنصر المبين، وأصبح المغرب يعيش فترة جديدة من حياته، وظل صاحبنا القاضي في منصبه بشفشاون على عهد أحمد المنصور الى أن توفي سنة (992 هـ) وكان أثناء مزاولته لمنصب القضاء يتعاطى التأليف، والتدريس، والإفتاء، وكان نشيطا في عمله، وفي نفس الوقت كان يعتني بتربية أبنائه، وشؤون أسرته، ويبدوا أن منصب القضاء لم يشغله عن التأليف في مواضيع مختلفة فقاضينا هذا صاحب عدة كتب منها :

1 ـ كتاب : اللائق لمعلم الوثائق، ذلك الكتاب الذي يعد من أهم الكتب التي ألفت في موضوعه، ومنذ ألفه صاحبه وهو متداول بين الناس لا يستغني عنه الموثقون من قضاة وعدول ومفتين... وكل من يهمه أمر التوثيق (543).

2 ـ كتاب (مقنع المحتاج في آداب الأزواج) وهو كتاب لطيف في بابه ينقل عن مصادر أمهات، ويتناول قضايا الزواج من مختلف جوانبها، كما يتناول تربية الأطفال وتعليمهم ويتحدث

542) مجلة دعوة الحق العدد الثامن من السنة 19 ص : 51 ضمن وثيقة الطبيب اليهودى طبيب السلطان عبد الملك السعدى ترجمة الأستاذ محمد بن تاويت.

543) هذا الكتاب طبع على الحجر بفاس مرارا وطبع على الحروف بتطوان 1953.

عن العادات، في الولائم والحفلات وغيرها. يعالج هذه المواضيع ويصف وقائع مجتمعه بدقة ووعي وذكاء... ويرشد القارىء الى أحسن الطرق وأقوم السبل للوصول بحياة الأسرة الى الوئام والسعادة.

ويرى أن سعادة الأسرة تنبنى على أسس في مقدمتها : الوعي، والصحة والوئام.

والكتاب يقع في مجلد كبير، شيق وجذاب (544).

3 ـ كتاب حدائق الأنوار في الصلاة على النبي المختار (545)

4 ـ كتاب (شرح أسماء الله الحسنى) (546)

5 ـ كتاب (رسالة التوادد والتحابب) (547).

الى غير ذلك من الكتب والفتاوي المبثوثة في كتب النوازل (548).

6 ـ القاضي محمد بن عرضون :

وبعد موت القاضي أحمد ابن الحسن بن عرضون سنة 992 هـ/1584 م) تولى منصب القضاء بشفشاون شقيقه أبو عبد

544) مخطوط خ. ع. ر : 1026 ك وتوجد له نسخ أخرى بالخزانة الملكية بالرباط، ولهذا الكتاب مختصر متداول طبع على الحجر بفاس.

545) مخطوط المكتبة العامة بتطوان 875 ونسخة أخرى بالمكتبة الملكية بالرباط.

546) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط : 5696 ك.

547) مخطوط خ. ع. ت : 826، عرفت بهذا الكتاب بمجلة البحث العلمي : ع : 27 : 395.

548) لأحمد بن الحسن بن عرضون عدة فتاوى وآراء فقهية مبثوثة في كتب النوازل وكتب الفقه وتوجد له بنوازل العلمي مجموعة هامة من الفتاوى.

الله محمد بن الحسن بن عرضون الزجلي ثم الشفشاوني (1012 هـ/1603 م) وذلك على عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي عرف المغرب في عهده عظمة وازدهارا.

نجد بعض المترجمين للقاضي محمد ا بن عرضون يصفونه بقاضي القضاة (549) ومعنى ذلك أنه كان القاضي الذي يعين قضاة النواحي والأقاليم التا بعة لمنطقة قضائه.

وقاضينا هذا تثقف أول الأمر ببلده ببني زجل ثم بعد ذلك قصد القرويين بفاس لإتمام دراسته... و بما أننا عقدنا له ترجمة خاصة، فلا داعي هنا لذكر التفصيلات عن حياته.

استمر محمد بن عرضون قاضيا على شفشاون من سنة (992 هـ الى سنة 1012 هـ) وهي مدة تبلغ عشرين سنة، وإذا أضفنا إليها مدة عشر سنين شغلها أخوه القاضي أحمد في هذا المنصب، تكون مدة تولى الأخوين العرضونيين لمنصب القضاء بمدينة شفشاون ثلاثين سنة، وجاء التصريح بتوليتهما القضاء طوال هذه المدة في حوالة حبسية تضمنت نص استفتاء من القاضي أبي عبد الله محمد مخشان (ت : 1042 هـ) وفتوى من العلامة محمد العربي الفاسي مؤلف مرآة المحاسن، وفي هذه الوثيقة جاء التصريح باسم القاضيين العرضونيين، والتنصيص على المدة التي شغلا فيها منصب القضاء بشفشاون (550).

---

549) ابن القاضي في درة الحجال في ترجمة الشيخ أحمد بن يحيى العلمي ج : 1 : ص : 101 و102. ط. ح. ف.

550) الحولات الحبسية للمسجد الأعظم بشفشاون المجلد : 2 ص : 146.

ج ـ الدور الثقافي لبعض القضاة :

هذه نبذة يسيرة عن قضاة شفشاون في القرن العاشر الهجري وهذا الترتيب الزمني لهم هو ما أدى إليه الاجتهاد حسبما أسعفت به النصوص القليلة جدا في هذا الموضوع ورجائي أن أعثر على نصوص أخرى تعطينا مزيدا من المعلومات عن قضاة شفشاون في هذه الفترة وعلى الخصوص بالنسبة للمدة الواقعة بين القاضي علي بن ميمون (ت : 917 هـ) والقاضي ابن الحاج (969 هـ).

وبتعرفنا على هؤلاء القضاة رأينا مقدار مشاركتهم في الحياة الفكرية بهذه المدينة، وهي مشاركة تجلت في التدريس، والتأليف، والافتاء، وما إلى ذلك.

بل كان بعض القضاة يجعل من نفسه مسيرا للمعاهد العلمية بمنطقة قضائه، فيتدخل في تعيين المدرسين وتقدير اعطياتهم ورواتبهم..

ومن القضاة الذين أسهموا في تنشيط الحياة الثقافية بأحواز شفشاون قاضي بني زجل محمد الصغير بن عبد الله الهبطي، وقد مرت الإشارة إليه في مبحث معهد المواهب، وتأتي ترجمته بحول الله.

وقاضي شفشاون أحمد بن علي العلمي وستأتي ترجمته بقسم التراجم إن شاء الله.

المبحث السابع:

مراسلات ثقافية بين فاس وشفشاون

نماذج من هذه المراسلات :

1 ـ بين الشيخ محمد بن أحمد ابن الحاج وبين شيخ الجماعة بفاس عبد الواحد الونشريسي.

2 ـ بين الشيخ محمد ابن عرضون وبين شيخ الجماعة محمد القصار.

3 ـ بين الشيخ محمد القصار وبين الشيخ أحمد بن علي العلمي.

بالرجوع إلى المصادر عن هذه الفترة نجد أن حب الثقافة والاهتمام بالفكر وقضاياه، كان ظاهرة سائدة بين الطلاب والشيوخ، ويتجلى الحرص على المزيد من المعرفة في مراسلات علمية تهدف إلى البحث عن الحقيقة والسعي وراء توسيع الأفق الفكري.

ومن حسن الحظ أن بعض المصادر احتفظت ببعض المراسلات التي كانت تربط ثقافيا بين الشيوخ وتلامذتهم، وبين الشيوخ فيما بينهم، ومن قراءتنا لهذه المراسلات نلاحظ أنها كانت تجري في جو من التواضع وحب البحث، فهي مراسلات تكتسي بالإضافة إلى صبغتها الثقافية رونقا من التفاني في حب المعرفة لذات المعرفة، ومسحة من التواضع الذي هو من أبرز صفات العلماء الباحثين.

- نماذج من هذه المراسلات

1 - ومن نماذج المراسلات العلمية بين شفشاون وفاس، مراسلة بين الشيخ أبي عبد الله محمد ابن الحاج قاضي شفشاون المتوفى بعد سنة (969 هـ) وبين الشيخ عبد الواحد الونشريسي شيخ الجماعة بفاس (ت : 955 هـ) وقد أشرنا إلى هذه المراسلة عند الكلام عن القاضي ابن الحاج ونقلنا صدر جواب الونشريسي عليه، إلا أنه تتميما للفائدة ننقل بعض فقرات جواب الونشريسي هنا لنعرف مقدار الأهمية التي كانت تكتسيها المراسلات العلمية بين فاس وشفشاون، يقول الونشريسي :

«... وإذا لم يكن بد من أسعافكم فأقول : والله الموفق بفضله أن الذي عليه جمهور أهل السنة أنه لا يكفي في العقائد التقليد، للآيات والأحاديث الدالة على إعمال الفكر، وإجالة النظر فيما يوصل إلى معرفة الرب سبحانه وتعالى، وقد ذم الله التقليد في غير ما آية من كتابه، والتقليد هو قبول قول الغير بغير دليل، وهو مأخوذ من القلادة، وهي الحبل الذي يوضع في عنق البعير لكون المقلد أو كل أمره إلى من قلده فهو يقوده كما يقود البعير.

وقول أبي حامد الغزالي (ض) لا تحرك عقائد العامة ويتركون على ما هم عليه، محمول عند بعض أكابر أفاضل المتأخرين على ما إذا لم يظهر المنكر في عقائدهم كزمننا هذا فيجب تغيير المنكر والتلطف في تعليمهم بما تسعه أفهامهم.

وتأملوا أعزكم الله ما وقع في جواب الفقيه الوغليسي (551) الذي نقلتموه في القسم الثالث، وقابلوه بما نقله الوالد المرحوم في نوازله، آخر كتاب الصلاة من شامل ابن عرفة، وحكاية الطالب الذي نقل من الأعمال ما نقل في مجلس تدريس بين يدي السلطان في حضرة الجلة الأعلام رحمهم الله، هذا ما حضرني كتبه باختصار كثير، على اعتراف مني بالعجز والتقصير (552).

551) أبو زيد عبد الرحمن الفقيه الأصولي المحدث المفسر، شيخ الجماعة ببجاية له تآليف كثيرة منها : (الاحكام الفقهية التي تسمى (الوغليسية)) توفي سنة : 786 هـ انظر شجرة النور ص : 237.

552) نوازل العلمي، ج : 2 : ملزمة 33 ص : 6، 7، 8 المطبعة الحجرية بفاس 1332/1913.

ورسالة الونشريسي التي اقتطفنا منها هذه الفقرات هي جواب عن سؤال طويل حول موضوع عقائد العوام ذلك الموضوع الذي شغل بال علمائنا، فترة (553) من الزمن، وهي رسالة تحمل الطابع العلمي من حيث إعطاء وجهة النظر بالدلائل والحجج والإحالة على المصادر.

2 ـ ومن نماذج هذه المراسلات العلمية مراسلة بين قاضي شفشاون محمد بن الحسن بن عرضون وبين الشيخ أبي عبد الله محمد القصار (ت : 1604/1012) شيخ الجماعة بفاس في عصره، عن هذه المراسلة يقول صاحب مرآة المحاسن... وجدت بخط شيخنا العلامة القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن بن عرضون رحمه الله تعالى كتابا كتبه الى شيخنا شيخ الإسلام أبي عبد الله القصار رحمه الله تعالى قال فيه «وما أوضحتم من أن دليلي الشيخ السنوسي دليل مستقل لا يتوقف على شيء من مقدمات الثاني فقد بان لنا وقبلناه، وإنما انتقلنا الآن الى ما لاح لنا من بيان صحته واستقلاله، ذلك أنه ظهر لنا أن قوله الزائد لم يكن ثم كان ضروري فالنطفة زنتها مثلا أوقية، وقد صارت زنتها أضعاف ذلك، فالزائد لم يكن فيها ثم كان فهو حادث ضرورة إذ لا معنى للحدث إلا ذلك، غاية ما يبقى تعيين المحدث له، هل هو الفاعل المختار، وهو المطلوب، أو الطعام ولبن الأم ؟ وقد أبطل الثاني بما أبداه من قوله : فتعلم أن لصانعك اختيارا الى آخره، فتعين

---

553) لخص د. محمد حجي بعض الآراء في هذا الموضوع في كتاب (الحركة الفكرية في عهد السعديين) ج : 1 : 287.

الأول، فقد صار الدليل مستقلا. هذا ما لاح لنا وإليكم المفزع في حل المشكلات وما كثرت مراجعتنا لكم في هذه المسألة إلا من أجل أن النفس لم ينقطع حديثها النفسي، لا من أجل أمر زائد، ومسألة القدرة الحادثة نقل الشيخ: بأنها تؤثر في المقدور على أقدار قدرها الله سبحانه، ثم اعترضه بأن التأثير الذي أثبته هذا القائل للقدرة الحادثة أما أن يكون وصفا نفسيا أو لا. وأبطل الثاني بأنه يؤدى الى التسلسل، وأبطل الأول بأن التأثير إذا قدرناه نفسي، لم يتوقف على شيء أصلا، فأشكلت علينا هذه العبارة مع قوله في شرط تأثير القدرة الأزلية موقوف على إرادته تعالى ذلك مع أن التأثير للقدرة الأزلية وصف نفسي وقد توقف على إرادته تعالى فاللازم كاللازم... (554).

فالشيخ محمد بن عرضون بعد ما عرض المشكل في رسالته على الشيخ القصار، يترجاه في أن يسرع بالجواب، لأن الاشكال يشغل باله.

ولذا ختم هذه الرسالة العلمية بقوله: «فأزح بنور علمكم هذا الاشكال بما يمنحكم الكريم المتعال، وعجل علينا به لأنه تعلق به البال. والله تعالى يديمكم للحق تنصرونه، وللعلم تظهرونه والسلام» (555).

554) مرآة المحاسن: 173.

555) نفس المصدر.

فالرسالة تكشف بوضوح أنها لم تكن الأولى من نوعها بل كانت بين الرجلين مراسلات علمية عديدة وفي مواضيع مختلفة من فروع العلم والمعرفة.

ونلمس من هذه الرسالة رغبة السائل في طلب المعرفة وحل مشاكلها المستعصية.

والسؤال كما هو واضح حول موضوع فلسفي عقائدي يتعلق بالقدرة ومدى تعلقها بالمخلوقات والموجودات، ولذا فالأسئلة عميقة، والرغبة أكيدة، وكل ذلك في أسلوب مهذب، وبروح علمية مرنة تبحث عن الحقائق العلمية وعن المزيد من التزود بالمعرفة.

3 ـ ومن هذه المراسلات مراسلة أخرى بين الشيخ القصار نفسه وبين تلميذه أبي العباس أحمد بن علي العلمي قاضي شفشاون (ت : 1027 هـ) وهي مراسلة ذات دلالة وقيمة في الميدان الفكري، ومما جاء فيها قول الشيخ القصار :... «وفرحت غاية بختمك الصغرى فشد روحك وطالع كتب الشيخ السنوسي... وشاور غير واحد، والمومن وقاف.

وكتاب ابن مالك : الفوائد المحوية، في المقاصد النحوية، فيه ما في الكافية ووري به في قوله : «ومقاصد النحو بها محوية» والتورية لا يلزم منها أن يكون ما في الألفية ما فيه، وكذلك في اسم التسهيل، مع الإشارة به الى أن الفوائد جمع لا نظير له. الظاهر أنه أراد الفوائد المحوية، وكان هذا قبل تأليف التسهيل، ويحتمل على بعد أن يكون أراد تسهيل الفوائد وعبر عنه بالفوائد لضيق النظم، وبعد هذا التحقيق يظهر لك الصحيح والفاسد مما

في النكت، والجواب عن المسألة التي قبل هذه في النكت، أن المهمات أعم من المقاصد»...

وأعجبني اقراؤك الرسالة، وفرحت به لاسيما إذا اقتصرت على المحتاج إليه وختمتها سريعا، وكذلك اقراؤك الخراز أعجبني، واعتمد على ابن آجطا فإن نقله صحيح جدا، وكثير من شروح الخراز فيه تحريف، نفعك الله ونفع بك، وإذا رأيت تأليفا لا تتحقق اني رأيته فاعلمني به، والمراد أن الإنسان يموت طالبا للعلم، اماتنا الله على الإيمان والتوبة والسنة (556).

وما تزال هذه الرسالة طويلة وهي تدل على حدب الشيخ على تلميذه ولذا فهو يتعهده بالفائدة ولو بعد انصرافه عن المعهد وتخرجه منه فالرسالة تدل على أن الشيخ ما زال يتتبع ويراقب أعمال تلميذه عن بعد، وبواسطة المراسلة المستمرة بينهما.

فالصلة بينهما لم تنقطع بمجرد تخرج الطالب ومغادرته لحلقات الدروس فالروابط ما تزال مستمرة بينهما بواسطة هذه المراسلات العلمية، فالطالب المتخرج ما زال يسأل والشيخ ما زال يجيب ويتعهد وينبه ويرشد ويشجع ويذكي الحماس الثقافي...

هذه روح علمية بناءة، وتربية جامعية عالية.

وهناك نماذج متعددة لمثل هذه المراسلات أوردتها كتب النوازل وبعض كتب التراجم، وهي دالة على متانة الروابط الثقافية بين علماء جامع القرويين بفاس، وبين علماء هذه المنطقة.

---

556) نفس المصدر السالف ص : 171.



«شفشاون (المغرب) : منظر ساحة إسبانيا من مدينة شفشاون بعدما احتلت من جديد من طرف القوات الاسبانية» التقطت هذه الصورة عقب الحرب الريفية مباشرة وذلك سنة 1926 وتبدو في الصورة (ساحة الحمام) التي أطلق عليها الاسبان (ساحة إسبانيا) بعد احتلالهم للمدينة،وصومعة الجامع الكبير- المسجد الأعظم - بشفشاون والأبنية المحيطة به

القسم الثالث

نماذج من مثقفي هذه المنطقة

توطئـــــة :

أ ـ أبو القاسم بن خجـــو

ب ـ أبو محمد عبد الله الهبطي.

ج ـ أبو الحجاج يوسف التليدى.

د ـ أبو عبد الله محمد بن عسكر.

هـ ـ أبو عبد الله محمد الصغير الهبطي.

و ـ أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عرضون.

ز ـ أبو العباس أحمد بن يحيى العلمي الشفشاوني.

ح ـ أبو العباس أحمد بن علي العلمي.

ط ـ بنو يلصو الزرويليون.

تمهيـــــــد

المقصود من هذا القسم : التعريف ببعض الشخصيات من المنطقة في هذه الفترة، وقد سبقت الإشارة إلـى مجموعـــة منهم في القسم الثاني من هذا البحث إشارة عا برة ومقتضبة.

وحاولت في التعريف بهم إعطاء نظرة عن حياتهم وثقافتهم، ودعواتهم، وأعمالهم في المجال الفكرى، والاجتماعي... حسبما أسعفت به المصادر، وجادت به بعض المخطوطات والتقا ييد.

وحاولت جهد الإمكان أن يكون تعريفي بهم يعكس جانبا من النشاط الثقافي في هذه المنطقة، كما يعكس نشاط المترجم نفسه، وذلك مما يعين على فهم الحياة الفكرية في هذه الفترة، ويلقي بعض الضوء على جوانب غامضة من الحياة الثقافية في هذا العصر ويا ما أكثر الجوانب الغامضة التي تحتاج إلى الكشف عنها وإلى تسليط الأضواء عليها.

ومعظم أفراد هذه المجموعة التي يتناولها هذا القسم هم من اللذين كانوا في منطقة الظل، بل منهم من كان في زوايا النسيان والإهمال.

وختمت هذه التراجم بالتعريف ببني يلصو ببني زرويل قرب شفشاون، وهم فرقة من الاخماس السفلى كثر بها العلماء والأد باء والفقهاء والقراء والقضاة..

وهذا مما يلقي أضواء على الحياة الفكرية بهذه المنطقة.

أ ـ الشيخ أبو القاسم بن خجو (ت : 956هـ ـ 1549م)

عاش مترجمنا في صميم عهد الإمارة الراشدية بشفشاون، وأدرك جزء من حياة مؤسسي مدينة شفشاون، علي بن موسى بن راشد، وعندما مات هذا الأمير كان مترجمنا في نحو الثلاثين من عمره، وتوالت الإمارة الراشدية إلى ما بعد حياة صاحبنا (887هـ ـ 956م) وبذلك يكون قد عاصر الإمارة الراشدية بشمال المغرب ابتداء من حياة مؤسسها إلى ما قبل نهايتها بنحو ثلاث عشرة سنة، فهو إذن قد عاش ابان ازدهار هذه الإمارة وعرف ثلاثة من أمرائها : علي بن راشد، وولديه ابراهيم ومحمد (557).

وتعرف مترجمنا في آخر حياته على السلطان محمد الشيخ السعدى الذى قدر علمه وخلقه ومواهبه..

نشأته وحياته :

ينتسب الشيخ أبو القاسم بن علي بن خجو الحساني الخلوفي إلى أسرة (558) عريقة في شمال المغرب ببني حسان بجبال غمارة جوار مدينة شفشاون.

---

557) أنظر المبحث الثاني من القسم الأول أسرة بني راشد.

558) جاء في مقال منشور بمجلة (لسان الدين) ج : 4 شعبان 1373/ أبريل 1954، ص : 17 تحت عنوان (أنساب شريفة بالناحية الجبلية) أن أسرة ابن خجو تنتسب إلى الصحابي الجليل حسان ابن ثابت رضي الله عنه، وهذا غير صحيح لأنه جاء في كتاب (المعارف) لابن قتيبة ما يلي :

«حسان بن ثابت بن المنذر (رضي الله عنه) هو من الأنصار ويكنى أبا الوليد وأمه

ونبغ من هذه الأسرة مجموعة من القراء، وفقهاء الدين، وحفاظ الشريعة.. فوالده علي كان فقيها، وكذا أخوه الحسن الذى نجد له فتاوى عديدة في كتب النوازل ، مثل : نوازل العلمي (559) وأخته آمنة كانت فقيهة، فهو إذن ينتمي إلى أسرة علم وثقافة ودين.. وله ولد يسمى عليا كان من العلماء خلف أباه في الفتيا، وله فتاوى في كتب النوازل (560).

نشأ مترجمنا في حومة (سعادة) من مدشر (أسلاف) من فرقة (بني امهارون) بني حسان (561).

الفريعة خزرجية... وولد له عبد الرحمن بن حسان من أخت مارية القبطية أم ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت تسمى (شيرين) وكان عبد الرحمن شاعرا وابنه سعيد بن عبد الرحمن، وانقرض ولده، فلم يبق منهم أحد». المعارف : ص : 135 و136 الطبعة 2 دار إحياء التراث العربي بيروت 1970.

وجاء في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ما يلي :

«حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، وولد حسان عبد الرحمن وهو ابن خالة ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عبد الرحمن هو سعيد، وقد انقرض عقب حسان ابن ثابت رضي الله عنه، واسماعيل بن عبد الرحمن بن حسان قتل يوم الحرة». (الجمهرة : ص : 347. بتحقيق عبد السلام هارون. ط : دار المعارف بمصر : 1962). وحسان ابن ثابت (رضي الله عنه) له ترجمة هامة في الإصابة لابن حجر : ج 1 : 326. ط : دار صادر عن الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بمصر : سنة 1328. وترجم له ابن عبد البر في الاستيعاب أنظر هامش الإصابة نفس الطبعة السالفة : ج 1 : 335.

559) أنظر مثلا الجزء الأول من نوازل العلمي ص : 178 فتوى في موضوع الزيت الملوث هل يجوز استعماله في الصابون أم لا ؟ وله بهذه النوازل عدة فتاوى.

560) أنظر نوازل العلمي : ج 2 : 384 ـ في مسائل الهبة والعمرى.

561) تشتمل قبيلة بني حسان على ثلاث فرق رئيسية وهي :

أ ـ بنو علي.

ب ـ بنو امهارون.

ج ـ الخمس.

وهذه القبيلة تقع بين شفشاون وتطوان..

ويقع مدشر اسلاف في الناحية الشرقية من القبيلة الحسانية وهذه الجهة تجاور قبيلة بني زجل، ومركز قيادتها تلمبوط، ويرتبط هذا المركز حاليا بشفشاون بواسطة طريق ثانوية تتفرع على بعد عشر (كلم) من شفشاون في اتجاه تطوان، من مكان يسمى (دار أقويع).

تعلم مترجمنا بكتاب المدشر وتعهدته أسرته بالعناية والرعاية والتربية الحسنة، وبعدما حفظ القرآن الكريم ونبغ فيه أخذ يدرس قواعد اللغة العربية والفقه المالكي والعقائد والمنطق والأصول، والتصوف...

وبعد أخذه من كل الفنون المعروفة في وقته بنصيب وافر تاقت نفسه لاستكمال دراسته بمدينة فاس، ولسنا ندرى بالضبط متى انتقل إليها وإنما الذى نعلمه أن مشيخته بفاس كانت تتمثل في كبار العلماء والفقهاء والقراء.. وقد أطال المكوث بفاس، إلى درجة أنها أصبحت المدينة المفضلة عنده، فهو بالرغم من رجوعه لبلده واشتهاره بعلمه وفضله حيث أصبح أحد أركان الفتيا في بلاد الهبط وجبال غمارة، وأصبح يشار إليه بالبنان، بالرغم من بلوغه هذه المنزلة في بلده من الشهرة والعلم كان لا يفتأ يذكر فاس، وأيام فاس وشيوخه بفاس.

شيوخـــه :

درس مترجمنا بجبال غمارة على عدد من الفقهاء والقراء، ذكر مجموعة منهم ـ عرضا ـ في إحدى فتاوية فقال :

«وأدركنا شيوخنا (...) : كسيدى يوسف بن سرحان» وأخيه سيدى علي، وسيدى عبد الله بن القاسم بن فرحون، وسيدى موسى اليدوني، وسيدى الحسن بن سكنان، وسيدى يوسف بن عثمان، وسيدى الحسن بن حماد، وسيدى محمد بن أبي سعيد، وسيدى عبد الله بن تاصبانت، وسيدى الحسن الغراس، وسيدى العافية، وغيرهم خالطناهم بالمجاورة والقراءة...» (562).

وأخذ ببلده التصوف عن شيخه أبي محمد عبد الهبطي (563) وأدرك بفاس جماعة من كبار علماء المغرب في ذلك العصر، وحظي بالاستفادة منهم، وسماع محاضراتهم، ودروسهم العلمية، درس على أبي عبد الله محمد ابن غازي المكناسي (ت : 919هـ) وعلى أبي العباس أحمد زرق البرنوصي (ت : 899هـ) وعلى الأستاذ أبي عبد الله محمد بن جمعة الهبطي الصماتي (ت 930) صاحب وقف القرآن، وعلى الشيخ أبي العباس أحمد الزقاق (ت : 932هـ) وغيرهم... كابن العقدة الأغصاوى (ت : 911 هـ) فحل المدونة (564) واستفاد من هؤلاء جميعا علما غزيرا، ومعرفة واسعة، فأفاد من كل واحد منهم في ميدان اختصاصه، ولم يرجع إلى بلده إلا وقد امتلأ وطابه، واكتملت ملكته، واتسعت مداركه، وتعمق إدراكه..

562) نوازل العلمي : ج 2 : ص : 110.
563) الدوحة : ص : 13.
564) نوازل العلمي : 2 : ملزمة 28. ص : 3. في موضوع : هل تجوز العقوبة بالمال ؟

وكل ذلك أهله ليقوم بدوره خير قيام، في التدريس والافتاء والإرشاد الإصلاح، وتحمل عن وعي وإدراك مسؤوليته الفكرية والثقافية، والتربوية.. فأصبح المدرس الناجح، والمفتي اللامع، والموجه والمصلح الاجتماعي..

تلامذتـــه :

له عدة تلاميذ، منهم : القاضي أبو عبد الله محمد بن عسكر صاحب دوحة الناشر الذى خصه في دوحته بترجمة هامة.

ومنهم ابنا ابنته القاضيان، أحمد ومحمد ابنا عرضون الزجليان الشفشاونيان. وينوه به كثيرا حفيده أحمد ابن عرضون في كتبه، وبخاصة في كتابه (مقنع المحتاج في آداب الأزواج) (565) ومنهم ولده علي بن خجو الذى تصدر للافتاء بعد أبيه.

ومنهم أخته آمنة بن خجو زوجة الشيخ عبد الله الهبطي.
ومنهم أبو عمران موسى الوزاني (ت : 969هـ) وغيرهم..

انتاجــه الفكــــرى :

اشتهر أبو القاسم بن خجو في ميدان الفتيا فكانت تنهال عليه الأسئلة، والاستفتاءات من مختلف الجهات والأقاليم، فيجيب عنها بأجوبة تدل على سعة اطلاعه وغزارة علمه.

565) مخطوط خ. ع، تحت رقم : 1845. وهو مختصر من كتابه غنيمة السلماني.

وكان يعمل على فتاويه كبار العلماء، ويذكر لنا صاحب الدوحة أن شيخه عبد الله الهبطي كان يعمل بمقتضى فتاويه لورعه ورسوخ علمه.

ولأبي القاسم بن خجو فتاوى عديدة في مختلف أبواب الفقه المالكي.

وبالإضافة إلى فتاويه التي امتلأت بها صفحات كتب النوازل مثل نوازل العلمي، ونوازل الزياتي، ونوازل الوزاني (المعيار الجديد). نجد له بعض المؤلفات منها :

1 ـ غنيمة السلماني.

2 ـ ضياء النهار المجلى لغمام الأبصار في نصرة أهل السنة الفقراء الأخيار (●).

3 ـ شرح مسائل. بيوع ابن جماعة (566).

4 ـ شرح منظومة الشيخ عبد الله الهبطي في العدة (567).

●) توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط بقسم المخطوطات تحت رقم : 1845 د. ضمن مجموع.

566) ذكر في هذا الشرح جملة من البدع الشائعة في عصره وهو في نحو أربعين صفحة مخطوط خاص بطنجة، وذكره صاحب النبوغ المغربي : ج : 1 : ص 185 تطوان.

567) هي منظومة صغيرة للشيخ عبد الله الهبطي في العدة والاستبراء والحضانة توجد من بين منظوماته المخطوطة، وعلى هذه المنظومة شرح آخر، للفقيه محمد بن عيسى العلمي يوجد بالمكتبة العامة بتطوان تحت رقم : 654، ضمن مجموع. وبالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 927. د.

أما شرح أبي القاسم بن خجو لهذه المنظومة فهو موجود في بعض المكتبات . انظر فهرس الوثائق والمخطوطات لمعرض الحسن الثاني لسنة 1976، ص : 63 الرقم الترتيبي : 741، والرقم الخاص (24 : ت) بمدينة شفشاون، وفي نفس الفهرس ص : 62 توجد نسخة أخرى من هذا الشرح بمدينة وجدة،وعثرت على نسخة منه بمكتبة كوبنهاكن عاصمة الدنمارك، مخطوطة رقم : 2، 52 ب.

5 ـ النصائح فيما يحرم من الأنكحة والذبائح (568).

6 ـ الحكم المنتخب من عيون الحكم (569).

7 ـ شرح أرجوزة (هداية المسكين لمن أرادها من أهل الدين) (570).

مكانته العلمية ودعوته الإصلاحية :

أصبح مترجمنا ذا مكانة علمية لتضلعه في الفقه المالكي، ولذيوع صيته في ميدان الافتاء حيث أصبحت فتاويه لها قيمتها ومكانتها في نفوس العلماء.

وكانت ترد عليه الفتاوى من الأقاليم البعيدة ويحدثنا صاحب نوازل العلمي عن فتاويه التي كان قضاة فاس يحسبون حسابها، وجاء في إحدى فتاويه في موضوع التعدى على الماشية التي تقع في الزرع ـ بالذبح والعقر ـ ورد في آخر هذه الفتوى

---

568) يوجد ضمن مجموع بالمكتبة العامة بتطوان يحمل رقم : 353، ص : 299 وذكره صاحب سلوة الأنفاس في ترجمة المؤلف انظر : 2:149.

569) انظر : فهرس الوثائق والمخطوطات لمعرض الحسن الثاني سنة 1974، الرقم الترتيبي للكتاب 1928 (إقليم بن ملال).

570) ذكره أبو الشتاء الصنهاجي في كتابه (مواهب الخلاق ج : 2 ص : 405، ط : الأمنية بالرباط.

قوله : «.. ويجب على من فوت بهيمة على ربها غرم قيمتها صحيحة سليمة مع النكال، وفي أكلها نظر، وأحرى إن كان ذا بحها لم يستحضر نية الذكاة، وأحرى إذا كان من الجهال الاجلاف.. ومن تعدى على الدين وعلى خلق رب العالمين تؤخذ بهيمته أو شيء من ماله ويدفع للأسارى الذين لهم حق في جميع أموال المسلمين لاستنقاذهم بها من يد الكافرين، أدبا وزجرا للظالمين، وذلك سائغ وخارج عن الخلاف عندى، فانظر ابن عرفة وغيرهما من دواوين المالكية في الجهاد وفي فداء الأسرى من النصارى..» قال العلمي بعد نقل السؤال والفتوى الطويلة الهامة : «وتقيد عقبه بقول ناسخه موسى بن علي بن موسى الوزاني : اني حضرت مشاركة المجيب المذكور أعني سيدى أبا القاسم بن خجو في الحالة المتقدمة للفقيه القاضي سيدى محمد الشامي بفاس..» (571) وهذ الجزء الأخير من الفتوى بالرغم من كونه كشاهد على شهرته ومكانته العلمية خارج جبال غمارة وبلاد الهبط، فإننا نجد فيه أن صاحبنا كان يترصد الفرص ليحث على العناية بفكاك الأسرى من يد العدو الغاشم، ولذلك فهو يؤكد في آخر فتواه على أن تصرف أموال المعتدين الظالمين في افتكاك أسرى المسلمين من يد النصارى، ويقرر أن الأسرى من المجاهدين لهم حق في جميع أموال المسلمين. وسنرى في بعض رسائله كيف كان يحرض على الجهاد ويستجيش الهمم.

---

(571) نوازل العلمي : ج 1 ص 267 ط. ح. ف بسنة 1332.

دعوته الإصلاحيـــة :

أجمع الذين ترجموا له ـ على قلتهم ـ أن صاحبنا كان من العلماء الذين يجهرون بالحق ولا يخافون في الله لومة لائم.. (572).

ومن خلال أوصاف مترجميه ندرك أنه اشتهر بين معاصريه بالجرأة على قول الحق، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويؤكد الشيخ أبو العباس أحمد بن عرضون في كتابه (مقنع المحتاج..) بأن الشيخ أبا القاسم ابن خجو كان من دعاة الإصلاح، وله أسلوب خاص في نشر الدعوة، وفي الأمر بالمعروف

---

(572) ترجم له ابن عسكر صاحب «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر» وحلاه بقوله : «الفقيهالعلامة الحافظ الفهامة العالم العامل ناصر السنةومميت البدعة الشيخ أبو القاسم بن خجو الحساني كان رحمه الله فقيها مطلعا حافظا متفننا ورعا شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عظيم الانصاف لايفتي إلا بما علم».

وتحدث عنه محمد الصغير الهبطي (في المعرب الفصيح) وترجمه ابن القاضي في درة الحجال : ج 2 ص 464 فقال : «الفقيه المفتي بالبلاد الهبطية كان فقيها نوازليا يستظهر الفقه المالكي وقوالا بالحق لايخاف في الله لومة لائم..» وترجمه في الجذوة : ج 1 ص 111 ط دار المنصور فقال : «أبو القاسم بن علي ابن خجو الحساني الفقيه المفتي بالبلاد الهبطية، أخذ بمدينة فاس عن جماعة من أهلها...).

وجاءت ترجمته في سلوة الأنفاس : ج 2 ص 149 قال : «الفقيه العلامة الحافظ الحجة الفهامة العالم العامل المبارك الفاضل ناصر الدين ومميت البدعة..» ونرى أنه يعتمد عبارات صاحب الدوحة.

وترجمه محمد مخلوف في شجرة النور الزكية ص 283.

والأستاذ عبد الله كنون في النبوغ المغربي : ج 1 ص 184 ط تطوان.

والنهي عن المنكر.. والشيخ أحمد بن عرضون لم يخصص في كتا به المشار إليه ترجمة للشيخ ا بن خجو، ومع ذلك ملأ كتا به بالنقول عنه و بوصف أحواله.. وتعتبر مراجعة هذا الكتاب ضرورية لفهم حياة صاحبنا؛ لأن مؤلف (كتاب مقنع المحتاج) حفيده، ويعرف عنه أكثر من غيره وينقل عنه في شتى المناسبات، وكثيرا ما يقول : «قال جدنا للأم أبو القاسم بن خجو» أو كان جدنا للأم، يرى كذا، أو يفتي كذا..

وحفيده هذا يشيد بمواقفه، وينقل عنه عدة فتاوى ومما قاله فيه : لقد كان رحمه الله تعالى شديد الحرص على هدى الخلق، ويتلطف غاية التلطف في إظهار الحق، حتى إنه كان يعبر لأهل اللسان الغمارى بلسانهم عند تقريره لهم قواعد الإيمان..» (573).

وهذا النص يعطينا فكرة عن المحاولات التي كان يقوم بها أبو القاسم ا بن خجو لإصلاح المجتمع في عصره، ويدلنا كذلك على أنه في القرن العاشر الهجرى لم تكن الفصحى مفهومة بالجبال الغمارية لدرجة أن الواعظ كان لا يعتمد عليها وحدها، ولعل ا بن عرضون يقصد أن بعض المداشر في القبائل الغمارية لم تكن تفهم الفصحى.

ويبدو جليا أن الشيخ أبا القاسم بن خجو كان من الذين ندبوا أنفسهم لمحاربة البدع ولنشر السنة القويمة، والمبادىء الصحيحة للإسلام الحنيف.

---

573) (مقنع المحتاج في آداب الأزواج) لأحمد ابن عرضون، ص 372.

وكان هو، والشيخ أبو محمد عبد الله الهبطي كثيرا ما يقومان بجولات إرشادية متنقلين بين القبائل ومعهما تلامذتهما وأنصارهما.

وفي ذلك يقول أحمد بن عرضون في سياق كلامه عما يقع في الولائم من المنكرات : «وقد أردت أن أقيد هنا جملة من كلام السيدين الفاضلين المتصاهرين الخيرين سيدى عبد الله الهبطي، وجدنا للأم سيدى أبي القاسم ابن خجو رحمة الله عليهما فإنهما رضي الله عنهما بذلا مجهودهما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى يدهما قطعت المناكر الشنيعة من بلاد غمارة، ولهما في تقبيح ذلك وردع من ينتمي إليه قصائد ورسائل لا تحصى كثرة، ولا شك أن من طالع كلامهما يكتسب قلبه قريحة عظيمة، وغيرة على انتهاك الشريعة المستقيمة ولذلك أردت أن أتبرك هنا بشيء من كلامهما..» (574).

وبعدما نقل من كلام الشيخ عبد الله الهبطي ما رآه مناسبا لموضوعه، نقل كذلك جملة من رسائل جده الشيخ أبي القاسم بن خجو تلك الرسائل التي كان يبعث بها إلى أعيان القبائل ووجهائها، وطلبة المداشر وفقهائها، وفي الرسالة الآتية يتجلى مقدار ما كان يشعر به علماء الدين من مسؤوليتهم على سير الأحداث، وبخاصة أن بعض الأجزاء من البلاد تعرضت للاحتلال الأجنبي، وتذكرنا بإحدى الصيحات الموقظة التي كانت تنبعث

---

574) نفس المصدر : ص : 116.

من علمائنا ـ رحمهم الله ـ هنا وهناك.. يقول أحمد بن عرضون : «ومن رسائله رحمه الله : «الحمد لله الذى قال : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير الآ ية : والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى قال : إنما الدين النصيحة الحديث، وعلى آله وصحبه على الدوام.

ساداتنا أعلام ديننا سيدى عبد الله بن محمد الهبطي، والخطيب سيدى الحسن بن عرضون، والفقيه سيدى سلام بن الحسن، والخطيب سيدى موسى الوزاني وسيدى علي الحاج المدرسنى، وسيدى عبد الوارث اليلصوتي، وكافة من يقف عليه من أخيار المسلمين، سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى من الملتمس منكم الدعاء بحسن الخاتمة عبد الله أبي القاسم بن علي بن خجو مؤكدا عليكم أن تنفقوا مما رزقكم الله من نعم الجاه في تحريض ولاة المسلمين على إعانة أهل الثغور بالرجال من كل قبيلة، ومن حومات الحواضر بزادهم وأسلحتهم، بالنوبة التي لا ضرر معها ليحصنوا الأطراف ويكثروا سواد أهلها بالرماة وأنواع الرجال، إذ لا مشقة على الولاة في ذلك، ولا يفتقرون فيه سوى إلى تحريك اللحية واللسان، لكنهم بخلوا على أنفسهم وعلى المسلمين بالمصالح التي فيها عز الدين، وتمذهبوا بمذهب الغافلين السامدين. فاجتهدوا وفقكم الله، والسلام عائد عليكم ورحمة الله والبركة، اهـ (575).

---

575) نفس المصدر ص 131. والفقهاء المذكورون في النص ترجم صاحب الدوحة لأربعة منهم، فلينظروا هناك، أما الحسن ابن عرضون فهو والد أحمد بن عرضون الذي نقل النص وبقي من الستة سلام بن الحسن لم أعثر على التعريف به.

الرسالة موجهة لأشهر علماء الجبل في ذلك الوقت، ويريد أبو القاسم ابن خجو من هؤلاء العلماء أن يستعملوا جاههم، ويجمعوا كلمتهم ويطالبوا الولاة بأن يستنفروا الناس للجهاد، ويبين أبو القاسم أن لا مشقة على الولاة في ذلك، ما داموا غير مطالبين بالإنفاق على المجاهدين.

فالمجاهدون يخرجون للجهاد ومعهم زادهم وأسلحتهم حسب العادة في ذلك أي (النوبة التي لا ضرر معها).

ويبدو أن هذا النص صدر على إثر ما لوحظ من عناء المجاهدين المرابطين بالثغور، أو على إثر محاولة من طرف العدو لاحتلال مراكز جديدة، والنص يتكلم على نطاق الثغور المغربية بصفة عامة، لأنه بالرغم من الجهاد الذى كان منظما في بعض الجهات، فإن ذلك كان لا يكفي، وكان لا بد للسلطة المركزية أن تفكر في الأمر بجدية وعناية، لأن الأعداء كانوا يوالون هجماتهم من غير انقطاع، وكان الوطاسيون مشغولين بخلافاتهم، وبقيام السعديين عليهم في الجنوب، ولذلك كان أمر السواحل يترك للمتطوعين، ولا شك أن هذا كان لا يكفي لصد الغارات الشرسة التي كانت تتعرض لها البلاد، ولذلك كان لا بد من صدور مثل هذه النداءات والبلاغات من علماء الدين الذين كانوا لا يدخرون وسعا في القيام بواجبهم في المحافظة على استقلال البلاد وسيادتها، ومعظمهم كان يشارك في الجهاد بنفسه بالإضافة

إلى ما كان يقوم به من التحريض على المقاومة، وجمع الكلمة على العدو.. (576).

وكثير من علماء المغرب في ذلك العهد كانوا يرون في قيام السعديين تصحيحا للأوضاع التي كانت تتخبط فيها البلاد على عهد الوطاسيين. وهذا يفسر لنا سرعة الاستجابة من طرف العلماء لدعوة محمد الشيخ السعدي؛ للاجتماع عليه بفاس، باستثناء طائفة قليلة كانت لها ارتباطات وثيقة بالوطاسيين.

واصل مترجمنا العمل في ميدان الدعوة حتى اشتهر بين معاصريه وبين الذين ترجموا له. وله في مجال الدعوة إلى الله، جولات رائدة موفقة، حيث استعمل في ذلك ما أوتي من خبرة وعلم ومعرفة.. واخلاصه في هذا الميدان رفع قدره في أعين العامة والخاصة. ومما قاله السلطان محمد الشيخ السعدي في حقه عندما تعرف عليه :

«ما رأيت فيمن رأيت مثل هذا الرجل علما وصلاحا» ولما بلغه نعيه سنة 956 هـ أسف لموته غاية الأسف.

قال ابن عسكر في الدوحة : «ولما تغلب السلطان أبو عبد الله الشيخ الشريف على ملك المغرب، وبعث لسائر الفقهاء، بالحضور، بعث إليه فوفد عليه.. ولما لقي السلطان أعجب به وقال : ما رأيت فيمن رأيت أفضل من هذا الرجل علما وصلاحا،

576) انظر الدوحة مثلا في ترجمة الشيخ عبد الله لورياجلي ص 24.

ثم رغب منه أن يقيم بفاس أياما ينتفع منه. فأقام أياما ثم أناخ به أجله. فتوفي رحمه الله سنة 956هـ من القرن. وحضر السلطان والكافة جنازته. وكسر الناس نعشه وحملوه أطرافا للتبرك. ودفن بجوار روضة الشيخ ابن عباد داخل باب الفتوح من مدينة فاس» (577).

كان أبو القاسم بن خجو رحمه الله من العلماء العاملين في أكثر من ميدان شغل نفسه بالتدريس والوعظ والإرشاد. والتجول في القبائل من أجل الدعوة والإصلاح. بالإضافة إلى كتاباته ورسائله إلى النواحي والأقاليم.. وإلى جانب هذا كله كان يفتي، ويؤلف وينظم المنظومات في وصف البدع والتحذير منها (578) كما شغل نفسه بالتصوف وبمراجعة مؤلفاته وكتبه. وبالرد على المبتدعة فيه. وكل هذا لم ينسه القيام بعمله في تواضع كأحد الفلاحين العاديين حيث «كان يغرس دوالي العنب بيده ويجعلها صدقة يأكل ثمارها جميع من مر بها» (579).

وكان إلى جانب هذا وذاك على اطلاع بما يجرى في بعض البلاد الإسلامية في ذلك الوقت وعلى خبرة بما يجرى في مساجدها ومدارسها العلمية. وبما يروج بين الناس من أفكار (580).

---

577) الدوحة : ص 13.

578) مقنع المحتاج ص 133.

579) الدوحة : ص 13.

580) مقنع المحتاج ص 140.

ب ـ الشيخ أبو محمد عبد الله الهبطـــى
890هـ/1485م/963هـ/1555م

يعد الشيخ عبد الله الهبطي من الشخصيات التي كان لها تأثير على المجتمع في القرن العاشر الهجرى، وذلك نظرا للدور الذى قام به في ميدان الإصلاح الاجتماعي.

فالشيخ عبد اللهبطي بعدما تزود بمعارف عصره وتثقف ثقافة واسعة في العلوم الدينية، وعلم الكلام وعلم المعقول... ثم تكون تكوينا صوفيا سليما من الغلو والتطرف، نشط في ميدان الدعوة، وتفتقت مواهبه فيها تفتقا عجيبا.

نشأته ودراسته :

ولد الشيخ عبد الله بن محمد الهبطي بضواحي طنجة حوالي سنة : (890هـ/1485م) (581) أى بعد احتلال طنجة بحوالي أربع عشرة سنة، ويبدو أن التوسع الذى كانت تقوم به القوات البرتغالية لتضيف مناطق جديدة إلى مراكز احتلالها، شمل المنطقة التي كانت تسكن بها أسرة الشيخ عبد الله الهبطي، فاضطرت هذه الأسرة إلى الجلاء والنزوح فنزحت تحت رعاية

581) ذكر ابن القاضي في الدرة، والجذوة انه ولد سنة 805 هـ وقال في الدرة وفي لقط الفرائد أنه توفي سنة 968 هـ وهذا بعيد جدا لأن الهبطي عاش نحو السبعين سنة حسبما صرح به ولده محمد في ترجمته وبهذا يكون ابن القاضي وهم في تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته، وتبعه في ذلك محمد بن الطيب القادري في الاكليل والتاج. ويترجح عندى أن حياته تقع بين : 890 هـ و 963 هـ كما صرح ولده، وكذا ابن عسكر في الدوحة أنه توفي سنة 963 هـ وتبعهما كثير ممن ترجموا له.

أخيه مسعود، ومسعود هذا، مكث في سجن البرتغاليين عشرين سنة، ذاق خلالها أنواعا من المحن والعذاب (582) و بعدما ساعدت الظروف على خلاصه من قبضة البرتغاليين، ومن القيود الحديدية التي كان مثقلا بها.. هاجر بالأسرة إلى الجبال الغمارية التي كانت في هذه الفترة قد نظمت بها حركات جهادية لمقاومة المحتلين (583). ونزلت الأسرة أولا بقرية تيجساس من قبيلة بني زيات (584) بغمارة وفي هذه الجبال أتم الشيخ عبد الله الهبطي حفظ القرآن الكريم، وأخذ يدرس مبادىء العلوم، و بعد فترة يسيرة من الزمن انتقلت أسرة الهبطي من قرية تيجساس إلى قرية تلمبوط بقبيلة بني زجل.

شيوخـــــه :

تتلمذ على شيوخ جلة كان في طليعتهم الشيخ عبد الله القسطلي الشدادى الزجلي (585) وهو شيخه في القراءات والتفسير وعلم القرآن الكريم، لازمه الهبطي ما يزيد عن ست سنين وتوطدت بين الشيخ القسطلي وتلميذه علاقة متينة، وكان شيخه هذا يقدر مواهبه وجديته، واستقامته، وكان الهبطي - فيما بعد

---

582) (المغرب الفصيح في ترجمة الشيخ النصيح).

583) مثل امارة بني راشد بشفشاون.

584) بني زيات : إحدى قبائل غمارة الموالية للبحر.

585) نسبة إلى (بني شداد) وهي فرقة من فرق بني زجل الغمارية. انظر ترجمته في الدوحة : 23، ط. ح. ف.

عهد التلمذة ـ لا ينقطع عن زيارة شيخه القسطلي، بالرغم من تنقلاته العديدة وأسفاره الطويلة.

وممن درس عليهم كذلك بجبال غمارة، الشيخ الفقيه الحاج زروق الزياتي (تـ 931 هـ) درس عليه الفقه برسالة ابن أبي زيد القيرواني، وغيرها من كتب الفقه. ويذكر عبد الله الهبطي : «ان شيخه هذا كان من أهل الفضل والعلم والصلاح» (586).

ثم قام بالرحلة في طلب العلم إلى فاس، ومن أشهر شيوخه بهذه المدينة، الشيخ أبو العباس أحمد الزقاق (تـ 920 هـ) (587) وكان هذا الشيخ من المعجبين بتلميذه عبد الله الهبطي، وبدأ هذا الإعجاب والتقدير من اليوم الذي سئل فيه الشيخ الزقاق عن مسألة وهو في حلقة الدرس، فأجاب فيها على الفور، لكن السائل طلب من الشيخ الدليل، فأطرق الشيخ الزقاق مليا يبحث عن الدليل، فإذا بتلميذه عبد الله الهبطي يسعفه به في الحين، ففرح الشيخ بذلك فرحا كبيرا، ومن هذه اللحظة أصبح الشيخ أحمد الزقاق يجل تلميذه عبد الله الهبطي وتوطدت بينهما علاقة طيبة، وظلت هذه العلاقة الودية قائمة بين أسرة الزقاق والشيخ عبد الله الهبطي أمدا غير قصير، ويتجلى ذلك في موقف الشيخ عبد الوهاب الزقاق (تـ 961 هـ) من المناظرة التي جرت بين الشيخ

---

586) قام برحلة إلى المشرق وألف شرحا لمنظومة الشيخ عبد الرحمن الرقعي (تـ 859 هـ) في العبادات، وكان الشيخ الحاج زروق الزياتي من أهم علماء جبال غمارة، ترجم له صاحب الدوحة : 101 ؛ ط. ح. ف.

587) الدوحة : 40. ط. ح. ف.

الهبطي والشيخ اليستني (تـ 959 هـ)، حيث كان الزقاق في طليعة العلماء المؤيدين للشيخ عبد الله الهبطي، وكان من الذين قرروا عدم المشاركة في تلك التمثيلية الهزيلة التي جرت بمحضر السلطان محمد الشيخ السعدي (588).

وتتلمذ بفاس كذلك، على العلامة أبي أحمد بن محمد العبادي التلمساني، (تـ 931 هـ) الذي ورد على فاس، أيام السلطان محمد الشيخ، الملقب (بالبرتغالي) (910 ـ 931 هـ) وقدم هذا الشيخ للتدريس بالقرويين، مع توافر العلماء بها، وانتفع الناس بعلومه وكان ممن تتلمذ عليه صاحبنا عبد الله الهبطي (589).

وبعد ما كرع مترجمنا من منابع المعرفة ببلده أولا، ثم بفاس ثانيا وتزود من المعارف، تاقت نفسه للأخذ عن شيوخ التربية الصوفية، وتردد كثيرا قبل أن يختار الشيخ المربي، وأخيرا هداه تفكيره إلى الأخذ عن الشيخ الصوفي المجاهد الشاعر الرقيق الأديب البليغ، أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم ابن يجبش التازي (590) فقصده إلى مقر سكناه بمدينة تازة، إلا أنه وجده مريضا، فأخذ يتردد عليه، ويعوده مع الزائرين والعواد، وكان

---

588) انظر عن هذه المناظرة الدوحة في ترجمة الشيخ عبد الله الهبطي : 6 : ط. ح. ف. وانظر دعوة الحق ع : 10 ، س : 17 دجنبر 1976. ع. القادر العافية.

589) الدوحة : 88 و 89.

(590)الدوحة : 51، ط. ح. ف.

الشيخ ابن يجبش يعيش أيامه الأخيرة، إلا أنه فتح عينيه، وركز بصره على تلميذه عبد الله الهبطي، واستبقاه بعد خروج العواد، فحدثه وانبسط معه... ولم تطل حياة الشيخ ابن يجبش بعد ذلك فتوفي رحمه الله، وكان ذلك سنة (920 هـ).

وبعد انصراف الشيخ عبد الله الهبطي من تازة تجدد اهتمامه بالبحث عن شيخ التربية الصوفية، وأصبح هذا الموضوع يشغل فكره.

وأخيرا قرر أن يتصل بالشيخ عبد الله الغزواني (591) بمدينة فاس، وكان الشيخ عبد الله الغزواني في هذه الآونة، قد ذاع صيته، وأصبح يشار إليه بالبنان، وبذلك أضحى من الشخصيات البارزة في سلسلة مشايخ الطريقة الجزولية الشاذلية، بل ما لبث أن انتهت إليه المشيخة الكبرى في هذه الطريقة، اتصل الشيخ عبد الله الهبطي بالشيخ عبد الله الغزواني فتتلمذ له، وصحبه وأخذ عنه، بل رافقه مدة طويلة في الحضر والسفر، وتشبع بالأفكار الصوفية، فسمت نفسه، وصفت روحه، وجال في عالم الأذواق والأشواق والوجد... واستفاد من المربين والمريدين، وبعد هذه الجولة في عالم التصوف، عاد إلى جبال غمارة وهو قد تشبع بالأفكار الصوفية الشاذلية، وكان أول ما قام به بعد عودته إلى بلاده : زيارته لصديقه الشيخ العلامة أبي القاسم بن خجو -

591) الدوحة : 70، ط.ح.ف. وجذوة الاقتباس : 440، ط. الرباط وسلوة الأنفاس : 2 : 209. وتوفي الشيخ عبد الله الغزواني بمدينة مراكش سنة : 935 هـ ودفن بها، وترجم له الحضيكي في الطبقات في باب عبد الله. ترجمة مطولة.

السالف الذكر ـ فرحب به، وقدم له قرى الضيف، وأخذ يسأله عن طول الغيبة، فانطلق الشيخ عبد الله الهبطي يعدد له محاسن التربية الصوفية ويعلي من قدرها وقيمتها... وهنا انبرى الشيخ بن خجو لمعارضته وعتابه على تعلقه بأذيال المتصوفة وعلى تركه للجادة.. فما كان من الشيخ عبد الله الهبطي إلا أن أخذ يفهم صاحبه مرامي التصوف ومنافعه ومزاياه... وطال الحوار بين الصديقين، وأخذ كل واحد منهما يحتج بما لديه من النصوص... ولجآ معا إلى الكتب لاستشارتها وللاستعانة بها، وبعد مضي وقت غير قصير كانا قد لجآ إلى نحو ثلاثين كتابا من خزانة الشيخ أبي القاسم بن خجو، وانتهت هذه الجولة من الحوار وللاحتجاج بانتصار الشيخ عبد الله الهبطي على صديقة بن خجو الذي كان عنيفا في أول الأمر إلى درجة أنه قال للهبطي : «كان يهون علي أن أراك يهوديا أو نصرانيا على أن أراك تتعلق بأذيال هؤلاء القوم!!» لكن الشيخ الهبطي ما زال يقنع صاحبه، ويبطل حججه، ويبين له فوائد التربية الصوفية السليمة إلى أن أقنعه (592).

والغريب في الأمر : أنه بعد مدة قليلة من هذا الحوار سنرى الشيخ أبا القاسم بن خجو يتحول إلى مدافع عن الصوفية، وعن المريدين ـ وهو الفقيه الكبير والمفتي الأكبر بجبال غمارة وبلاد الهبط ـ ويؤلف في ذلك كتابه : (ضياء النهار المجلي لغمام

---

592) (المعرب الفصيح) ورقة 11، ابتداء من البيت : 252.

الأبصار في نصرة أهل السنة الفقراء الأخيار) (593) بل سنرى الشيخ بن خجو بالرغم من تضلعه في العلوم الدينية، وتفوقه في السن، يتخذ من صديقه عبد الله الهبطي شيخه في ميدان التربية الصوفية !! وسنلاحظ فيما بعد أنهما أصبحا يتعاونان معا في ميدان الدعوة ولا يفترقان إلا قليلا. حيث أخذا يتجولان معا في القبائل والمداشر داعين إلى الله آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر... بل نسقا خطتهما في هذا الشأن تنسيقا عجيبا... وتوجا تعاونهما هذا بالمصاهرة فزفت أخت الشيخ أبي القاسم بن خجو إلى الشيخ عبد الله الهبطي. واشتركت معهما هذه السيدة في ميدان الدعوة، وأصبحت بدار زوجها بالمواهب تقوم بتعليم النساء، ودعوتهن إلى الله وارشادهن إلى الطريق المستقيم (594).

«الشيخ عبد الله الهبطي وأسلوب دعوته» :

بعدما تزود الشيخ عبد الله الهبطي بالتربية الصوفية بالإضافة إلى تضلعه في علوم الشريعة وأصول العقيدة، وأصول الفقه.. أصبح مؤهلا للقيام بدعوته الإصلاحية... ويذكر معاصروه انه نشط في ميدان الدعوة نشاطا كبيرا، وأنه أصبح يطوف بنفسه في القبائل آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر... واتخذ أساليب مختلفة، ومتنوعة لإنجاح دعوته التي جند نفسه للقيام بها.

---

593) توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط قسم المخطوطات تحت رقم 1845 د ضمن مجموع.

594) المعرب الفصيح. البيت 400 وما بعده.

ومن جملة مساعي الشيخ عبد الله الهبطي لإنجاح دعوته انه كان يتصل بأعيان كل قبيلة يصل إليها، ويعقد معهم جلسات طويلة، ويجمع الناس حوله ويسألهم عن قضايا في شؤون الدين والدنيا، ويسأل بصفة خاصة عن مبادىء الإسلام، وعن قواعد الايمان والتوحيد. ويسألهم كيف يطبقون أركان الإسلام ؟ ويسألهم عن الطهارة الكبرى والصغرى، وعن أحكام الحيض، والنفاس، والعدة، وما إلى ذلك من الأحكام الفقهية الضرورية... وأثناء كل ذلك يعظ وينذر ويبشر... وكان لا يغادر المكان الذي توجه إليه إلا بعد ما يأخذ العهد من الأعيان والوجهاء على التزام الجادة، وعلى إقامة الصلوات في أوقاتها، ويطلب منهم أن يعدوه على عدم استعمال الربا في المعاملات التجارية وغيرها... وكان لا يكتفي في ذلك بالعهد الشفوي، بل كان يكتب وثيقة التزام في نسختين فيأخذ هو واحدة، وتبقى الأخرى عند أعيان الجماعة (595). وكانت عادة الشيخ عبد الله الهبطي انه إذا دخل مدشرا من المداشر ، يقصد المسجد أولا. فإذا لم يكن بالمدشر مسجد ، يعمل هو وجماعته على بنائه (596). وفي مثل هذه الحال كان لا يجد أهل المداشر بدا من التعاون معه. وكانت عادته كذلك أنه لا يغادر المجموعة السكنية التي قصدها إلا إذا حارب فيها العوائد الضالة بأية وسيلة يراها ناجحة. فإذا كان الغالب على أهل المدشر تعاطي الخمور، فإنه كان يعمل

595) مقنع المحتاج لأحمد بن عرضون ورقة : 374.

596) فوائد محمد بن عبد الله الهبطي ، ورقة : 3.

على الاتصال بمن يباشر عصرها أو خزنها، ويتلطف معهم ويحذرهم ولا يخرج من المدشر إلا وقد أريقت الخمور، وتاب متعاطيها وخازنها... وفي هذا الشأن يقول ولده محمد الصغير الهبطي (تـ : 1001 هـ) : «بأن والده أراق في سنة واحدة ما يزيد عن ألفين من الدنان» (597).

وحارب كذلك ظاهرة الاختلاط المشين بين الرجال والنساء كاختلاطهم في الأعراس والولائم والحفلات والمواسم، وعلى شاطىء النهر، أو ساحل البحر، أو غير ذلك من الأماكن... (598) وصب جام انتقاده على مثيري الشهوات، ومشجعي الفسوق والفجور كالزفان، والوشام، والسكارى والمستهترين... ونظم في التشنيع بأفعال هؤلاء جميعا منظومات فاضحة لأعمالهم، مشهرة بفسوقهم... ومستهجنة لغوا يتهم وضلالهم...

وحارب ظاهرة الوشم تلك الظاهرة التي كانت متفشية في المجتمع الغماري في ذلك العصر، وشنع على الوشامين ووصف أعمالهم ورسومهم... وكيف يغيرون خلق الله، وكيف كانوا يباشرون عملهم في جو من الاستهتار والتفسخ.

واستطاع الشيخ عبد الله الهبطي - بعد جهد جهيد - أن يخلص المجتمع الغماري من ظاهرة الوشم التي لم يبق لها اليوم

---

597) المعرب الفصيح في الفصل الذي عقده المؤلف للحديث عن المناكر التي حاربها والده.

598) (الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما غيروا في الملة الإسلامية) في الفصل الذي عنونه المؤلف هكذا : (باب ما وقع من التغيير في أحوال العامة بسبب تغير الايمان.

أي أثر في جبال غمارة. بل أصبحت في خبر كان منذ أواخر حياة صاحبنا.

وكانت منظومات الشيخ عبد الله الهبطي في التشنيع بالعوائد الضالة، تؤثر على الناس ويعجبون بها، وكانوا يتلقونها بمجرد صدورها عن صاحبها، وكانت تروج بصفة خاصة في أوساط الطلبة والمتصوفة ثم تنتقل إلى مختلف الطبقات الأخرى...

وبالإضافة إلى منظومات الشيخ عبد الله الهبطي التي كانت تشخص الأمراض الاجتماعية وتحذر منها، وتصف الدواء الناجح لها... بالإضافة إلى تلك المنظومات ـ التي تكون في مجموعها مجلدا ضخما ـ كان الشيخ عبد الله الهبطي يبعث برسائله إلى مختلف الجهات مستنهضا الهمم ومحذرا من الوقوع في الموبقات، وكان يحث على جهاد الصليبيين المحتلين، وينادي بوجوب جمع الشمل، ووحدة الكلمة والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان يبعث برسائله في الحث على ذلك إلى الفقهاء والأعيان والطلبة...

وكان الشيخ عبد الله الهبطي في قرارة نفسه مؤمنا بالرسالة المنوطة به كعالم ديني، ويرى أن ما يدعو إليه ؛ واجب عليه لا يعفيه منه أي مبرر من المبررات.

وتتميز دعوته بالنفس الطويل، وبالصمود، والصبر على تحمل الأذى والمكاره، كما تتميز بابتكار أساليب ناجعة وفعالة..

زيادة على نظم المنظومات المؤثرة، وكتابة الرسائل وأخذ العهود والمواثق، والتجوال بالمداشر والقبائل، وبناء المساجد والحث على عمارتها... زيادة على ذلك: كان يغتنم فرص التجمعات العادية وغير العادية للقبيلة أو القبائل، كالأعراس والحفلات والمواسم والتأهب للجهاد، وغير ذلك من التجمعات والمناسبات... وفي مثل هذه الفرص كان يصدع بدعوته الإصلاحية، ويبصر الناس بما هم عليه من انحراف وزيغ ويحذرهم من سوء عواقب أفعالهم...

«أهم ما كان يدعو إليه» :

وإذا تتبعنا مراحل حياة الشيخ عبد الله الهبطي وتطور دعوته، فإننا نجد أنه كان يركز بالدرجة الأولى على قضايا العقيدة، لأنه كان يرى أن جهل الناس بالتوحيد الخالص يضعف من إيمانهم بالله، وإذا ضعف الإيمان بالله ضعف معه الامتثال لأوامره، وتلاشى في النفوس وازع الابتعاد عن محارمه ونواهيه.

فالشيخ عبد الله الهبطي كان يرى أن ما يتخبط فيه مجتمع القرن العاشر الهجرى من انحراف وتنكر لتعاليم الدين، مصدره : ضعف الإيمان بالله تعالى في النفوس، ويتجلى ذلك عنده في حالة مجتمعه، وما هو عليه من انحراف، وبعد عن الأخلاق القويمة، وعما يصون الكرامة الإنسانية من دنايا الشهوات والأهواء...

وكان يرى أن الانحراف يعم مختلف طبقات مجتمعه، باديته وحاضرته، عوامه وخواصه... ولذلك وجه في منظوماته العديدة، لومه وتأنيبه إلى :

1 ـ طبقة الأمراء والحكام.

2 ـ طبقة الفقهاء والقضاة والعدول.

3 ـ طبقة الدجالين من المتصوفة وأدعياء التربية الصوفية.

4 ـ طبقة العوام من نساء ورجال... ومثيرى الشهوات والمستغلين والدجالين والماكرين...

لا ينتقد هذه الطبقات مجرد انتقاد غامض، بل يصور أوضاع كل طبقة على حدة، كما يصور أنواع الانحرافات التي أصبحت تنغمس فيها، وينتقد العادات السيئة التي تعودها الناس وألفوها، وأصبحت شائعة فيما بينهم، ويؤكد أن سبب هذا الانحراف فقدان الإيمان الحقيقي بالله تعالى. ومن أجل ذلك ندب نفسه لتعليم التوحيد ـ لا للطلبة فقط ـ بل للعوام رجالا ونساء ولصغار التلاميذ، واستغمل مع هؤلاء أسلوبا مبسطا خاصا بهم وحسب مستواهم.

وكان يستعين في نشر دعوته بأصدقائه وتلامذته ومحبيه... وكانت زوجه آمنة بنت علي بن خجو (599) تقوم بتعليم النساء ما يتعلق بأمور العقيدة، وما يتعلق بأمور الدين.

---

599) السيدة آمنة بن خجو هي أخت العالم الجليل أبي القاسم بن خجو نشأت في بيت علم، فأبوها علي بن خجو من العلماء، وأخواها كذلك أبو القاسم والحسن، هي إحدى الفقيهات المغربيات تحدث عنها محمد بن عبد الله الهبطي في فوائده، وفي منظومته (المعرب الفصيح) وأشاد بذكائها وتحصيلها... المعرب : ورقة 22 و 41 والفوائد ورقة : 3.

وهكذا نرى أن الشيخ عبد الله الهبطي أرجع كل المناكر التي يعاني منها مجتمعه إلى فقدان الإيمان الصحيح بالله تعالى، وإلى تضاؤله في النفوس، وهذا ما جعله في (ألفيته السنية) مثلا يعنون الأبواب هكذا : (باب ما وقع من التغيير في الجهاد بسبب تغيير الإيمان)، أو (باب التنبيه على ما وقع في ركن الزكاة من التغيير بسبب تغيير الإيمان).

فتفشي المناكر وارتكاب المحرمات كل ذلك عنده ناتج عن عدم تشبع الناس بروح الإيمان، ويرى أن تلك الروح قد ضعفت لعوامل مختلفة، منها الغزو الصليبي الذى تعرضت له البلاد والذى نتج عنه سقوط أهم الثغور في يد العدو...

والحقيقة أن الغزو الصليبي كان يهدف ـ بالإضافة إلى الاستغلال المادى ـ إلى تنصير أهالي المناطق التي بسط نفوذه عليها، وهذا ما كان يخشاه الغيورون على العقيدة الإسلامية، وبعض الفارين من الأندلس كانت قد تلاشت في نفوسهم وتصرفاتهم تعاليم الإسلام الحنيف، نظرا لتعرضهم للتنصير الاجبارى، الذى عانى منه المسلمون المغلوبون على أمرهم بشبه جزيرة ايبريا، ولهذا ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار عامل الغزو الصليبي لافريقيا أثناء حديثنا عن الدعاة والمصلحين في هذه الفترة بالذات.

وإذا عرفنا هذه الحقيقة أمكننا إدراك مغزى دعوة عبد الله الهبطي وأمثاله إلى وجوب تثبيت العقيدة في نفوس الناس

وأذهانهم... وأدركنا كذلك سر حثهم على وجوب تعلم التوحيد، وبالإضافة إلى أخطار الغزو الصليبي الذي كانت تعاني منه البلاد، كان هناك جهل متوارث - في بعض المناطق - بمبادىء الدين الحنيف وتعاليمه. وهذا الجهل نفسه ساعد على تفشي الانحراف، وعلى طغيان العوائد الضالة، وبذلك أصبح أمام الدعاة في هذه الفترة خطران رئيسيان.

1 - الخطر الأول : الجهل المتوارث بين سكان بعض المناطق بتعليم الإسلام ومبادىء العقيدة مع التشبث بالموروث من عوائد الأسلاف والأجداد.. تلك العوائد التي كان كثير منها بعيدا عن الأخلاق الإسلامية القويمة.

2 - الخطر الثاني : تجلى في الغزو الصليبي الشرس الذى كان يعمل على تحويل الناس إلى المسيحية بشبه جزيرة ايبيريا، وفيما احتلته الصليبية من مناطق في افريقيا.

فالداعية في القرن العاشر الهجرى كان عليه أن يعمل على محاربة الجهل والعوائد الضالة، وعلى التحريض على الجهاد، وتبصير الناس بعواقب الاحتلال الصليبي وبأخطاره وأضراره على الدين والدنيا.

عمل الشيخ عبد الله الهبطي في كلا الميدانين بإخلاص وتفان.

«تحمله الأذى في سبيل الدعـوة» :

نظرا لنشاط الشيخ عبد الله الهبطي في دعوته، وصرامته في موقفه وإلحاحه على وجوب التغيير... ونظرا لمواقفه الشجاعة في وجه المنحرفين، كانوا حكاما أو أمراء أو وجهاء أو غيرهم...

نظرا لذلك، لاقى كثيرا من المصاعب والمتاعب، وعرض نفسه لسخط الحكام، والأمراء، بل تعرض لسخط بعض الفقهاء والقضاة وبخاصة منهم الذين كانوا يوالون أهواء حكامهم وأمرائهم...

لاقى الشيخ عبد الله الهبطي مضايقات كثيرة من أمراء بني راشد بصفة خاصة. ويشير ابن عسكر في الدوحة إلى بعض هذه المضايقات، ويحدثنا مثلا عن الدور الذي قام به القائد محمد بن علي بن راشد في : (مناظرة الهبطي واليسيتني) وكيف كان هذا القائد يسعى للإيقاع بالشيخ الهبطي (600).

ويذكر الشيخ محمد الصغير بن عبد الله الهبطي أن والده رفض هدية قدمها له القائد معمد بن راشد، كانت عبارة عن أكياس من القمح بعثها له القائد ابن راشد في عام مجاعة، فرفض الشيخ إدخالها إلى منزله، وقام بتوزيعها على المساكين، ولم يدخل منها إلى بيته حبة واحدة (601).

---

600) الدوحة : ترجمة الشيخ عبد الله الهبطي : ص 6، ط. ح. ف.

601) (المعرب الفصيح).

وتذكر بعض المصادر أن الشيخ عبد الله الهبطي تعرض للإهانة والضرب والسجن، ولكثير من البلايا والمحن، ومن ذلك ما يذكره ولد الشيخ عبد الله الهبطي في منظومته في ترجمة والده فيقول :

كم سامه بالضرب والتهـــاون
والي وقاضي الجور بفشـــــــاون
سجنه القاضي عدو نفســـــه
من غير جرم موجب لحبســـه (602)

وقاضي شفشاون المشار إليه هنا،هو القاضي محمد بن أحمد بن الحاج السالف الذكر.

الشيخ عبد الله الهبطي تعرض للضرب والسجن والإهانة. ويذكر ولده محمد الصغير الهبطي أن بعض الفقهاء لم يكتفوا بعدم مساندتهم لأبيه فقط، بل نالوا منه وأصبحوا يحرضون عليه، ويؤلبون الناس ضده (603).

ويشير الشيخ أبو الحسن علي اليوسي في المحاضرات إلى ما لاقاه الشيخ عبد الله الهبطي من بعض معاصريه (604) من مضايقات...

---

602) نفس المصدر.
603) نفس المصدر.
604) محاضرات اليوسي : 92. ط. الرباط.

فتن الشيخ عبد الله الهبطي كما يفتن الدعاة والمصلحون في كل زمان ومكان... وبالرغم من ذلك ظل صامدا في وجه العراقل والمثبطات، وواصل المضي في رسالته إلى أن شل في آخر عمره، وعجز عن المشيء، ومع ذلك لم ينقطع عن عقد حلقات الدرس، ولا عن مجالسه العلمية والتربوية... بل يؤكد ولده أنه نشط في هذه المرحلة من آخر حياته، حيث أصبحت مجالسه العلمية متوالية وفي غير انقطاع.

وبهذا ندرك أن الشيخ عبد الله الهبطي كرس حياته للدعوة والإصلاح، فهو منذ شبابه المبكر يقوم بمهمة الدعوة، ويعمل من أجل إصلاح مجتمعه بكل الوسائل... وبالرغم من المحن والبلايا التي أصابته فإنه ظل صامدا، وتجرع ما أصابه في صبر وثبات وقوة إيمان وبعزيمة لا تلين، فكان بذلك شأنه شأن الذين يتصدون لأداء رسالتهم كاملة غير منقوصة، ولا يخافون في الله لومة لائم.

قيمته ومكانته :

نجد الذين ترجموا للشيخ عبد الله الهبطي، أو الذين تحدثوا عنه يجلون مكانته، ويقدرون مواقفه.. ويشيدون بدوره في ميدان الإصلاح الاجتماعي.

والذين تحدثوا عن الشيخ عبد الله الهبطي هم صنفان من الكتاب :

1 ـ كتاب التراجم، وهم بدورهم ينقسمون إلى قسمين :

أ ـ قسم يترجم لاعلام الطريقة الجزولية الشاذلية، وهؤلاء أشادوا به كثيرا، وعدوه في طليعة تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني السالف الذكر، وفي مقدمة هؤلاء الفاسيون : كصاحب مرآة المحاسن، وصاحب ابتهاج القلوب، وصاحب ممتع الاسماع.. والالماع.. و يضاف إليهم ابن عسكر.

ب ـ أما القسم الآخر من كتاب التراجم فهم يترجمون للاعلام من الفقهاء والعلماء سواء اشتهروا في ميدان التصوف أم لا : كابن القاضي في (الدرة)، و(الجذوة)، والحضيكي في الطبقات، وأحمد بن عجيبة في أزهار البستان، والقادرى في نشر المثاني... وفي الاكليل والتاج... وغيرهم، وهؤلاء جميعا تحدثوا عن الشيخ عبد الله الهبطي وأثنوا عليه وعلى مواقفه...

وتحدث عنه كذلك بعض الفقهاء في مناسبات مختلفة و بخاصة الشيخ القاضي أحمد بن عرضون (ت 992هـ) في كتابه مقنع المحتاج، وفي مختصره، حيث نقل عنه مرارا، وفي مناسبات كثيرة وعلى الخصوص في ميدان محاربة العوائذ الضالة.

وتحدث عنه كذلك الفقيه محمد بن عيسى العلمي الشفشاوني وذلك أثناء شرحه (لمنظومة الشيخ عبد الله الهبطي في العدة) (605) فأشاد به و بمواقفه.

---

605) مخطوط المكتبة العامة بتطوان رقم : 654 ضمن مجموع.

ومن الفقهاء الذين تحدثوا عنه كذلك : أبو الحسن علي النوازلي شقيق شارح منظومة العدة السالف الذكر. فإن أبا الحسن هذا، نقل عنه عدة فتاوى في موضوع العقائد، وتعرض لقضية الخلاف بينه وبين الشيخ اليسيتني. ونقل فتاوى بعض العلماء المؤيدين له كالفقيه محمد بن جلال التلمساني (606) خطيب جامع الأندلس ثم جامع القرويين وغيرهم...

ومن تناول الدفاع عن الشيخ عبد الله الهبطي في (مسألة النفي في كلمة الإخلاص) الشيخ العلامة أبو الحسن اليوسي (ت : 1102 هـ) في كتابه (مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص) (607) حيث تعرض للخلاف بينه وبين الشيخ اليسيتني (ت : 959 هـ) وأبان وجه الخلاف بينهما، وأنصف الهبطي ودافع عنه..

وتحدث عنه الشيخ اليوسي كذلك في كتابه : (المحاضرات). وتحدث عنه غير هؤلاء كالشيخ أحمد البوسعيدي السوسي (608) والشيخ عبد القادر ابن علي الفاسي وغيرهما (609).

لفت الشيخ عبد الله الهبطي بشخصيته ومواقفه أنظار معاصريه ومن بعدهم. وأكسبه إخلاصه في الدعوة الى الإصلاح،

---

606) ولد بتلمسان سنة 907 هـ ورحل إلى فاس سنة 958 هـ وتوفي سنة 981 هـ، انظر : الدوحة : 91، ط. ح. ف. والجذوة : 324 : ط. الرباط.

607) طبع على الحجر بفاس سنة 1327 هـ.

608) هو الشيخ أحمد البوسعيدي الهشتوكي، له مؤلفات (990 ـ 1046 هـ)، انظر : الحضيكي حرف الألف. والسلوة : 2 : 85. والاعلام للمراكشي : 2 : 315 ط. الرباط.

609) الأجوبة الكبرى لعبد القادر الفاسي : 364، ط. ح. ف. 1319 هـ.

ومعالجة قضايا عصره في صبر واستماته... تقديرا ومكانة في أوساط الفقهاء والمؤرخين ورجال التصوف...

ج ـ الشيخ أبو الحجاج يوسف التليدي
(ت : 950 هـ / 1543 م)

اشتهر أبو الحجاج يوسف التليدي بكونه من أبرز تلامذة الشيخ عبد الله الغزواني، وبأنه صاحب زاوية للتربية الصوفية في مسقط رأسه (بني تليد) بالأخماس السفلى، إقليم شفشاون.

واشتهرت زاويته بالإضافة الى كونها مركزا من مراكز التربية الصوفية ومركزا من مراكز الثقافة، بكثرة ضيوفها الواردين عليها وبجودة طعامها وتنظيم شؤونها.

أصله ونسبه :

الذين تحدثوا في كتب التراجم (610) عن الشيخ أبي الحجاج يذكرون أنه : يوسف بن الحسن التليدي من بني تليد بالأخماس السفلى، وبأنه لا عقب له ولا وارث من عقبه (611).

---

610) الذين ترجموا له وتحدثوا عنه هم كثيرون منهم : ابن عسكر في الدوحة : 17 ط الرباط 76. الحضيكي في الطبقات (حرف الياء) في (يوسف)، ابتهاج القلوب مخ. خ. ع. ر 2302 ك ص 212 ممتع الاسماع، ط. ح. ف ص 76 فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير مخ. م. ع. ت رمه : 856 ورقة 35 ـ 37.
عمدة الراوين في أخبار تطاوين مخ. خ. ع. ت / 4 : 264 و : 2 أثناء الكلام عن بناء المدينة للشيخ أحمد الرهوني، الصفوة للافراني، ص : 16. ط. ح. فاسية، سلوة الأنفاس في ترجمة سيدي عبد الله البعاج. ج : 1 : 197، مناقب سيدي يوسف التليدي : مخطوط جمعه بعض مريديه.

611) يقول ابن عسكر : «لم يعقب، ويقول النسابة محمد بن الصادق بن ريسون» لم يعقب ولم يترك ابنا ولا بنتا ولا ابن عم محقق النسب فيما نعلم (فتح العليم الخبير. 36.

ونسبه بعضهم الى بني عمار من الأخماس السفلى، وأكد أنه ينتسب الى آل البيت فقال :

«حدثنا الإمام الفقيه سيدي العافية بن بخوت رضي الله عنه أنه كان يحدث الناس بشرف نسبه، وحدثنا الفقيه الإمام سيدي ا براهيم المعزوزي رضي الله عنه أنه شريف النسب وحدثنا بشرفه جملة من الفقهاء الأجلة» (612) الى أن يقول : «وعثرت له على كلام له بخطه أثبته بتمامه، ونصه : «يوسف ا بن الحسن بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان بن يعلى بن يخلف بن موسى بن علي بن يوسف بن عيسى ا بن عبد الله بن حسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم (613).

و بعد هذا قال جامع المناقب : «والحاصل أنه من ولد عمار. (614) فإن كان شريفا فهو كذلك، وإلا فهو داخل في قوله صلى الله عليه وسلم» أنا جد كل تقي «لاسيما وأنه قد سمت درجته في الولا ية...»».

---

612) (المناقب) من جمع وتنسيق (محمد بن علي كسيسو) الخمسي وهي لأناس من زاوية الشيخ التليدي بالأخماس السفلى.

613) هذه السلسلة التي ذكرها صاحب المناقب، سلسلة ملفقة تجمع بين سلسلة شيوخ الشيخ التليدي وبين أجداد الشيخ سليمان الجزولي (تـ 870 هـ) وقد نبه على ذلك المهدي الفاسي في كتابه ممتع الاسماع : 77.
والملاحظ أن بعض الناس يحاولون أن يصلوا نسبهم أو نسب من يعجبون بهم بآل البيت، ويسلكون في ذلك طرقا ملتوية.

614) (بني عمار) حاليا مدشر قرب مدشر الزاوية لا يبعد عنه إلا قليلا.

ومن خلال الأقوال السالفة ندرك أن القول بنسبة الشيخ التليدي الى النسب العلوي الشريف، فيه اضطراب واضح.

نشأته وحياته :

ورد في (مناقبه) أنه كان في صغره يحترم معلميه وشيوخه، وأنه درس ببلده ثم توجه الى فاس لإتمام دراسته، وكان له عدة شيوخ، وبعدما رجع لبلده أصبح يعلم بها، وكان له عدة تلاميذ يقوم بتعليمهم، وكان لا يأخذ أجرا على تعليمه، وبأنه درس مع تلاميذه مجموعة من العلوم الخ.

ويذكر صاحب فتح العليم الخبير أن الذي رباه وأشرف على توجيهه هو الشيخ أبو محمد عبد الله الغزواني، وفي ذلك يقول : «ورباه منذ زمن صباه في حجره وتحت ولاية نظره، حين كان رضي الله عنه - أي الشيخ الغزواني - قاطنا في قبيلة بني زكار مجاورا لمولانا عبد السلام بن مشيش، ومكث الشيخ الغزواني بهذه القبيلة مدة مديدة تنيف عن ثلاثين سنة... (615).

ومن خلال النصين السالفين يبدو أن الشيخ التليدي أخذ الطريق المستقيم منذ بداية نشأته، حيث عرف في صباه بالجدية والاستقامة، وبطلب العلم ببلده أولا ثم بفاس ثانيا (616).

---

615) فتح العليم الخبير ورقة : 36.

616) يبدو أنه مكث في فاس مدة سمحت له بالتعرف على بعض أسرها لأنه تزوج بامرأة فاسية من أسرة اولاد (البغال) كانت تسمى (مينة) بنت عبد الرحمن (البغال) حسبما يوجد في بعض التقاييد عند أفراد من سكان الزاوية.

تلمذته للشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني (617).

يقول صاحب المناقب :

كان قد سمع عنه وتاقت نفسه للقائه فلما لقيه رحب به وأعجب بأخلاقه.. ثم لازمه وزار معه ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش، وقرأ معه في الضريح (سورة يس، والواقعة، والملك الى الجنة والناس، فالفاتحة (618).

ومن خلال قرائتنا لكتب تراجم أفراد الطريقة الجزولية الشاذلية، وبخاصة منها التي تتحدث عن تلاميذ الشيخ عبد الله الغزواني ندرك أن الشيخ أبا الحجاج يوسف التليدي يأتي في طليعة تلامذة الشيخ الغزواني، وتناقلت هذه الكتب قولة الغزواني : «الهبطي للكلام والتليدي للطعام، وعبد الرحمن ابن ريسون ياقوتة تضيء في جبل العلم» (619).

قولة تناقلها تلاميذ الغزواني وهي تدل على قيمة هؤلاء الأفراد الثلاثة عند شيخهم.. والمقصود بالهبطي : الشيخ أبو محمد عبد الله الهبطي السالف الذكر، وبالتليدي مترجمنا هذا، وبعبد الرحمن بن ريسون : الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن ريسون (ت : 951 هـ) أخو علي بن عيسى ابن ريسون جد الأشراف الريسونيين (ت : 963 هـ).

617) الشيخ عبد الله الغزواني (تـ 935 هـ) ترجم له ابن عسكر في الدوحة ص 70، ط : ح. ف. والحضيكي في الطبقات في باب عبد الله، وترجم له الذين يتحدثون عن الطريقة الجزولية الشاذلية بالمغرب وهم كثيرون.

618) المناقب، المصدر السالف الذكر (بدون ترقيم).

619) فتح العليم الخبير، ورقة : 37.

وهؤلاء جميعا يعدون في طليعة تلامذة الشيخ الغزواني... بالإضافة الى تلامذة آخرين، كان من بينهم أبو عبد الله محمد الطالب الهواري (ت : 967 هـ) الذي اختلف في شأنه المريدون : هل هو وارث سر الشيخ الغزواني أم الشيخ التليدي ؟.

جاء في فتح العليم الخبير : «سيدي يوسف هذا : قيل هو وارث سر شيخه - أى الغزواني - وقيل سيدي محمد الطالب (620)

ويقول صاحب المناقب : إن الشيخ عبد الله الغزواني أمر تلميذه يوسف التليدي بإنشاء زاوية في داره، وقال له : عليك فيها بالقرى، لمن أتاك من سائر القرى»، وأمره أن يذكر الناس بربهم ويشوقهم للقائه ونعيمه، وقال له ابدأ بأهلك وبالقرى المجاورة لك» (621).

ويظهر أن الشيخ التليدي رافق شيخه الغزواني مرافقة طويلة، ويحدثنا صاحب المناقب عن زيارة أخرى لضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش برفقة الغزواني، وفي هذه الزيارة أمطروا في الطريق، وباتوا بمدشر السلالم، وفي الغد أصبحوا سائرين، وتعرض لهم الشيخ عبد الرحمن بن ريسون - السالف الذكر - فنزلوا عنده بتزروت وقضوا معه ليلة عظيمة، لا يأتي الزمان بمثلها، وبعد ذلك قصدوا جميعا ضريح الشيخ عبد السلام بن

---

620) ترجم له غير واحد ومنهم صاحب الدوحة ص : 46 : ط : ح. ف. وصاحب السلوة، وتكلم عنه الفاسيون في المرآة والممتع والاسماع : توفي سنة 964 هـ.

621) المناقب المصدر السالف الذكر.

مشيش وهناك اجتمع جمع عظيم حضر فيه عدد كبير من الأولياء ومن الشخصيات الكبيرة، وكان هذا الاجتماع بمثابة عرس كبير أقيم لدى ضريح الشيخ الأكبر عبد السلام بن مشيش برئاسة الشيخ عبد الله الغزواني.

ومن الملاحظ أن الشيخ الغزواني كان مولعا بزيارة هذا الضريح ومما أوصى به تلميذه أبا الحجاج قوله : «زر أولياء الله أحياء وأمواتا، وخصوصا ضريح الشيخ الأكبر عبد السلام بن مشيش»، وقال له : «منه اغترف كل ولي بعده في قطرنا هذا» (622).

زاويتـــه :

أشرنا فيما مضى الى أن الشيخ الغزواني أمره بإنشاء زاوية بداره، ونفذ الشيخ أبو الحجاج هذه الوصية، فأقام بداره زاوية كانت لها شهرة عظيمة لا في حياته فحسب، بل استمرت على القيام بوظيفتها فيما بعد موت الشيخ التليدي بأكثر من قرنين من الزمن، ويسمى حاليا المدشر الذي أقيمت فيه (بالزاوية) لغلبة اسمها عليه، ولا يعرف هذا المدشر حاليا إلا باسم (الزاوية).

وعن زاوية الشيخ التليدي يقول ابن عسكر في الدوحة : «وزاويته حيث ضريحه معلومة بقبيلة بني تليد (623) من قبائل

---

622) نفس المصدر.

623) المعروف أن (بني تليد) هي فرقة من قبيلة الاخماس السفلى وليست قبيلة، انظر الدوحة ص : 14 : ط. ح. ف.

غمارة على مسيرة نصف يوم من مدينة شفشاون من ناحية الغرب ترد عليه الوفود والآلاف من الزوار والمريدين ويطعم كلا حسب شهوته، وذلك في كل ليلة، وكان له قبول عظيم في قلوب الخلق...» (624).

وعن هذه الزاوية يقول محمد الصادق بن ريسون (تـ : 1236 هـ) «فزاويته رضي الله عنه قائمة بأمر الله في جميع أمورها من حرث ودواب وغير ذلك من الأمور التي يعجز عن القيام بها الأقوياء، وذلك في غاية الضبط والإتقان، في كل زمن يجعل الله له من يقوم بزاويته، ويأكل منها الطعام الخاص والعام، والغني والفقير، لأنه رضي الله عنه حبس جميع ما يملك وخرج عنه وجعله في هذا الوجه يأكله جميع الناس... ولم يزل ذلك الى الآن (625).

وبهذا ندرك أن هذه الزاوية لعبت دورا كبيرا في ميدان التربية الصوفية بهذا الإقليم، ومن الأشياء الطريفة عن هذه الزاوية ما حدثنا به أبو الربيع سليمان الحوات الذي يذكر أن عمته الفقيهة السيدة خديجة بنت عبد الله الحوات كانت تقيم بزاوية الشيخ التليدي بالأخماس السفلي لتعليم النساء الفقيرات - أي - المريدات - أمر دينهن من فقه وعبادة، وغير ذلك (626) والشريفة الحوات لم يكن مقر سكناها بالزاوية، ومع ذلك كانت تنقطع

---

624) المصدر السالف نفس الصفحة.

625) فتح العليم الخبير المصدر السالف الذكر ورقة : 36.

626) ثمرة أنسي في التعريف بنفسي لأبي الربيع سليمان الحوات (تـ 1234 هـ).

للتدريس مدة طويلة بها، وهذا مما حمل ابن أخيها أبا الربيع سليمان الحوات على التعجب من أمرها ومن اخلاصها وتفانيها وتضحيتها...

ويذكر سليمان الحوات كذلك أن والدته كانت من مريدات هذه الزاوية.. ومعناه أن زاوية الشيخ يوسف التليدي كان بها جناحان : جناح خاص بالنساء وجناح آخر للرجال. وكلاهما كان قائما بدوره في ميدان التربية الصوفية والتثقيف بصفة عامة.

مريديوه وأتباعه :

ذكر ابن عسكر في النص الذي نقلناه عنه سالفا، أن الشيخ التليدي، كان له قبول عظيم في قلوب الخلق، وهذه الحقيقة أكدها غير واحد ممن تناول الحديث عنه، لأن الشيخ أبا الحجاج يوسف التليدي كان له أتباع كثيرون، كان من بينهم شيوخ كبار في عصرهم مثل : الشيخ أبي الحسن علي ابن مسعود الجعيدي دفين تطوان (627) ولهذه التبعية قصة طريفة ملخصها :

أن الشيخ علي الجعيدي عندما شرع في بناء مسجده بحومة العيون بتطوان، ظن أصحاب الشيخ يوسف الفاسي (ت : 1013 هـ) أنه يبني زاوية تابعة لشيخهم - لأنهم كانوا يسمعونه يتحدث عنه، فساعدوه في البناء وفي الإتيان ببعض المواد، الى أن انتهى

---

627) انظر ترجمته في الصفوة : 76، والنشر : 1 : 148، وتاريخ تطوان م 1 : ص 309، وتوفي ودفن بتطوان (1032 هـ).

العمل بالمسجد وهنا أخبروه بأنهم سيطلعون الشيخ يوسف الفاسي، على نهاية العمل... إلا أن الشيخ الجعيدي أجابهم بأنه تابع للشيخ يوسف التليدي، لا للشيخ يوسف الفاسي، فتعجبوا من قوله،وكتبوا الى شيخهم بذلك قائلين: إننا أعناه، وعملنا ما عملنا معه ظننا منا أنه تابع لطريقتنا... وسرعان ما جاءهم جواب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي، - الذي كان قد بعث ببعض مواد البناء - يقول لهم : لا ضير في ذلك، واتركوا له مسجده وابنوا الزاوية في مكان آخر...» (628).

وجاء في السلوة بترجمة سيدي عبد الله البعاج أنه : أخذ عن الشيخ الكبير والقطب الشهير ذي الكرامات الكثيرة الجسمية والتصرفات الكبيرة العظيمة أبي الحجاج يوسف التليدي وكان سيدي عبد الله البعاج يقول : لولا صحبة سيدي يوسف لمت على شعبة من شعب النفاق» (629).

وجاء في الدوحة في ترجمة الشيخ علي الشبلي الشدادي أن هذا الشيخ كان من أصحاب الشيخ يوسف التليدي (630) وكذا في ترجمة الشيخ محمد بن سليمان البقوئي البادسي أنه كان من أصحاب الشيخ يوسف التليدي (631) وذكر صاحب المناقب أن

628) نشر المثاني 1 : 260 ؛ ط. الرباط.
وعمدة الراوين : 4 : 264. مخ. م. ع. تطوان. وتاريخ تطوان : 1 : 310.

629) سلوة الأنفاس للشيخ محمد بن جعفر الكتاني، ج، 1، 197 ونشر المثاني : 1 : 136 ط. الرباط.

630) الدوحة : ص 65.

631) الدوحة : ص 55.

من جملة تلامذته : الشيخ أحمد بن يامون صاحب المؤلف المشهور في النكاح (632) وكذلك الشيخ أبو حفص عمر بن غيلان الأندلسي ثم الجرفطي، (ت : 1027 هـ).

ويستفاد من المترجمين لصاحبنا أنه استطاع أن يؤلف حوله مجموعة كبيرة من المريدين والأتباع. وأنه كان ذا شهرة واسعة في ميدان التربية الصوفية.

ويتبين من الأوصاف والألقاب التي أضفاها عليه صاحب السلوة في التعريف السالف الذكر : أن الشيخ التليدي وصل في نظر أتباعه وأصحابه، الى الدرجات العليا في التصوف، وإن أصحابه ومريديه كانوا يرون فيه مربيا كبيرا يصلح أحوالهم ويدلهم على الطريق القويم.

ولعل مثل هذا الاعتقاد جعل أصحابه يتكاثرون ويزداد عددهم الى درجة أن السلطة السياسية في ذلك الوقت ارتابت في نوايا الشيخ التليدي، وتعرض بسبب ذلك الى ابتلاء وامتحان.

امتحانه وابتلاؤه :

الشيخ التليدي اجتمع الناس عليه، وقصدت زاويته الجموع والوفود. وكان ذلك مصدر شهرته وذيوع صيته. وفي نفس الوقت مصدر شك وريبة في نواياه، ومصدر النقمة عليه من أصحاب الحكم والسلطان. ونظرا لذلك، تعرض الشيخ التليدي للابتلاء

632) فهرس المخطوطات العربية حرف الجيم (القسم الثالث) واسم مؤلفه «الجواهر المنظومة في شرح المنظومة».

والامتحان، وسجن (بمطمورة القصبة) بمدينة شفشاون، من طرف حكام هذه المدينة الذين كانوا في هذه الفترة يوالون الحكم الوطاسي بفاس.

وعن هذا الابتلاء، يقول صاحب المناقب : «وسبب حبسه أن قائد شفشاون شكاه للسلطان فأمره بإلقاء القبض عليه» لكنه لا يعطينا بيانا عن المدة التي مكث فيها (بمطمورة قصبة شفشاون)، ويبدوا أن هذه المدة لم تكن طويلة؛ لأن صاحب المناقب يعقب فيقول : «وبعد ذلك أطلق سراحه واعتذر له القائد » ويغلب على الظن أن هذه الحادثة كانت في بداية ولاية السلطان أحمد الوطاسي، وكان قائد شفشاون في هذه الفترة هو الأمير أبو سالم ابراهيم بن راشد (ت : 947 هـ).

وسنرى فيما بعد أن هذا الأخير تأدب مع الشيخ، التليدي تأدبا كبيرا. ولعل بعد الامتحان الذي اجتازه الشيخ، تبين للشاكين في أمره، أن غاياته وأهدافه بعيدة عن الاتجاه السياسي.

ومهما يكن من أمر فإن الشيخ التليدى لم تزده تلك المحن إلا اعتبارا في نظر الناس، فكثر أتباعه وقصدت زاويته وأمه الناس من كل جهة وناحية...

مكانته وقيمته :

مما سلف ندرك أن الشيخ التليدي كانت له مكانة بارزة في عصره . وكان يعد من كبار أصحاب الشيخ عبد الله الغزواني،

وفي طليعتهم، وصاحب زاوية ناجحة يقصدها الآلاف من الرواد والمريدين والزوار...

ويذكر صاحب (المناقب) بأن أصحابه ومريديه كانوا يجلونه ويتبعون تعليماته وإشاراته... وكان عدد منهم لا يفارقونه حضرا وسفرا...

كل هذا جعله ذا مكانة مرموقة في عصره...

وتدل الحكاية الآتية على ما بلغه الشيخ التليدي من مكانة واحترام..

يقول ابن عسكر : رأيته بشفشاون وقد خرج يشيعه الناس وفيهم الوزير أبو سالم ابراهيم ابن راشد، والقاضي ابن الحاج، وغيرهم من رؤوس الناس، ومشى بينهم، وهو يذكر الله مع تلامذته جهرا بالمناوبة على عادة الفقراء، والقاضي والوزير ومن معهما حفاة، رؤوسهم مكشوفة أدبا مع الشيخ والمريدين ولهم شهيق وزفرات (633).

من هذا الوصف لحفل توديع الشيخ يوسف التليدي ندرك أنه كان يتمتع بتقدير واحترام..

أمير البلد، (634) ثم القاضي والأعيان، خرجوا لتوديع الشيخ وهم حفاة ورؤوسهم مكشوفة.. والشيخ في موكبه وأصحابه يرددون ذكر الله جهرا بالمناوبة على عادة المريدين في ذلك..

---

633) الدوحة ترجمة الشيخ التليدي.

634) ابراهيم بن علي بن راشد كان حاكما على شفشاون واقليمها خلفا لوالده ثم بعد ذلك أصبح وزيرا للسلطان أحمد الوطاسي (932 - 956 هـ) سبق الكلام عنه في مبحث بني راشد.

هذا الوصف لحفل التوديع يدل دلالة قاطعة على مكانة الشيخ يوسف التليدي عند معاصريه سواء كانوا حكاما أو غيرهم، وبالإضافة الى هذه اللقطة التي أتحفنا بها ابن عسكر عن توديع الشيخ التليدي من طرف حاكم شفشاون وقاضيها وأعيانها وسكانها.. نجد عددا من المترجمين لرجال التصوف في القرن العاشر الهجري يتناولون الحديث عنه، ويجلون قدره، ويرفعون من مقامه، ويؤكدون أنه يأتي في طليعة أصحاب الشيخ عبد اله الغزواني وبأن زاويته كانت فريدة من نوعها تسييرا وتنظيما... واطعاما وإفادة... وبذلك أدرك شأوا بعيدا في ميدان التربية الصوفية، وفي إرشاد المريدين الذين كانوا يعدون بالآلاف، ويقصدون زاويته في غير انقطاع.

الشيخ التليدي والقول بالكرامات :

من خلال دراسة الحركة الصوفية التي كانت سائدة في هذا العصر، يستنتج الباحث أن الحركة الصوفية كانت تهدف في هذا الوقت بالذات، الى إصلاح الأوضاع الاجتماعية، عن طريق شغل الناس بالاذكار والأوراد.. وذلك قصد الخروج بالمجتمع من المتاهات التي خلقها الفراغ السياسي، والتردي الاجتماعي، الى وضع اجتماعي سليم...

فالشيوخ المربون كانوا يهدفون بالدرجة الأولى الى جعل الناس يمتثلون أوامر الشرع الحنيف ويجتنبون نواهيه، وأسلوبهم في الوصول الى هذه الغاية، كان يعتمد على توجيهات معينة:

أذكار، وأوراد، وقراءة سير الصالحين، وحكايات المتصوفة ومزج ذلك بالتحدث عن (الكرامات) وخوارق العادات وغالى بعضهم في هذا الجانب.

يحكي صاحب الدوحة : انتقاد الشيخ عبد الله الهبطي للشيخ يوسف التليدي في القول بالكرامات وادعائه لها وفي ذلك يقول : «كان الشيخ أبو محمد كثيرا ما ينكر عليه تلك الدعاوى وينهاه عن افشائها.. وهو على شأنه» (635).

ومعنى كونه (على شأنه) أي أنه لم يستجب للتنبيهات والانتقادات،ولم يستمع لنصائح الشيخ الهبطي في هذا الموضوع.

لكن ابن عسكر الذي ينقل انتقاد شيخه الهبطي للغلو في القول بالكرامات يأبى إلا أن يلصقها بشيخه فيقول : فدعا عليه أبو محمد - أي الهبطي - فخرس وتعطل عن الكتب بيده... ».

ومهما يكن من أمر، فالشيخ يوسف التليدي كان ممن يقول بالكرامات ونجد بعض ذلك في مناقبه المشار إليها سالفا. ومع ذلك فهو لم يكن من المغالين في هذا الباب.

جاء في « فتح العليم الخبير » : ومن كلامه رضي الله عنه : «ما الشيخ إلا صوفي تابع للسنة زاهد في الدنيا..» (636).

---

635) الدوحة : ترجمة الشيخ التليدي.

636) (فتح العليم الخبير) ورقة : 37.

بعض أقواله وعظاته :

قبل أن نختم هذا التعريف بالشيخ أبي الحجاج يوسف التليدي، نعرج على بعض أقوالهَ وعظاته؛ لأنه ليس من المعقول أن تكون شخصية في مثل مركز الشيخ التليدي من حيث الانتساب للتربية الصوفية والتوجيه والإرشاد، ولا تكون لها مواعظ وأقوال مأثورة.

الكثير من هذه الأقوال ضاع لتعاقب الأحداث وطول الزمن، وعدم العناية بالتدوين، واحتفظ صاحب (المناقب) ببعض أقواله وتوجيهاته، ومن ذلك قوله : «وكان يحث المريدين على الصيام وقلة الأكل ، وكان يقول : «من أعظم المهلكات شهوة البطن، وشهوة الفرج، وآفات الكلام..

وكان يقول : «من تحمل الجوع فقد ضيق مسالك الشيطان، وقوى نوازع عبادة الله».

ومن أقواله : «أفضل الناس من قل أكله وضحكه ورضي بما تيسر له».

«كان يحذر أصحابه من الحلف في القول، ويقول : «إنه من قبائح الذنوب، لأن الكذب في القول يكون من جهته».

«كان يحث أصحابه على عدم الخوض في أعراض الناس ويقول : لستم عليهم بوكلاء إلا أن يتعلق بذلك حكم الله».

ويحذر من الغيبة، ويقول : «من صدق بالوعد والوعيد كف لسانه عما لا يعنيه».

وكان يختبر المريد أول ما يرد عليه، فإن وجده جاهلا علمه ما يصلح به دينه وعبادته، وحذره مما يفسدها ظاهرا وباطنا، ثم يعلمه أركان التوبة وحقيقتها، ويلقنه عقيدة أهل السنة ويذكره عقاب الله تعالى، وأنه عليه أن يكف سمعه وبصره ولسانه عما لا يليق وأن يطهر قلبه من العجب والكبر، والحسد، والرياء.

وينتقل مع المريد من حال الى حال : التزين بالعبادة أولا، ثم تطهير النفس، فتهذيب جميع الجوارح، وينتقل من أحوال الظاهر الى أحوال الباطن.

«وكان يشير على كل مريد بما يناسبه من الرياضة ويقول: الشيخ إذا أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة يكون كالطبيب الذي يعالج مرضاه بعلاج واحد».

والملاحظ من خلال هذه الترجمة : أن الشيخ يوسف التليدي جعل من زاويته ببني تليد مدرسة، تدرج فيها من تدريس التلاميذ والطلبة، الى تلقين المريدين التربية الصوفية، والمنهاج الأمثل للسلوك في الحياة.

د ـ الشيخ أبو عبد الله محمد ابن عسكر
(936 ـ 986)

اسمـــه ونسبـــه :

محمد بن علي بن عمر بن الحسين بن مصباح المعروف با بن عسكر زاد الدكتور محمد حجي في مقدمة نشره للدوحة أنه (علمي).ا بن عسكر لا ينسب نفسه للعلميين، والعلميون لم ينسبوه

إليهم. ولعله ظن أنه بانتسابه الى شفشاون التي تكثر بها الأسر «العلمية» أنه علمي، أو ربما يكون انساق مع الأستاذ محمد داود في تاريخ تطوان الذي يقول ستره أشراف شفشاون لعلمه وفضله ونسبه فيهم» (637).

النسب العلمي مضبوط، وأسره معروفة، وابن عسكر ليس من العلميين، ونقباؤهم والنسابون منهم لا يضيفون أسرة عسكر الى النسب العلمي (638).

ويدعى ابن عسكر أنه من الحسنيين (بأهل سريف) (639)

نشأته ودراسته :

نشأ ابن عسكر بمدينة شفشاون في حضن والده الفقيه القاضي، وحضن أمه عائشة بنت أحمد بن عبد الله التي كانت على جانب من التقوى والصلاح، وذات شخصية قوية، حدثته يوما: أن أحد الصالحين أشار اليها وهي حامل به، بأن ما في بطنها سيكون له شأن عجيب...!

637) تاريخ تطوان المجلد 1 ص 156. ويحتمل أن يكون أستاذنا داود قصد النسب الحسني بعامة.

638) انظر مثلا : الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة لابن رحمون، وفتح العليم الخبير لابن ريسون. وكلاهما في النسب العلمي.

639) قبيلة بشمال المغرب قرب القصر الكبير أما عن نسبه، فيقول محمد بن الطيب القادري في كتابه : «الإكليل والتاج...» : «... لايعرف عسكر هذا من هو، ووصف نفسه بالشريف، في أول دوحته، فقال : محمد بن علي بن الحسين بن مصباح الحسني، والمصرح به عند غيره خلافه...».

وكانت تحدثه عن سيرة أسرتها، وعن أحوال والده وكانت أحاديثها معه تهدف الى بث روح الاعتزاز في نفسه، والى تغذية طموحه، وشحذ عزمه وإرادته... واستطاعت أمه في النهاية أن تخلق منه إنسانا طموحا تواقا الى المناصب العالية، والى مرافقة العلماء والصالحين وعلية القوم...

عاش مترجمنا في جو أسرة تطمح للوصول الى المجد عن طريق العلم والصلاح..

ولازم حلقات الدروس العلمية في مساجد شفشاون، واتصل بالعلماء والفقهاء والصلحاء سواء داخل المدينة أو خارجها، بقرى الإقليم ومداشره ويحدثنا عن اتصاله بجملة من الشيوخ والصلحاء : كاتصاله في شفشاون بشيخ الجماعة في عصره، الشيخ علي ابن هارون المطغري ثم الفاسي (640) وكاتصاله بالشيخ أبي العباس أحمد الحداد أمام مسجد الشرفاء (ببني فلواط) من الأخماس العليا الذي كان يتردد على شفشاون فيلتقي به مترجمنا ويتحدث معه في التصوف وغيره... (641).

وكاتصاله عدة مرات بالشيخ أبي القاسم ابن خجو بمدشر (سعادة) القريب من شفشاون حيث درس عليه هناك (642).

---

640) الدوحة : ص 40، بترجمة الشيخ علي بن هارون (تـ 951 هـ - 1545م).

641) الدوحة : 18 (تـ 962 هـ).

642) نفس المصدر.

وهو بالإضافة الى ذلك، لازم بعض الشيوخ ملازمة طويلة كالشيخ عبد الوارث اليلصوتي الذي لازمه مدة طويلة واستفاد منه في عدة فنون.

نجد صاحبنا يكثر من الاتصالات بالشيوخ ويدرس عليهم ويستفيد منهم، وهو ما يزال في ريعان الشباب.

واتصل خارج اقليم شفشاون في جولاته وتنقلاته بعدد من العلماء والفقهاء واستفاد منهم... كما اتصل بالصلحاء والمجاذيب.

وكان صاحبنا تواقا الى المجد، وملبيا دواعي غريزة حب الاطلاع ويريد أن يعرف كل شيء، يكثر من السؤال والاستفسار، باحثا عن أسباب الأشياء وعللها...

جولاته وطموحه وعداوته لأسرة بني راشد :

قضى فترة شبابه متنقلا بين حلقات الدروس، متصلا بالفقهاء والعلماء والصلحاء... وما لبث أن برزت مطامحه، وأصبح نشيطا في اتصالاته، سواء داخل مدينة شفشاون أو خارجها.

ويبدو أنه كان يطمح أن يلي بعض المناصب الدينية داخل إمارة بني راشد، إلا أن طموحه هذا قوبل بالرفض. ويبدو أنه منذ أن عزل أبوه عن منصب القضاء بشفشاون لم تتحسن العلاقات بين أسرته وبين الإمارة الراشدية، بل كان الأمير محمد بن علي بن راشد يتتبع نشاطاته واتصالاته وكان هو قد اتخذ من دار شيخه عبد الله الهبطي، المنتقد لسلوك بني راشد مدرسته وزاويته ومنتداه... فأصبح يتردد عليها ويلازم صاحبها...

فتضايق الأمير محمد من تصرفاته.فلم يبق أمامه إلا أن يودع أمه ويغادر منطقة نفوذ بني راشد.

فأقام بقصر كتامة (القصر الكبير) القريب من الموطن الأصلي لأسرته.

وظلت أمه بشفشاون، ويبدو أن عيون الأمير محمد ابن راشد كانوا يراقبون زوارها وروادها. مما جعل الأمير في نهاية الأمر يرتاب في أمرها ويأمرها بالخروج، أو عدم الاتصال بولدها.

هذه الأحداث جعلت العداوة تشتد بين أسرة بني راشد وأسرة ابن عسكر.

وكانت الأسرة الراشدية في هذا الوقت تدين بالطاعة للأسرة السعدية الحاكمة. وكانت هناك علاقة طيبة بين محمد ابن راشد والسلطان محمد الشيخ السعدى، إلا أنه بعد موت هذا الأخير وتربع خلفه «الغالب بالله» على عرش المغرب أصبحت هذه العلاقة يسودها نوع من الغموض، وسوء النية في الإمارة الراشدية من جانب السلطان.

وأغتنم صاحبنا هذه الفرصة وعمل وهو بمنفاه كل ما في وسعه للاتصال بالبلاط السعدي. وفعلا نجح في هذا الاتصال وعينه عبد الله الغالب قاضيا ومفتيا بالقصر الكبير ونواحيه، وبذلك أرضى طموحه، واستطاع أن يغيظ أعداءه حكام شفشاون.

شاءت الظروف أن تزداد العلاقة سوء بين بني راشد بشفشاون، وبين السلطان عبد الله الغالب بالله. وكان صاحبنا في هذه الأثناء ممتلئا حقدا وغيظا على حكام بني راشد بشفشاون.

ويشير إلى ذلك فيقول : «وقعت بيني وبينه وحشة عظيمة - أي بينه وبين حاكم شفشاون محمد ابن راشد - أوجبت رحيلي عن بلاد شفشاون فوافق ذلك أن قلدني السلطان الغالب بالله أبو محمد عبد الله ابن السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف خطتي القضاء والافتاء بمدينة قصر كتامة، وثغور الهبط فاستقررت بهما، وبقيت السيدة - أي الوالدة - بزاويتها - أي بضواحي شفشاون - وكان القائد المذكور في نفسه ريبة من جانب السلطان، فكنت إذا أرسلت أحدا ينوب عني في زيارتها يتوهم فيه أنه ربما ينقل أخباره، فتصل الى السلطان فرأى أنه لا يسلم من هذا الآمر الذي توهم إلا برحيل السيدة من هنالك...) (643).

ثم يقول : «... فكان من قضية ابن راشد ما هو معلوم من تسليط السلطان عليه، وارسال الحركة إليه، وهروبه ليلا عن شفشاون، ولم يلو على شيء، ثم إزعاجه الى بلاده المشرق وموته هنالك، وتبدد وتمزق كل ممزق. أما ولده محمد فمات مقتولا بمصر وقطع أطرافا ورمي في بئر يهودي...» (644).

ظل ابن عسكر حاقدا على أمراء شفشاون يلتقط أخبارهم، ويترصد مساوئهم، ويذيع هفواتهم وأخبار نكباتهم... ونراه في الدوحة لا يترك فرصة يتاح فيها النيل من أسرة بني راشد إلا اغتنمها ويتجلى ذلك بصفة خاصة في ترجمة والدته. وفي ترجمة

---

643) الدوحة : ص 19، وما بعدها.

644) نفس المصدر.

الشيخ عبد الله الهبطي، وفي ترجمة الأخوين الشيخين الريسونيين «علي وعبد الرحمن».

وليس هذا بغريب ما دام صاحبنا قد نشأ في جو عائلي مشبع بالحقد على أسرة بني راشد التي عزلت أباه، والتي لم يحظ عندها بما كان يطمح اليه من مناصب وعز وجاه..

وبعد القضاء على أسرة بني راشد، ولي صاحبنا قضاء مدينة شفشاون، الذي طالما تاقت نفسه إليه، وزادت علاقته توطدا مع السلطان عبد الله الغالب، ومع ولده محمد المتوكل، وأخلص لهما إخلاصا كبيرا. وظل وفيا للمتوكل بالرغم من أنه انهزم أمام عميه؛ عبد الملك وأحمد عدة مرات، وأصبح طريداء وفر عنه أصدقائه وقواده...

ظل وفيا له، وراعيا معروف والده الذي قلده المناصب، ونصره على أعدائه بني راشد... وهكذا أعماه التفاني في الوفاء لمن أحسن إليه عن الواجب الوطني، وبذل في سبيل وفائه آخر قطرة من دمه !!

وإذا عرفنا منشأ العداوة بين أسرة ابن عسكر، وأسرة بني راشد فمن الجدير بالملاحظة أن نتعرض لردود فعل العداوة من طرف العلميين بشفشاون بعامة، ومن طرف بني راشد بخاصة.

وبسبب هذه العداوة كان ابن عسكر ينفي انتساب بني راشد لآل البيت...

وبما أن الشيخ أحمد بن علي العلمي قاضي شفشاون كان مولعا بوضع شجرات النسب، وبالتقييد في موضوع النسب العلمي بخاصة. فإنه رد على ابن عسكر قائلا : «فلا يغرنك ما أشيع على ألسنة الناس، وخصوصا المخزن منهم، من أنهم أولاد راشد مولى الإمام إدريس الأكبر. فإن ذلك افتراء محض من المخذول محمد ابن عسكر السريفي، ثم الشفشاوني، لما سبقت له من الشقاوة والعياذ بالله. فإنه مع تحققه لشرفهم كان يبغضهم وينتقصهم ويريد خلعهم من البلاد الشفشاونية ليتسع أمره بها. فسولت له نفسه الأمارة أن ينتقصهم بنفيهم من هذا النسب الكريم فما نقص ذلك فيهم .بل رجع عليه أهل الهبط وأهل المعرفة من غيرهم بالنكير وعدوا ذلك من أكبر هفواته، ومن حينئذ والعياذ بالله لم يزل ينحط في مهاوى الضلال بعد أن كان يتسم بسمة الفقراء مخالطا لهم، وملابسا لعظمائهم، الى أن كان من رؤوس المستنجدين بالنصارى على الإسلام، وقتل والعياذ بالله معهم ومكن الله منه... (645).

هذا النص يصور مقدار حقد العلميين بشفشاون على ابن عسكر، والأمر لا يقف عند هذا الحد بل تثبت الوثائق أن الذي تولى قطع رأس ابن عسكر بعد موته في معركة وادي المخازن، هو عبد السلام بن علي بن ابراهيم ابن راشد العلمي.

---

645) كناشة العلميين ورقة : 42 بالمكتبة العامة بتطوان ضمن مجموع (656). وهذا الكلام نفسه نقله محمد ابن الطيب القادري في الاكليل والتاج... أثناء ترجمته لابن عسكر.

ورد في نفس المصدر : «... وكان الذي قطع رأسه سيدي عبد السلام بن علي الأصغر بن ابراهيم بن علي الأكبر بن موسى ابن راشد، وشاهدته قتيلا بالمعركة بعد أيام وهو مقطوع الرأس مبقور البطن ممثلا به ملوثا... لشدة بغض الناس له والعياذ بالله وهذه عادة الله مع كل من أذى أهل البيت...» (646)

هذا من كلام الشيخ العلامة أحمد بن يوسف الفاسي معقبا على النص السالف للشيخ أحمد العلمي (647).

فابن عسكر تشفى في بني راشد بانقراض أيام عزهم وسطوتهم، وبتمزقهم ونكباتهم... كما لاحظنا ذلك من قبل، وتشفى العلميون بشفشاون بموت ابن عسكر تلك الموتة الشنيعة.

ووجد من أحفادهم من تولى فصل رأسه عن جسده ومثل بجثته ؟ وخفي أمر هذه العداوة على بعض الباحثين فظن أن ابن عسكر ستره شرفاء شفشاون لنسبه فيهم، مع أن تلك العداوة كانت ذات نتائج سيئة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

نظرة حول ابن عسكر :

تعرض ابن عسكر للنقد، فوصف بأنه قليل الإلمام بقواعد اللغة العربية أو بأنه على الأقل قليل الخبرة في تطبيقها، ووصف

---

646) نفس المصدر.

647) هو ابن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي انظر ترجمته في المرآة، وفي أزهار البستان لأحمد بن عجيبة ورقة : 219.

بعدم الجزالة في الأسلوب، وبعدم الضبط في تاريخ (وفياته) بالنسبة لمن يترجم لهم... (648).

ووصف بالتحيز، حيث ذكر بعضهم أنه لم يترجم مثلا لأبي المحاسن يوسف الفاسي (649) والحقيقة أنه لم يترجم لبعضهم كسليمان الملولي، والحسن ابن عرضون، وأخيه عمر، والشيخ أخفاق، وغيرهم. وعيب عليه انسياقه مع محمد (المتوكل) بالرغم من أن المتوكل فر الى بلاد النصارى واستنجد بهم، حيث أنجده الملك البرتغالي (سبستيان) الذي لقي حتفه في معركة وادي المخازن الشهيرة. (986 هـ ـ 1578 م).

وتكلم الناس فيه من أجل ذلك.

واعتذر عنه ابن شيخه محمد بن عبد الله الهبطي...

فابن عسكر كان طموحا ساعيا وراء المناصب والجاه تواقا الى الرئاسة والظهور... وهذا ما جعله يصطدم في حياته بكثير من الناس، فهو يذكر في الدوحة مثلا أن قائد القصر الكبير (موسى ابن مخلوف) تضايق من وجوده بهذه المنطقة الى درجة أنه قال له «رأسان لا يجتمعان في شاشية واحدة» فأجابه ابن عسكر «أنت قائد وأنا فقيه فلا جامع بين وبينك...» ومع ذلك

---

648) انظر مثلا : مقدمة محقق الدوحة، طبعة الرباط على الحروف سنة 1976.

649) (مؤرخو الشرفاء) ص 168 للفي بروفنصال تعريب الأستاذ عبد القدر الخلادي. ط الرباط 1977.

اضطر هذا القائد الى أن يخرجه من إيالته كما أخرجه بنو راشد من منطقة نفوذهم من قبل (650).

وطموح ا بن عسكر جعله يتقرب من السلطان، ولسنا ندري الأدوار التي قام بها من أجل هذا التقرب وإن كان تعليله لسبب خروجه من شفشاون أولا، ومن منطقة القصر الكبير ثانيا، بفساد العلاقة بين السلطان و بين القائدين، يوحي بأشياء...؟

و بتقر به من السلطان استطاع أن يحقق كثيرا من طموحه وأطماعه، حيث ولي القضاء والافتاء بكل من شفشاون والقصر الكبير، ثم بعد ذلك أصبح من خواص الملك وجلسائه.. وهكذا ظل يبحث عن تحقيق مطامحه، الى أن مات موتة المغامرين الباحثين عن المجد...

وإذا عرفنا هذا فلا يبقى هناك معنى لذلك التعجب أو ذلك «التهكم» الذي اصطنعه ليفي بروفنصال وهو يتحدث عنه قائلا» وصف ا بن عسكر كرامات الأولياء وصف من عاينها واستفاد من بركتها، وآمن بفعاليتها، وهذا الإيمان الذي لا يمازجه أي رياء هو الذي يجعلنا نتساءل لماذا لم يحفظه من همزات الشيطان الذي أغواه وساقه نحو نهاية مؤلمة... (651).

---

650) المعرب الفصيح الفصل 15 البيت 1099 وما بعده.

651) مؤرخو الشرفاء ص 160.

لم يكن ابن عسكر ذلك الصوفي الغارق في الخيالات، والمتشبث بالروحانيات، بل كان محبا للجاه والظهور عاملا على الانتقام من أعدائه، ومتربصا لمساوئهم ونكباتهم...

وكان له كثير من الأعداء هنا وهناك... ولم يجد ملجأ الا عند السلطان عبد الله الغالب الذي كان يتوجس شرا من إمارة بني راشد بشفشاون، ومن مجاهدي مرتيل، ومن مجاهدي ثغور الهبط.

وهذه المناطق كان قد استقر فيها صاحبنا، وله مع أصحاب النفوذ فيها ثارات، وحزازات، وله فيها خصومات وأعداء...

وإلى هذا يشير بلديه الشاعر الهجاء عبد الرحمن الشفشاوني (652) إذ يقول :

لج ابن عسكر يهجو الانام وقد

أضحى لهم علما في كل مذموم (653

الخ....

ابن عسكر والحديث عن الجهاد :

من الإنصاف أن نذكر أن ابن عسكر كان شغوفا بمخالطة الصلحاء والعلماء باحثا عنهم، ومن عشاق مجالسهم العلمية... وأحاديثهم الممتعة، شغوفا بالحديث عن المجاهدين منهم مشيدا بهم.

---

652) الشاعر الهجاء عبد الرحمن الشفشاوني ترجم له ابن القاضي في الدرة : ج 2. ص 363. ط الرباط. وفي الجذوة : 2 : 413 ط دار المنصور. وتوفي هذا الشاعر سنة 990 هـ.

653) الجذوة : 2 : 243.

... ويتجلى ذلك في كثير من تراجمه كترجمة الشيخ عبد الله الورياجلي (654) والشيخ أبي عبد الله محمد البهلولي (655) والشيخ أبي عبد الله محمد ابن يجيش التازي الذي أشاد بتفانيه في التحريض على الجهاد نظما ونثرا. (656) وفي ترجمة علي عثمان الشاوي الذي استشهد في معركة مع البرتغاليين قرب أصيلا،وهو يردد أبياتا من بردة البصيري... الخ (657).

وعلى الجملة فابن عسكر لا يكاد يجد فرصة يتحدث فيها عن الجهاد الا واغتنمها، وتكلم فيها بإخلاص وحماس... ولعل هذا هو الذي حمل (ليفي بروفنسال) على وصفه : بكراهيته لأهل الصليب، نظرا لكونه ربي في رباط - أي شفشاون - كانت تتوارد عليه من جميع أطراف البلاد أفواج من المجاهدين، ولأن أباه ذاق آلام الأسر» (658).

ولنستمع إلى ابن عسكر وهو يصف احتضار الشيخ أبي عبد الله محمد بن يحيى البهلولي الذي رفض (صلة) السلطان أحمد الوطاسي، ورفض الاتصال به، لأن السلطان عقد هدنة مع البرتغاليين «فمكث على ذلك - أي على المقاطعة إلى أن حضرته الوفاة، وكان في النزع، وأصحابه دائرون به، فقال بعضهم يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو (وبرح به) وأمنت الناس

---

654) الدوحة : ص 24، ط. ح.

655) نفس المصدر ص 45.

656) نفس المصدر ص 51.

657) نفس المصدر ص 28.

658) مؤرخو الشرفاء، ص 160.

عليه، والمسلمون في شوق لذلك، ففتح الشيخ عينيه، وتهلل وجهه فرحا وحمدا لله، وأثنى عليه، ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك، وله زجليات، ومقطعات حسان في الحث على الجهاد...» (659).

فابن عسكر كان من المشيدين بأعمال الجهاد، وذلك ناشىء عن الجو المحيط به، وعما بثه شيوخ التربية في نفسه، وبخاصة شيخه عبد الله الهبطي الذي كان يحدثه بإعجاب بالغ عن شيخه الشاعر الرقيق المجاهد محمد بن عبد الرحيم ابن يجبش التازى، وكشيخه أبي القاسم بن خجو الذى كان يحرض الناس على الجهاد بخطبه ورسائله (660).

ويتجلى من هذا أن ابن عسكر كان محبا لوطنه، ومشيدا بشيوخه المجاهدين... ونراه يعبر عن ذلك بكل صراحة في مقدمة كتابه الدوحة فيقول «وإنما جعلته مختصا بمشايخ المغرب لكونه وطني ومغرس شبابي ومعطني، ومن ذا الذى لا تهزه عصبية وطنه..؟ (661).

وإذا كانت ظروف قاسية جعلت ابن عسكر يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو متشبث بأذيال (ملكه) المتوكل، فإنما ذلك لسوء حظه،و(لوفائه) الأعمى،الذى جعله يظل في ركاب المغامرين إلى آخر لحظة من حياته..!

---

659) الدوحة، ص : 26، ط. ح.

660) (مقنع المحتاج في آداب الأزواج) لأحمد بن عرضون، ص 131، مخ. خ. ع. الرباط رقم 1026 ك.

661) الدوحة : ص : 2.

ابن عسكر وكتاب التراجـــم :

نرى أن بعض كتاب التراجم تجنب الكلام عن ابن عسكر وفي طليعة هؤلاء ابن القاضي (ت 1616/1025) (662). في كتابيه : درة الحجال، وجذوة الاقتباس ولعل سبب ذلك، النهاية الأليمة لابن عسكر، ومع هذا لم يصمت ابن القاضي عن ذكره بتاتا. بل ذكره في دفتر وفياته الذى سماه : «لقط الفرائد» (663) حيث قال في أحداث سنة 986هـ : «والقاضي محمد ابن عسكر الشفشاوني، قاضي قصر كتامة» عاطفا له على عبد الملك السعدى، ومحمد المتوكل، والفقيه ابراهيم بن سعيد، أى على المتوفين في تلك السنة.

وسبقت الإشارة إلى أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن عبد الله الهبطي ذكره في جملة أصحاب أبيه ودافع عنه قائلا :

ومنهم القاضي الذى لا ينكـــر محمد أخو الدهاء عسكــــــر

فهو المعين والقمين والنفيـــس والاحوذي الفطن الندب الرئيس(664)

وإن يكن أتى بذنب ظاهـــر فقلبه من الشكوك طاهـــــر

---

662) ابن القاضي : أبو العباس أحمد ابن القاضي من آل العافية بمكناس العالم العلامة صاحب التآليف المفيدة في الفقه والهندسة، والحساب والتاريخ والتراجم، انظر الصفوة ص 77 وروضة الآس ص 239، ط : الملكية. تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور. وص (م) من نفس المصدر.

663) مخ. خ. ع. ر. 5968 د. ونشره الدكتور محمد حجي ضمن مجلد سماه «ألف سنة من الوفيات في ثلاث كتب» ط. الرباط ص 315.

664) الندب : السريع إلى الفضائل ـ الظريف النجيب الخفيف في الحاجة لأنه إذا ندب إليها خف لقضائها.

وهو بشيخه الزكى معتصـــــم وحبله من حبله لم ينفصـــــم
رأيته في النوم ذا بشـــــارة وهيئة حسنة وشـــــارة (665)

هذه الأبيات نقل ثلاثة منها الافراني في النزهة، ونقلها عنه الناصرى في الاستقصا، ونقلها كذلك الشيخ العباس المراكشي في «الاعلام» ثم الأستاذ الخلادى معرب «مؤرخو الشرفاء» عند الكلام عن ا بن عسكر مع ا بدال كلمة القاضي (بالشيخ) أحيانا.

ويتجلـى فيهـا مـدح الشيـخ محمـد الهبطـي لا بـن عسكر، ووصفه بأوصاف حسنة، فهو يصفه بالدهاء، والرئاسة، والفطانة والظرافة...

ويعتذر عن ذنبه بطهارة قلبه من الشكوك ـ أى من الخيانة ـ وبأنه رآه في النوم ذا بشارة وهيئة حسنة وشارة.

وممن تحدث عن ا بن عسكر أبو عبد الله محمد الافراني في (نزهة الحادى) في نهاية حديثه عن معركة وادى المخازن قائلا.

وممن وجد في القتلى أبو عبد الله محمد ا بن عسكر صاحب دوحة الناشر، فإنه هرب مع المسلوخ وكان في بطانته، ودخل معه بلاد الروم فوجد ميتا بين قتلى النصارى صريعا، وتكلم الناس في أمره...» (666)

---

665) المعرب الفصيح البيته: 999، مخطوط.
666) نزهة الحادي، ص 76. ط. انجي: 1888.

وجاء في أزهار البستان «للشيخ أحمد بن عجيبة : ومنهم الفقيه الأجل العالم الأفضل القاضي الأعدل أبو عبد الله محمد بن عسكر السريفي وأمه الصالحة ريسونية الشريفة الحسنية. كان رحمه الله عالما فاضلا جوالا على أهل الفضل والصلاح لقي عدة وافرة من الأكابر ـ ... إلى أن يقول : وتوفي رحمه الله في وقعة وادى المخازن وكانت سنة 986» ثم يذكر اتصاله بالمتوكل.. الخ ويقول بعد ذلك (وتكلم الناس فيه وأجاب عنه سيدى عبد القادر الفاسي، وكذلك الفقيه العلامة سيدى محمد بن عبد الله الهبطي فإنه ذكره في منظومته التي نظمها في أصحاب أبيه... (667).

وممن اعتذر عنه وترجم له ترجمة وافية الشيخ أبو عبد الله محمد بن الطيب القادرى في كتابه «الاكليل والتاج في تذبيل كفاية المحتاج» وبعد كلام طويل قال : «وقد أثنى عليه غير واحد واعتمدوا عليه النقل من دوحته (668).

أما الناصرى في الاستقصا فإنه أعاد نفس الكلام الذى ذكره الافراني عنه في النزهة. ناقلا لأبيات الهبطي في الاعتذار عنه (669).

وترجم له الشيخ العباس بن ابراهيم المراكشي في (الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام) قائلا : «محمد بن علي بن

667) أزهار البستان مخ : خ. م. رقم 417. ص 144.

668) محمد بن الطيب القادري (الاكليل والتاج..) مخطوط م. م. بالرباط رقم 1897.

669) الاستقصا : ج 5 : 81 و 82.

عمر بن حسين بن مصباح الشريف الحسني السريفي عرف با بن عسكر قاضي شفشاون الشيخ الإمام العلامة الصوفي الحافظ المسند الراو ية ألف دوحة الناشر...» (670).

ثم تحدث عن بعض المواد التي درسها، وعن صحبته لبعض الشيوخ وتكلم عن نهايته، وأتى باعتذار الشيخ الهبطي عنه...

أما الشيخ عبد الحي الكتاني فلقد تحدث عن دوحته في فهرس الفهارس قائلا هي : «للعلامة الصوفي المؤرخ أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر بن الحسين بن مصباح المعروف با بن عسكر (671).

وترجم له (ليفي بروفنصال) في كتا به «مؤرخو الشرفاء» مستوحيا ترجمته من الدوحة، ومازجا حديثه عنه بالحديث عن الدوحة نفسها، ومما جاء في ذلك قوله : لم يتحر فيها ذلك النوع من الاستيعاب الذى اتسمت به مؤلفات من اقتفوا أثره في هذا المجال، إلا أنه كان أول من شفع وصف مناقب الأولياء بمعلومات تتعلق بسلوكهم في الحياة الدنيا...» (672).

وممن تناول الحديث عن ا بن عسكر الشيخ أ بو العباس أحمد الرهوني في كتا به «عمدة الراوين في أخبار تطاوين» مانحا

---

670) الاعلام، ج. 4ص 174. ط. الرباط.

671) فهرس الفهارس ج 1 ص 341.

672) (مؤرخو الشرفاء) نفس المصدر السالف الذكر. ص 160.

اياه نفس الألقاب التي رأيناها عند الشيخ ابن ابراهيم في الإعلام، والشيخ الكتاني في فهرس الفهارس (673).

وتحدث عنه الأستاذ محمد داود في كتابه تاريخ تطوان (674)، والدكتور عبد الهادى التازى في كتابه جامع القرويين (675) وتحدث عنه غير هؤلاء.

هـ ـ الشيخ أبو عبد الله محمد الصغير الهبطى (676) (ت 1001/1592)

من خلال ما كتب عن الشيخ محمد الصغير الهبطي ومن خلال بعض كتبه ورسائله يتضح للقارىء أنه كان ذا شخصية لها مكانتها ووزنها في الميدان الفكرى في القرن العاشر الهجرى.

نشأته وحياتـــه :

ولد أبو عبد الله محمد الصغير الهبطي بمدشر (وسلاف) قرب قرية تلمبوط من قبيلة بني زجل، في الدار التي بناها

673) (عمدة الراوين) ج 5 ص 66 مخطوط، الخزانة العامة بتطوان.

674) تاريخ تطوان، ج 1 : : 165.

675) د. عبد الهادي التازي (جامع القرويين) : 2 : 512.

676) انظر ترجمته : أ ـ محمد الافراني في الصفوة : 86 ـ 87 : ب ـ محمد القادري في نشر المثاني : 1 : 18 ـ 19. ج ـ الحضيكي في الطبقات : 2 : 101. تحدث عن نفسه في المعرب الفصيح بالفصل التاسع وفي فوائده. هـ ـ أحمد بن عجيبة في أزهار البستان : 208 ـ 212. و ـ د. محمد حجي في الحركة الفكرية، ج 2 : 467 وغيرهم.

والده بأسفل هذا المدشر والتي تزوج فيها بأمه آمنة بنت علي بن خجو (677).

نشأ مترجمنا في هذا المدشر وبه بدأ حياته الدراسية وقضى فيه فترة طويلة من حياته قبل أن ينتقل مع أسرته إلى (الجبل الأشهب) (بمكو).

درس مترجمنا بجبال غمارة وبصفة خاصة في قبيلة بني زجل ومن أشهر شيوخه.

1 ـ والدته آمنة بنت علي بن خجو.
2 ـ والده عبد الله الهبطي.
3 ـ خاله أبو القاسم بن خجو.
4 ـ أخوه محمد الكبير بن عبد الله الهبطي.
5 ـ موسى بن علي الوزاني، وغيرهم.

وبهذا يكون مترجمنا قد نشأ في جو مفعم بالنشاط الثقافي، وفي (المعرب الفصيح) ذكر المواد التي درسها على والده بزاويتهم بالجبل الأشهب، وهي مواد مختلفة تشتمل على المعارف المتداولة في ذلك العصر. وقد سبق الكلام عن ذلك أثناء الحديث عن معهد المواهب بالجبل الأشهب.

---

677) فوائد محمد الهبطي ورقة 4 مخطوط خاص. بعدما تكلم عن بناء والده لداره (بوسلاف) قال : «وفي ذلك المكان أخرج الله ناقل هذا الكلام من العدم إلى الوجود».

وما لبث أن أصبح مترجمنا ذا ملكة علمية أهلته للتدريس والإفتاء والقضاء والتأليف... فأصبح عالما مشاركا متضلعا في كثير من العلوم والفنون، وعرف بين معاصريه (بمحمد العالم) (678).

خلافتـــه لوالـــــده :

بعد موت الشيخ عبد الله الهبطي سنة : 963هـ تولى ولده محمد الصغير القيام بشؤون المعهد، ومواصلة خطة والده في التدريس والتربية الصوفية، وبذلك واصل معهد المواهب النشاط الفكرى الذى عرفه من قبل وظل مقصد الطلاب والمريدين وعشاق المعرفة وملتقى الفضلاء والعلماء...

توليه لمنصب القضـــاء :

تولى الشيخ محمد الصغير القضاء ببلده بني زجل ونواحي شفشاون،وذلك على عهد السلطان أحمد المنصور السعدى، وكان مثالا لقاضي العدل النزيه المتبصر، وكانت ترد عليه الفتاوى من الأقاليم البعيدة فيجيب عنها بما عهد فيه من نزاهة وعلم.

تصوفه وتواضعه وحبه لآل البيت :

يتجلى تصوفه من خلال ما كتبه عن أبيه في (المعرب الفصيح) وهو أحيانا يتحدث عن الرقائق الصوفية، ويأتي ببعض

---

678) انظر : دليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بن سودة ج 2 : 399. ط دار الكتاب الدار البيضاء.

تعا بيرهم ومصطلحاتهم (679) إلا أنه في تصوفه متشبث بالشريعة التي يرى أن كل تصرف لا بد وأن يخضع لها، وهو في ذلك مقتد بوالده الذى خالف شيخه الغزواني في بعض الأحيان (680).

أما تواضعه وحبه لآل البيت فيتجليان في القصة التالية التي يرويها مؤلف (مناقب الأخوين) فيقول :

«حدثني الطالب علي العمارى الشواطي وكان أبوه من تلامذة سيدى عبد الله الهبطي رضي الله عنه قال : حضرت يوما مع سيدى محمد بن عبد الله الهبطي عالم أهل الأرض - كذا - في وقته، والمرجوع إليه، والمعول عليه في معضلات النوازل، ومشكلات العلوم الكسبية، والذوقية، رضي الله عنه، وقد اجتمع مع سيدى محمد بن علي الشريف، فلما أراد التوديع والانصراف أقسم عليه سيدي محمد بن عبد الله الهبطي أن يتركه يقبل قدميه، فعظم ذلك على سيدى محمد بن علي، اجلالا لشأنه وتعظيما لحقه، وامتنع من ذلك (...) فقال الهبطي : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقسم عليه سيدى

679) الفصل : 9 من المعرب الفصيح، ابتداء من البيت : 760 وما بعده.

680) مثلا :

أ - لم يصل والده مع شيخه الغزواني صلاة الظهر - بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش - لاعتقاده أن الوقت لم يدخل في حين صلى معه جل أصحابه ما عدا أفرادا قلائل اقتدوا بعبد الله الهبطي. (المعرب الفصيح).

ب - لم يصافح جماعة النساء، ولم يقف أمامها عند ما كان في صحبة شيخه الغزواني بتلمبوط، وجاءت هذه الجماعة لزيارة الشيخ (نفس المصدر).

محمد بن علي أن يناوله يده ليقبلها (...) وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، وتوادعا وانصرفا». (681).

هذا المشهد يرينا محمد الصغير الهبطي وهو يلح على الشريف محمد بن علي بن ريسون في أن يسمح له بتقبيل قدميه، وهذا يدل على شدة تواضعه، وعلى مبلغ حبه لآل البيت (682).

ومن جهة أخرى يدل على تشبع محمد الهبطي بمبدأ التواضع الذى يتجلى عند الصوفية في قمع النفس الأمارة بالسوء، وفي اجتثاث كل معاني حب الظهور والاستعلاء.

مؤلفاتـــــه :

لمترجمنا الشيخ محمد الصغير الهبطي بعض المؤلفات منها
1 ـ (كنز السعادة في بيان ما يحتاج إليه من نطق بالشهادة) وموضوع هذا الكتاب كان سبب المناظرة المشهورة بين الشيخ عبد الله الهبطي، والشيخ اليستني (683) إلا أن السبب

---

681) (مناقب الأخوين) للحسن بن محمد بن علي ابن ريسون ورقة 23 مخ. خ. ع. ر : 2286 ك

682) حب آل البيت كان من شعار العلماء الكبار بالمغرب، وأثناء قراءتنا لكتب التراجم وغيرها نصادف ما يثبت ذلك ويؤكده، وهذه الظاهرة كانت من أسباب نجاح الدولة السعدية ثم الدولة العلوية من بعد.

683) لأن الشيخ محمد الخروبي (تـ 963 هـ) كان يرى أنه لابد لمن ينطق بالشهادة من آداب انظر الدوحة : ص 8.

المباشر لتأليف هذا الكتاب كان هو الرد على سؤال جاءه من مراكش حول موضوع الإيمان والعمل (684).

2 ـ (المعرب الفصيح في ترجمة الشيخ الرضي النصيح) (685) وهو أرجوزة في سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف بيت، ويشتمل على ستة عشر فصلا ترجم فيه لوالده ترجمة وافية وذكر فيه جملة من شيوخه وتلامذته كما تحدث عن مواقف والده في محاربة البدع والشعوذة... وابان في هذه الترجمة عن مقدرته الأدبية وعن تشبعه بالأفكار الصوفية وأشاد بشيخ والده الغزواني وبطريقته الجزولية الشاذلية...

3 ـ كتاب مصطلحات الصوفية، ويشتمل على مقدمة وبابين وخاتمة وهو مهم في بابه (686).

4 ـ كشف الاستار الغيبية عن وجه القصيدة الشعيبية وهو شرح لنونية أبي مدين الغوث (ت: 590هـ) وله مختصر لهذا الكتاب (687).

---

684) جاء في الصفوة وفي أزهار البستان: «وله كتاب كنز السعادة في بيان ما يحتاج إليه من نطق بالشهادة وهو كتاب مفيد أجاب به بعض العلماء القائلين يحتاج قائلها إلى أربع خصال: تصديق وتعظيم وحلاوة وحرمة فمن لم يكن معه تصديق فهو كافر، ومن لم يكن معه تعظيم فهو مبتدع، ومن لم يكن معه حلاوة فمراء، ومن لم يكن معه حرمة ففاسق.

685) انظر: دليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بن سودة ج 2 399. رقم 7199. وتوجد منها نسخة بإحدى المكتبات الخاصة بالرباط.

686) مخطوط المكتبة الملكية بالرباط رقم: 5788.

687) مخ: م. م رقم: 6120 و 9298، ومكتبة القرويين 1528.

5 ـ تقييد في معنى كلمة التوحيد (688).

6 ـ جواب عن معنى الكل والكلية والكلي، والجزء والجزئية والجزئي، وما يتعلق بمعنى الكلية الشريفة (689).

7 ـ المنهاج في آداب الأزواج (690).

8 ـ (الفوائد) وهي تشتمل على سماعات الشيخ محمد الصغير من والده عبد الله الهبطي حدثه بها عن قبيلة بني زجل وعن الأسر الشريفة النسب في هذه القبيلة، وعن مبدأ استقرار والده بها... (691).

مكانتــــه :

الذين ترجموا لمحمد الصغير الهبطي وصفوه بالتضلع في العلم والمعرفة، وبأنه كان من أفذاذ علماء عصره إلى درجة أنه كان يدعى (بمحمد العالم).

ونجد لبعض مؤلفاته صدى استحسان عند مترجميه (692) وسبق أن رأينا صاحب (مناقب الأخوين) ينقل كلام من يرى فيه

688) مخ. خ. ع. رقم : 2026. د.
6

689) مخ. خ. ع. رقم : 2026. د.
5

690) ذكره في (فوائده) قائلا : «.. فلما ختمت كتابي المسمى بالمنهاج في آداب الأزواج أردت أن أقيد عقبه بعض الفوائد...» مقدمة (الفوائد).

691) (الفوائد).

692) انظر مثلا : الكلام عن مؤلفه : (كنز السعادة) في (الصفوة) و (أزهار البستان).

إنه «أعلم أهل زمانه، وأنه المرجوع إليه والمعول عليه في معضلات النوازل، ومشكلات العلوم الكسبية والذوقية...».

هذا الكلام ونحوه يدل على المكانة التي كان يتمتع بها الرجل . ولا غرابة في ذلك؛ لأنه ظل طول حياته منصرفا للتدريس والإفتاء والتأليف، والكتابة...

و ـ الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عرضون (ت : 1012/1603)

مولده ونشأتــه :

ولد مترجمنا بمدشر (أدلدال) قرب قرية تلمبوط من قبيلة بني زجل الغمارية بضواحي شفشاون (693).

ومترجمنا ينتسب إلى أسرة معروفة بالفضل والدين وأسرة العرضونيين احدى الأسر العريقة بغمارة، فأبوه الحسن بن يوسف بن عرضون، كان من العلماء الأجلة، ومن الذين ساهموا في الحركة الفكرية تدريسا وافتاء وتأليفا وتوجيها وتربية، وهو مؤلف النوازل الفقهية المنسوبة إليه والتي ينقل عنها فقهاء النوازل كالشريف العلمي وعبد العزيز الزياتي وغيرهما...

ومن أبرز تلامذة الحسن ابن عرضون ولداه أحمد ومحمد.

---

693) الذين ترجموا لمحمد بن عرضون لم يحددوا زمن ولادته إلا أن ابن القاضي في درة الحجال قال : انه ولد بعد الخمسين وتسعمائة، ويحتمل أنه ولد قبل ذلك بقليل أى نحو سنة 945 هـ أو : 946 هـ.

وعرف الحسن هذا في حياته بالعلم والتقوى، وكان بيته ببني زجل مدرسة يؤمها طلاب العلم والمعرفة، والمستفسرون عن الأحكام الشرعية سواء في العبادات أو المعاملات...

وكان للحسن والد مترجمنا أخوة من العلماء كأخيه الفقيه الشاعر أبي حفص عمر بن يوسف ابن عرضون.

فمترجمنا أبو عبد الله محمد ابن عرضون نشأ في أسرة تشتغل بالعلم والثقافة، ولها شهرة ذائعة في ميدان الفقه والوثائق والأدب والتاريخ... بالإضافة إلى ما اشتهر به أفرادها من جمال الخط، وجودة الأسلوب، وقرض الشعر، مع البراعة في الفرائض والحساب.

وكان أفراد هذه الأسرة حريصين تمام الحرص على تعليم أبنائهم، ولهم في ذلك مناهج وأساليب تتجلى في العناية بهم منذ الصغر، وذلك بتحفيظهم المقطوعات الشعرية الجيدة بالإضافة إلى كتاب الله العزيز وترويضهم على الآداب الحميدة...

ونبغ من أسرة العرضونيين عدة أفراد مثل أبي عبد الله محمد ابن عرضون مترجمنا هذا، وأخيه أحمد ابن عرضون صاحب التآليف (694) المفيدة، والآراء الفقهية النيرة، ثم أولاد هذين الأخوين...

---

694) له عدة مؤلفات من أشهرها : الفائق لمعلم الوثائق، ومقنع المحتاج في آداب الأزواج، وحدائق الأنوار، ورسالة التوادد والتحابب، وغير ذلك.

وعلى الجملة فأسرة مترجمنا كان لها الفضل في بروز شخصيته.. فشيخه الأول : والده الحسن بن يوسف، ثم عمه أبو حفص عمر بن يوسف، وكان مترجمنا مع أخيه أحمد كفرسي رهان يجدان ويجتهدان ويحصلان العلم بشغف ونهم، واستفاد مترجمنا كثيرا من أخيه كما استفاد منه أخوه أحمد كذلك (695).

وبالإضافة إلى هذا الجو الثقافي والفكري في أسرته الخاصة، فانه أفاد كثيرا من أسر أخرى كانت ترتبط مع أسرته بالمصاهرة وبروابط فكرية وثقافية.

ومن ذلك أسرة (ابن خجو) وهي أسرة علم ودين، وسبقت الإشارة إلى أن والدة مترجمنا كانت من هذه الأسرة، فجده لأمه هو الشيخ المفتي أبو القاسم ابن خجو الحساني (696).

وأسرة عبد الله الهبطي، التي كانت لها روابط متينة مع أسرته، وكانت عمة أمه الفقيهة آمنة ابن خجو هي زوجة الشيخ عبد الله الهبطي.

وهكذا نجد مترجمنا قد نشأ في جو ثقافي فكري يساعد على الدراسة والتحصيل... ولذلك فلا عجب إن رأيناه قد وصل إلى مرتبة عالية من المعرفة والشهرة والألمعية...

---

695) نرى أخاه أحمد في بعض تآليفه يقول : «أخذت هذا السند عن أخي وشقيقي أبي عبد الله محمد، أنظر الجزء الأخير من «حدائق الأنوار» نسخة الخزانة الملكية بالرباط.

696) انظر ترجمته : ص : 351.

وإلى هذا الجو الثقافي الفكرى الذى كانت عليه أسرة مترجمنا... يشير أ بو العباس أحمد المقرى في إحدى مراسلاته مع أحد أفراد هذه الأسرة فيقول : «... وعلى أخينا وولينا الصدر الأوحد صاحب المآثر التي لا تجحد، والمفاخر الجليلة، وارث العلم لا عن كلالة، سبط أصحاب الفنون، سيدى محمد ا بن عرضون، حفظ الله علاه، وأعانه على ما أولاه...» (697).

فالعلامة أحمد المقرى يصف أحد أفراد هذه الأسرة بكونه وارث العلم لا عن كلالة، وبأنه سبط أصحاب الفنون... إشارة إلى الجو الذى كانت عليه أسرة مترجمنا...

فمترجمنا ورث العلم عن آبائه وأجداده وأفراد أسرته أبا وأما...

شيوخه وأساتذته :

تقلب في دراسته بين مدارس الجبل، وبين حلقات الدروس في القرويين بفاس، وبالرغم من أنه ذهب إلى فاس وهو دون البلوغ، فإنه كان قد حصل ببلده على معلومات لا بأس بها : حفظ القرآن الكريم، وكثيرا من «المتون» في مواد مختلفة من فروع المعرفة كالنحو، والفقه، والبلاغة، والعروض، وما إلى ذلك، واستظهر بعض المقطوعات الشعرية البليغة...

---

697) نوازل العلمي : ج 2، ملزمة 18 ص 1.

وكان قد درس على والده مبادىء النحو والفقه، ودرس على عمه أبي حفص اللغة، والشعر، والعروض، وما إلى ذلك من الخط ومبادىء الحساب...

وفي فاس وجد جوا فكريا رائعا، وجد بها حلقات لدروس متعددة، وفي مواد مختلفة، كما وجد بها شيوخا ضليعين في فنونهم، وهذا الجو الذى وجده في فاس أخذ بلبه وبمجامع قلبه، وكيف لا وهو الطالب المتفتح المنتمي إلى أسرة عريقة في ميدان المعرفة.

كل ذلك شحذ ملكته فنمت معارفه وزادت حصيلته العلمية، واتسعت آفاق فكره...

ومن أشهر شيوخه :

1 ـ والده الشيخ الحسن بن يوسف بن عرضون الفقيه المفتي، درس عليه المبادىء الأولى في مختلف الفنون، وبخاصة النحو والفقه.

2 ـ عمه الشيخ عمر أبو حفص بن يوسف بن عرضون درس عليه اللغة والأدب والعروض، وأبو حفص هذا ذكره أحمد أخو مترجمنا في عدة مناسبات في بعض تآليفه.

3 ـ الشيخ أبو محمد عبد الله الهبطي، وهذا كان مبرزا في الدراسات العقائدية والأصول والتصوف.

ومن شيوخه بفـــــاس :

4 ـ الشيخ أبو العباس أحمد المنجور (ت : 1587/995) شيخ أحمد المنصور، وصاحب الفهرس المشهور، وشيخ الجماعة في وقته. (698).

5 ـ الشيخ أبو راشد يعقوب بن يحيى اليدرى، الفقيه النوازلي الأستاذ الفرضي الحيسوبي أمام الفرائض والحساب (699).

6 ـ الشيخ أبو عبد الله بن أحمد بن مجبر المستاري الملقب بسيبويه زمانه وشيخ الجماعة بفاس في عصره، اشتهر هذا الشيخ بحفظه عن ظهر قلب لمختصر ابن الحاجب (700) وكان متضلعا في الفرائض والحساب، درس عليه مترجمنا مختصر ابن الحاجب في فروع الفقه المالكي.

7 ـ الشيخ أبو النعيم رضوان الجنوى (701) قال عنه ابن القاضي في الجذوة : «الشيخ الورع الصالح المجدد أورع أهل زمانه وواحد وقته وأوانه. أخذ عن عبد الرحمان بن علي سقين، عن القلقشندي، عن ابن حجر العسقلاني الحافظ..»

---

698) هو أحمد بن علي المكناسي شهر بفهرسه الذى ألفه لأحمد المنصور، طبع بمطبعة دار المغرب بالرباط / 1976.

699) الجذوة. ج 2 ص 558 ط : دار المنصور الرباط ـ والدرة 2 : 504.

700) الجذوة : 1 ـ 205 والدرة : 2 : 222 والسلوة : 3 : 128، وشجرة النور : 286.

701) الشيخ رضوان الجنوى من أكابر علماء عصره خصه بالترجمة غير واحد من كتاب التراجم وله في السلوة ترجمة وافية ج 2 : 257 المطبعة الحجرية بفاس.

يقول ا بن عرضون في معرض ذكره لبعض شيوخه : «... ثم اني رجعت لفاس وصحبت سيدى رضوان الجنوى، إلى أن مات رضي الله عنه (702) (توفى سنة : 1583/991) ومعنى ذلك أنه لازم الشيخ رضوان الجنوى مدة طويلة هي في الغالب تزيد عن عشر سنين.

ولا بن عرضون عدة شيوخ كبار غير هؤلاء، سواء بفاس أو بغير فاس من بلاد المغرب، استفاد منهم جميعا، فتكونت لديه حصيلة علمية هامة، ساعدته على القيام بمهامه، سواء في ميدان التدريس أو ميدان القضاء والافتاء، ولا غرابة في ذلك ما دام ا بن عرضون قد بدأ في طلب العلم في وقت مبكر جدا، ولنستمع إليه وهو يتحدث عن نفسه فيقول : «... كنت بمدينة فاس قبل البلوغ فخرجت ذات يوم لزيارة زرهون قاصدا زيارة سيدى موسى بن علي، فوصلت لعنده أول ليلة من رمضان فاحتلمت تلك الليلة فأصبحت صائما ومكثت في صحبته سنين إلى أن مات رضي الله عنه، ثم رجعت إلى فاس، وصحبت بعده الشيخ أبا الشتاء رضي الله عنه إلى أن مات، ونحن اليوم في صحبة سيدى محمد بن علي ا بن ريسون، «الشريف... (703).

وفي مدينة فاس كون لنفسه أصدقاء وخلانا كان يعقد معهم مجالس ثقافية وندوات أدبية، واجتماعات أخوية...

---

702) فتح التأييد ورقة 44.

703) هو من شيوخ التربية الصوفية ولد سنة : 930 هـ وتوفي سنة : 1018 هـ.

وينقل ابن القاضي مقتطفات من شعر صاحبنا في بعض ندواته الأدبية مع خلانه وأصدقائه بفاس (704) منها هذه الأبيات في وصف أحد المنتزهات بأجنة ويسلان، لشخص يدعى ابن رضوان :

أجنة الخلد هذى يا بن عدنـان أجب هديت أم روض ابن رضوان
أما ترى الطير في الأدواح ساجعة ادمت أناملها أوتار عيـــدان
تحكي مزامر من لان الحديد له تشدو الزجيل في رصد وزيـدان
تنفىعن الصب ما بالقلب من كرب بل تترك الصب فىتيه الهوىعان
وإن أردت من الأوصاف صفوتها فانظر لمائدة حفت بألـــوان
لا يستطيع لسان وصف بهجتهـا على الكمال ولو لسان سحبــان

ومن شعره وهو بفاس قوله :

إذا القلب مني دهاه سجـــن وأجفان عيني جفاهاالوسن(705)
وجمر الغضا في الحشا قد أضـا حثثت المطي إلى ويسلـــن
فسرحت طرفي واجريت طرفـي ومست فشاهت وجوه الحزن (706)

---

704) أنظر : درة الحجال لابن القاضي ط : دار التراث بالقاهرة سنة : 1970 ج 1 : و102 و103.

705) نفس المصدر : 102 وهذه القطعة نسبها صاحب نشر المثاني إلى الشيخ أحمد ابن يحيى العلمي، وتبعه في ذلك الأستاذ عبد الله كنون في النبوغ المغربي : 3 : 129 ج ط الثانية والأستاذ عبد السلام بن يحيى في مقدمة كتابه (حاج وحاجة) ص 11 ط :.1973. أنظر نشر المثاني ط : ح. ف : 1 : 16. والدرة : 2 : 137 ط : القاهرة الا أن صاحب نشر المثاني في ترجمة محمد ابن عرضون في وفيات 1012 هـ عاد فنسبها إليه، وبذلك يكون نسبها إلى أحمد بن يحيى أولا ثم نسبها لمحمد بن عرضون ثانيا مع أنه ناقل عن ابن القاضي الذي يصرح بأنها لمحمد بن عرضون في كلا الترجمتين، فوقع في الوهم، وأوقع غيره فيه.

706) الطرف بفتح الطاء وسكون الراء : البصر، وبكسر الطاء الكريم العتيق من الخيل.

كتائب نور ركائب طيـــــر أمير الجميع ذراه سكـــــن
وهذا الخميس إلا نزهـــــة ببطحائه ياسليل الحســـــن
ندير كؤوسا نسلي نفوســــا بترجيع أوتار أم الحسن (707)

في كلا المقطوعتين يخاطب صديقا له من الأسرة الحسنية (708).

تلامذتـــــه :

لمحمد ابن عرضون عدة تلاميذ من أشهرهم : ولده أحمد صاحب شرح «التحفة» المسمى «بناصر الحكام» وكان من أهم فقهاء وقته.

ومن تلامذته القاضي محمد بن أخيه أحمد ابن عرضون (709).

والشيخ قاسم ابن القاضي.

والشيخ ابراهيم الكلالي الورياجلي، العلامة الشهير صاحب مؤلف «تنبيه الولدان» وهذا درس عليه بفاس.

والقاضي أحمد بن علي العلمي الشفشاوني، والقاضي محمد مخشان الشفشاوني، والشيخ العلامة محمد العربي الفاسي صاحب المرآة وغيرهم.

مترجمنا كان له عدة تلاميذ لأنه داوم على التدريس، أثناء ممارسته مهنة القضاء بشفشاون، وخلال إقامته بفاس.

707) درة الحجال : 1 : 102.

708) لعل هذا الصديق هو أحمد ابن يحيى العلمي الشفشاوني ثم الفاسي المتوفي سنة 1001 هـ ترجم له ابن القاضي في الدرة : 1 : 101 ومحمد بن الطيب القادري في نشر المثاني 1 : 16 ؛ ط ؛ ح. ف. أنظر ترجمته بقسم التراجم، من هذا البحث.

709) نوازل العلمي : 2. ملزمة : 18 ص 1.

يقول أحد تلامذته، الفقيه القاضي الحسن الخالدي :

«كان يحدثنا شيخنا في العلوم الشرعية، سيدي محمد بن الحسن بن عرضون الزجلي الأصل، أيام قراءتنا عليه بمدينة شفشاون... إلى أن يقول : وحدثني المرابط سيدي محمد أسلوفان اليرثني وكانت خالته زوجة سيدي أحمد بن سيدي الحسن بن عرضون، أخي سيدي محمد المذكور، قال : كنا نحضر مجلس سيدي محمد بن عرضون في تدريس العلم وكان يقرأ يوم الخميس والجمعة الحكم لا بن عطاء الله، ويذكر أحوال الصالحين وأخبارهم...» (710).

فمترجمنا زاول مهنة التدريس سواء زمن إقامته بفاس، أو بشفشاون، ولم ينقطع عن التدريس حتى في الأيام الأخيرة من حياته، حسبما يستفاد من صاحب المرآة في ترجمة أحمد بن علي العلمي (711).

شهرتــه ومنزلتــه :

بعدما امتلأ وطاب مترجمنا علما ومعرفة وتضلع في كثير من العلوم والفنون، وبخاصة الفقه، والأصول، والمنطق، والبيان، والفرائض، والحساب... اشتغل بالتدريس والافتاء، ثم بعد ذلك أسند اليه منصب القضاء بشفشاون، خلفا لأخيه أحمد بن الحسن

---

710) فتح التأييد : ورقة 44.

711) المرآة : 168 ـ 189.

بن عرضون على عهد أحمد المنصور الذهبي.

شغـل مترجمنـا منصـب القضـاء بشفشاون ونواحيها من سنة 992 هـ الى أن توفي سنة 1012 هـ/1603م. أي لمدة تزيد عن عشرين سنة.

وبالرغم من شهرته في منصبه، وتدرجه فيه، الى أن أصبح قاضي القضاة لم ينقطع عن التدريس، وذلك مما زاد في مكانته عند الخاص والعام، وجعل مجالسه العلمية مقصودة من القريب والبعيد، وبذلك ساهم في تنشيط الحركة الفكرية بشفشاون، مما جعلها مقصد طلاب العلم، ورواد المعرفة...

المدة الطويلة التي قضاها في القضـاء، وغـزارة علمـــه، ومواظبته على التدريس، كل ذلك أكسبه شهرة وجاها، إضافة إلى اشتهاره بمواقفه كقاض من قضاة العدل، والإنصاف، ومن الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ولا تغريهم الأطماع، ولا تخيفهم التهديدات. وهناك أمثلة متعددة على مواقفه الشجاعة ؛ حيـث نجد ذلك مبثوثا في كتب النوازل، وحواشي وشروح كتب الفقه.

وله عدة فتاوى نقلها عنه كتاب النوازل الفقهية. ولا تكاد تخلوا باب من أبواب فقه النوازل من فتاويه.

شغل صاحبنا نفسه بالتأليف، بالرغم من أشغاله العديدة في القضاء والتدريس.

ومن مؤلفاته :

1) شرح عقيدة السنوسي المسمى (بالحفيدة) مخ. خ : ع. بالرباط. 1002 ومكتبة مراكش 481.

2) شرح مثلث قطرب : خ. ع. بتطوان رقم 830.

3) ممتع المحتاج ذكره له محمد بن جعفر الكتاني في السلوة ج : 2 : 267.

4) شرح الرسالة ذكره صاحب السلوة أيضا بنفس الصفحة.

5) منظومة في التصوف، في : 137 بيتا نقلها الحسن بن محمد بن ريسون (980 ـ 1055) في كتابه فتح التأييد.

6) الفتاوى العديدة المبثوثة في كتب الفقه.

أخلاقه ومواقفه :

كان مترجمنا يجمع بين التواضع الجم وبين غزارة الاطلاع ولذلك ظل يتقمص روح الطالب المستفيد. وبالرغم من تقلده المناصب الهامة في ذلك الوقت ، ظل يراسل شيوخه وأساتذته بفاس، وبغير فاس، سائلا ومستفسرا ومستوضحا، ورابطا للصلة العلمية بينه وبين أصدقائه وشيوخه، ولم تقتصر مراسلات مترجمنا على الموضوعات العلمية الأكاديمية فحسب، بل كان يراسل شيوخه وعلماء عصره قصد التعرف على آرائهم فيما يصدره من أحكام وهو القاضي المبرز، بل قاضي القضاة، وكأنه

يستانف على نفسه بنفسه أمام هيئة عليا. كل ذلك من أجل أن يتدارك ما قد يصدر عنه من أخطاء في الحكم أو عدم إصابة في اجتهاد...

وفي هذا الموضوع ينقل الشريف العلمي صاحب النوازل بعض استشاراته ومراسلاته لكبار علماء عصره. ومن ذلك ما أورده في (فصل مسائل الحدود والدماء والتعزيزات)، فالقاضي ابن عرضون بعدما أصدر حكمه على رئيس شرطة شفشاون بالسجن، لاستخفاف هذا الأخير بالمقدسات الإسلامية، أراد بعد إصدار هذا الحكم أن يعرف رأى العلماء في بعض الحيثيات والملابسات التي رافقت هذه القضية، ولذلك وجه سؤالا مطولا في الموضوع قال العلمي :

«سأل أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عرضون الفقيه أبا العباس أحمد بن محمد البعل المصورى، عن مسألة شرطي حاكم - كذا - لعله يقصد (رئيس الشرطة) بمدينة شفشاون شهد عليه عدلان أنه قال له رجل اما تستحيي ؟ فقال له : والله لا أستحيي ولو جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وسمع منه عدل آخر وقد قال لبعض خدامه حين شكاه رجل بإمرأة - ايتوا بها فقال أحد الخدام : هي زوجة فلان، فأجاب : ايتوا بها ولو كانت امرأة عيسى، وهذا الشاهد سمعه في ولايته الحكومة هذه السنة، والأولان سمعا منه أيام حكومة تقدمت له منذ سنتين، عزل عنها ثم ولي الآن ... «يقول العلمي فلما ثبتت

شهادة الشهود بما ذكر، حكم القاضي على الحاكم المذكور بالسجن وأنفذ حكمه والي البلدة المذكورة. ثم كتب القاضي مستفتيا أهل العلم، هل تضم شهادة الشاهد الثاني للأولين ؟ لاتفاق شهادتهم على استخفافه بحق المرسلين عليهم الصلاة والسلام ؟ وهل ما صدر منه يدخل تحت قول الشيخ خليل : «أو استخف بحقه، عاطفا على قوله : وإن سب نبيا أو ملكا ـ بفتح اللام ـ أو عرض أو لعنه أو عابه الى قوله ولم يستتب...» وأيضا فإن الحاكم المذكور طلب الإعلام بمن شهد عليه، فهل يمكن من ذلك أم لا ؟ أو تكون النازلة كمسألة ابن بشير الذي قال للوزير مثلك لا يخبر بمن شهد عليه ؟ أو يحكم بعزله، ولا يمكن من شرطته، فيكون بعد سجنه كأحد الناس الذين يعذر اليهم فيمن شهد عليهم فإن قلتم بالاعذار، فلا كلام، وإن قلتم بعدم الاعذار، فهل يقدح في شهادة العدلين عدم التعجيل ؟ وإن قلتم بالقدح، فهل يعذرون بالجهل، وما الحكم في المسجون المذكور ؟ إن ثبت عجزه عن الرفع، جوابا شافيا عن اهتمام بأمور الدين ولكم الأجر من الله سبحانه والسلام» (712).

فالقاضي أبو عبد الله محمد ابن عرضون دفعته غيرته على الدين، ودفعه الواجب الملقي على عاتقه كقاض الى إصدار حكمه بالسجن على الموظف «الكبير» الذي له خدم وأعوان وشرطة. لاستخفافه بحق الرسل عليهم السلام والمقدسات الإسلامية، لكن

712) نوازل العلمي : ج : 2، ملزمة 27 ص 2.

قاضينا بعد إصداره الحكم أراد أن يعرف العقوبة التي يستحقها زيادة على السجن. وأراد كذلك أن يتأكد هل له مطعن فيما صدر وسيصدر عليه من أحكام أم لا ؟

فهو لا يريد أن ينساق مع عواطفه الدينية، مجردا عن القواعد الشرعية، بل يريد أن يكون حكمه مبنيا على أسس شرعية لا مطعن فيها...

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نبل في الأخلاق وصراحة في الحق ورجولة في المواقف....!

ولمواقفه هذه أمثلة عديدة ونكتفي بالمثال الآتي الذي يتعلق بفتوى في موضوع كان موضوع الساعة في ذلك الوقت، وهذه الفتوى تتعلق بقضية طابة «التبغ» تلك القضية التي شغلت الأوساط العلمية في ذلك الحين وكتب فيها غير واحد من العلماء، الذين انقسموا فيها الى قسمين متباينين : قسم يرى حلية التبغ، وقسم آخر يرى حرمته، ويحذر من تناوله، وتحتفظ بعض كتب النوازل وكتب الفقه بكثير من آراء العلماء واستدلالهم واجتهاداتهم وفتاويهم في هذا الموضوع، بل عمد بعضهم الى جمع الكثير من هذه الآراء والفتاوي في مجموع خاص، يعطي للقارىء صورة واضحة عن الحوار والجدال الذي استمر في هذا الموضوع مدة تزيد عن قرنين من الزمن (713).

(713) نقل صاحب كتاب (الحركة الفكرية في عهد السعديين) د : محمد حجي ج 1 : 246 : بعض النقول في هذا الموضوع، لكن فتوى مترجمنا تعد من أهم الوثائق في هذا المجال.

وكان مترجمنا أبو عبد الله من الفريق الذي يرى حرمة تناول التبغ، واستطاع بذكائه أن يثير هذه القضية في وقت مناسب جدا، وذلك بمحضر أحمد المنصور الذهبي، وفي جمع هام من العلماء، وبما أن مترجمنا استطاع أن يؤثر على السلطان، فقد كان لفتواه نتائج فعالة وحاسمة في الموضوع.

جاء في نوازل العلمي ما نصه :

«سئل سيدي ابراهيم الكلالي، سأله سيدي علي بن أحمد الفزكاري عن عدة مسائل، فأجاب : أما ما عمت به البلوى من شرب العشبة المشؤومة على نواحينا، المتلفة أموال غربنا، وهي المسماة بتابغة بلغة أهلها، فلقد كنا بحضرة فاس، أيام قدوم السلطان عليها مولانا أحمد نصره الله، وبقدومه انتشر أمرها في تلك الحاضرة، اجتلبها أهل مراكش، واستعملوها كثيرا، فانتهى أمرها واستعمالها عند أهل تلك الحاضرة، ثم أن الغلاء ظهر هنالك وفي سائر الأقطار فجمع السلطان رحمه الله أعيان فقهاء وقته وسألهم عن سبب تردد الوباء الذي كان يتردد على مدينته المراكشية وإبايته الانصراف عنها، مع ما حل من الغلاء، وحبس الأمطار، ونحو ذلك من الآفات النازلة في ذلك الوقت، فأجابه كل واحد من الفقهاء بما ظهر له، ومن جملة المجبين له في ذلك المجلس وكان آخرهم في الجواب : شيخنا البركة الفاضل الناسك سيدي محمد ابن الحسن بن عرضون الشفشاوني الدار، فقال له في جوابه : «لعل هذه النوازل والوقائع سببها ما أشار إليه المولى سبحانه وتعالى في كتابه» ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا

عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» فقبل السلطان جوابه دون جواب غيره من الحاضرين، وفرق السلطان مجلسه، ومن الغد بعث للفقيه المجيب المذكور، فقال له : قد عرفت الداء فما الدواء ؟ فأجابه بأن قال : غير المنكر في أقاربك وخدامك، وسائر رعيتك، يبدل الله عليك عاداته عملا بقوله تعالى : «إن اله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فأمر رحمه الله بتغيير المنكر، وهرق الخمر، ثم من جملة ما أمر به أن تحرق العشبة الخبيثة في ديوان النصارى بفاس الجديد، حرق منها القناطير المتعددة... (714).

هذا النص يعد من أهم النصوص التي تحتفظ بها كتب الفقه، وكتب النوازل، لأنه زيادة على الحقائق التاريخية التي أطلعنا عليها يعطينا صورة واضحة المعالم عن شخصية مترجمنا أبي عبد الله ابن عرضون الذي كان لموقفه هذا عدة نتائج :

1) السلطان أحمد المنصور يأمر باراقة الخمر الذي كان يدخره بعض خدامه وأعوانه، وهذا شيء ليس باليسير في حد ذاته لأنه ليس من السهل على من تعود شرب الخمر وخزنها أن يتخلى عن عاداته،اللهم إلا إذا كان يخاف عقابا صارما، ونكالا شديدا...

714) نوازل العلمي : 2 : ملزمة 35.

ويبدو أن أمر المنصور في هذا الشأن لم تكن فيه هوادة، ولا أدنى مسامحة...

2) احراق القناطير المقنطرة من عشبة التبغ. وإحراق مثل هذه القناطير كان يشكل بالنسبة لمدخريها كارثة اقتصادية. وغير بعيد أن يكون مدخرو هذه المادة قد حاولوا بمختلف الوسائل التملص من تنفيذ الأمر السلطاني، لكن يبدو أن كل ذلك لم ينفع ونفذ الأمر.

3) ومثل هذا الأمر يكون له صدى في الأوساط الاجتماعية، وحديث الناس في مجالسهم واجتماعاتهم، ولذلك فقد كان للحادث تأثير من الناحية الاجتماعية، وهو بدون شك أثار عدة تعاليق مختلفة، وسر به أقوام، وشقى به آخرون.

4) اعتبرت هذه الفتوى من الناحية الفقهية تعزيزا وسندا قويا للذين كانوا يرون تحريم استعمال، التبغ. وذلك لأن أمر السلطان الامام أصبح لصالح هذا الجانب.

وبالرغم من وجود بعض الفقهاء الذين كانوا يرون اباحة تدخين التبغ فإن مقالة أبي عبدالله ابن عرضون تأثر لها السلطان، وكان لها نتائج حاسمة وفعالة...

وهذا يدل على قوة شخصية أبي عبد الله بن عرضون الذي استطاع بوضوح أسلوبه، وقوة بيانه، اقناع السلطان، فأصدر أوامره من غير هوادة ولا تردد...

وقوة بيان ابن عرضون جاءت نتيجة صدقه وإخلاصه، فتحين هذه الفرصة ليصدع بما في نفسه، وعندما وجد الجو المناسب والوقت المناسب، أبان عن مكنون نفسه، وبخاصة ونحن نعلم أن سلطة ولي العهد محمد المامون ابن أحمد المنصور ظلت تسيطر على فاس، وعلى أقاليم الشمال مدة من الزمن، وكان يشوبها كثير من مظاهر الفساد، والظلم، ولذلك اغتنم محمد ابن عرضون هذه الفرصة ليتنفس الصعداء،وليساهم في إزاحة مظاهر الفساد الذي كان يرين على قصر وبلاط ولي العهد بفاس.

في هذه الأثناء كان السلطان قد استطاع أن يقمع طغيان ولي عهده وأن يجعله رهن الاعتقال بمدينة مكناس.

وعلى أي فالفقهاء اعتبروا الأمر السلطاني انتصارا لهم، واعتبروا ابن عرضون أحسن معبر عن مرادهم، ولذلك كان لفتواه صدى، وأي صدى، فتناقلتها كتب الفقه، وكتب النوازل، والشروح والحواشي، واعتبر ابن عرضون عند الفقهاء من الذين حققوا هدفا نبيلا في قضية تابغة (التبغ).

وبذلك أضاف شهرة جديدة الى شهرته كقاض من قضاة العدل، وكقاض مقتدر شجاع لا يخاف في إصدار أحكام الله لومة لائم.

ز ـ الشيخ أبو العباس أحمد بن يحيى العلمي الشفشاوني (715) (945 ـ 1001 هـ).

أحد أعلام الشرفاء العلميين الذين انتقلوا من شفشاون وسكنوا فاس بصفة نهائية. وفي فاس حملت أسرة (ابن يحيى) لقبا جديدا : (الشرفاء الشفشاونيون).

مولده ونشأته :

ولد أبو العباس أحمد بن يحيى بن الحسن بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن يحيى (بجبل العلم) بمدشر (بسرواس) سنة 945 هـ وبعدما حفظ القرآن الكريم توجه الى شفشاون لطلب العلم فأقام بهذه المدينة مدة طويلة حتى نسب اليها. وفي شفشاون ظهرت نجابته. وحصل على معارف مختلفة. ثم بعد ذلك تاقت نفسه للدراسة بفاس. فرحل اليها طلبا للزيادة في المعرفة والتوسع فيها. وبغية الانتفاع بشيوخ العلم بها.

وفي رحاب القرويين بفاس درس على مجموعة من الشيوخ من بينهم الشيخ يحيى السراج (ت : 1007 هـ) مفتي فاس. وشيخ الجماعة بها. وخطيب القرويين وصاحب كراسي التفسير والفقه... والشيخ عبد الواحد الحميدي (ت : 1003) قاضي الجماعة بفاس وصاحب كراسي التفسير والفقه والنحو وغيرهما.

---

715) ترجم له : ابن القاضي في درة الحجال ج 1 : 101 ط : القاهرة 1970 ومحمد بن الطيب القادري في نشر المثاني ج 1 : 16. ومحمد بن الصادق بن ريسون (فتح العليم الخبير) ورقة 74 ـ 75 مخ. م. ع. بتطوان رقم 856. ومحمد حجي في الحركة الفكرية ذاكرا بعض مصادر ترجمته ج : 2 : 424.

وكان صاحبنا مولعا بمطالعة الكتب واقتناص الفائدة(716).

جاء في (فتح العليم الخبير عن مترجمنا هذا ما يلي : «... ومن أولاد سيدي موسى أولاد الفقيه العلامة سيدي أحمد بن عيسى بفاس، ويعرفون الآن بالشفشاونيين، وفي القديم يعرفون عند أهل العلم بمدشرهم (بسرواس) أحد مداشر الحرم العلمي (بأولاد ابن يحيى) وسبب انتسابهم لشفشاون أن العلامة سيدي أحمد بن يحيى المذكور كان يقرأ العلم ويطلبه بمدينة شفشاون، وطالت مدة إقامته بها عند شيوخها، حتى ظهرت نجابته واشتهر فضله وبانت نباهته، ورحل لمدينة فاس طالبا للزيادة والتبحر في العلوم، فحصل له من ذلك الحظ الأوفر، واستوطنها، واشتهر بالشفشاوني بها، ونسب بنوه إليه، وعرفوا بالشفشاونيين... (717).

ويصرح صاحب النص أن شفشاون كانت مقصد طلاب العلم وعشاق المعرفة ولهذه الغاية قصدها السيد أحمد بن يحيى فلصق اسمها به وبأسرته من بعده.

وصاحب الترجمة لم يعمر طويلا حيث أدركته منيته بفاس، وهو في نحو الست والخمسين من عمره سنة (1592/1001).

---

716) درة الحجال : 1 : 101.

717) (فتح العليم الخبير) : 74.

ح ـ الشيخ القاضي أبو العباس أحمد بن علي العلمي (718) (971 ـ 1027 هـ).

هو : أحمد بن علي بن أحمد بن علي (719) يتصل نسبه بالشيخ الأكبر عبد السلام بن مشيش.

مولـــده ونشأتـــه :

ولد بشفشاون سنة 1563/971 ونشأ بها ودرس على والده العلامة المفتي علي الشريف العلمي، وعلى أبرز شيوخ مسقط رأسه. وبعدما اشتد عوده، وقطع المراحل الأولى من التعليم ببلده انتقل الى فاس، قصد اتمام دراسته والتفقه على أكابر شيوخ العلم بها، وهو في حدود العشرين من عمره فسكن بمدرسة الحلفاويين، وكان يجاوره أبو العباس أحمد بن يوسف الفاسي (ت : 1021هـ).

وفي فاس توطدت العلاقة بينه وبين الأسرة الفاسية، وتتلمذ على الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي (ت : 1013 هـ) وعلى الشيخ أبي عبد الله محمد القصار (ت : 1012 هـ) وعلى غيرهما ويذكر مترجموه أنه : «برع في علم الوثائق والأحكام براعة فاق

---

718) ترجم له محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن ص 167 ـ 189 ترجمة حافلة بالاستطرادات والفوائد العلمية. وعبد الرحمن الفاسي في ابتهاج القلوب، مخ. خ. ع. ر. رقم : 2302 ك. ورقة 351، ضمن مجموع، ومحمد القادري في نشر المثاني ط. ج. ف. ح : 1 : 131 وعرف به الدكتور محمد حجي في الحركة الفكرية بالمغرب، في عهد السعديين : ج 2 : 425.

719) علي هذا هو : دفين قرية غروزيم جنوب شفشاون ويعرف (بسيدى السبع) وهو على بن عيسى بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن الشيخ الأكبر عبد السلام بن مشيش.

فيها أهل عصره مع المشاركة التامة في العلوم والاضطلاع بها...» (720).

ولم يغادر مترجمنا فاس إلا وقد امتلأ وطابه علما ومعرفة وكسب عطفا من علمائها وشيوخها وفي طليعتهم الشيخ يوسف الفاسي الذي أكرمه وزوجه إحدى بناته (721).

عاد إلى شفشاون وهو مؤهل من الناحية الفكرية، حاملا للإجازات العلمية، وشهادات الاعتراف بحصول الملكة،وجودة الفهم والإدراك... (722) فزاول التدريس في أول الأمر ثم الخطابة والافتاء.

وفي شفشاون توطدت العلاقة بينه وبين قاضيها الشيخ العلامة محمد بن الحسن بن عرضون (ت : 1012 هـ) فتتلمذ عليه مترجمنا واكتسب منه مزيدا من التفقه والمعرفة.

«توليه منصب القضاء» :

بعد موت قاضي شفشاون السالف الذكر وقع الاختيار على مترجمنا لتولي هذا المنصب الذي قبله بعد امتناع وتردد، وبذلك

720) المرآة : 169.

721) «كان يقسم السنة بين دار فاس وشفشاون، إلى أن توفيت ابنة أبي المحاسن بعد والدها» نفس المصدر ص 170.

722) اثبت صاحب المرآة : 175 نص الإجازة التي أجاز بها الشيخ القصار تلميذه أحمد العلمي وقال : انها مكتوبة على أول ورقة من شرح الصغرى للسنوسي الذى هو بخط المترجم والذى فرغ من كتابته سنة : 993 هـ

أصبح أول قاضي من (شرفاء القوس) بهذه المدينة، وتسلسل القضاء في عقبه إلى العهود المتأخرة (723)...

ثم تخلى مترجمنا عن منصب القضاء وتفرغ للتدريس والافتاء. وخلال مقامه بشفشاون لم تنقطع صلته بشيوخه بفاس، حيث استمرت المراسلات بينه وبينهم،وفي هذا الصدد ينقل محمد العربي الفاسي نص رسالة بعث له بها شيخه أبو عبد القصار، وهي رسالة تدل على مبلغ حرص علمائنا رحمهم الله على إفادة طلابهم، وعلى تتبع خطواتهم في الميدان الفكري، بعد تخرجهم وحصولهم على الإجازات والشهادات... وتدل من جهة أخرى على أن أكابر العلماء كانوا يظلون باحثين متتبعين لكل ما يجد في ميدان الفكر.

ومما ورد في هذه الرسالة : «وفرحت غاية بختمك الصغرى فشد روحك، وطالع كتب الشيخ السنوسي...» وبعدما أعطى الشيخ لتلميذه نصائح في كيفية الاستفادة من بعض الكتب التي كان يدرسها، وبين له أهدافها وأغراضها... قال له : «وأعجبني اقراؤك الرسالة، وفرحت به، لاسيما إذا اقتصرت على المحتاج اليه وختمتها سريعا، وكذلك اقراؤك الخراز أعجبني، واعتمد على ابن آجطاء فإن نقله صحيح جدا، وكثير من شروح الخراز فيه تحريف،

723) أى إلى ما قبل الإستقلال - 1956 - بقليل، ومن نسل هذا القاضي، القضاة الآتية أسماؤهم : ولده القاضي أبو مهدي عيسي، والقاضي علي بن عيسى مؤلف النوازل العلمية، والقاضي عبد السلام بن علي، والقاضي محمد بن عبد السلام، والقاضي أحمد بن محمد، والقاضي الحسين بن أحمد، والقاضي أحمد بن الحسين، والقاضي الحسن بن أحمد، هؤلاء : كل واحد منهم : ابن للآخر، وفي أحفاده قضاة آخرون.

نفعك الله ونفع بك، وإذا رأيت تأليفا لا تتحقق اطلاعي عليه فاعلمني به، والمراد أن الإنسان يموت طالبا للعلم (724).

وبعد هذه التوجيهات والنصائح تفرغ الشيخ القصار للجواب عن مسألة علمية استفسره فيها تلميذه المدرس بالجامع الأعظم بشفشاون، ويبدو أن مترجمنا كان نشيطا في عمله محبا لمهنته... يقول صاحب المرآة : «كان السيد أبو العباس يدرس في الفقه وغيره وانتفع به خلق كثيرون... (725).

ولنشاط صاحبنا في ميدان التدريس حث الشيخ القصار الشيخ محمد ابن علي بن ريسون (ت : 1018 هـ) على بعث أولاده لتلقي العلم بشفشاون، لاسيما وأن بها ابن عمهم الشريف السيد أحمد العلمي، ومما جاء في رسالة القصار : «... والسلام على موالينا أولادكم أعزهم الله تعالى، الله الله فيهم في طلب العلم وعندكم اليوم ابن عمكم سيدي أحمد بن سيدي علي بن أحمد أعزه الله تعالى فقيه جليل لكم فيه عون». (726).

---

724) المرآة : ص 171.

725) المرآة : ص 170.

726) نفس المصدر ونفس الرقم، وأشرنا من قبل إلى أن السيد عبد الرحمن بن عيسى ابن ريسون وأخاه عليا كانا يدرسان بشفشاون في النصف الأول من القرن العاشر هـ.

ونشاط أبي العباس في ميدان التدريس، كان ربطا لصلة الحاضر بالماضي، لأن حلقات الدرس بمساجد شفشاون عرفت نشاطا متواصلا على يد أمثال : علي بن ميمون الغماري، وعلي مصباح ابن عسكر، والقاضي ابن الحاج، وعلي الشريف العلمي، ومحمد وأحمد ابني عرضون وغيرهم...

«نشاطه في ميدان الكتابة والتأليف»

يثبت مترجموه أنه كان ذا خط جميل له عناية بنسخ الكتب، وذكر له صاحب المرآة الأعمال الآتية :

1 ـ حاشية على شرح الصغرى يقول : «مفيدة جدا وهي عندي بخطه»

2 ـ جزء في نقل الميت من قبر الى قبر «دل على حفظه واطلاع تام».

3 ـ جزء في أنساب قومه أهل العلم.

4 ـ شجرة أنساب بني عبد السلام منهم

5 ـ جمع كلام شيخه أبي المحاسن.

6 ـ مقيدات كثيرة في الفقه، والأصول، والعربية، والطب، والتاريخ، وغير ذلك، تشتمل على فوائد كثيرة...» (727).

قضى أبو العباس حياته في نشاط فكري مستمر، وفي عمل دائب ما بين التدريس والافتاء والخطابة... وتوفي رحمه الله سنة

727) نفس المصدر ونفس الصفحة.

1027 هـ ودفن داخل المبني المقام على قبر الأمير علي بن راشد بشفشاون.

ط ـ بنو يلصو الزرويليون، قـــرب شفشـــاون :

الأسرة اليلصوتية هي احدى الأسر التي سكنت شمال المغرب في وقت مبكر، يعود الى نهاية القرن الأول الهجري.

وتذكر الوثائق أن استقرار جد هذه الأسرة باحدى قرى الشمال الغربي من جبال الريف ،كان على عهد الأمير موسى بن نصير، في خلافة الوليد ابن عبد الملك (86 ـ 705/96 ـ 715) وذلك في حدود سنة تسعين هجرية، وتذكر أن جد هذه الأسرة كان قائدا من قواد جيش الفاتحين العرب، تحت قيادة موسى ابن نصير (88 ـ 98 هـ).

وعلى هذا يكون ابتداء وجود الأسرة اليلصوتية بشمال المغرب، يبدأ مع استقرار بعض الفاتحين من أبناء الصحابة والتابعين بهذه المناطق.

ومما جاء في فوائد «محمد الصغير الهبطي» : قال لي والدي قرأت في كتاب المنهاج المبارك (728)...

728) كتاب «المنهاج المبارك»، يبدو أنه كان مؤلفا في النسب بصفة عامة لأنه مما جاء فيه حسبما سمعه محمد الهبطي من والده واثبته في فوائده : «قرأت فيه عن مجد وعظمة قبيلة بني زروال، وذكر أن فيها ذرية الخلفاء الأربعة وفرعهم أحسن التفريع...»، يقول الشيخ محمد الهبطي «وسألته عنه ـ أي سأل والده عن الكتاب المذكور ـ فقال لي : قبض الرشوة رجل من «الزاوية» ـ مدشر ـ ودفعه إلى العامة فمزقوه لتختفي على العلماء النسبة الشريفة...» وهكذا ضاع الكتاب لأسباب لسنا ندرى بواعثها الحقيقية بالضبط.

عـن قبيلـة الأخمـاس وذكـر فيـه بعض مناقـب الولـي الصالـح الشيـخ المبـارك أبـي الحسـن الشاذلـي، وذكـر فيـه أيضـا ذريـة سيدنـا عثمـان بـن عفـان رضـي اللـه عنـه، ومنهـم الشيـخ البركـة سيـدي يلصـو بالصاد المهملة، قال هو يلصو بن مروان بن أبان بن عثمان، بن عفان، ومن ذريته سيدي (الحاج أقطران) (729) وسيدي مولود - دفين الخزانة (730) وأولاد بن علوش (731) وأولاد مصباح (732) وسيدي عبد الوارث اليلصوتي المعروف ببني زروال (733) وسيدي مصباح الفاسي (734).

---

729) جاء في فتح العليم الخبير لمحمد بن الصادق بن ريسون (1155 - 1237 هـ) : «وبقبيلة الاخماس من أولياء الله تعالى المشاهير، سيدى الحاج اقطران بهذا يعرف ويقال هو الذى غسل القطب مولانا عبد السلام» ورقة : 38، - أي بعد موته -

ويعرف اليوم بسيدى الحاج العسلاني وضريحه يقام به موسم سنوى : قرب قرية باب تازة قرب شفشاون وعلى بعد نحو عشرين كلم منها شرقا في اتجاه الحسيمة وسط قبيلة الاخماس. ويوجد في كثير من التقاييد أن الشيخ الحاج أقطران هذا هو أستاذ الشيخ الأكبر عبد السلام ابن مشيش في القراءات.

730) مولود هذا تذكر التقاييد انه أحد أبناء يلصو الأربعة وهو دفين (الخزانة (مدشر قرب باب تازة) كان معروفا بكثرة العلماء وحفاظ القرآن الكريم، ويقول السيد محمد الصادق ابن ريسون : «وبمدشر الخزانة عين مشهورة للحفظ وذلك أن من شرب ماءها يحفظ كثيرا بإذن الله تعالى، وجل أهل مدشر الخزانة أو كلهم يحفظون كتاب الله العزيز...» - فتح العليم الخبير - المرجع السالف.

731) أولاد بن علوش، تولى أفراد من هذه الأسرة منصب القضاء بمدينة شفشاون في فترات مختلفة جاء ذلك في تقييد مولاي الصادق ابن ريسون (1282 - 1376 هـ).

وتوجد عدة (رسوم) مؤداة بقضاة من أولاد بن علوش عندي بعضها.

732) أولاد مصباح هم من الأسرة اليلصوتية وسنتحدث عنهم فيما بعد.

733) الشيخ عبد الوارث اليلصوتي (888 - 971 هـ) ترجم له صاحب الدوحة ومن أتى بعده من المدرسة الشاذلية. وسيأتي ذكره بحول الله.

734) يقصد أبا الضياء مصباح الذى تنسب إليه المدرسة المصباحية بفاس، وسيأتي الحديث عنه.

وانه كان من ذرية الشيخ المبارك ستة وستون وثلاثمائة عالم، كلهم من ذرية سيد يلصو، وبعضهم بمدينة فاس (735) حرسها الله». (736).

يستفاد من كلام الشيخ محمد الصغير الهبطي الذي عاش في القرن العاشر الهجري، أن الأسرة اليلصوتية كانت من الأسر التي كثر بها العلماء، والمثقفون، والصلحاء، الى درجة أن والده يقول : وقد عاش في النصف الأول من القرن العاشر ـ «كان بهذه الأسرة ستة وستون وثلاثمائة عالم» وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مكانة هذه الأسرة من الناحية الفكرية.

والأسرة اليلصوتية تحدث عن بعض أفرادها كتاب القرن العاشر، وغيرهم، كابن عسكر في الدوحة، ومحمد الهبطي في فوائده نقلا عن والده الذي قرأ عنها في «كتاب المنهاج المبارك» وأسف لضياع هذا الكتاب. لأنه حسب تعبيره «مزقه العامة لتختفي النسبة الشريفة» (737) ولسنا ندري من ألف هذا الكتاب ؟ ولا متى ألف ؟ ولا عمن نقل صاحبه...؟

---

735) ترجم صاحب السلوة لعدد منهم بالجزء الأول.

736) «فوائد محمد الهبطي» .

737) نفس المصدر.

ومهما يكن من شيء فكتاب القرن العاشر وما بعده أصبحوا يتناقلون عن الأسرة اليلصوتية أنها من ذرية عثمان ابن عفان رضي الله عنه. ونجد هذا عند الذين ترجموا للشيخ عبد الوارث اليلصوتي (ت: 971 هـ) وهم كثيرون؛ لأن الشيخ عبد الوارث، كان من أكابر شيوخ الصوفية في عصره، والذين ترجموا له، أو تحدثوا عنه، يصفونه بالعلم والصلاح والولاية وكثرة التلاميذ. ويذكرون له مجموعة من التآليف في التصوف وغيره، وبعضهم يتحدث عن علماء أجلة من ذريته... وهم جميعا ينسبونه الى يلصو وينسبون يلصو الى عثمان بن عفان الصحابي الجليل.. وفي طليعة هؤلاء جميعا تلميذه محمد ابن عسكر الذي لازمه سبع سنين، ودرس عليه عدة فنون من بينها ألفية ابن سينا في الطب (738).

وممن تحدث عن أبي البقاء عبد الوارث اليلصوتي محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن (739) وعبد الرحمن الفاسي في ابتهاج القلوب (740) والمهدي الفاسي في ممتع الاسماع (741) والحضيكي في الطبقات (742) وغيرهم.

738) الدوحة : ص 6 ط : فاسية.

739) مرآة المحاسن : 210 ط. حجرية فاسية.

740) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم : 325 ك ص 297.

741) ممتع الاسماع طبعة حجرية فاسية، ص 73 و74.

742) ويسميه الحضيكي في طبقاته بعبد الوارث اليصلوتي - كذا - وهو خطأ، ويقول : أصله من بني يصلو - كذا - ولعله من هنا جاء خطأ من كتبه كذلك، أنظر طبقات الحضيكي حرف العين مخ. خ. ع. ر. رقم 2328 ك.

ويلصو الجد الأعلى للأسرة اليلصوتية، يجعله الذين يتحدثون عن ذريته، حفيدا لأبان بن عثمان بن عفان، إلا أنهم يختلفون في أبيه، فهو عند ابن عسكر في الدوحة : يلصو بن عبد الله بن أبان بن عثمان. وفي بعض التقاييد التي عثرت عليها يلصو بن محمد بن أبان بن عثمان، وهو في فوائد محمد الهبطي. يلصو بن مروان بن أبان بن عثمان...

ورد الشيخ النسابة الشريف العلمي سليمان الحوات (ت : 1231 هـ) في كتابه «الروضة المقصودة» على ابن عسكر الذي جعل يلصو بن عبد الله، رد عليه قائلا : «... قال بلدينا الرئيس الضابط أبو عبد الله محمد ابن عسكر السريفي في الدوحة : أنه ينتسب الى مولانا أبي عمرو عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو خطأ صراح إذ ليس في بني أبان من اسمه عبد الله أصلا...» (743).

أما الشاعر الأديب العلامة أبو الحسن علي مصباح اليلصوتي الزرويلي (ت : 1135 هـ) فيقول عن أسرته اليلصوتية ما يلي : - وذلك عندما عرف بنفسه في كتابه «سنى المهتدي في مفاخر الوزير الأحمدي».

743) «الروضة المقصودة في مآثر بني سودة، مصورة بالمكتبة الملكية وتحمل رقم : 10923 ورقة : 154.

يقول : «علي بن أحمد بن قاسم بن موسى، عرف بمصباح الزرويلي مولدا ومنشأ ودارا. والزرويلي نسبة الى بني زرويل، وزرويل هذا اشتهر عند الناس ـ والله أعلم بصحته ـ أنه ابن يلصو بفتح المثناة التحتية، وسكون اللام، وضم المهملة بعدها واو ساكنة، وكأنه اسم أعجمي . وهو يلصو ابن عبد الله، وقيل ابن محمد بن أبان بن عثمان ابن عفان رضي الله عنه، ويلصو هذا هو الدفين بين قبيلة الأخماس وقبيلة بني زجل من جبال غمارة، وقبره معروف مشهور يزار إلى اليوم».. ويزيد قائلا :

«إن أولاد مصباح القاطنين ببني زرويل المذكورة من ذرية هذا السيد الجليل رضي الله عنه، وينتسب جل بني زرويل الى ذريته، والله أعلم بصحة هذا كله سمعناه فقط، ولم نره عند أحد من الأئمة الموثوق بهم، غير أني رأيت في بعض التقاييد ما نصه : يلصو بن محمد بن أبان بن عثمان، دفين جبال غمارة، قبره معروف هنالك، ولما مات ترك أربعة من البنين : أحدهم زرويل، وثانيهم مولود، وثالثهم وطلي، ورابعهم يزيد، أبناء يلصو، واليهم تنسب هذه المداشر المعروفة في قبيلة الأخماس، وهي : بنو زرويل، ومولود، ووطلي، ويزيد..» (744).

744) «سنى المهتدى في مفاخر الوزير الأحمدى» مخ. م. م. ر. رقم 526. ومن المؤسف أنه مع هذا الضبط لكلمة يلصو نرى في الكتب التي أعيد طبعها أو طبعت من جديد أن اليلصوتي أصبحت في هذه الكتب (اليصلوتي) ـ كذا ـ بتقديم الصاد على اللام وبعضهم يشبع الياء بألف ممدودة وهذا أقل خطأ من قلب الكلمة بالمرة، ولا شك أن ذلك يسبب في لبس وغموض الشيء الذى يجعل أفراد هذه الأسرة ينسبون إلى غير أسرتهم.

هذا نص كلام الأديب أبي الحسن مصباح الزرويلي، وهو كلام عالم ثقة، به كثير من الدقة والصدق ونبل العلماء. فهو قد ضبط لنا اسم يلصو ضبطا دقيقا، وحكى لنا الخلاف في نسبته الى أبان. وأخيرا أتى بنص التقييد الذي وجده عن يلصو وذريته... وأعطانا صورة عن سوق النساء الذي كان خاصا بهن للبيع والشراء كل يوم جمعة... فهو نص يحمل سمات الصدق والصراحة والنبل لاسيما وأنه صادر من أحد أعلام هذه الأسرة.

وعن يلصو هذا يقول العلامة الأديب الوزير محمد بن الصادق بن ريسون النسابة (745) ما نصه «... وبها ـ أي بقبيلة الأخماس ـ الولي الأشهر، والعالم الأظهر، سيدي يلصو حفيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذي النورين وصهر النبي صلى الله عليه وسلم مرتين أمير المومنين أبي عمرو سيدنا عثمان بن عفان، وإليه ينسب اليلصوتيون كلهم، وقد قدم رضي الله عنه ونفعنا به مع موسى ابن نصير، ومنها أيضا العلامة الأديب الشاعر المفلق أبو الحسن سيدي علي مصباح مؤلف «أنس السمير في مهاجاة الفرزدق وجرير» وعلماء بني مصباح وقضاتها المحققون كلهم منها، ومنها العلامة القدوة الصالح الصوفي أبو عبد الله سيدي

---

745) كان له اعتبار وحظوة عند السلطان محمد بن عبد الله وهو الذى أسند إليه القيام بتدوين النسب العلمي وتوفي رحمه الله 1234 هـ

محمد بن حيون شارح الصلاة المشيشية المتوفى (1180 هـ)...
(746).

وتحدث كذلك عن هذه الأسرة العلامة النقيب الأديب سليمان الحوات الشفشاوني فقال : أثناء حديثه عن سيدى محمد بن سعادة الخمسي (747) المتوفى سنة (1157 هـ) ما يلي : «... وهي - أي قبيلة الأخماس - لعمرى قبيلة مباركة طيبة،انتجت جماعة وافرة من الأولياء والصالحين والعلماء العاملين، نزل بها في عام التسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموى زمن قدوم موسى ابن نصير على المغرب، سيدنا أبو اليمن يالصو الأموى القرشي. وكان رجلا صالحا من خيار السلف واتخذها داره حتى لقي الله، وبقي بها عقبه، وهم الى اليوم منتشرون وقبره فيها مزارة كبرى على مرحلة من شفشاون نفع الله به فكان معجزة تلك القبيلة، ومظهر المجد فيها، ومطلع أقمار العربية القرشية، حتى صارت تنسب اليه فيقال لها القبيلة اليلصوتية...
(748).

ونقل الأستاذ محمد البشير الفاسي في كتابه : (قبيلة بني زروال) نص ظهير موقع من طرف السلطان مولاي محمد بن عبد

---

746) فتح العليم الخبير لمحمد بن الصادق بن ريسون، ورقة 35.

747) محمد بن سعادة الخمسي تحدث عنه صاحب فتح العليم الخبير ص 34، وسليمان الحوات في الروضة المقصودة ص 153 وله مزارة مشهورة قرب شفشاون على طريق وزان.

748) الروضة المقصودة ص 153.

الله. ومؤرخ ب : 22 جمادي الاولى سنة 1171 هـ يؤكد انتساب اليلصوتيين حفدة الشيخ عبد الوارث اليلصوتي الى الصحابي الجليل عثمان ابن عفان (749) وقال قبل ذلك : ينتسب السادة الوارثيون الى الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبيدهم ظهائر ملوكية بالنسب المذكور، فهم حائزون له معروفون به» (750).

نلاحظ أن النسابين والنقباء المتأخرين يؤكدون أموية يلصو وعثمانيته وأنه من ذرية الصحابي الجليل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه (751).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد ونحن نتحدث عن الأسرة اليلصوتية أن الشيخ النسابة التهامي بن رحمون في كتابه «شذور الذهب في خير نسب» (752) عندما تعرض للحديث عن يلصو العثماني وعن نسبه، جعل أم ابان بن عثمان (ض) هي رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا مخالف لما عند المؤرخين والنسابين. يقول ابن قتيبة في كتابه «المعارف» أثناء حديثه عن رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم «... وماتت بها - أى بالمدينة - بعد مقدمه - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - بسنة

---

749) قبيلة بني زروال ص 86.

750) نفس المصدر ص 54 و85.

751) قتل رضي الله عنه في الفتنة الكبرى يوم الدار في 12 ذى الحجة سنة 35 هـ، أنظر ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر حرف العين، والاصابة لابن حجر ج 2 ص 462. ط. السعادة بمصر سنة 1328 هـ.

752) «شذور الذهب في خير نسب» مخطوط خاص : ص 55.

وعشرة أشهر وعشرين يوما. وولدت لعثمان عبد الله، وهلك صبيا لم يجاوز ست سنين وكان نقره د يك في عينه فمات...» (753).

ويقول العلامة أبو محمد ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» أثناء حديثه عن الفرع العثماني الأموى ما نصه : «وولد عفان عثمان - أمير المؤمنين - رضي الله عنه - لا عقب لعفان إلا من قبل عثمان رضي الله عنه، فولد عثمان بن عفان عبد الله الأكبر، أمه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مات صغيرا وله ست سنين. وعبد الله الأصغر وخالد، وعبد الملك لم يعقبوا، وعمرو، وعمر، وا بان، والوليد. يكنى أبا الجهم، وسعيد، واعقبوا كلهم...» (754).

ونلاحظ أن ابن حزم أكد موت عبد الله بن رقية وهو في السادسة من عمره، ثم ذكر جميع أبناء عثمان سواء الذين عقبوا منهم أو الذين لم يعقبوا، وذكر من بين الذين عقبوا ابان ابن عثمان الذى تنسب إليه الأسرة اليلصوتية.

وفي ابان ابن عثمان هذا يقول ابن قتيبة : فأما ابان بن عثمان فشهد الجمل مع عائشة وكانت أمه جندب بن عمرو بن حممة الدوسي... وهي أم عمرو ابن عثمان أيضا...» (755).

---

753) كتاب المعارف لابن قتيبة ص 62 - ط. 2 - 1970 - دار إحياء التراث - بيروت، بتعليق وتصحيح ومراجعة الأستاذ محمد اسماعيل عبد الله الصاوى.

754) ابن حزم (384 - 456) جمهرة أنساب العرب ط. دار المعارف بمصر سنة 1962م بتحقيق وتعليق محمد عبد السلام هارون ص 83.

755) (المعارف) لابن قتيبة ص 86.

وبهذا يتضح أن ما قاله ابن رحمون (756) في شذور الذهب لا أساس له من الصحة بتاتا، لأن رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم - حسبما يذكره كتاب السيرة والنسابون - لم تلد لعثمان (ض)، إلا عبد الله الذي مات صغيرا بنقرة ديك، وهو لم يجاوز السنة السادسة من عمره، ويحدثنا كتاب السيرة عن رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم أنها هاجرت هجرتين مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه : الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة المنورة، وبذلك لقبت - بذات الهجرتين - ورقية وعثمان كانا أجمل زوجين وأبهاهما في قريش، وقد اشتد مرض رقية رضي الله عنها والمسلمون بالمدينة يتأهبون لخوض معركة بدر الكبرى وتخلف عثمان لتمريضها بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك عد من البدريين وضرب له صلى الله عليه وسلم معهم بسهم (757) وتوفيت رقية بعد نهاية المعركة في السنة الثانية من الهجرة.

وابان بن عثمان هو : «أبو سعيد أو أبو عبد الله المدني أخذ عن أبيه، وعن زيد بن ثابت، وأخذ عنه ابنه عبد الرحمن،

---

756) ابن رحمون التهامي أحد علماء مدينة تطوان كان يزاول مهنة العدالة سنة 1143 هـ وهو صاحب تقاييد وكتب في النسب، له : شذور الذهب في خير نسب، وله : «الانجم الزاهرة في الذرية الطاهرة» - في النسب العلمي قال عنه محمد بن الصادق بن ريسون في فتح العليم الخبير وهو يتحدث عن النسب العلمي : «ومنهم بمدينة تطوان أولاد الفقيه العدل النسابة سيدى التهامي ابن رحمون» (مخ. م. ع. بتطوان رقم 856) ص 82.
وذكره الأستاذ محمد داود في تاريخ تطوان بمناسبة نقله بخط يده تقييدا لمحمد العربي الفاسي صاحب مرآة المحاسن، أنظر المجلد 1 ص 95 وغيرها.

والزهرى، وأبو الزناد. قال القطان فقهاء المدينة عشرة منهم ا بان. وقال العجلى ثقة. وقال خليفة مات سنة خمس ومائة...» (758).

وعن ا بان هذا يقول ا بن قتيبة : «وعقبه كثير منهم عبد الرحمن بن ا بان وكان عابدا مجتهدا يحمل عنه الحديث...» (759) ولم يسم غيره من الأ بناء. وقال عنه ا بن حزم في جمهرة أنساب العرب ما يلي : «ولد ا بان ا بن عثمان : سعيد، وعبد الرحمن، وعمرو، ومروان، وعمر» (760).

ونستخلص من هذه الأقوال جميعا أن ا بان بن عثمان الذى ينتسب إليه اليلصوتيون (عقبه كثير) كما قال ا بن قتيبة. لكن ا بن حزم الذى تحدث عن أبناء ابان لم يذكر من بينهم من إسمه (عبد الله) ولا من اسمه (محمد) إلا أن العلامة صفي الدين الخزرجي يقول : «ان كنية أبان : «أبو سعيد، أو أبو عبد الله) ومعلوم أن (سعيد) هو من أبناء أبان، اما (عبد الله) فلم يذكره ا بن حزم من بينهم، ويحتمل أن يكون كني به على وجه التشريف فقط، كما هو الحال في كثير من الكنى.

757) أنظر السيرة لابن اسحاق أثناء الحديث عن الهجرة إلى الحبشة والحديث عن غزوة بدر، وأنظر الاستيعاب لابن عبد البر في ترجمة عثمان ابن عفان.
وانظر بنات النبي للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ص 95. ط. دار الكتاب العربي بيروت 1963م.

758) خلاصة (تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للإمام الحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصارى المتوفي بعد سنة 923 هـ ـ الأولى ـ الميرية سنة 1301 هـ. م.

759) المعارف لابن قتيبة، ص 87، ونقل بعضهم أن ابان توفي سنة 86 هـ. الأبحاث السامية : 2 ـ 143.

760) جمهرة أنساب العرب، ص 85. ط. دار المعارف بمصر 1962.

لا حظنا من قبل أن النسابة المتأخرين اختلفوا في الحاق يلصو با بان فمنهم من جعل يلصو ا بن عبد الله بن ا بان. وهذا رده سليمان الحوات كما سلف. ومنهم من جعله ا بن محمد بن ا بان. وحكاه أ بو الحسن الزرويلي اليلصوتي بصيغة التمريض «وقيل ا بن محمد».

أما العلامة محمد الصغير الهبطي فقد نقل عن والده الذى أخبره بما قرأه في كتاب (المنهاج المبارك) أن يلصو هو : ا بن مروان بن ا بان بن عثمان. ورأ ينا من قبل أن ا بن حزم ذكر من بين أ بناء ا بان من اسمه مروان.

وعلى هذا قد يكون يلصو من أ بناء مروان بن ا بان كما ذكره الشيخ عبد الله الهبطي نقلا عن كتاب (المنهاج المبارك).

ومهما يكن من أمر فإن الأسرة اليلصوتية بشمال المغرب ساهمت مساهمة فعالة في الميدان الثقافي والميدان الفكرى... واشتهرت بجبال غمارة شهرة ذائعة الصيت. وذلك لكثرة علمائها وفقهائها وقضاتها... ولقد أشار العلامة أ بو الحسن الشاعر على مصباح الزرويلي اليلصوتي إلى أن الأسرة اليلصوتية تفرعت إلى عدة فروع وتكونت منها عدة مداشر وفرق بالاخماس السفلى على مقر بة من مدينة شفشاون. ولاحظنا من قبل : أن قبيلة الاخماس برمتها تنتسب إلى يلصو «فيقال لها القبيلة اليلصوتيـة» (761) حسبما أثبت ذلك النقيب النسا بة سليمان الحوات العلمي.

وبعد هذه الجولة مع المراجع والمصادر التي تحدثت عن الأسرة اليلصوتية والعثمانية يجدر بنا أن نتعرف على بعض الشخصيات من هذه الأسرة ممن لم يهملهم التسجيل إهمالا تاما. ـ ويا ما أقل هؤلاء ـ بالنسبة للذين لم نجد عنهم ـ بعد ـ قليلا ولا كثيرا. أما الذين تناولتهم بعض الكتب بالذكر فسنكتفي بالإشارة إلى المظان التي ذكروا فيها فقط. لأن الترجمة لكل واحد منهم سوف تخرج بنا عن الموضوع.

فمن أشهر أفراد الأسرة اليلصوتية :

1 ـ الشيخ العلامة أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق اليلصوتي الزرويلي، وقد عرف بالصغير، بفتح الغين، وكسر الياء المشددة. وقد ترجم له غير واحد من الفقهاء وكتاب التراجم وأصحاب الطبقات. لأنه حظي في عصره بشهرة ذائعة الصيت، وذلك لما كان يتمتع به من مواهب ومعرفة واطلاع واسع، إلى قوة في الشخصية وحدة في الذكاء، وصرامة في الحق.

يجمع الذين ترجموا له : على غزارة علمه. وقوة شخصيته مع صرامة في الحق لا تلين... كل هذا إلى جمال في الهندام وأناقة في الملبس. والمترجمون له. نجدهم : ابتداء من ابن الخطيب (713 ـ 776هـ) في الإحاطة. إلى عصرنا الحاضر. (762).

---

761) قبيلة الاخماس تنقسم إلى قسمين : الاخماس العليا، والاخماس السفلى، وهي من اقليم شفشاون، وتحيط بهذه المدينة من الجنوب والشرق، وبالاخماس العليا يوجد مسجد (الشرافات) الذى ينسب تأسيسه إلى طارق بن زياد حسبما ذكره ابن عسكر في الدوحة. وبالاخماس السفلى يوجد ضريح القائد المجاهد يلصو الأموى جد الأسرة اليلصوتية=

ويطول بنا المقام لو أردنا استعراض ما قيل عن أبي الحسن الزرويلي لاسيما وقد تحدث عنه الاعلام الكبار مثل لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة، وابن غازى في تعليقاته على المدونة، والشيخ أحمد الونشريسي في نوازله، وفي وفياته، والعلامة أحمد المقري في أزهار الرياض وغيرهم (763).

يعد أبو الحسن الزرويلي من أكابر فقهاء المالكية في القرن السابع الهجرى، لأنه عاش حياة حافلة بالدرس والتحصيل، وخلف مجموعة من التلاميذ كانوا في طليعة شيوخ القرن الثامن الهجرى، وبذلك عد من أكابر الأئمة، وشيوخ الجيل في عصره.

2 ـ الشيخ العلامة أبو الضياء مصباح (750هـ/1349م).

هذه شخصية ثانية من الأسرة اليلصوتية وهي من الشخصيات التي كان لها صدى في الميدان الفكرى ببلادنا. فأبو الضياء

= وكل من الاخماس السفلى والعليا يتفرع إلى مجموعة من الفرق والمداشر والقرى الآهلة بالسكان. وتشتهر قبيلة الاخماس بأنها قبيلة الشيخين : الشيخ أبي الحسن الشاذلي (ت 656 هـ) صاحب الطريقة الشاذلية المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، والشيخ أبي الحسن علي ابن عبد الحق الزرويلي (ت 719 هـ) شيخ الجيل والجماعة في عصره.
وتمر بالاخماس السفلى الطريق الرابطة بين شفشاون ووزان ففاس... وتمر بالاخماس العليا الطريق الرابطة بين شفشاون والحسيمة. والاقليم الذى تقع فيه الاخماس بقسميها كان يدعى سابقا بجبال غمارة، أما اليوم فغمارة تقتصر على قبائل معينة ليس في ضمنها الاخماس، وجبال غمارة منذ أمد غير قصير كانت تضرب الرقم القياسي في كثرة العلماء وحفاظ القرآن الكريم وفي كثرة القراء والمتضلعين في علوم القرآن وقراءاته.. وهذه المنطقة برمتها تشكل القسم الغربي من جبال الريف. ومعظم سكان الاخماس ينتمون في أصلهم إلى صنهاجة الذين امتزجوا بكثير من العناصر العربية، بينما سكان قبائل غمارة القريبة من الساحل ينتمون في معظمهم إلى مصمودة، وهم كذلك قد امتزجوا بالعناصر العربية وبكثير من العناصر الأندلسية بصفة خاصة.

762) (جامع القرويين) للدكتور عبد الهادى التازى ج 2 ص 484.

مصباح اشتغل بالإفتاء والتدريس لمدة من الزمن بمدينة فاس، وتولى التدريس بمدرسة «الخصة» فنسبت إليه هذه المدرسة وعرفت به، وحملت إسم المدرسة المصباحية منذ توليه التدريس بها (764).

وأرخ وفاته كل من الشيخ محمد بن غازى وابن القنفذ، وابن القاضي - في وفياتهم - وترجم له صاحب (نيل الإبتهاج)، وابن القاضي في الجذوة، والدرة، وصاحب السلوة، وغيرهم.

ويطول بنا الحديث إذا تعرضنا لترجمته بتفصيل، وسأكتفي بالإشارة إلى أهم المصادر التي تحدثت عنه (765).

3 - ومن أفراد هذه الأسرة : أبو زيد عبد الرحمن ابن الخطيب (ت 990هـ/1532م) الشاعر الهجاء الذى سكن شفشاون ونسب إليها، فيقال فيه : الشاعر الشفشاوني، وأحيانا يقال عنه الشاعر الزرويلي، ترجم له ابن القاضي في الدرة، والجذوة، وأتى له ببعض الأبيات في الهجو (766).

763) أنظر مثلا : الجذوة : ط. دار المنصور : 2 : 472، الديباج : 2 : 21، شجرة النور : 215 ط. 1349 هـ. أزهار الرياض : 3 : 23، الاستقصا : 3 : 178، النبوغ المغربي ص 204، درة الحجال 243 ط. مصر، الاعلام للزركلي : 5 : 156، وغيرها.

764) شيد أبو الحسن المريني (752هـ /1351م) مدرسة الرخام ويقال لها أيضا مدرسة الخصة سنة : 747هـ /1346م)، وكان من أول من تولى التدريس بها أبو الضياء مصباح فنسبت إليه وأصبحت تعرف بالمدرسة المصباحية، و(خصة) هذه المدرسة من الرخام مستطيلة الشكل 3,20 × 105م نقلت من المرية بالأندلس Al-Meria ، عن طريق البحر إلى العرائش أولا، ثم إلى فاس، أنظر : جنى زهر الآس ص 37، والاستقصا : 3 : 176 و(جامع القرويين) د. عبد الهادى التازي : 2 : 359.

765 أنظر : ألف سنة من الوفيات : 77 و102 و115. ونيل الابتهاج 344. الدرة : 3 : 17 ط. مصر، الجذوة : 2 : 336 ط. المنصور. جامع القرويين 2 : 491.

766) الجذوة : 2 : 413. الدرة : 3 : 98، ط. القاهرة 1970.

وهذا الشاعر المطبوع نسجل هنا ـ بكل أسف ـ ضياع شعره، بحيث لم تبق منه إلا نتف يسيرة تدل على شاعريته، وذلاقة لسانه، وعلى قدرة تصوير لمهجوره تصويرا يبعث على السخرية والضحك... ومن شعره الخفيف الروح في وصف حالته النفسية وهو يعيش في مراكش الأبيات التالية :

ما كان ظني وحق الله فرقتكم   لو أن مراكشا كانت تواتيني
أظل في نصب مما أكابد من   نفض الغبار وطرد الذبا بين
وطول ليلي في كد وفي تعب   ما بين بق وناموس يناغيني
أبيت أحرس فرشي من عقاربها   والقلب في فكر منها وتخمين
إذا رأيت سوادا مربي وأتى   ظننتها عقربا دبت لتوذيني
لم يبق فيالفم ضرس أستعين به   أفناه مضغ الحصى من ذوى الطواحين
منوا علي باطلاقي بفضلكم   هذا العجاج بها قد كاد يعميني
لم يبق في الكيس فلس أستعين به   أفنيت مالي فيغسل وتصبين(767)

هذه الأبيات تعبر تعبيرا فنيا عن قلق الشاعر، وعن نفسه المضطربة أكثر مما تعبر عن هجو المحيط الذى يكاد يختنق فيه الشاعر اختناقا.

4 ـ الشيخ أبو البقاء عبد الوارث اليلصوتي (ت 971هـ/1563).

767) جذوة الاقتباس، نفس المصدر السابق.

من أكابر شيوخ العلم وشيوخ التربية الصوفية. حظي هذا السيد بكثرة المترجمين له ابتداء من صاحب الدوحة ـ الذى تتلمذ عليه لمدة سبع سنين ودرس عليه فنونا مختلفة ـ إلى عصرنا الحاضر (768).

وأبو البقاء تحدث عنه بالإضافة إلى المترجمين لاعلام الطريقة الشاذلية، تحدث عنه بعض الفقهاء، كأحمد ابن عرضون في كتابه (مقنع المحتاج في أدب الأزواج) (769) حيث يصفه : بالسيد الجليل القدر، وبأنه ممن كان له أثر فعال في ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأتى له ببعض المنظومات في هذا المجال... (770).

5 ـ الفقيه القاضي أبو الحسن علي ابن الفقيه القاضي أبي محمد عبد الواحد بن حسون اليلصوتي ثم الجافني وهذا الشخص تحدث عنه ابن عسكر مرتين : أولا في ترجمة (عبد الله الورياجلي) ومرة ثانية في ترجمة (ابن يجبش التازى) ففي المرة الأولى ذكر ابن عسكر أنه أعطاه تعريفا بالعلامة الورياجلي، وفي الثانية، ذكر ابن عسكر أنه أخذ عن ابن يجبش بواسطة الشيخين : عبد الله الهبطي، والشيخ أبي الحسن على ابن القاضي

768) أنظر الدوحة ص : 5، ط. فاسيّة. والمرآة ص 21، وابتهاج القلوب ـ 26 ك (مخ. خ. ع. ر.) ص 297. الممتع. ص 73 و(قبيلة بني زروال) ص 54.

769) مختصر مقنع المحتاج، (مخ. خ. ع) تطوان رقمه : 593 ص 213.

770) نفس المرجع.

اليلصوتي الجافني، (والجافني) نسبة إلى بني (جافن) بجيم، وألف وفاء، ونون).

وهي إحدى فرق الأخماس السفلى وأصبحت هذه الكلمة في نسخ الدوحة هكذا : (الجانفي) بتقديم النون على الفاء كما في نسخ الدوحة المطبوعة على الحجر بفاس.

أما في الطبعة الأخيرة على الحروف فأصبحت (الحانفي) بالحاء المهملة) مع تقديم النون على الفاء كذلك، وأصبح هذا الشخص في هذه الطبعة شخصين، وكتب مرة : (اليلصوتي)، ومرة أخرى (اليصلوتي)، ومرة ابن محمد ومرة أخرى ابن عبد الواحد (771).

وأبو الحسن اليلصوتي هذا كان يشغل منصب القضاء في النصف الأول من القرن العاشر الهجرى ،كان أبوه قاضيا كذلك، وهو أحد شيوخ ابن عسكر صاحب الدوحة الذى يتصل بواسطته إلى الشيخ ابن يجبش التازى أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم (ت 920هـ).

6 ـ الشيخ محمد بن حماد اليلصوتي (من علماء أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر) نقل بعض فتاويه أبو الحسن علي العلمي في نوازله ،المعروفة (بنوازل العلمي) وهذه الفتاوى نقلها «العلمي»

771) أنظر الفهرس العام حرف الياء من طبعة الرباط للدوحة : 1976 ص 177.

عن نوازل الحسن ابن عرضون الزجلي والد محمد وأحمد ابني عرضون السالفي الذكر.

ومن فتاويه ما جاء مثلا في (باب مسائل الوصايا والأوصياء) حيث أفتى بأن المالك إذا لم يكن له وارث أو ورثة محققون، فماله لبيت مال المسلمين، وللقراء، والمساجد ولسد الثغور (772).

7 ـ أبو علي الحسين الزرويلي (ت 1031هـ) يقول عنه الشيخ أحمد المقرى في كتابه أزهار الرياض ما يلي : وأفادني الشيخ العارف المتبتل الرباني البركة سيدى حسين الزرويلي أبقى الله بركته وأدام النفع به، أن القاضي عياض لما دخل الحضرة الفاسية ـ حاطها الله ـ نزل بدار ابن الغرديس التغليبي بزنقة حجامة حسبما أشار إليه ابن الأحمر، ولم تزل هذه الدار الى الآن بيد أولاد ابن الغرديس...» (773).

وبهذا العرض عن الأسرة اليلصوتية يتجلى أن هذه الأسرة كانت من الأسر التي نبغ منها عدد من العلماء والأدباء، هذا مع العلم أن عدم التدوين وضياع جل ما دون، جعلنا نجهل الكثير من أفرادها، ونجهل عملهم في الميدان الفكرى.

---

772) نوازل العلمي ج 2 : 460.

773) أزهار الرياض : ج 1 ص 24، ط مصر، ونشر المثاني : 248 ط : الرباط : 1978.

الخاتمة

كان من نتائج هذه الدراسة الوصول إلى الحقائق التالية :

1) الكشف عن مظاهر ثقافية في منطقة مجهولة لم يكتب عنها أحد لحد الآن.

2) التعرف على أسرة بني راشد أمراء شفشاون تلك الأسرة التي حكمت المنطقة ما يقرب من قرن من الزمن والتي ظلت في منطقة الظل إلى ما قبل صدور هذا البحث.

3) التعرف على مدينة شفشاون وعلى الدور الثقافي الذى قامت به في وقت مبكر من حياتها بالرغم من كونها أسست من أجل الجهاد وتنظيم عملياته.

4) الكشف عن الدور الثقافي للمعاهد الثقافية المحيطة بشفشاون وعن مدى الإشعاع الثقافي لها.

5) التعرف على شخصيات عديدة كنا نجهل مقدار ما ساهمت به في الميدان الفكرى وما بذلته من جهد في حمل مشعل الثقافة والعرفان.

6) التعرف على مجتمع هذه المنطقة في ذلك العصر وعلى بعض عوائده والتعرف بصفة خاصة على المرأة الجبلية وعلى أنماط سلوكها وحياتها في القرن العاشر الهجرى.

7) مما حققه هذا البحث وضع لبنة الأساس لمن يريد البحث عن الفترات التالية في هذه المنطقة.

وإذا كان البحث في هذا الموضوع جعلنا نتوصل إلى الحقائق السالفة وغيرهما فإنني توصلت كذلك بسبب هذه الدراسة إلى النتائج الآتية :

1) مجتمع هذا العصر وفي هذه المنطقة بالذات كانت تتجاذ به نزعتان قويتان جدا.

أ ـ نزعة التشبث بالعوائد القديمة المتوارثة عن الآباء والأجداد والتي تعود بعض مظاهرها إلى ما قبل دخول الإسلام بقرون.

ب ـ نزعة التدين ومحاولة السير حسبما تقتضيه المبادىء الإسلامية،وأصحاب هذه النزعة يميلون إلى حب المعرفة والتطلع إلى حياة أفضل.

وكان من نتائج الصراع بين النزعتين الدعوة إلى التعليم وإلى إشاعة المعرفة الدينية بين الناس نساء ورجالا.

ج ـ جند مجموعة من الفقهاء أنفسهم للقيام بهذه الدعوة وجعلوا من المساجد أماكن لإشاعتها. والتبشير بها. كما عملوا على إقامة المعاهد لتعليم العلم وإنارة العقول.

وتعزز هذا الجانب بالحركة الصوفية التي سادت في هذا العصر وبسبب ذلك رأينا كثيرا من الفقهاء يتقمصون التصوف وينتحلونه. لا حظنا ذلك أثناء حديثنا عن الشيخ عبد الله الهبطي وعن الشيخ أبي القاسم بن خجو وغيرهما.

2) كان من شأن الاحتلال الذي قام به الصليبيون لكثير من ثغور البلاد وموانئها أن أذكى روحا جهادية بين مختلف الفئات الشعبية. وعمل الجميع على تحرير البلاد وتخليصها من الاحتلال الأجنبي، وبذلك كانت الرغبة في تحرير البلاد رغبة جماعية وكان من نتائج ذلك محاصرة البرتغاليين في مراكز احتلالهم وذلك مما حطم طموحهم في التوسع والاستيلاء على معظم البلاد، إلى أن كانت معركة وادى المخازن التي قضت على طموحهم بصفة نهائية.

3) خلف تدفق أفواج المهاجرين الأندلسيين على البلاد حسرة وألما في نفوس إخوانهم بالعدوة المغربية، وتركت هذه الهجرة الأندلسية بصمات واضحة في المجتمع المغربي كما لا حظنا ذلك مثلا عند حديثنا عن مدينة شفشاون، وكما لاحظنا ذلك أيضا عند حديثنا عن العنصر اليهودى بالمنطقة.

4) كان لدور المسجد أثره الفعال في مجتمع ذلك العصر وذلك بفضل القائمين عليه، من فقهاء، وقضاة، وغيرهم، وبفضل مساهمة الطبقات الشعبية في التموين والإنفاق، ورصد الأوقاف لوظائفه. كل ذلك حفاظا على رسالة المسجد الدينية والاجتماعية والتثقيفية...

5) كان للدور الذى قام به دعاة الإصلاح من الفقهاء في هذه المنطقة أثره الواضح في تقليص كثير من العوائد السيئة أو القضاء عليها كعادة الوشم، وشرب الخمر، والاختلاط المشين، ومظاهر المجون والاستهتار، وما إلى ذلك...

6) ساهمت بعض الأسر بسبب تعليم أبنائها وتوعيتهم وتربيتهم تربية قويمة ساهمت بذلك في رفع مستوى التفكير وفي الحفاظ على مبادىء معينة كان في طليعتها حب التعلم والتزام السلوك القويم.

7) وجدت التعاليم الصوفية التي دعا إليها شيوخ التصوف في هذا العصر ميادين خصبة للانتشار ورأى فيها كثير من الناس علاجا للأمراض الاجتماعية المتفشية والتي تحدثنا عن بعض مظاهرها في المبحث الخاص بالأوضاع الإجتماعية.

8) كان للدور الذى قامت به المراكز الثقافية بهذه المنطقة أثره المحمود في نشر تعاليم الإسلام، وفي نشر اللغة العربية، وفي تركيز حب المعرفة والتعلم.

9) عملت المراكز الثقافية بهذه المنطقة على ربط صلات وثيقة ومتينة مع المراكز الثقافية بمختلف أنحاء المغرب وفي طليعتها معهد القرويين بفاس، ومعاهد جبال الأطلس.

10) تعبر المراسلات العلمية والثقافية بين المثقفين في هذه المنطقة،وبين إخوانهم في جهات أخرى ولا سيما بجامع القرويين عن مدى تغلغل حب المعرفة في النفوس،وعن مدى الروابط المتينة التي كانت تربط بين المثقفين، كما تعبر عن التفاني في خدمة المعرفة من أجل المعرفة.

ويمكن لقارىء هذا البحث أن يستنتج نتائج أخرى من خلال موضوعاته ومباحثه.

وأتمنى أن أكون بهذا الجهد المتواضع قد وفقت للكشف عن أوضاع سياسية، واجتماعية، وثقافية، كانت في طي النسيان، ومحاطة بالغموض والاهمال.

فإن وفقت في ذلك فبفضل من الله وتوفيق منه سبحانه وتعالى، وإن لم أوفق فلقصوري وجهلي، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

المراجع

ابن ابراهيم : عباس التعارجي السملالي المراكشي (تـ : 1378 ـ 1959).

1 ـ الاعلام بمن حل مراكش من الاعلام.

ظهرت منه عن المطبعة الملكية ثمانية أجزاء آخرها بتاريخ 1977.

ـ **ابن تاويت** : (محمد،ومحمد الصادق عفيفي المصري).

ـ الأدب المغربي ـ مطبعة دار الكتاب اللبناني بيروت 1960.

2 ـ **ابن حزم** : (علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (تـ 456 ـ 1064).

ـ جمهرة أنساب العرب ط : دار المعارف بمصر سنة 1962.

بتحقيق وتعليق محمد عبد السلام هارون.

3 ـ **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (تـ : 808 ـ 1406).

ـ **المقدمة** :

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

مطبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956 ـ 1961 في 7 أجزاء.

4 ـ **ابن الخطيب** : لسان الدين بن محمد بن عبد الله السلماني (تـ : 776 ـ 1374).

ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة (بدون تاريخ) بتحقيق الدكتور أحمد مختار عبادي.

5 ـ **ابن رحمون** :

التهامي بن رحمون العلمي كان حيا سنة 1143.

شذور الذهب في خير نسب.

ـ الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة.

مخطوطان خاصان في مجلد واحد بتطوان.

ابن ريسون : الحسن بن محمد بن علي (980 ـ 1055).

ـ مناقب الأخوين مخطوط خ. ع. ر : 2286 ك.

6 ـ **فتح التأييد في مناقب سيدنا الجد وأخيه الوالد.**

مخطوط خاص بتطوان وهو يتضمن ما في الكتاب السالف مع بعض الزيادات.

7 ـ **ابن ريسون** :

محمد الصادق (تـ : 234 ـ 1818).

ـ فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير.

مخطوط م. ع. بتطوان رقم : 856.

8 ـ ابن ريسون :

الصادق الريسوني (تـ : 1365 ـ 1967)

تقييد عن تاريخ شفشاون مخطوط خاص بتطوان.

9 ـ ابن عبد الله عبد العزيز :

ـ مظاهر الحضارة المغربية.

مطبعة دار السلمي بالدار البيضاء 1958 في جزئين.

ـ المعجم التاريخي.

مطبعة الجامعة الدار البيضاء (دون تاريخ).

ـ معطيات الحضارة المغربية ـ في جزئين.

مطبعة دار الكتاب العربية الرباط 1963.

ـ معلمة المدن والقبائل.

مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1397 ـ 1977.

ـ الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية 3 ـ أجزاء.

مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1395 ـ 1975 ـ 1976.

10 ـ ابن عجيبة : أحمد محمد الحسني (تـ : 224 / 9 ـ 1810).

ـ أزهار البستان مخطوط م. م. الرباط رقم : 417.

11 ـ ابن عرضون : أحمد بن الحسن (تـ : 992).

ـ مقنع المحتاج في آداب الأزواج ـ مخطوط خ. ع. الرباط رقم : 1026 ك.

ـ مختصره : مخطوط م. ع. بتطوان رقم 593.

ـ حدائق الأنوار في الصلاة على النبي المختار مخطوط م.ع. تطوان 875.

ـ رسالة التوادد والتحابب مخطوط م. ع. تطوان رقم 826 ضمن مجموع ابتداء من ص 172 ـ 209.

ـ (الوثيقة العرضونية) سميتها بذلك : لأن ناقلها يزعم أنها منقولة عن كتاب أحمد ابن عرضون، الذي يسميه : (مناقب موسى بن نصير وسكنى الشاون) ومهما يكن من أمر هذه الوثيقة، ومن صحة معلوماتها، فهي تتضمن معلومات لا توجد في غيرها، وهي صعبة القراءة، لرداءة خطها، ولضياع بعض الأسطر منها بسبب التمزيق الواقع في أماكن الطي. وعندى صورة منها.

12 ـ ابن منصور : عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية.

ـ قبائل المغرب المطبعة الملكية بالرباط 1388 ـ 1968.

13 ـ ابن ميمون :

أبو الحسن علي بن ميمون الإدريسي الحسني (917/1511)

رسالة الاخوان من أهل الفقه وحملة القرآن.

مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1780 د.

14 ـ ابن عسكر :

محمد بن علي مصباح (تـ : 986 / 1578).

ـ دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر.

المطبعة الحجرية بفاس (دون تاريخ).

15 ـ ابن غازي :

محمد بن أحمد بن محمد ابن غازي العثماني المكناسي (تـ : 919 ـ 1513).

ـ فهرس التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد مطبعة الدار البيضاء 1399 ـ 1979 بتحقيق محمد الزاهي التونسي.

16 ـ ابن القاضي :

أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (تـ : 1025 ـ 1616).

ـ جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس ط : دار المنصور الرباط : 1973 في جزئين.

ـ درة الحجال في أسماء الرجال.

مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة 1970 ـ 1974. 3 أجزاء.

ـ لقط الفرائد مخطوط خ. ع. 270 ك ضمن مجموع.

17 ـ ابن قتيبة : الديناوري (تـ : 276 ـ 889).

المعارف ط. الثانية دار احياء التراث العربي بيروت 1970/1390.

18 ـ ابن شقرون :

محمد بن أحمد .

مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر.

مطبعة الرسالة الرباط 1965.

19 ـ ابن سودة :

عبد السلام بن عبد القادر.

ـ دليل مؤرخ المغرب الأقصى.

مطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء 1960 ـ 1965 في جزئين.

20 ـ أبو بكر البوخصيبي :

ـ أضواء علي ا بن يجبش التازي.

الطبعة الأولى 1396 ـ 1976 مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء.

21 ـ أعـــــــــراب :

سعيد بن أحمد.

دعوة الحق العدد الأول ، السنة السادسة :

المسجد الأعظم بشفشاون: ص : 28.

والعدد السابع،السنة الثامنة.

مسجد موسى بن نصير، ص : 90.

22 ـ الافراني :

محمد الصغير بن محمد السوسي المراكشي (1728/1140).

ـ نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي.

الطبعة الثانية عن مكتبة الطالب بالرباط 1974.

ـ صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر.

المطبعة الحجرية بفاس (دون تاريخ).

23 ـ **التادلي :**

يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي (ابن الزيات) (تـ : 627/29 ـ 1230).

ـ التشوف إلى رجال التصوف.

مطبوعات افريقيا الشمالية الفنية بالرباط : 1958.

24 ـ **التـــــازي** :د: عبد الهادي.

ـ جامع القرويين .

مطبعة دار الكتاب اللبناني بيروت : 1972 ـ 3 أجزاء.

ـ التاريخ الديبلوماسي 10 أجزاء الجزء : 9 (مخطوط).

25 ـ **التمبكتي :**

أحمد بابا السوداني أقيت (تـ 1036 ـ 1627).

ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج.

مطبعة القاهرة : (1351 ـ 1932).

26 ـ **جبـــــــور :**

عبد الرحيم جبور.

ـ أسرة بني راشد الشفشاونية ومدلولها في تاريخ شمال المغرب.

باللغة الاسبانية طبع بتطوان سنة : 1953.

عنوان الكتاب بالاسبانية هو :

Los BeR-Rached de Chefchaouen y su significación en la historia de Marruecos septentrional. Por D. Abderrahim Yebbur Tetouan imprenta a Gremades.

27 ـ **الجزنائي :** علي الجزنائي المتوفي بعد سنة 766 ـ 1364).

- جني زهر الآس في بناء مدينة فاس.
المطبعة الملكية بالرباط ، 1387 - 1967.
28 - گنون عبد الله :
- النبوغ المغربي في الأدب العربي.
مطبعة دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الثانية في: 3 أجزاء 1961.
29 - الكلالــــي : إبراهيم الكلالي بن عبد الرحمن (تـ : 1047 - 1637).
- تنبيه الصغير من الولدان على ما وقع في مسألة الهارب والهاربة من الهذيان لمدعي استحاق الفتوى آجليان - مخطوط:خ. ع. بالرباط رقم:571 ك.
30 - الجيلالــــي : عبد الرحمن بن محمد.
- تاريخ الجزائر العام في جزئين.
مكتبة الشركة الجزائرية سنة ، 1965. الطبعة الثانية.
31 - حاجي خليفة :
خليفة مصطفى بن عبد الله التركي (تـ : 1067 - 1657).
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.
طبعة بالأفست عن دار المثنى ببغداد (دون تاريخ).
32 - حجــــي :
د. محمد حجـــي.
- المراكز الثقافية بالمغرب أيام السعديين مجلة البحث العلمي العدد السادس،س : 2 ص : 35.

-الزاوية الدلائية ودورها العلمي والسياسي.
المطبعة الوطنية بالرباط : 1384 ـ 1964.
ـ الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين،في جزءين مطبعة فضالة 1977 ـ 1978.

33 ـ **الحجـــــوي** : محمد بن الحسن الثعالبي (تـ : 1376 ـ 1956) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ط : إدارة المعارف الرباط 1345 ـ 1926.

34 ـ **حركـــــات :**
ابراهيم حركات.
ـ المغرب عبر التاريخ.
ـ القسم الثاني.
ط : الأولى. دار الرشاد الحديثة بالدار البيضاء سنة:1978.

35 **الحـــــوات :**
سليمان بن محمد الحوات العلمي (تـ : يوم الأربعاء فاتح ربيع الأول سنة (1231 ـ 1815).

ـ ثمرة انسي في التعريف بنفسي.
مخطوط خ. ع. الرباط رقم : 1264 ك. ضمن مجموع.
ـ الروضة المقصود في مآثر بني سودة.
مخطوط خ. ع. الرباط رقم : 2351 ك. والمكتبة الملكية رقم : 10923.

36 ـ **الحضيكـــــــي :**

محمد بن أحمد السوسي (تـ : 1169 ـ 1775).

ـ طبقات الحضيكي.

مخطوط : خ. ع. بالرباط رقم : 2328 ك.

37 ـ **داود :** محمد داود التطواني.

ـ تاريخ تطوان صدر منه 8 مجلدات.

المجلد الأول 1379 ـ 1959 الطبعة الثانية بتطوان.

38 ـ **الرهوني :** أحمد الرهوني (تـ : 1373 ـ 1953).

ـ عمدة الراوين في أخبار تطاوين.

مخطوط المكتبة العامة بتطوان. رقم : 318 في 10 أجزاء.

39 ـ **الزركلي :** خير الدين.

ـ أعلام ـ معجم تراجم في عشرة أجزاء (دون تاريخ الطبع ولا مكانه).

40 ـ **الزياتي :** عبد العزيز بن الحسن الزياتي : (تـ : 1055 ـ 1645).

ـ الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة مخطوط : ع. بتطوان رقم : 178.

41 ـ **الزيانـــــي :**

أبو القاسم بن أحمد الزياني (تـ : 1249 ـ 1833).

ـ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا.

مطبعة فضالة : 1961.

42 ـ الكتانـــــي :

محمد بن جعفر الكتاني الحسني (تـ : 1355 ـ 1926).

ـ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس:المطبعة الحجرية بفاس سنة 1318 ـ 1900 في ثلاثة أجزاء.

43 ـ الكتاني :

عبد الحي بن محمد الكتاني الحسني (تـ : 1382 ـ 1962).

فهرس الفهارس والاثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.

المطبعة الجديدة بفاس 1346 ـ 1927 في جزء ين.

44 ـ الكراســـــي :

محمد بن عبد الرحمن الكراسي (تـ : 964 ـ 1556).

ـ عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل.

المطبعة الملكية بالرباط سنة 1383 ـ 1963.

45 ـ مؤنـــــــس :

د. حسين مؤنس.

ـ فتح العرب للمغرب.

مطبعة مصر : 1948.

46 ـ مؤلفـــــون :

ـ فهرس المخطوطات العربية بالرباط.

القسم الثالث (1954 ـ 1957) مطبعة التومي الرباط.

ـ دائرة المعارف الإسلامية الترجمة الغربية.

47 ـ مجهـــــول :

تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية .

نشر جورج كولان ضمن منشورات معهد الدروس العليا بالرباط.

48 ـ مجهـــــول :

ـ الحلل الموشية لمؤلف مجهول (774).

طبع الكتاب على الحروف مرارا آخرها سنة : 1979.

مجهول :

---

774) (الحلل الموشية) المشهور في أمر (كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية) أنه لمؤلف أندلسي مجهول من القرن الثامن الهجرى، وجاء التصريح في بعض نسخه أنه وقع الفراغ منه سنة 783 هـ.

وكتاب الحلل طبع على الحروف أولا بتونس سنة 1910 ثم طبع كذلك باعتناء ش. علوش بالرباط 1936.

وصدر أخيرا عن دار الرشاد بالدار البيضاء بتحقيق الدكتور سهيل زكار، والأستاذ عبد القادر زمامة. 1979 إلا أنه في السنوات الأخيرة عثر الأستاذ البحاثة الدكتـــور عبـــد الهادى التازى على وثيقة في مكتبة فيينا عاصمة النمسا تذكر ان كتاب الحلل الموشية يتضمن الخبر «عن الدول من يوسف بن تاشفين الذى اختط مراكش إلى مولانا الرشيد أخي مولانا اسماعيل» وتقول الوثيقة : إن كتاب الحلل الموشية (يتحدث عن اللمتونيين والموحدين وبني مرين وبني وطاس وبني راشد الذين اختطوا مدينة تطوان، ومدينة الشاون، والسعديين، وملوك الدلائيين وأول ملوك بني علي أطال الله أيامهم، وهو ملانا الرشيد ـ كذا ـ «تقول الوثيقة وقد زاد هذا الكتاب عن غيره بفوائد مثل أخذ النصارى الجزيرة مدينة بعد مدينة وأخذ سبتة وطنجة... ويتحدث عن وقعة وادى المخازن بين البرطقيز والسعديين...» الخ.

فهل نحن يا ترى أمام حلل موشية أخرى ؟ أم هي الحلل التي تنسب للمؤلف الأندلسي المجهول ؟

ومهما يكن من أمر فإنه كان بودى العثور على هذه (الحلل) وذلك لما يحتوى عليه من أخبار عن بني راشد مؤسسي تطوان والشاون ـ حسب الوثيقة ـ ونتمنى أن يكون ذلك قريبا بحول الله. يوجد النص الكامل للوثيقة المشار إليها. بكتاب (التاريخ الديبلوماسي للمغرب (للدكتور عبد الهادى التازي ج : 9 مخطوط خاص.

ـ الاستبصار في عجائب الأمصار.

نشر سعد زغلول عبد الحميد : مصر : 1958.

49 ـ مخلــــــــوف :

(محمد بن محمد مخلوف التونسي (تـ : 1355 ـ 1936).

ـ شجرة النور الزكية وطبقات المالكية.

طبعة دار الكتاب العربي بيروت بالأوفست عن الطبعة الأولى (1349 ـ 1930).

بالمطبعة السلفية بالقاهرة.

50 ـ المنجــــــــور :

أحمد بن علي المنجور المكناسي (تـ : 995 ـ 1587).

ـ فهرس أحمد المنجور.

مطبعة دار المغرب بالرباط 1396 ـ 1976.

51 ـ المنونــــــــي :

محمد بن عبد الهادي.

ـ مجلة البحث العلمي العدد السابع السنة الثالثة.

فصلة تصف الدراسة بالقرويين أيام المنصور السعدي: ص: 241 ـ 266.

52 ـ مصبـــــــاح :

أبو الحسن علي مصباح الزرويلي اليلصوتي (تـ : 1150 ـ 1737).

ـ سني المهتدي في مفاخر الوزير اليحمدي.

مخطوط م. م: الرباط رقم: 596.

53 ـ المعبــــــرى :

زين الدين بن عبد العزيز (تـ : 994 ـ 1585).

تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين طبع باعتناء الحكيم شمس الله القادري بحدير آباد دكن سنة: 1931.

54 ـ المغيلي :

محمد بن عبد الكريم 909 ـ 1503.

ـ أسئلة الاسكيا وجواب محمد المغيلي.

بتحقيق الأستاذ عبد القادر زبادية (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1974) الجزائر.

55 ـ المدنــــــــي :

أحمد توفيق المدني الجزائري .

ـ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا.

مطبعة الجزائر (دون تاريخ).

56 ـ المكناســــــي :

أحمد بن محمد المكناسي التطواني (تـ : 1385 ـ 1965).

ـ أهم مصادر التاريخ والترجمة في المغرب.

المطبعة المهدية بتطوان 1963.

57 ـ المقــــــري :

أحمد بن محمد التلمساني : (986 ـ 1041).

ـ أزهار الرياض في أخبار عياض.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1358 ـ 1361 ـ 1361 ـ 1939 ـ 1942 في 3 أجزاء ـ والجزء 4 بتحقيق

الأستاذ سعيد أعراب، ومحمد بن تاويت، مطبعة فضالة : 1978.

- روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس.

المطبعة الملكية الرباط 1383 - 1964.

58 - الناصـــــري :

أحمد بن خالد الناصري (تـ : 1315 - 1897).

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء.

1954 - 1956 في 9 أجزاء.

59 - الفاســـــي :

محمد البشير بن عبد الله (تـ : 1382 - 1963).

- قبيلة بني زروال.

مطبوعات إفريقيا الشمالية الفنية 1962.

60 - الفاســـــي :

محمد بن عبد الواحد.

- مجلة البحث العلمي العدد التاسع: س : 3، موقعة وادي المخازن الحاسمة ص: 217.

61 - الفاســـــي :

محمد المهدي بن أحمد (تـ : 1109 - 1698).

- الالماع ببعض من لم يذكر في ممتع الاسماع.

المطبعة الحجرية بفاس.

ـ ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع ـ وما لهما من الاتباع.

المطبعة الحجرية بفاس سنة 1313 ـ 1896.

62 ـ الفاســــــــــي :

محمد العابد بن عبد الله (تـ : 1396 ـ 1976).

ـ الخزانة العلمية بالمغرب.

مطبعة الرسالة بالرباط 1380 ـ 1960.

63 ـ الفاســــــي :

محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي (تـ : 1052 ـ 1642).

ـ مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن.

المطبعة الحجرية بفاس 1324 ـ 1906.

64 ـ الفشتالــــــي :

عبد العزيز بن محمد (تـ : 11031 ـ 1622).

ـ مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا.

مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتحقيق د. ع. الكريم كريم.

65 ـ القـــــــادري :

محمد بن الطيب (تـ : 1187 ـ 1773).

ـ الاكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج. مخطوط: م.م. الرباط رقم : 1897.

ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.
المطبعة الحجرية بفاس 1310 ـ 1892 في جزء ين.
ـ والجزء الأول من نشر المثاني ط : دار المغرب بالرباط
بتحقيق : د. محمد حجي، وأحمد توفيق. 1397 ـ 1977.

66 ـ عنـــــــــان :

عبد الله عنان المصري.
ـ نهاية الأندلس.
الطبعة الثانية (بمصر) سنة 1958.

67 ـ العلمـــــــــي :

علي بن عيسى العلمي الشفشاوني، (تـ : 1126 هـ).
ـ نوازل العلمي.
المطبعة الحجرية بفاس سنة : 1332 ـ 1913 في جزء ين.

68 ـ العلمـــــــــي :

محمد بن علي بن عيسى العلمي الشفشاوني.
ـ كناشـــــــــة.
مخطوط بالمكتبة العامة بتطوان تحت رقم : 656.
ـ كناشة أخرى لأحد العلميين بشفشاون.
المكتبة العامة بتطوان تحت رقم : 969.

69 الهبطـــــــــي :

محمد بن عبد الله (تـ : 1001 ـ 92 ـ 1593).
ـ المعرب الفصيح عن سيرة الشيخ الرضي النصيح.

منظومة في : 1373 بيت.

مخطوطة خاصة بالرباط.

70 الهبطـــــــــي :

عبد الله بن محمد الطنجي (تـ : 963 ـ 1556).

ـ الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوه من التغيير في الملة الإسلامية.

مخطوط خاص بتطوان ـ أتوفر على صورة منها ـ

ـ مجموعة منظومات له، 36 منظومة.

مخطوطة ـ عندي صورة منها ـ

71 ـ اليوســـــــي :

الحسن بن مسعود (تـ 1102 ـ 1962).

ـ المحاضـــرات : ط : الرباط.

ـ مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص.

المطبعة الحجرية بفاس سنة : 1327 هـ.

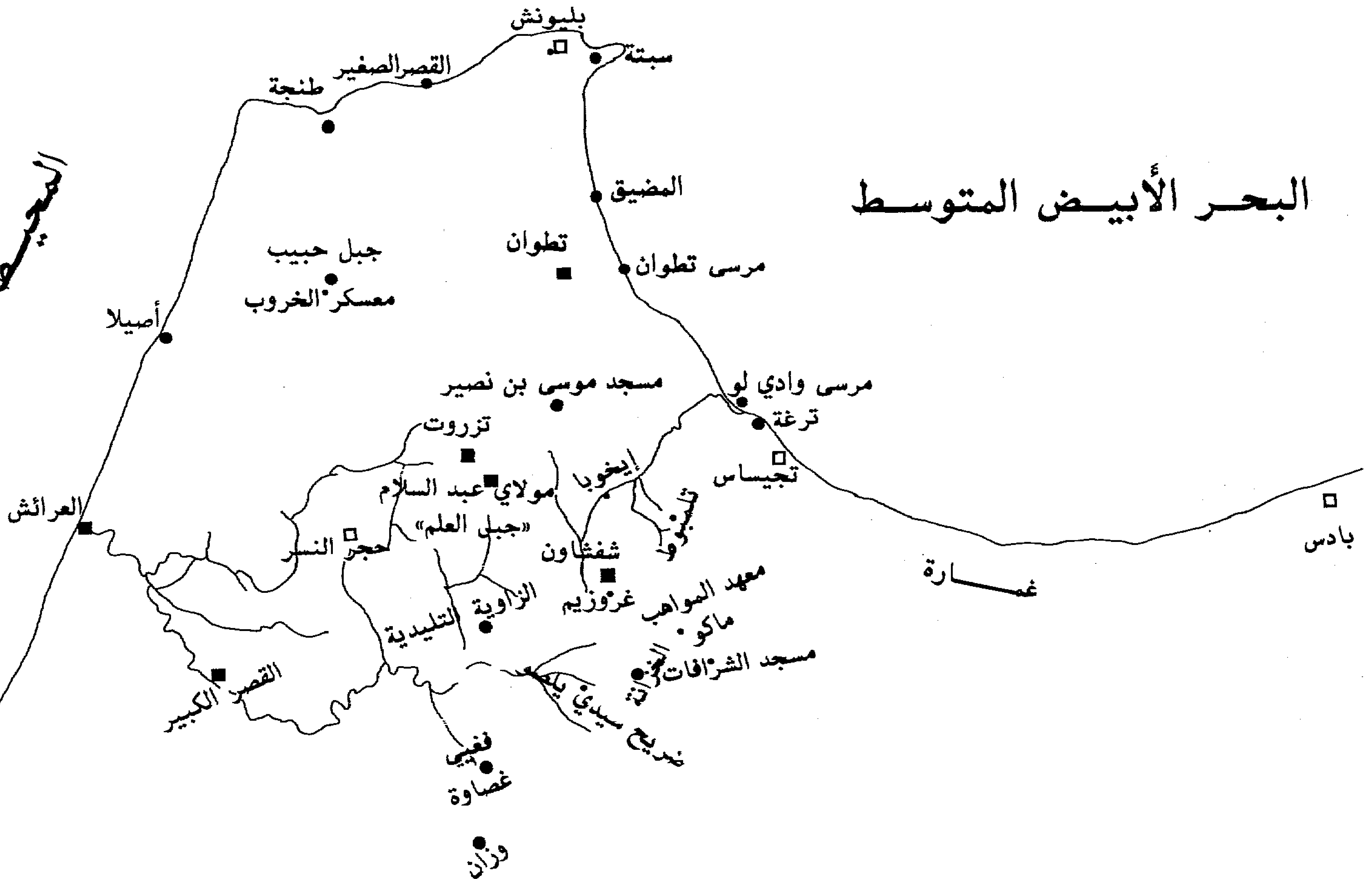
فهرس الموضوعات



منظر (باب العين) أحد أبواب مدينة شفشاون، وتبدو صومعة جامع (سيدي أبي خنشة)، بحي الخرازين. ويظهر في آخر الصورة جبل تسملال المطل على المدينة من الناحية الشرقية



مدخـــل ضريـــح
الأمير علي ابن راشد بمدينة شفشاون


البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
بليونش
سبتة
القصرالصغير
طنجة
المضيق
تطوان
مرسى تطوان
جبل حبيب
معسكر الخروب
أصيلا
مسجد موسى بن نصير
مرسى وادي لو
ترغة
تجيساس
تزروت
مولاي عبد السلام
«جبل العلم»
إيغوبا
العرائش
حجر النسر
شفشاون
غروزيم
معهد المواهب
ماكو
مسجد الشرافات
الزاوية التليدية
القصر الكبير
غصاوة
وزان
غمارة
بادس

رقم الإيداع القانوني 526 ـ 1982

مطبعة فضالة ـ المحمدية ـ (المغرب)

1982

هذا الكتاب

- قدمه مؤلفه لنيل الدبلوم في الدراسات العليا من دار الحديث الحسنية بالرباط.
  ونال بعد مناقشة علمية من طرف أساتذة مختصين درجة (حسن جدا).
- الكتاب غني بالمعلومات عن فترة القرن العاشر الهجري بشفشاون، وأحوازها.
- تقرأ فيه لأول مرة عن إمارة بني راشد بشمال المملكة المغربية، وعن تأسيسهم لمدينة شفشاون.
- تتعرف على عوائد مجتمع جبال غمارة في القرن العاشر الهجري.
- تتعرف على الحياة الثقافية والفكرية في هذه الفترة.
- كما تتعرف على شخصيات بارزة في ميدان القـ والفكر، والدعوة الإصلاحية.
- تتعرف على المرأة الجبلية وعلى ظروف حياتها، ودو في مجتمع ذلك العصر.
- تتعرف على البصمات والتأثيرات الأندلسية على مد شفشاون، كما تتعرف على مدى تمركز الثقافة العر الإسلامية بهذا الإقليم.

